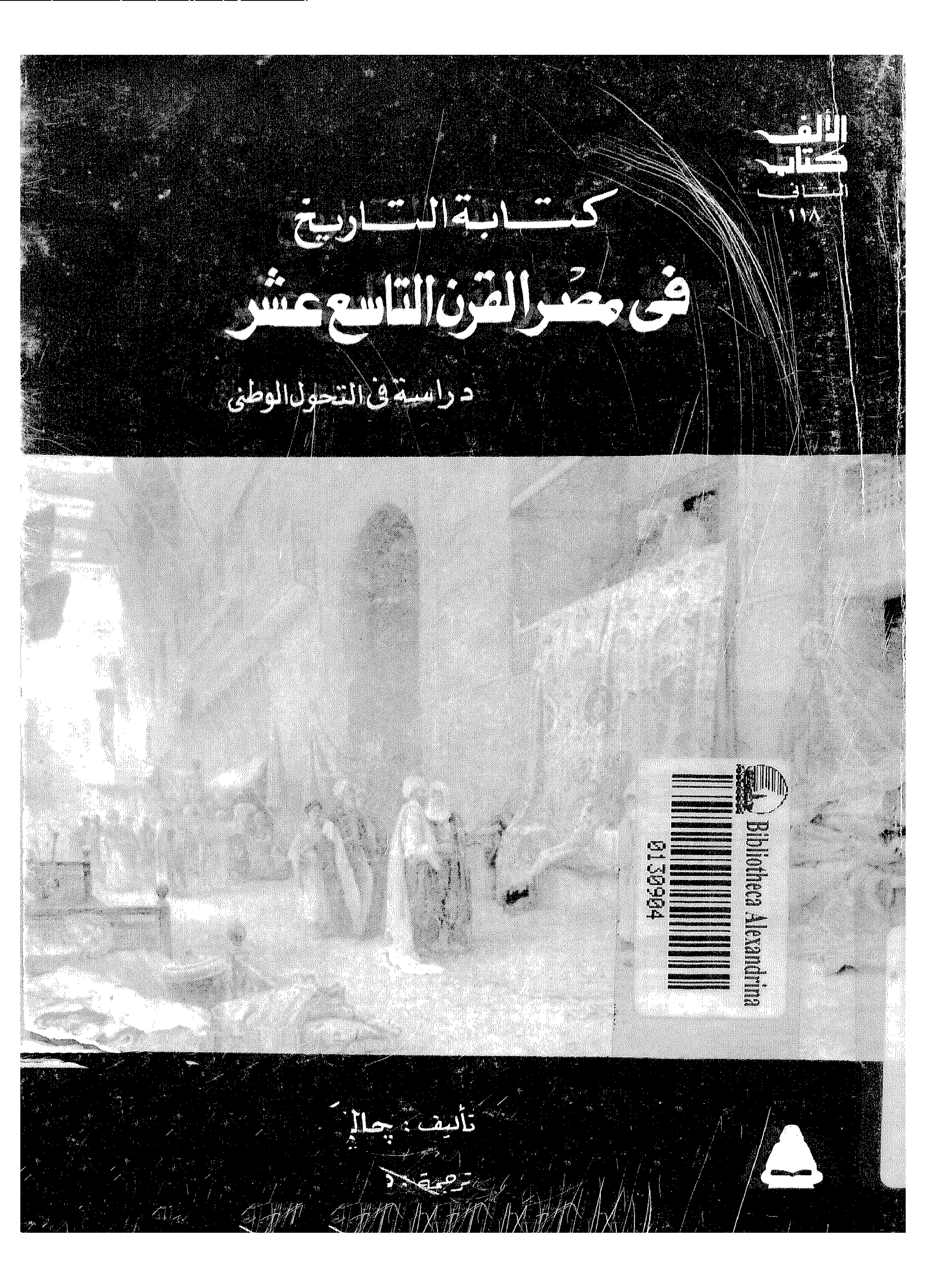

الألف كتاب
الثانى
١١٨
كتابة التاريخ
فى مصر القرن التاسع عشر
دراسة فى التحول الوطنى
Bibliotheca Alexandrina
0130904

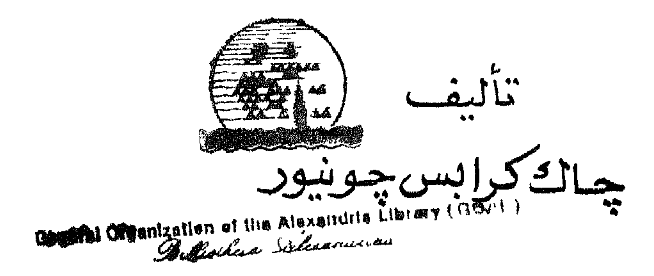
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

دراسة في التحول الوطني

الألف كتاب الثاني

كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

دراسة في التحول الوطني



تأليف

جاك كرابس جونيور

ترجمة وتعليق

د. عبد الوهاب بكر



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

هذه هى الترجمة الكاملة لكتاب

The Writing of History in Nineteenth Century Egypt.
A Study in National Transformation

By

JACK A. CRABBS, Jr.

تصدير

يسعدنى أن أقدم لقراء العربية هذه الترجمة لكتاب الدكتور جاك كرابس جونيور Jack Crabbs, Jr. « كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر ، دراسة فى التحول الوطنى »

Writing of History in Nineteenth Century Egyt, A Study in National Transformation.

المنشــــور فى الولايات المتحـــــدة وكنـــدا بمعــــرفة جامعـــة وين Wayne University Press فى ديترويت Detroit وفى الشرق الأوسط بمعرفة الجامعة الأمريكية بالقاهرة American University in Cairo Press فى عام ١٩٨٤ ٠

والمـؤلف أســتاذ للتـــــاريخ بجامعـــــة كاليفورنيـــا بفـــولرتون California State University, Fullerton وحصل على درجته للدكتوراه من جامعة شيكاغو ، وعمل مديرا للمركز الأمريكى للبحوث بمصر ، كما أنه زميل بالمركز الأمريكى للبحوث ARC . ٠

تعود أهميـــة الكتــاب الى أنه يعـــالج موضوعا منهجيا فى الكتابة التاريخية من زوايا جديدة تمثل رؤية غربية لأساليب واتجاهات الكتابة التاريخية فى مصر فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، فهو دراسة مفصلة وجيدة التوثيق لقضية التغريب Westernization فى مصر (١٧٩٨ ـ ١٩٢٢) والتى بدأت بالحملة الفرنسية وحتى فبراير ١٩٢٢ ٠ يبدأ المؤلف بمناقشة طبيعة التاريخ نفسه ، وكيف اختلفت أشكال الكتابة التاريخية فى الشرق الأوسط وفى الغرب على مر القرون٠ وفى هذه الدراسة الاستهلالية يتناول المؤلف بالدراسة قضــــايا التأريخ التقليدى Traditional Historiography فى مواجهة التأريخ الحديث ، الكتابة الغربية فى مواجهـــة الكتابة الاســـلامية ، الانحياز فى مواجهـــة التفسير ، والحماسة الوطنية فى مواجهة الموضوعية فى التأريخ ٠

بعد اعداد المؤلف لمسرح الدراسة بهذه المقدمة المنهجية ، ينتقل الى القرن التاسع عشر وكتابه من المؤرخين المصريين والسوريين المصريين ، فيناقش أعمال وأساليب واتجاهات الجبرتى ، رفاعة الطهطاوى ، على مبارك ، أمين سامى ، ميخائيل شاروبيم ، اسماعيل سرهنك ، مصطفى كامل ، محمد فريد ، يعقوب أرتين ، جرجس حنين ، فيليب جلاد ، سليم خليل النقاش ، جورجى زيدان ، مصنفا اياهم ما بين كلاسيكيين تقليديين ، ومتأثرين بالفكر الغربى ، وموسوعيين ، واخباريون محدثون، ومؤرخون قوميون ، وسوريون مصريون • ولم يترك المؤلف خلال دراسته لأعمال هؤلاء البارزين أعمال مؤرخين أقل شهرة أمثال محمود الفلكى ، أحمد كمال ، عبد الله الشرقاوى ، محمد بن عمر التونسى ، نقولا الترك ، عبد الله النديم ، نعوم شقير وغيرهم ، فدرسها وقدم آراءه حولها • وفى كل ذلك كان المؤلف يغوص بعمق فى المادة المصدرية المصرية البحتة غامرا القارىء فى أفكار واهتمامات مصر اليوم •

تتحرك الرواية عند جاك كرابس Jack Crabbs تحركا سريعا يربط فيه بين الحوادث التاريخية وبين المنهج الذى اختاره كل مؤرخ لمعالجتها ، مع تفسير لنظروف السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها التى كان لها أثر على هذا المنهج بنتيجة مؤداها احساس القارىء بعد أن يفرغ من الكتابة بأنه كان شاهد عيان لملحمة وطنية ذات تغير سريع التأثير على مسجليها من المؤرخين •

الموضوع الرئيسى للكتاب هو المؤرخون المصريون وكتاباتهم فى الفترة موضوع الدراسة (وكلهم غير محترفين) • والمؤلف هنا يعالج كل مؤرخ ليس باعتباره مجرد مؤرخ فحسب ، بل كشخصية متعددة المظاهر والوجوه ، فيناقش أصوله الاجتماعية ، تعليمه ، انتماءه الدينى ، ثقافته، صلته بالنظام الحاكم ، وظائفه الخ ، باعثا بذلك الحيوية فى كتابه الذى حوى ثروة أخاذة من التفاصيل لكل مظاهر المجتمع المصرى وجاعلا من كل مؤرخ من الذين تناولهم بالدراسة متحدثا رسميا لجيل كامل من المثقفين •

ولقد أثمر هذا كتابا يتراوح ما بين السياسة والأدب ، مشروعات الرى وتصميمات الأثاث والمبانى والمفروشات ، وليس مجرد دراسة فى التأريخ • وتمكن الكاتب بفضل منهجه الجديد من نقل القارىء الى اطار زمنى آخر وسياق حضارى مختلف ، بمعنى ان معالجة المؤلف لقضية التأريخ فى مصر القرن التاسع عشر كانت تهدف الى جانب الهدف الأساسى للدراسة الى الوصول الى التغير الفكرى والحضارى فى مصر •

وفى كل ذلك فان المؤلف قد وزن عمله بميزان العقل وابتعد عن الهوى والتحيز الذى هو سمة الكثير من أعمال الكتاب الغربيين الذين

يناقشون قضايا الفكر والتحديث فى مصر والعالم العربى • كما أنه استخدم فى سبيل الوصول الى أهدافه كما ضخما من المصادر العربية والأجنبية التى جعلت من الكتاب عملا ذا قيمة خاصة ••••• وهذا هو ما دفعنى الى ترجمة العمل معتقدا بأهميته للمشتغلين بالتاريخ المصرى الحديث بصفة عامة ، والمعنيين بمناهج البحث التاريخى بصفة خاصة •

وكشأن أغلب المؤلفات الأجنبية عن مصر فان الكاتب قدم بين ثنايا عمله اقتباسات عديدة من المصادر العربية التى كان يعرض لها فى دراسته (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى) (تخليص الابريز فى تلخيص باريز ـ أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل ـ مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية لرفاعة الطهطاوى) (الخطط التوفيقية لعلى مبارك) و (تقويم النيل لأمين سامى) وغيرها •

وكان من اللازم أن أرجع الى هذه المصادر ذاتها (بقدر الامكان) لأنقل عنها نصوص الاقتباسات الأصلية ما دمنا بصدد النشر باللغة العربية • فنقلت النصوص التى اقتبسها المؤلف من هذه المؤلفات وتصرفت أحيانا فيما لم أستطيع الحصول عليه من هذه المصادر •

وقد التزمت تماما بالنص الانجليزى كما كتبه المؤلف ونقلت حواشى فصوله كما قدمها ، وأضفت اليها الحواشى التى علقت بها أو قدمتها كاضافة للدراسة بعد أن ميزتها بالتنويه الى أنها من عمل (المترجم) •

وبعد ••••••• فأرجو أن تكون ترجمة هذا العمل محققة لما قصدته فى أن تكون اسهاما فى تنويع مصادر البحث واستجابة لدفع عالمنا العربى الى المواكبة العالمية ، ومده بروافد جديدة تساعده على تعميق وتأصيل رؤيته لقضايا الفكر وابداعات العقل •

والله من وراء القصد •••

مصر الجديدة فى مايو ١٩٩٢

د • عبد الوهاب بكر
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الزقازيق



مقدمة المؤلف للطبعة العربية

انه عمل محفوف بالمخاطر أن تكتب كتابا عن بلد أجنبى وأقوام أجانب • فهناك دائما الخوف من ظهور الأخطاء واغفال الاتجاهات ما أن يبدأ المرء فى التجاسر على الخروج الى ما وراء ثقافته ونطاق حضارته الى مجال أناس آخرين وحضارات أخرى ، وفوق هذا فان حساسية واهتمامات وأولويات هذه الحضارات سوف لن تكون موضع انتباه أو غير واضحه •

وربما كان هذا صحيحا بالنسبة لغربى يسعى الى استخراج رحيق التطور الثقافى لبلد اسلامى كمصر ، فقد يحترم عمله هذا كثيرا فى الغرب ، لكن القارىء المصرى سيشعر — كما شعر ادوارد سعيد — بأنه قد أخطأ الموضوع الذى يعالجه •

وعلى العكس من ذلك ، ففى حالتى كان مرضيا لى لدرجة كبيرة أن أرى أن أقرانى فى مصر ، وخاصة صديقى العزيز وزميلى البروفيسور عبد الوهاب بكر من جامعة الزقازيق ، قد قرأوا وأبدوا رأيا محبذا لدراستى عن التطور الفكرى والثقافى لمصر فى القرن التاسع عشر كما عكستها كتابات المؤرخين المصريين فى هذه الفترة •

وكانسان نذر حياته كلها لدراسة مصر ، أهلها ، ثقافتها ، ومؤسساتها ، فاننى أستطيع أن أقول دون مبالغة ان ظهور الطبعة العربية من كتابى سوف تكون واحدة من أسعد لحظات حياتى العملية كلها •

خالص الشكر للبروفيسور بكر ، ولكل أصدقائى المصريين الآخرين الذين دون مساعدتهم الكريمة ما كان فى المقدور اخراج هذا العمل الى حيز الوجود •

٥ يونيو ١٩٩٢

جاك كرابس جونيور
قسم التاريخ
جامعة كاليفورنيا — فولرتون



مقدمة الطبعة الانجليزية

يمكن القيام بالدراسات التأريخية وفقا لواقع الحال ودون تأثر بالعواطف الشخصية ، حيث انها تكشف للطالب بعضا من حالة الدراسة التاريخية نفسها ، وافتراضاتها المتعلقة بنظرية المعرفة ، والمنهجية ، واهتمامات المؤرخين الذين ساعدوا فى بناء الكيان الأدبى • وكل هذه الأشياء ميادين حقيقية للمعرفة ولذلك فهى واردة فى هذه الدراسة • لكن التأريخ يمكن أن يخدم أيضا أغراضا أعرض • فيمكن اعتباره وسيلة وليس غاية — وسيلة لتسليط ضوء اضافى على المناخ الدينى ، السياسى، أو الاجتماعى لعهد معين • كذلك فانه يمكن أن يكون توضيحا لحركة التحول الوطنى ، ذلك التحول الذى يشار اليه فى حالة مصر عادة بالتمدن أو تغريب مصر • ويمكن للتأريخ أن يقوم بدور الباروميتر للوعى الوطنى• وعندما يوضع فى مجال المعايير الفنية والأدب السائد ، فان التأريخ يمكن أن يصبح مؤشرا للتغير الثقافى ككل (١) •

وهذه الدراسة محاولة لاستخدام التأريخ فى كل الاعتبارات السابق الاشارة اليها • فهى تركز عليه باعتباره الأساس المتين لكل مؤرخ ، لكنها (الدراسة) تستكشف أيضا المظاهر الأخرى لشخصية المؤرخ وسيرته ، اذا كان هذا يؤدى الى ابراز صورة أوضح لكل من الرجل وزمانه • وتدرك الدراسة أن الأفراد الذين جرت دراسة أعمالهم هنا ، رغم أنهم ممتعين كمؤرخين لهم حق التأريخ ، الا أنهم لم يستطيعوا أن يحصروا أنفسهم فى العمل كمؤرخين فقط وذلك فى الفترة « قبل — الاحترافية » التى عاشوا فيها • فقد كان كل فرد من هؤلاء منشغلا فى نفس الوقت فى أعمال كبرى كثيرة غالبا ما كانت مربحة ومغرية أكثر من الكتابة التاريخية •

وتجاهل كل هذه المظاهر المرتبطة بحيوات هؤلاء الأفراد لا يؤدى الى بترهم فقط ، ولكنه يؤدى أيضا — وهذا هو الأكثر أهمية — الى فقد بعد اضافى ثرى من التبصر فى التغير الحضارى والثقافى المصرى فى القرن التاسع عشر • ولذلك فان هذه الدراسة ستهدف الى اعطاء فهم

أوضح لحركة النحول ، مع استخدام التأريخ كأداة أولية (ولكن ليست وحيدة) للتحليل •

وحيث ان الهدف الأساسى من هذه الدراسة هو اعطاء صورة كاملة للمجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر ، فقد فرض قيدان ، أولا فان جهدا لم يبذل لفحص الكتب العديدة عن مصر والتى كتبها الأجانب ، ولم تفحص بالتالى فائدتهم • ولهذا فان جهدنا هنا هو التأكد من كيفية شعور المصريين أنفسهم وتطورهم التاريخى • وبالاضافة الى ذلك ، فان هذه الكتابات التى تتصل بالفترة ١٧٩٨ ــ ١٩٢٢ ــ مع بعض الاستثناءات القليلة ــ هى فقط التى ستكون موضع الدراسة فى هذا الكتاب • لقد أنتجت مصر العديد من المتخصصين العظام فى العصور الوسطى والمصريات خلال القرن التاسع عشر ، ومجرد وجود هؤلاء هو مؤشر للأولويات الثقافية والحضارية الجديدة • ومن الناحية الأخرى فان استبعاد أى دراســـة تفصيلية عن الفترات التاريخية من القرن التاسع عشر قد تؤدى الى تمزيق الوحدة النغمية للعمل الذى نحن بصدده •

حـــواشي المقـــــدمة

(١) عبر هربرت بترفيلد Herbert Butterfield أساسا عن نفس هذه الآراء حول العرض الأعمق للدراسات التاريخية بقوله « يجب على الرجل الذى يدرس تاريخ التاريخ ان يتجنب التاريخ المفكك ، واغراء تقديم قائمة مشتتة غير ذات معنى من الأسماء • بل يجب ان يتفحص التطورات الداخلية للثقافة التاريخية ، وان يربطها دائما بحركات التاريخ العام ، وتطور العلوم الاخرى وللظروف الشرطية التى تؤثر فى مصائرها • يجب ان يلاحظ على سبيل المثال ، كيف ان الدراسة التاريخية ترتبط بشكل دستور البلد ، بحالة الرأى العام ، بتوافر الأدلة ، وبنشاط الجامعات ، والجماعات المتعلمة والدوريات •

انظر هربرت بترفيلد

Man on His Pa t (Boston : Beacon Press, 1960), p. 8.



الفصـل الأول

التأريخ الحديث فى مواجهة التأريخ التقليدى

حتى وصول حملة بونابرت فى عام ١٧٩٨ ، كانت مصر تعيش نوعا من العزلة المريحة عن الغرب • فأنهى الوجود الفرنسى هذه العزلة وافتتح فترة من التفاعل اللذيذ المؤلم بين الشرق والغرب • وخـلال القرن التاسع عشر حارب المصريون بشراسة لتجنب التأثير الغربى بينما كانوا يحاولون فى نفس الوقت بصورة متناقضة مع حربهم أن يستوعبوا الأفكار الغربية والأساليب التقنية بأسرع ما يستطيعون • وبينما كان ما ينبغى أن يقدمه الغرب يحظى بالاعجاب الصادق من جانب البعض ، كان الآخرون يقبلونه بحفيظة كشىء لا مفر منه للكفاح من أجل البقـاء الوطنى •

كان نسيج الحياة المصرية كله فى فترة انتقال خلال القرن التاسع عشر • وكان الفخار والتفوق المفترض لتقاليد الثقافة الموغلة فى القدم لقرون ، قد أصبحا الآن محل تساؤل ، لكن هذا التساؤل كان يجرى فى ظل مقاومة وممانعة مفهومة • وانهمر الأدب الدفاعى ، مساندا لجهود المصريين والمسلمين بصفة عامة فى محـاولة لانقاذ أكبر قدر ممكن من ارثهم قدر المستطاع فى خضم سيل منهمر من الأفكار الجديدة • على أى حال فان المد الغربى أثبت فى النهاية أنه لا يقاوم ، وكانت مصر ١٩٢٢ فى مكان مختلف تماما عن مصر ١٧٩٨ • والنشـاط الباهر للتحديث والتغير الحضارى الذى ظهر خلال هذه السنوات ـ رغم كونه مؤلم ـ هو موضوع هذه الدراسة •

ستحاول الصفحات التالية أن تسلط الضوء على كيفية تطور المجتمع المصرى ككل خلال القرن التـاسع عشر ـ والمدى الذى وصل اليه فى التمدن أو التمثل بالغرب • وكما ذكرنا فى المقدمة ، فان التأريخ سيقوم بدور القالب أو الرحم لهذا النقاش • ولما كان التأريخ هو نفسه موضع تغير مستمر ، فانه سيكون من الأساس منذ البداية اقامة نوع من المعيار

لتحديد أو فصل التأريخ الحديث عن التأريخ التقليدى (ولا داعى للقول بتحديد التأريخ الغربى من التأريخ الاسلامى) • لقد كان القرن التاسع عشر فترة تحول للتأريخ المصرى دون منازعة ، وعندما أصبح هذا التأريخ « حديثا » كان قد اجتاز عدة تغييرات بنيوية أساسية معينة •

ونقترح أن نتعامل مع هذه التغيرات تحت العناوين الآتية :

١ ـ زوال أسلوب التأريخ وفقا للنظام الزمنى Chronicle •

٢ ـ المشاكل الناجمة عن التفسير والتحيز •

٣ ـ الهدف من التأريخ •

٤ ـ أسلوب الكتابة التاريخية •

التاريخ والتاريخ الزمنى : خلال الفترة الوسيطة كانت السجلات التاريخيـــة تحفظ فى غالبيتهـا فى شـــكل تاريخ متسلســل زمنى Chronicle (١) • وهذا المصطلح (المستمد من اليونانيه Chroncs وتعنى الوقت time) وسيلة مناسبة للاشارة الى رواية تاريخية موجهة time-oriented ، تدرج فيها الوقائع فى تتابع زمنى دقيق دون أى رابطة بينها فيما عدا رابطة مضى الزمن (٢) • ماذا يعنى هذا ، اذا ما نحن فكرنا فيه ، فانه يعنى أن التاريخ الزمنى Chronicle يمكن أن يكون موضوعيا كتابة حيث أن أى صلة أخرى بين الوقائع (كيفى ، عرضى) يمكن أن تعزى اليهم (الوقائع) من جانب مراقب آخر ودون أن تكون هذه الوقائع بالضرورة حقيقية •

فالتاريخ الزمنى حسب ما قاله رانكه Ranke (٣) هو تاريخ « حيث انه قد وقع فعلا • وبافتراض أن التاريخ الزمنى دقيق حقيقة » فان لا أحد يحتاج بعد ذلك الى اعادة التثبت من موضوعه (٤) •

وفى الواقع ، فان التمييز بين التـــاريخ الزمنى chronicle والتاريخ History ليس واضح المعالم • فكثير من التواريخ الزمنية الخاصة بالعصور الوسطى تضم درجة من العنصر التفسيرى ، تماما مثل عدم امكان المقالات التاريخية أن تتحمل تجاهل التعاقب الزمنى Time-sequence تماما • وعلى ذلك فان الفرق بين التاريخ History والتاريخ الزمنى Chronicle عادة هو مسألة درجة one of degree • فاذا كان المعنى الوحيد الذى يستخرجه الباحث من المادة العلمية هو معنى تاريخى زمنى، فان الناتج سيكون تاريخا زمنيا • وعلى الجانب الآخر فان الباحث اذا تمسك بمحاولة اقامة علاقة متبادلة ، أو تحليل ، أو على العكس اشتقاق مضمون من المادة التاريخية الخام ، فان النتيجة ستكون تاريخا • ان

التاريخ هو محاولة ادراك المراد من الماضى أو فهمه ، أما التاريخ الزمنى فهو محاولة لتسجيل التاريخ فقط •

وعلينا أن نضع فى الاعتبار هذه الفوارق عندما نفحص الكتابات التاريخية المصرية فى القرن التاسع عشر • فقد تذبذب المؤرخ المصرى لهذه الفترة بشكل دائم بين الأساليب القديمة والأكثر ألفة من التقنيات الحولية ، وبين الاتجاهات الحديثة التحليلية (أو بكلمات أخرى الغربية)• ومع الهجر المضطرد من جانب المؤرخين للأساليب القديمة ، فقد بدأوا يسألون تلك الأنواع من الأسئلة التى تعنى القارىء الحديث (وفى الحقيقة أى قارىء) أكثر من مجرد التعاقب الزمنى ، فكانت هذه الأسئلة على سبيل المثال تتعلق بالدوافع ، الاتجاهات ، الأسباب ، النتائج ، الصلات ، الخ (٥) • ومع أن مثل هذا النوع من الأسئلة أكثر خطورة وأكثر قسوة من الناحية الثقافية من تلك التى قد يسألها كاتب الحوليات ذو الأسلوب القديم ، فان الاجابة على تلك الأسئلة أكثر عطاءا •

و « التفسير » فى مواجهة « مجرد التسجيل » للأحداث يحتاج الى استخدام « التوازن الشخصى "Personal equation" » ـ وكان المصريون ينظرون الى هذا العمل فى البداية بشك كبير • وهذا الأمر يمكن فهمه اذا أخذنا بعين الاعتبار ذلك النوع المماثل من المعارك الشاقة التى كان على المدرسة التفسيرية فى الغرب أن تخوضها ضد مناصرى ما يسمى بالتاريخ العلمى منذ عهد قريب • لقد قامت المدرسة الفكرية الأخيرة بتحديد أخطار التاريخ المفرط فى الرومانسية ، الوطنى ، أو حتى الساذج البناء ، لكنها فيما بعد اتجهت الى النزوع من المحتوى الفكرى للتاريخ ـ وهذه كلمات كولينجوود Collingwood ـ وعادت الى المعالجة الشبه تحليلية للأحداث (٦) • وهذا ما أدى الى اخفاق الحركة فى النهاية ، ولا يبقى فى الوقت الحالى سوى القليل من المتشددين المشتغلين بالتاريخ العلمى (٧) •

ويعتبر التفسير ، والتحليل ، والتقدير المطلب الحتمى للكتابة التاريخية الجيدة فى الوقت الحالى ، وستشكل هذه الخصائص أسسنا لتحديد « عصرية » التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر •

التفسير والانحياز : رغم أن أنقى تاريخ زمنى سوف يحتوى عادة على بعض أشكال الانحياز (ولو فى مجرد اختيار المادة) ، فان المؤرخ هو الذى سيبقى دائما مواجها مباشرة بهذه المشكلة • وهذا يعود الى أن كاتب الحولية annalist والمؤرخ العلمى Scientific Historian سيحاولان الى حد ما أن يكتبا كما تكتب الآلة ، فى حين أن المؤرخ سيحاول بجد أن يعيد التفكير فى مضمون المادة التى يستخدمها فى

كتابته (٨) • وفى كل الأحوال فان التاريخ الزمنى سيحتوى على ما يبدو على سلسلة لا تنتهى من التفاصيل التاريخية الغير مهضومة ، فى حين أن التاريخ لن يعنى بصورة طبيعية بالتفاصيل ، ما لم يبدو أنهـا تحتوى بعض المظاهر الشاملة •

ففيما يتعلق بمصر على سبيل المثال ، فان السيرة الذاتية لسليمان الحلبى قاتل الجنرال كايبر General Kléber سوف لا تكون ذات فائدة تذكر للمؤرخ ما لم تكشف هذه السيرة عن شىء من الموقف العـام للمجتمع المصـرى نحـو الاحتـلال الفرنسى • على عكس المؤرخ الزمنى Chronicler ، فان المؤرخ لن يلقى بالا للأشجار اذا كان يشعر أنها لن تنبئه عن أحوال الغابة (٩) •

ان التاريخ خطـير الى حـد أنه يضيف أبعـادا جـديدة الى المادة الخام(١٠) : أبعاد الفهم التى قد تأخذ شكل التفسير التاريخى أو الانحياز• ان (التفسير) و (الانحياز) هما ببساطة الجانبين السيىء والجيـد لنفس العملة ، وهما يتفاضلان من حيث أن (التفسير) يشتق من المادة ، أما (الانحياز) فهو يفرض عليها (١١) •

ان التفسير مرتبط بعض الشىء بالدليل أو البينة ، أما الانحياز فلا ارتباط له بهما(١٢)•وقد عبر ويليام جيمس William James (١٣) عن هذا الموضوع بصورة جيدة فى شكواه من الاضطرار الى « تشكيل وصياغة كل جملة فى صلب الحقائق الغير قابلة للاختزال والتبسيط ، والصلبة » (١٤) •

والتاريخ الجيد ، شأنه شأن العلم الجيد ، تحليلى رغم انه ليس عادة مرتبط • ومثلما ظل العلم زمنا طويلا عاجزا فى ظل الافتراض الغير تجريبى المرغوب فيـه لجنس بشرى واحد ، فان التـاريخ أيضا عاجز بصورة حتمية كلما اضطر لخدمة سـيد خارجى • ولما كان « العلم » يتعامل مع أشياء كمية قابلة للتنبؤ بها أكثر من البشر وأمورهم ، فانه (أى العلم) أكثر « موضوعية » من التاريخ ، رغم ان الانسان يعجب فى بعض الأحيان عندما يواجه بالمعارك الحديثة التى تثور حول علاج الأمراض عن طريق تقويم العمود الفقرى باليد ، والوخز بالابر كعـلاج لتخفيف الألم ، والدليل « العممى » على التفوق أو التدنى فى الجماعات العرقية المختلفة • والصخينة التى تصاحب مثل هذه المجادلات عادة توحى بقوة بشىء أقل من الموضوعية الكلية ، وبالطبع فان التاريخ أقل حصانة من العلم أمام هذه الأشكال من المجادلات السقيمة • ولا توجد نهاية لأنواع الانحياز التى توجد فى الكتابة التاريخية ، بل ان كثيرا منها غير مقصود• وفى الحقيقة ، فان أغلب المؤرخين يشعرون الآن بأنه طالما أنه لا يوجد

شيء يسمى تاريخ زمنى نقى ، فانه كذلك لا يوجد أيضا شيء يسمى تاريخ موضوعى كلية (١٥) .

ان ما ينبغى علينا أن ندركه هو أنه لا شيء من ذلك يبطل دعوى ومطالبة التاريخ بالشرعية الأكاديمية . وهذا يعنى ببساطة ان المؤرخ يجب أن يحاول أن يكون مدركا لأى انحياز يكون فى كتاباته ، فاذا لم يتمكن من ادراك ذلك ، فانه سيلقى التعنيف من جانب قرائه لذلك السبب . وعن طريق التمرين والالتزام فان المؤرخ المحترف يكون عادة مجهزا بصورة أفضل ــ ولكن ليس دائما ــ للتعامل مع مثل هذه المشاكل .

وهذه حقيقة يجب أن توضع فى الاعتبار فى حالة مصر القرن التاسع عشر ، حيث كان كل المؤرخين وقتها فى الواقع هواة وليسوا محترفين . غير انه على الجانب الآخر فانه من الواضح أيضا انه لا المحترف ولا الهاوى من المؤرخين يستطيع أن ينزع نفسه كلية من مشاعره الدفينة نحو الوطن ، العقيدة ، الطبقة الاجتماعية ، والجماعة العرقية ، الخ . وهذا الانفصال لا يشكل بالضرورة نصرا تأريخيا ، حيث ان كل هذه القضايا تظهر فى الصورة التاريخية المختلفة لمعاوية ، السلطان سليم الأول ، أو محمد على ، نابليون ، بسمارك ، أو فرانكلين ديلانو روزفلت . وعلى ذلك فان التاريخ على هذه الصورة لن يعد فقيرا بل سيكون غنيا بمثل هذه الاختلافات .

ولتعزيز تصوير مشكلة الانحياز فى الكتابات التاريخية ، دعونا نلقى نظرة أكثر قربا على واحدة من أكثر أشكالها المعتادة فى التاريخ الحديث . فقيام الدولة القومية فى العالم الغربى وفيما بعد فى الشرق الأوسط لم يؤثر بعمق فقط فى التأريخ الحديث ، لكنه أثر أيضا فى كل المظاهر الأخرى للثقافة . لقد تركت القومية سمة قوية على التأريخ الغربى لدرجة أن أكثر المحترفين تفانيا كان يجد صعوبة كبيرة فى التخلص منها (١٦) . لقد تحققت مخاوف جين بودين Jean Bodin (١٧) القديمة عن « التاريخ القومى » بصورة متكررة ، دون استمالة المؤرخ أو قراءه لهجر موضوع التاريخ . وبدت آثار قوية « للقومية » حتى فى الكتابات المدققة « الموضوعية » لليوبولد فون رانكه (١٨) . وسيكون تبعا لذلك ــ تاريخ للولايات المتحدة تولاه مؤرخ أمريكى ، مختلف تماما عن كتاب مماثل كتبه مؤرخ كندى ، شيلى ، أو فرنسى ، ناهيك عن نوع الدراسة التى يمكن أن ينتجها مؤرخ من فيتنام الشمالية (١٩) .

واذا كان من غير الممكن انكار وجود « القومية » فى التأريخ الغربى الحديث ، فاننا يجب أن لا ندهش اذا وجدناها فى الكتابات

..رى وسطية (٢٠) • على سبيل المثال ، صنف « ابراهيم تيمورى »
.ى ايران « الأبطال » القوميين تبعا لقوة مشاعرهم أو عواطفهم الوطنية
.. هذا غريب حقا ؟) • وحازت السيرة الذاتية التى كتبها نور الله
.زردى من « نادرشاه » (٢١) استحسانا كبيرا نظرا لتكثيفها النغمة
وطنية (٢٢) • ووفقا لما يقوله ألبرت حورانى ، فان كتابات المؤرخين
.لبنانيين مثل (شبلى) و (اسماعيل) لم تكن أقل وطنية من الناحية
الروحية (٢٣) • وكان الانحياز الوطنى واضحا تماما فى تركيا فى كتابات
تقى سوافى (٢٤) ، بل وفى كتابات نجيب عاصم يازيكسيز (٢٥)
Nejib Asim Yaziksiz • لقد دخلت القومية التركية مرحلة تتميز
بالحدة مع تأسيس الجمهورية عام ١٩٢٣ • ثم تناقصت الى حد ما
تدريجيا فى الحقب التالية ، لكنها لا تزال تعتبر حتى اليوم واحدة من
الأخطار الأساسية التى تواجه التأريخ فى ذلك القطر (٢٦) •

لم يكن طبيعيا فقط أن تعانى مصر القرن التاسع عشر الكثير من هذه
المصاعب ، التى لم تؤثر فقط فى تأريخ الفترة ، بل فى الكثير من المجالات
الثقافية أيضا • لقد كانت الصحافة المصرية فى كثير من الأحوال ذات
نغمة قومية كثيفة (٢٧) ، وكان شعر البارودى ، شوقى ، وحافظ ابراهيم
يتشح بالوطنية ، ولهذا السبب كان محبوبا ، ولم تكن الرواية المصرية
الحديثة أكثر مناعة ضد هذه العاطفة (٢٨) • وقد اجتاز التأريخ المصرى
نفس النوع من التطور ، وأصبح فى بعض الأوقات وطنيا لدرجة دفعت
المراقبين الغربيين الى استبعاده باعتباره مجرد مجادلة عدوانية ونشرات
دعائية • وقد أصبح التأريخ العربى الحديث ــ فى كلمات أنور شيجنه
Anwar Chejne مجرد «أداة فى أيدى الدول الجديدة الناشئة» (٢٩) •
أو كما قال هاميلتون جب Hamilton Gibb : « ان الدراسات التى قام
بها الكتاب العرب غير كتاب القصة الطويلة فى المؤسسات الاقتصادية ،
والتعليمية ، والدينية ، وبعض المؤسسات الأخرى عبارة عن نشرات
دعائية هدفت بحذق وتصميم لمساندة سياسة معينة أو وجهة نظر(٣٠) •

وليس من المستطاع تقديم تفنيد مفصل لمثل هذه الاتهامات هنا •
لكن مجرد الانتباه البسيط لحواشى هذه الدراسة ــ حيث استشهد
بأعمال مؤرخين بارزين مثل محمد صبرى ، جمال الدين الشيال ، أحمد
عزت عبد الكريم ، عمر طوسون ، محمد فؤاد شكرى ، محمد
أنيس ، الخ ــ قد يساعد القارىء على اصدار حكمه بمدى عدالة أو ظلم
هذه الاتهامات الجارفة ، على الأقل بالنسبة للمثال المصرى (٣١) • ولعله
من الواضح أن :

١ ــ كل مؤرخ يكتب من وجهة نظر معينة •

٢ ـ ان المؤرخ المصرى يستطيع بدقة أن يكتب من وجهة النظر القومية المصرية .

٣ ـ وأن هذه الخصال لا تحتاج لأن تكون « مصممة وهادفة بحذق لمساندة سياسة ووجهة نظر معينة » ، بل انها تعكس وبنصف وعى المناخ القومى للمؤرخ . ان تقييم قسطنطين زريق Qustantin Zurayq للموقف ، مثل تقييم حورانى ، أكثر عدالة وتوازنا من تقييم جب Gibb وشيجنه Chejne . فهو يوافق على أن القومية كانت أداة هامة فى التأريخ العربى الحديث ، لكنه يضيف ان العرب لم يكونوا نسيج وحدهم فى اظهار القومية ، وان بعضا من الكتابات التاريخية الأوروبية الحديثة رفيعة المستوى قد نتجت من تأثير هذه القومية (٣٢) .

وهناك نتيجتان على جانب من الأهمية لمناقشتنا اللاحقة لكتابات القرن التاسع عشر يمكن استخلاصها مما سبق . فأولا ، من غير المعقول توقع غياب « القومية » وكذلك بعض أشكال « التفسير ـ الانحيازى » فى الأدب التاريخى الحديث . ذلك ان وجودهم المطلق يشير فى الحقيقة الى جهد ما ـ رغم أنه ساذج ـ لابعاد التاريخ عن الاقتراب التقليدى الميكانيكى للتأريخ الزمنى Chronicle ، نحو أسلوب صريح وأكثر تحديدا فى الكتابة . والنتيجة الثانية ترتبط بالأولى ـ فتحديدا ـ قد لا يكون ملائما نقد ما هو موجود دائما ، وأن النقد ـ اذا كان هناك لزوم له ـ يجب أن يوجه نحو (شكل) الانحياز بدلا من (وجوده) . ولما كان التاريخ القومى نادر للغاية ، فان من المحتمل أن يكون التاريخ القومى الجيد التوثيق والمقنع هو أحسن ما نتوقعه .

الغرض من التاريخ :- ان مشكلة التفسير أو الانحياز فى التاريخ تكاد تكون قريبة من قضية « الغرض من التاريخ ، ولكنها فى نفس الوقت ليست مثلها . لقد ظل التاريخ دائما يكتب فى ظل غرض معين فى عقل كاتبه . وكان هذا الغرض فى بعض الأحيان واضح الترابط والاتساق ، وفى بعض الأحيان كان الكاتب يحاول أن يخفى هذا الغرض . وكان الغرض فى بعض الأحيان عاما ، وفى أحيان أخرى كان محددا . نحن نعرف أن هدف التأريخ الزمنى Chronicle هو الفهرسة Catalog ، أما هدف التاريخ فهو التحليل . لكن طالما كان التاريخ يكتب ، فانه أيضا ذو طبيعة هدفية أو غرضية ، تساعد المرء على ضبط نفسه وبيئته بصورة أفضل (أو هكذا تصور الانسان) .

وبصفة عامة ، فان الغرض التاريخى كان اما « موجها ومساعدا على اكتشاف المرء للأشياء بنفسه » أو « دافعا للايمان بالأخرويات والبعث والحساب » . وقد استخدم قدماء الاغريق « الغرض التاريخى » فى

صورته الأولى (كموجه ومساعد على اكتشاف المرء للأشياء بنفسه) من أجل تنمية الوعى المدينى Civic العام (٣٣) ٠

وخلال فترة العصور الوسطى المتـــأخرة استهلك لدرجة كبيرة فى اللاهوت ، وأصبح لذلك ، أكثر ميلا فى طبيعته للصورة الثانية (كدافع للايما نبالأخرويات والبعث والحساب) ٠ ولا تقل حقيقة ذلك فى الغرب المسيحى عن الشرق المسلم : فابن الأثير لم يجـــد تفســيرا للغزوات المغولية سوى لارادة الله ، وبالمثل فان القديس أوغسطين (٣٤) لم يستطع أن يجد سببا لنهب روما على يد الاريك Alaric (٤١٠ بعد الميلاد) (٣٥) الا انهـا ارادة الرب فى أن يرى مدينته تنتصر على الكيان الامبراطورى الرومانى (٣٦) ٠

لم يسترد الغرض « التوجيهى الاكتشافى » من التاريخ دوره فى الغرب الا مع قدوم عصر النهضة ، عندما نبذ مؤرخون أمثال ماكيافيللى Machiavelli وجيكاردينى Guicciar dini (٣٧) الأســاليب البلاغية المطورة للغائية الدينية (٣٨) ، واتجهوا بدلا من ذلك الى التاريخ لتفسير السلوك الانسانى (٣٩) ٠

أما فى الأزمنة الأكثر حداثة فى الغرب فقد استخدم التاريخ لتشويه النظم القيمية سواء أكانت دينية أو سياسية أو ثقافية (٤٠) ٠ وبينما هو على الاطلاق « بلا غاية » ، فان الهدف النهائى للتأريخ الغربى الحديث (بالنسبة للمدرسة التى تعنى بالغرض التاريخى كموجه ومساعد على اكتشاف المرء للأشياء بنفسه) غامض عن عمد ٠ وميزة هذا انه يسمح للمؤرخ بنطاق أكبر للاختيار ٠ فهو يستطيع أن يلتقط ويختار بحرية نوع الدرس الذى يظن انه يحتوى سلسلة معينة من الأحداث ، وأن ينوع خلاصات آرائه تبعا لحاجات الموضــوع ٠ وهذا اختيار غير متوفر فى مدرسة « الأخرويات والبعث والحساب » ٠

على أنه لا ينبغى المبالغة فى الميزات المشار اليها فى السطور السابقة ، اذ أنه قد يكون من غير الدقيق أن يصنف كل التاريخ فى العصــور الوسطى على أنه دعاية دينية ضيق الأفق ــ كما أنه ليس من الدقة القول بأن تاريخ الأخرويات والبعث والحساب قد استبعد تمــاما فى الأزمنة الحديثة ٠

وفى الحقيقة فان بعض الأنظمة الحديثة المؤمنة بالأخرويات قد تكون أكثر صرامة عن تلك الخاصــة بالعصور الوسيطة ، وقد حقق التأريخ الماركسى على وجه الخصوص رواجا وانتشارا لا يقل عن ما حققته أنظمة العصــور الوسطى الدينيــة ٠ وهو تاريخ أخروى فى طبيعته كتاريخ

ايزيدور الاشبيلي Isidor of Seville (٤١) أو تاريخ المدائني المتوفى عام ٨٤٠ م ، ويحتوى كل مظاهر الضعف المماثلة (٤٢) • لكن الغريب حقا في هذا المقام ان المؤرخين الماركسيين لا يرون ان الاعتراضات التى أثاروها بشأن التاريخ الدينى (كاحتوائه على أغراض تتعارض مع التاريخ نفسه ، بل وأهم من ذلك أنه لا يمكن اثباته تاريخيا) يمكن أيضا أن تنطبق على التاريخ الماركسى ـ اللينينى ، الذى اذا لم يكن خطأ ، فهو على الأقل نظام فلسفى أكثر منه نظام تاريخى (٤٣) •

ان جمال الكتابة التاريخية الحديثة يكمن ـ قبل كل شىء ـ فى بساطته • والمؤرخ الحديث (يفترض هنا) هو الابن الحقيقى للتنوير الفرنسى ويتفق تماما مع الفلاسفة فى تفضيلهم الذكاء المنظم esprit systematique على ذكاء النظام esprit des systemes ولذلك فهو يقصر دوره عن عمد على دور المؤرخ ، على عكس مطران العصور الوسطى أو الماركسى الجدلى فى الأيام الحديثة ، ويتجنب دور المنجم ، والفيلسوف أو النبى • وبقدر الامكان فانه يترك أدلته تحدد الغرض النهائى لأبحاثه •

الأسلوب التاريخي : يعد التاريخ واحدا من الفنون الأدبية من حيث الشكل ـ ان لم يكن من حيث الموضوع • ولذلك فانه نادرا فقط مايستطيع المؤرخ ن يتحمل تجاهل مسائل الأسلوب كلية • فالأسلوب من الأهمية بمكان للتاريخ لدرجة ان الأعمال التاريخية الرائعة قد تسقط تماما ، ببساطة لانها كتبت بأسلوب فقير ، وعلى عكس ذلك فقد تفوز مواضيع ضحلة بنجاح باهر عندما يكتبها كاتب بليغ •

وحتى فى محيط تقليدنا التأريخي الغربى ، فان الأساليب تفاوتت الى حد بعيد من عهد الى عهد ، ومن بلد الى بلد ، بل حتي ومن فرد الى فرد • وتظل الفجوة أوسع فى حالة تقليد تاريخى أجنبى كالاسلام على سبيل المثال ، فتاريخ اسلامى جيد قد يبدو كريها عند الغربيين لأنه غريب فى أسلوبه • وهكذا فان الدارس الغربى للتأريخ الاسلامى قد يصيبه السخط بالتنميق الشعرى المؤرخ المسلم فى العصور الوسطى حيث ان تقاليده الغربية لم تؤهله لمثل هذه المواجهة • على سبيل المثال كان التأريخ الاغريقى والرومانى القديم مظهره صاف ورائق ، وكان خاليا من التوافه والسفاسف(٤٤) • كذلك فان المؤرخين الغربيين للفترة الوسيطة يبدون وقد وضعوا الاعتبار للمحتوى دون الأسلوب (٤٥) •

لقد لاحظ Edward Gibbon عندما كتب عن المؤرخين العرب (أو المسلمين) انهم كانوا دائما اما كتاب تاريخ زمنى جافين أو خطباء بلاغيون • ولعل (دقة) هذا الرأي بصفة عامة تفتح الباب للأسئلة ،

ويبدو أن هذا الرأى مضللا كلية اذا طبق على التأريخ الاسلامى قبل القرن الحادى عشر • فحتى ذلك الوقت كان المؤرخون المسلمون ، مثل أندادهم المحدثون ، يستخدمون نثرا صافيا ، مقروءا ، بل وأنيقا (٤٦) • وفى الجملة فانه من الصعب القول بأن الطبرى مثلا (المتوفى عام ٩٢٣) سيكون هو الخاسر فى أى مقـــارنة أســـلوبية مع المبجل بيـــد Venerable Bede (٤٧) •

وفى الناحية الأخرى ، فانه منذ حوالى أواخر القرن العاشر فصاعدا اتجه المؤرخون المسلمون أكثر فأكثر نحو عادة النثر المقفى (السجع) فى محاولة لتعزيز الأثر الحماسى فى قصصهم وربما أيضا لتسهيل تذكر مواضع معينة • ومع تعاقب القرون أصبح السجع أساسيا أكثر فأكثر بالنسبة لفن المؤرخ ، أو على الأقل فى الأجزاء الافتتاحية فى الفصول ومدائح الحكام • (وقد استلزم هذا جهدا لغويا استثنائيا للمحافظة على السجع فى القصة التاريخية نفسها) • أيضا فان الشعر دخل مجال التاريخ أحيانا ، بنتيجة نهائية وصفها جيبون بقوله : لقد بدأت الكتابة التاريخية الاسلامية تعانى بصورة قياسية (٤٨) •

مع نهاية القرن الثامن عشر كان التأريخ العثمـــانى قد انحط الى مجرد حشو وكلام طنان » (٤٩) • وبالنسبة لمصر حيث كانت التركية هى اللغة الرسمية للحكومة منذ ١٥١٧ فان القدرة على استخدام العربية انحدرت كثيرا لدرجة ان السجع استخدم ليغطى العجز اللغوى (٥٠) • لذلك فانه مع تحول القرن التاسع عشر فان التقليد الأهلى الاسلامى فى التاريخ كان قد فقد كثيرا من حيويته القديمة • ورغم هذا فقد كان قادرا على مواصلة التقدم خلال أغلب الفترة موضوع الدراسة ــ وفى مواجهة الجرعات المتزايدة المستمرة من التغريب الثقافى •

بالتدريج والحذق فقط استطاعت الأساليب الأحدث فى الكتابة أن تزيح أشكالا تقليـــدية أكثر ، مع تزايد احســـاس المثقفين العرب بأن الأشكال الكلاسيكية للتعبير بل وحتى اللغـــة العربية نفسها لم يعودوا ملائمين للاحتياجات الأدبية الحديثة • وقد وفر التطور السريع للصحف العربية خلال القرن التاسع عشر قوة دافعة لحركة اصلاح اللغة ، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ الأسلوب الصافى الواقعى للصحافة فى التأثير فى الكتابات التاريخية • وكان مصطفى كامل (١٨٧٤ ــ ١٩٠٨) وقاسم أمين (١٨٥٦ ــ ١٩٠٨) على وجه الخصوص مدافعين متحمسين للتغيير الأسلوبى ، وساعدا على اخراج ما أصبح معروفا فيما بعد « بالأسلوب المباشر فى الكتابة » (٥١) • وقد انتشر هذا الأسلوب بسرعة ، ومع نهاية القرن التاسع عشر كان كل المؤلفين العرب يستخدمونه فعلا (٥٢) •

من هنا ، فان الأساليب الأدبية والأذواق بصفة عامة (وفى المحيط الأضيق الأسلوب والبنية الخاصين بالكتابات التاريخية نفسها) ، اجتازت تغيرا صعبا خلال القرن التاسع عشر ، وللحق فان « الشيال » لم يكن مخطئا عندما قرر أن « الأسلوب المباشر ، المنسوب الى مصطفى كامل وقاسم أمين وقلة آخرين ، انتشر بسرعة ، ولكن يجب أن لا ينسى ان هؤلاء الرجال كانوا مستأنفين أو مكملين لحركة اصلاح أدبى بدأت على الأقل مبكرة منذ عهد الطهطاوى ، ولم يكونوا المنشئين لهذه الحركة (٥٣)، فمنذ عهده (الطهطاوى) كان كل مؤرخ مصرى مضطر الى مصارعة قضايا الأسلوب ، وكان الكثير منهم قادر على نبذ الكثير من الأساليب التقليدية فى التعبير — ولكن هذا كان على حساب خسارة كبيرة فى البراعة الأدبية (٥٤) • وعادة كان الأسلوب المباشر الصحفى المتزايد والذى فضله البعض ، مبسطا قليلا عن ما نعتبره الآن « شكل تاريخى جيد » ، وفوق هذا فان الكتاب المصريين فى ذلك العهد لم يفهموا دائما كيف يصنعون وسيلة أدبية طيبة دون الرجوع الى الأساليب الأقدم المنطوية على المفارقات التاريخية • ولم يتوقف ذلك الا حديثا عندما طوروا أسلوبا أسلم نفسه لكل الأمزجة التاريخية • وبالتناقض مع سابقيها وحتى لعقود قليلة مضت ، فان الكتابات التاريخية المصرية المعاصرة تتدفق بسهولة ويسر وتتعامل مع أكثر المفاهيم تعقيدا • لقد تحسن الأسلوب فى الحقيقة كثيرا لدرجة أن مقارنة أسلوب حسين فوزى النجار « بالأسلوب المباشر » للبعض كجورجى زيدان مثلا تجعل الأخير يبدو ساذجا ، وهو بالطبع ليس كذلك (٥٥) •

ورغم أن الأسلوب التاريخى سيتفاوت من عهد الى عهد ومن جزء واحد من العالم الى جزء آخر ، فان النماذج الأسلوبية الحديثة تدعو الى نغمة هادئة رقيقة غير مسرحية (لا نقول أقل مما تقتضيها الحقيقة) •

لقد أصبحت الأشكال الشعرية فى أيامنا هذه لا محل للتفكير فيها حيث انها تصرف المؤرخ عن هدفه الرئيسى ألا وهو شرح أو تفسير نتائج بحثه باقتصاد بقدر الامكان • على أن هذا لا يعنى — من الناحية الأخرى — ان التاريخ يجب أن يقرأ كخلاصة احصائية خلو من كل اللطف الأسلوبى • ان النثر الشعرى فى أيامنا هذه قد لا يتلألأ مثلما تلألئت مقالات ماكيولاى Macaulay (٥٦) ، ولكنه يجب أن يبسط على الأقل فى أسلوب أخاذ (٥٧) •

التأريخ الحديث فى مواجهة التأريخ التقليدى : كان التاريخ المصرى فى طريقه لأن يصبح « حديثا » منذ القرن التاسع عشر ، لهذا فان من الضرورى أن يجرى تحديد بعض العناصر التى قد يحتويها هذا التحديث فى هذا الفصل من الكتاب • من الثابت انه لم تجر محاولة لتقديم بحث

حاسم عن الكتابة التاريخية عبر العصور ، على الأصح ، فقد جرى فحص لهذه الاختلافات بين التقنيات الحديثة ، وما قبل الحديثة فقط التي تتصل بمصر القرن التاسع عشر • وسيشكل المعيار الموضوع هنا الاطار لمناقشات لاحقة تتعلق بما هو حديث وما هو ليس بحديث عن التأريخ المصرى في القرن التاسع عشر •

ان هناك جدالا أساسيا في هذا الفصل اتصل بضرورة أن تكون الكتابات التاريخية تحليلية ، مدروسة تأويلية ، حتى لو كانت هذه النتائج في انحياز معين أو حتى نفاق • وفي كل التاريخ لابد أن يوجد نوع من الانحياز (أو التفسير) • وهذا الانحياز يوجد حتى في الدراسات النموذجية لفون رانكه ، ولهذا فان السؤال الحقيقي هو ما اذا كان شكله (أى الانحياز) حميد أم ضار ، عمدى أم غير مقصود • وكمحاولة للتخلص من « المعادلة الشخصية » فى التاريخ ، فقد رأينا أن التاريخ الزمنى Chronicle محكوم عليه فى النهاية بالسقوط • والثمن الذى يدفع لمثل هذه الجهود والمحاولات كبير جدا ، حيث اننا ننتهى فى التأريخ الزمنى الى سلسلة من التفصيلات لا معنى لها ومنتشرة بغير انتظام(٥٨) • ان الكتابة التأريخية الحديثة هى مغامرة أكثر طموحا من ذلك • فهى تتطلب تعاون العقل البارع في النقد بدلا من الخوف •

الأمر الثانى ، هو انه رغم ان على المؤرخ الحديث أن يعيد التفكير والتأمل في كل ظل للمعنى والفوارق التى تضمها المادة العلمية الخام ، فان الكتابة التاريخية الحديثة الجيدة مرنة وقابلة للتكيف ولن تربط السجل التاريخى ببعض الايديولوجيات الدينية أو العلمانية (٥٩) • وعلى ذلك فعلى الرغم من أنه لا غبار على وجهات النظر الوطنية (وللحق فانه ليس من السهل تجنبها فى أغلب أحوال الكتابة التاريخية) ، الا أنه يمكن بل ويجب مهاجمتها كلما تجاهلت أو عتمت أو شوهت أجزاء هامة وذات دلالة من السجل التاريخى • هنا فان الإتهام الوحيد سيكون حول الدليل أو الحقيقة التاريخية ، التى سيفترض انها إما أن تعزز الصورة التاريخية التى رسمت واما أن توهنها •

وعن طريق مناظرة الحقيقة التاريخية فقط سنستطيع أن نقيم توازن ودقة كتابات القرن التاسع عشر التاريخية المصرية ، برغم ان المؤرخين أنفسهم ، كما سنرى ، لن يجعلوا هذه المهمة لنا سهلة • صحيح انه بالنسبة لتقاليد العصور الوسطى ، فان الكثير من المؤرخين كانوا غامضين فيما يتعلق بمصادرهم المعلوماتية • لم يستخدموا حواشى لما ورد فى المتون ، وهذه الحواشى لم تكن معروفة لكتاب عهد ما قبل الاحتراف ، وهذا بدوره يجعل من الصعب التأكد من دقة دعاوى هؤلاء المؤرخين •

أخيرا ، فانه بالنسبة للأسلوب ، فان الكتابة التاريخية الحديثة تتطلب هدوءا وأناقة فى التعبير ، لكنها تتطلب فى نفس الوقت اقتصادا فى التعبير أيضا • لقد أصبح السجع الآن نوعا من القديم الذى لا محل له ، لكن أسلوب الكتابة التاريخية لا يجب أيضا أن يكون مبسطا جدا • وحتى مع استبعاد الاعتبارات الجمالية ، فان التاريخ ببساطة لا يستطيع تحمل الفقر اللفظى ويظل متعاملا مع « الاقتناع الفكرى » فى نفس الوقت ، وهذا فى حد ذاته يعد اكتفاءا بالجدار الخارجى للحوادث دون النفاذ الى صميمها • ان أسلوب المقالة التاريخية اليوم يجب أن يعزز أثر القصة ، لكن بصورة أو بطريقة تجعل القارىء واعيا بصورة باهتة فقط بالمزايا الأدبية لما يقرأه •

حواشي الفصــل الأول

(١) هذا ليس صحيحا كلية بالنسبة لكثير من التاريخ الكلاسيكي اليوناني والروماني ، ... احداث جديرة بالذكر في الحوليات الاسلامية التقليدية : عن ذلك راجع ... ٣٠ من الفصل الثاني .

... نلخيص وتفسير للتاريخ في Burr, C. Brundage ... تقديم

"Teachers of History : Essays in Honour of Laurence Bradford P... ed. H. Stuart Hughes (Ithaca, N.Y. : Cornell University Press ...) p. 226.

... ولد في ٢١ ديسمبر ١٧٩٥ Ranke, Leopold Von ... وتوفي ٢٣ مايو ١٨٨٦ . يعتبر رانكه رائدا في تطور علم النقد التاريخي . تعلم رانكه ... ، وادخل مناهج النقد في تحليل النصوص في دراسة التاريخ الحديث . ... كتابة التاريخ على أساس الفحص الدقيق للمصادر الأولية ، وقد ضمن ... في نقد) zur Kritik neuer Geschichts chreiber ... وهو رسالة ملحقة بكتابه

History of the latin and Teutonic Nations from 1494-1514.

... في عام ١٨٢٤ والمترجم الى الانجليزية في ١٨٤٦ . وخلال تدريسه في جامعة برلين ... ١٨٢٥ نظم رانكه ندوات بحث (سمنار) درب فيها أجيالا عديدة من المؤرخين ... المناهج التاريخية . وقد مثلت هذه الندوات المخصصة لتحقيق المشاكل التاريخية على أساس الفحص التصنيفي والنقدى للوثائق أساسا جديدا في تعليم المؤرخين المحترفين .

وقد أصبحت طريقة رانكه في قيادة البحث التاريخي ، والى حد ما اسلوبه في كتابة ... نماذج لمؤرخي القرن التاسع عشر . وقد اسيء فهم رانكه في الخارج كفيلسوف ... يكيف الحقائق وفقا للظروف Fact-Oriented positivist ، لكنه كان في ... مثالي مقتنع بأن القوى الأخلاقية العظمى قد أثبتت نفسها في التاريخ . وفي أعماله ... :

— The History of the Popes (3 vols., 1834-36) ; والمترجم الى الانجليزية في ١٩٠٨

— History of the Reformation in Germany (6 Vols., 1839-47). والمترجم الى الانجليزية في ٣ أجزاء ١٨٤٥ ــ ٤٧

— Civil wars and the Monarchy in France in the sixteenth and seventeenth Centuries (5 Vols., 1852-61). والمترجم ترجمة انجليزية غير كاملة في جزءين ١٨٥٢

— A History of England Principally in the seventeenth Century ... vols. 1859-69).

والمترجم الى الانجليزية فى ستة أجزاء ١٨٧٥ ·

فى هذه الأعمال العظيمة تتبع رانكه تطور العالم الأوروبى الحديث · وقد أدى اعتماده الثقيل على الوثائق الى الاسهام فى صنع تاريخ سلط الأضواء على الشؤون الخارجية للقوى العظمى وعلى الأحداث الحربية وأعطى تأكيدا كبيرا للأفكار الدينية · ومع هذا فان هذه الأعمال أهملت المظاهر الاقتصادية ، الاجتماعية ، والثقافية فى التاريخ الأوروبى الحديث ·

المترجم Lexicon Universal Encyclopedia vol. 16.

(٤) فرانز روزنتال .
Franz Rosenthal
"A History of Muslim Historiography, 2nd ed. rev. (Leiden : E. J. Brill, 1968), p. 83.

والصعوبة الفلسفية فى هذه المناقشة هو انها تفترض وجود تاريخ حولى « نقى » ، بينما الواقع يؤكد عدم امكانية وجود هذا التاريخ فى عالمنا الحقيقى · حتى مع ان التاريخ الحولى الدقيق الجيد قد يكون موضوعيا من حيث اختيار سلسلة الأحداث ، وليس أى شىء آخر · وفقا للمصطلحات الانسانية فانه لا توجد حدود يمكن ادراكها لعدد التفاصيل التاريخية التى قد تتضمنها القصة · وعلى سبيل المثال فان حقيقة ان قيصر قد حك مرفقه وتثاءب ثلاثة وأربعين مرة قبل ان يبدأ هجومه على الغال Gaul يجب ان تذكر — فى الحولية « النقية » ·

(٥) قارن ، على سبيل المثال قول أى · هـ · كار E. H. Carr أن السنة الصحيحة التى حوربت فيها معركة هاستنجز Hastings هى بالنسبة للمؤرخ اقل ما يكون من مظاهر الدلالة الخاصة بهذه الواقعة ·

"What is History ? (New York : Random House, Inc., Vintage Books, 1967), pp. 7-8.

وقد حوربت هـــذه المعركة فى ٤ أكتوبر ١٠٦٦ قرب هاستنجز Hastings فى شرقى سسكس Sussex بانجلترا ، حيث هزم جيش غاز يقوده ويليام William دوق نورماندى ، قوات الملك هارولد الثانى Harold II ملك انجلترا الذى قتل أثناء المعركة وتولى ويليام العرش الانجليزى تحت اسم ويليام الأول · وفى سجادة بايو Bayeux Tapestry رسم دقيق لهذه المعركة التى تسجل بداية الفتح النورماندى ·

المترجم Lexicon Universal Encyclopedia vol. 10.

(٦) حول هذا المفهوم انظر ر · ج كولينجوود R. G. Collingwood
"The idea of History" (London, Oxford and New York : Oxford University Press, 1956), p. 213. وما بعدها ·

قارن أيضا R. G. Collingwood
"Essays in the Philosophy of History
مع مقدمة لويليام ديبينز William Debbins
(New York : McGraw-Hill Book Co., 1966), pp. xvi-xx.

(٧) الفضل يعود للجهود التى بذلها رجال مثل بنيدتو كروسه Bendetto Croce ، فيلهلم ديلتى Wilhelm Dilthey ، جيمس هارفى روبنسون James Harvey Robinson وكولينجوود نفسه ، الذين جاهدوا بعناد ضد أضعاف التاريخ على هذه الطريقة · أما النقيض الآخر فيحتمل أن يكون لورد آكتون Lord Acton ، الذى تمسك بحرية المؤرخين فى ان يضمنوا كتاباتهم أحكاما أخلاقية · وقد اعتبر هذا بصدق بواسطة أغلب

بالعروض على انه انتقال مفاجيء جزئي وعلى ذلك فهو خطير للغاية ، رغم ان آكتون لم يكن ... المؤرخ الوحيد الذى مارس مثل هذه الاعتقادات • عن الدفاع عن وضع آكتون من جانب زميل عالم آخر ج • ج • كولتون G. G. Coulton
"Some Problems in Medieval Historiography" Proceedings of the British Academy 18 (1932), 176-77.

(٨) بيج سميث Page Smith
"The Historian and History (New York : Random House, Vintage Books, 1966), pp. 143-44 156.

(٩) انظر Collingwood, "Essays in the Philosophy of History, pp. 23-33 and Carr. "What is History, pp. 7-10.

(١٠) هذا هو ما سبب الهجمات على التاريخ ابتداء من ديكارت Descrartes وحتى هنري فورد Henry Ford • ورينيه ديكارت Descartes, René نابغة رياضي Mathematical وفيلسوف متطور • ولد فى لاهاى La Haye بفرنسا فى ٣١ مارس ١٥٩٦ وتلقى تعليمه المبكر فى كلية الجيزويت بفليش La Flèche • وهناك علم الفلسفة مؤسسة على فكر فرنشسكو سواريز Francisco Suarez • لكن الفلسفة السواريزية ... بحثه ووجد الرياضيات أكثر قربا من تذوقه العلمى • فى ١٦١٦ حصل على درجة فى القانون من جامعة بواتييه Poitiers حيث درس فيها الطب أيضا • فى ١٦١٨ - ١٩ خدم فى جيوش القائد الهولندى موريس أوف ناساو Maurice of Nassau وماكسيميليان الأول Maximilian I دوق بافاريا Bavaria • وخلال ذلك الوقت كان يحلم بمعالجة كل القضايا الفلسفية بمنهج رياضى وحيد •

فى باريس بين ١٦٢٦ و ١٦٢٨ حثه الكاردينال دى بيرول de Bérulle ان يكتب « ضد المشككين والملحدين » • وقد استجاب ديكارت لهذا المطلب وبدأ فى كتـابة Regulae ad directionem in genii (Rules for the Direction of the Mind) وقد ترك ديكارت هذا العمل ناقصا ثم نشر بعد موته عام ١٧٠١ • نحو نهاية ١٦٢٨ استقر ديكارت فى هولندا ، حيث تابع اهتماماته الرياضية والعلمية والفلسفية • وحافظ على صلاته العريضة بالعديد من المثقفين الأوروبيين • وفى ١٦٣٧ نشر Geometry, Meteors, Dioptrics وارفق ديكارت بهذه الأعمال عمله الشهير Discourse de la méthode (Discourse on Method) والذى نشر فيه المعالم الرئيسية لمنهجه وفلسفته • فى ١٦٤١ نشر عمله الفلسفى الرئيسى Meditationes de prima philosophia (Meditations on first Philosophy) • وقد صاحب هذا العمل ستة مجموعات من الاعتراضات ضد فلسفته من جانب فلاسفة وعلماء لاهوت مختلفين الى جانب اجاباته هو على هذه الاعتراضات • وفى عام ١٦٤٤ خرج ديكارت بعمله (Principia philosophia) Principles of philosophy الذى قدم وجهات نظره بطريقة سكولاستية (فلسفة نصرانية سادت فى القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة ، بنيت على منطق أرسطو ومفهومه لما وراء الطبيعة ولكنها اتسمت فى أوروبا الغربية باخضاع الفلسفة للاهوت • وبعد توما الأكوينى Thomas d'Aquino الذى سعى الى اقامة صلة بين العقل والدين فى عمله العظيم Summa Theologiae ، من أبرز رجال هذه الفلسفة) كان يأمل الى ... كتاب مدرسى • ترك ديكارت هولندا فى ١٦٤٩ بناء على طلب الملكة كريستينا Christina ملكة السويد حيث تولى تثقيفهـا حتى وفاته بالالتهاب الرئوى فى ١١ فبراير ١٦٥٠ •

المترجم
Lexicon Universal Encyclopedia vol. 6.

(١١) قدمت هذه الفكرة في الوقت الحالى بوضوح وفعالية للقارىء العربى فى كتيب لقى شعبية كبيرة • انظر قسطنطين زريق « نحن والتاريخ » (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٣) ، ص ٥٧ •

(١٢) قارن كولينجوود The Idea of History, p. 246.

(١٣) ولد الفيلسوف والعالم النفسى ويليام جيمس William James, فى نيويورك فى ١١ يناير ١٨٤٢ وتوفى فى ٢٦ اغسطس ١٩١٠ • كان جيمس احد المؤسسين والمناصرين للمذهب العملى (Pragmatism) او فلسفة الذرائع (فلسفة أمريكية تتخذ من النتائج العملية مقياسا لتحديد قيمة الفكرات الفلسفية وصدقها) • ابن للفيلسوف هنرى جيمس الاكبر ، وأخ للروائى هنرى جيمس • التحق بمدارس فى اوروبا وفى ١٨٦١ دخل كلية هارفارد • وفى ١٨٦٤ حصل على درجته العلمية وشرع فى دراسته فى مدرسة هارفارد الطبية • هناك ، اصبح عضوا فى (النادى الميتافيزيقى) وهو تجمع غير رسمى كان يلتقى لمناقشة الفلسفة ، وضم شارلز بيرس Charles Peirce ، اوليفر وندل هولمز الأصغر Oliver Wendel Holmes وشونسى رايت Chauncy Wright الذين أصبحوا فيما بعد من مشاهير الحركة البراجماتية • بعد حصوله على درجته العلمية فى الطب • عانى جيمس فترة من المرض لكنه فى ١٨٧٣ أصبح قادرا على قبول وظيفة كمحاضر للتشريح وعلم وظائف الأعضاء ، ثم الفلسفة فى عام ١٨٧٩ • وقد استمر جيمس فى هارفارد باستثناء بعض الانقطاعات القليلة فى وظيفته الأكاديمية ، حتى استقال عام ١٩٠٧ • وتعتبر أعمال هربرت سبنسر Herbert Spencer وجون ستيوارت ميل John Stuart Mill ذات تأثير هام فى التفكير المبكر لجيمس • كذلك كان هنرى برجسون Henri Bergson هاما بصفة شخصية وفلسفية فى السنوات الأخيرة لجيمس ، مثلما كان جون ديوى John Dewey الذى تولى قيادة الحركة البراجماتية بعد وفاة جيمس •

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 11.

المترجم

(١٤) الاستشهاد من نسخة فريتز سترن Fritz stern "The Varieties of History" (Cleveland and New York : The World Publishing Co., Meridian Books, 1956), p. 26.

(١٥) على سبيل المثال يحدد كار E. H. Carr بذكاء « الموضوعية التاريخية » بما يشابه الادراك بأن المرء لا يستطيع أن يكون موضوعيا • انظر كار Carr "What is History" ? p. 163.

(١٦) يشعر جب Gibb بأن الآثار الضارة للوطنية على التاريخ العربى قد خففت نتيجة للظهور المتزامن للحتمية العلمية وتطور المنهجية النقدية التاريخية •

انظر H. A. R. Gibb "Modern Trends in Islam" (Chicago : University of Chicago Press 1947), pp. 108-9.

وقد يكون من المشكوك فيه ان أثر الحتمية العلمية على التاريخ كان مفيدا كلية • على الجانب الآخر فان المنهجية النقدية التاريخية ، كانت ببساطة واحدة من مظاهر الاحتراف المتزايد للدراسات التاريخية ويحتمل ان تكون قد ساعدت على تقليل بعض الافراطات المعينة • لكنها مع هذا ، لم تقض على الوطنية تماما من الكتابات التاريخية •

(١٧) كان جين بودين Jean Bodin المولود حوالى ١٥٣٠ والمتوفى فى يولية ١٥٩٦ فيلسوفا فرنسيا ، ورجل دولة ، ورجل قانون • قام بتدريس وممارسة القانون فى تولوز Toulouse حتى ذهب الى باريس فى سن الأربعين • وهناك انضم الى حزب Politique واصبح شخصية بارزة فى حاشية فرانسو دى فالوا Francois de Valois الابن الأصغر

... Catherene De Medicis • فى ١٥٧٦ عارض بودين قمعا جرى

... وكلفه هذا الحرمان من العطف الملكى • خفضت درجته الى وظيفة صغرى فى لاون

... الترجمة اللاتينية لكتابه "Six Books of the Republic"

... (1586) ; mo ... والمعتبر كتابا رئيسيا فى النظرية السياسية • كان

... من ابرز علماء عصره • وقد اثرت نظرياته وتعريفاته الفكر السياسى فى

... اللاحقة •

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 3.

المترجم

(١٩) عن « انسانية » فون رانكه ، ومدرسته ، ومناقشة ثرية لهما انظر :

A.J.P. Taylor, "Englishmen and others" (London : Hamish Hamilton, 1956), pp. 14-17.

(١٩) وهكذا فان أشهر مؤرخ لمصر فى أيامنا هذه يستطيع — كنتيجة للاحباطات التى ... مع الولايات المتحده ودعمها لاسرائيل فى الوقت المعاصر ، ان يكتب أن الولايات ... الأمريكية كانت منذ البدايات أمة امبريالية • ولاثبات ذلك فانه يحتاج ببساطة الى التركيز على أكثر المظاهر السلبية لمبدأ مونرو 'the Monroe Doctrine, ... فى الجنوب الأمريكى ، المعاهدة المنكوث بها مع الهنود ، فتح الجنوب الغربى الأمريكى ، ... ، بنما ، الفيلبين ، والحرب الفيتنامية ، الخ • لتفاصيل أكثر انظر مقالة محمد أنيس « أمريكا والعزلة » — الجمهورية ١٩ فبراير ١٩٦٨ •

(٢٠) طريقة المجادلة المستخدمة هنا هى نفسها مثل رائع لما ينبغى ان يحتويه الانحياز من لطف ورقة • والبراعة الفنية التى تجنى غالبا من كتابات المستشرقين الغربيين يمكن صياغتها كالتالى : حتى لو كان الغرب (أضف كلمة المستنير) مذنبا فى شىء • فان وجود ... الشىء فى الشرق الأوسط (أضف كلمة الجاهل) لا يجب أن يدان بقسوة •

(٢١) نادر شاه ، الفاتح الآسيوى العظيم ، ولد فى ٢٢ أكتوبر ١٦٨٨ ، وتولى منصب شاه ايران من ١٧٣٦ حتى ١٧٤٧ • أسس حكم الأفشار القصير الأمد فى ايران • ولد نادر شاه فى خراسان ، وكان أبوه زعيما لقبيلة الأفشار التركية ، وتعاظم نفوذه سراعا بعد ١٧٢٦ وسط الاضطراب الذى صاحب تمزق الحكم الصفوى على يد الأفغان • وكفارس قائد عظيم ، طرد نادر شاه الحكام الأفغان ووضع على العرش (١٧٣٢) عباس الثالث ، الطفل القاصر لآخر الشاهات الصفويين ، بينما أصبح هو وصيا على العرش •

فى ١٧٣٦ حصل نادر على اللقب الامبراطورى • وحارب كل الدول التى تجاوره ، ففى الغرب هزم العثمانيين واستولى على بغداد عام ١٧٣٣ • وفى الشمال صد روسيا فى القوقاز • وفى الشرق حقق نجاحا مذهلا يغزو الهند • فى ١٧٣٩ سحق الجيوش المغولية ، واحتل دلهى ، وعاد الى ايران بغنائم ضخمة كان من بينها ماسة كو — هى — نور Koh-i-noor وعرش الطاووس • كان نادر شاه اداريا غير كفء ، قاسيا ، غير متسامح مع المعارضين • أعمى ابنه ووريثه عندما شك فى اشتراكه فى مؤامرة ضده • وأخيرا نجح الزعماء الدينيون وضباط الجيش الساخطون فى اغتياله فى يونيو ١٧٤٧ •

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 14.

المترجم

(٢٢) فيروز كاظم زاده

Firuz Kazem Zadeh

"Iranian Historiography", "Historians of the Middle East

تحرير برنارد لويس Bernard Lewis وب•م هولت P. M. Holt

(London, New York and Toronto, Oxford University Press, 1962), p. 432.

(٢٣) ويضيف حوراني Hourani بصورة صحيحة جدا ، كيف أن الأمر مفهوم . وبالنسبة لهم فان لبنان يجب أن يكون له بعض الدلالة كبلد .

انظر البرت حوراني Albert Hourani

"Historians of Lebanon", Historians of the Middle East, p. 241.

(٢٤) على سوافي Ali Suavi صحة اسمه على صو آوى ـ صو تعنى ماء ـ آوى التى تنطق آفى تعنى فيها آف الصيد فتكون صو آفى صيد البحر (على صو آفى) ـ ولد فى استانبول ١٨٣٩ وتوفى بها فى ١٨٧٨ . بعد انتهاء فترة تعليمه المدرسى عمل مدرسا فى المدارس الرشدية فى فيليبه ، وبورصة ، ثم مديرا لمدرسة (سلطانية غلطة سراى) . أبعد الى قسطمونى بسبب مقالاته بجريدة (مخبر) ، وعظاته فى المساجد . هرب من منفاه الى أوروبا فأصدر صحيفتى (فجر) فى لندن ١٨٦٧ ، و (العلوم) فى باريس ١٨٧٠ ثم عاد الى استانبول فى ١٨٧٦ بعد عهد عبد العزيز وتولى مراد الرابع الحكم . فى عهد عبد الحميد الثانى قتل المترجم ضربا بالعصا فى ٢٥ مايو ١٨٧٨ على يد حسن باشا محافظ بشيكتاش عقب هجومه على القصر بصحبة ٦٠٠ رجل من اجل اعادة مراد الرابع الى الحكم . يعتبر على صو آوى احد أشهر الكتاب الاتراك فى مجال السياسة والفلسفة ومن أبلغ علماء الاسلام .

المترجم Seyit Kemal Kara Ali Oglu "Turk edebiyat Tarihi" Inkilap ve Aka kitabvleri - Istanbul 1978, pp. 233-35.

(٢٥) ارجمند كوران Ercüment Kuran

"Ottoman Historiography of the Tanzimat Period", Historians of the Middle East, p. 428.

(٢٦) خليل اينالجيك Halil Inalcik

"Some Remarks on the Study of History in Islamic Countries". The Middle East Journal 7 (1953) : 453-54.

(٢٧) ل . بوفات L. Bouvat

"La presse égyptienne," Revue du Monde Musulman 1 (1906) : 279.

(٢٨) عن الشعر المصرى انظر محمد عبد المعيد خان Muh. Abdul Muid Khan

"Modern Tendencies in Arabic Literature," Islamic Culture 15 (1941) : 322.

وللقصة المصرية الحديثة انظر على سبيل المثال توفيق الحكيم « عودة الروح » حيث يخاطر الأثرى فوكية Fouquet المفتش البريطانى عن جمال مفتر القائمش .

انظر توفيق الحكيم « عودة الروح » (القاهرة : مكتبة الأدب ، بدون تاريخ) ، ٥٩ ـ ٦٠ .

(٢٩) انور شيجنه Anwar Chejne

"The Use of History by Modern Arab Writers" The Middle East Journal 14 (1960) : 383.

(٣٠) هـ . أ . ر . جب H.A.R. Gibb

Problems of Middle Eastern History"

Studies on the Civilization of Islam. eds. Stanford Shaw and William R. Polk (Boston : Beacon Press, 1962), p. 339.

(٣٠) بالنسبة لمصر ، فان شيجنه Chejne يدعم قضيته بالاستشهاد بأعمال طه حسين ، محمد حسين هيكل ، وعباس محمود العقاد . انظر له (شيجنه)
"The use of History by Modern Arab Writers," pp. 387-89.

وهذه الثقافة غربية ، حيث انه لا أحد من الأشخاص الذين ذكروا يمثل حقيقة التاريخ المصري الحديث ، وليس أحد منهم يعرف مبدئيا بانه مؤرخ .

(٣٢) زريق « نحن والتاريخ » ص ١٠٢ – ١٠٣ .

(٣٣) روزنتال Rosenthal
Muslim Historiography," p. 9.

(٣٤) القديس اوغسطين Saint Augustine (٣٥٤ – ٤٣٠ م) ، لاهوتي وفيلسوف كاثوليكي ، حاول التوفيق بين الفكر الأفلاطوني والعقيدة النصرانية . ولد في طاجسته Thagaste المسماة الآن (سوق أهراس) بالجزائر . وتلقى تعليما كلاسيكيا في الأدب اللاتيني مكنه من التخلص من تربيته الاقليمية . ثم تلقى تدريبا في قرطاج Carthage في البيان والبلاغة والخطابة العمومية Public Oratory – التي كانت في ذلك الزمان شرطا لتولى المناصب القضائية أو السياسية في الامبراطورية الرومانية . أصبح مدرسا للبلاغة في قرطاج ، روما ، وأخيرا في ميلان وهي مناصب حكومية في ذلك الوقت . في ميلان عام ٣٦٨ اجتاز اوغسطين تحولا دينيا . استقال من منصبه العام وتلقى المعمودية من امبروز Ambrose أسقف ميلان ، وعاد سريعا الى شمال افريقيا . في عام ٣٩١ رسم قسيسا في هيبو ريجيوس Hippo Regius المسماة حاليا بونه Bone بالجزائر . ثم أصبح اسقفا بعد خمس سنوات .

يمكن ان يرى الجزء الأول من حياة اوغسطين (٣٩١) كسلسلة من المحاولات للتوفيق بين عقيدته المسيحية وثقافته الكلاسيكية . تبنى اوغسطين المانوية Manichaeism وهي فلسفة دينية علمت من القرن الثالث الى السابع الميلادي بواسطة الفارسي ماني (٢١٦ ؟ – ٢٧٦ ؟ م) أو مانيشيوس وأتباعه ، ضمت هذه الفلسفة الزرادشتية ، وعناصر من الحكم والقواعد السلوكية gnome ، والمسيحية ، والوثنية – ومؤسسة على مذهب مبدأين متجادلين (الخير = الضوء ، الاله ، الروح) و (الشر = الظلام ، الشيطان ، الجسد) . وتدعى هذه المانوية بتوفير مسيحية عقلانية على أساس نص مطهر من الكتاب المقدس . لكن اوغسطين تحرر بعد تسع سنوات من المانوية والوهم . في ميلان اكتشف اوغسطين خلال كتب الأفلاطونية المحدثة Neoplatonism (مذهب نشأ في القرن الثالث الميلادي ، عبارة عن الفلسفة الأفلاطونيـة معدلة بحيث تنسجم مع المفاهيم الأرسطوية والشرقية . تصور أصحاب هذا المذهب العالم فيضا منبثقا عن الذات الالهية التي تستطيع الروح الاتحاد بها في حالة الانجذاب الصوفي) ، شكلا من الفلسفة بدا متفقا مع العقيدة المسيحية . وانتهى هذا به الى ذلك التحول الدرامي الذي أدى به الى ان ينذر حياته للسعي وراء الحقيقة التي اكتشف انها تتماثل مع المسيحية . وعاد الى شمال افريقيا مع مجموعة من الأصدقاء . وفي (سوق أهراس) أسس مجتمعا دينيا مخصصا للبحث الثقافي للرب . وفي مجال عمله كراهب وأسقف سادت المناقشات والمجادلات حياته ، وذلك خلال نضاله ضد الدوناتيين Donatists اتباع الأسقف Donatus أسقف قرطاج في القرن الرابع الميلادي ، والبيلاجيوسيين (أتباع بيلاجيوس Pelagius ٣٦٠ – ٤٢٠ تقريبا – الراهب البريطاني الذي أنكر الخطيئة الأصلية وقال بحرية الارادة التامة) – وكلاهما اتجاهان منشقان تعارض آراؤهما مع جوهر العقيدة المسيحية عند غالبية المسيحيين . ومن بينهم فلسطين بالطبع . ويجب ان يعتبر أوغسطين أحد مهندسي المسيحية الموحدة التي قاومت الغزوات البربرية في القرن الخامس وبقيت الديانة الأساسية لأوروبا العصور الوسطى .

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 2. المترجم

(٣٥) آلاريك الأول Alaric I ملك القوط الغربيين Visigoths (حوالى ٣٧٠ – ٤١٠) • سجل استيلاءه على روما فى ٤١٠ الانهيار النهائى للامبراطورية الرومانية فى الغرب • كان آلاريك هو قائد المرتزقة من القوطيين الغربيين فى الجيش الرومانى ، ثار فى ٣٩٥ م ونودى به ملكا من جانب قواته • قاد جيشه نحو القسطنطينية ومنها الى اليونان ، حيث حصل على فائدة متزايدة من الانقسام بين قسمى الامبراطورية الشرقى والغربى • فى ٣٩٧ أعطى (أركاديوس) امبراطور الشرق القيادة العسكرية فى ايلليريا Illyria الى آلاريك ، ومنها بدأ (٤٠١) غزوا لايطاليا • بعد ارغامه على الانسحاب مرتين (٤٠٢ ، ٤٠٣) بواسطة فلافيوس ستيليكو Flavius Stilicho بعد اعدام الأخير فى (٤٠٨) • انتهى حصاراه الأولان لروما فى (٤٠٨ ، ٤٠٩) بواسطة المباحثات ، لكنه فى ٤١٠ عصف بالمدينة • ومات بينما كان يعد لغزو أفريقيا راجع

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 1.

المترجم

(٣٦) لتفاصيل أكثر عن القديس أوغسطين St. Augustine ، انظر Matthew A. Fitzsimons ، الفريد ج • بونت Alfred G. Pundt وشارلز نويل Charles E. Nowell فى "The Development of Historiography" (Port Washington, N.Y. : Kennikat Press, Inc., 1968), p. 13.

عن ابن الأثير انظر عمله « الكامل فى التاريخ » – بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٩٦٦) المجلد ١٢ ص ٣٥٩ •

(٣٧) نيكولو ماكيافيللى Machiavelli, Nicolo. (٣ مايو ١٤٦٩ – ٢٢ يونيو ١٥٢٧ بفلورنسا) سياسى ومنظر عسكرى ومؤرخ ومؤلف ودبلوماسى ومخطط عسكرى • من أهم أعماله (الأمير) الذى صدر عام ١٥١٣ • بدأت حياته السياسية عام ١٤٩٨ عندما عمل سكرتيرا ومستشارا ثانيا فى جمهورية فلورنسا • وبذلك المنصب أصبح موظفا مدنيا كبيرا بمسئوليات دبلوماسية وادارية متعددة • وخلال بعثاته الدبلوماسية بالخارج ١٤٩٩ – ١٥٠٨ التقى بالكثير من الشخصيات السياسية القوية فى ذلك العصر • بعد سقوط الجمهورية عام ١٥١٢ بواسطة آل مديتشى Medici تم سجن ماكيافيللى وتعرض للتعذيب • بعد الافراج عنه فى ١٥١٣ تقاعد فى مزرعة عائلته وبدء الكتابة • لكنه كان لا يزال كبير الأمل فى العودة الى نشاطه السياسى السابق ، وقد تحقق هذا الأمل فعلا فى عام ١٥٢٥ عندما استدعاه آل مديتشى للخدمة لمدة قصيرة • تأسست أفكار ماكيافيللى السياسية على أحداث عصر النهضة • خلال عصره كانت شبه الجزيرة الايطالية مسرح صراع بين أربعة مدن ودول مسيطرة هى (فلورنسا – ميلان – البندقية – نابولى – البابوية – فرنسا – اسبانيا ، والامبراطورية الرومانية المقدسة) • فى الصراع بين هذه القوى حاولت كل مدينة ان تحمى نفسها باستخدام قوة ضد أخرى ، واستئجار الجيوش المرتزقة الأجنبية غير الخاضعة لسيطرة • وكانت النتيجة هى مؤامرات سياسية وتهديد وعنف • نتيجة لحركة اصلاحية فى فلورنسا موحى بها من قبل جيرولامو سافونارولا تم طرد أسرة مديتشى الحاكمة واقامة جمهورية فى (١٤٩٤) ظلت قائمة حتى هزيمة المليشيا الوطنية التى أسسها ماكيافيللى عام (١٥٠٦) على يد القوات الاسبانية عام (١٥١٢) • وقد أثرت هذه الأحداث فى كتابة ماكيافيللى • ففى خاتمة كتابه (الأمير) دعا ماكيافيللى الى نبذ القوات المرتزقة وحبذ الوحدة الايطالية وانهاء التدخل الأجنبى •

راجع Lexicon Universal Encyclopedia vil. 13.

[illegible] فرنسسكو جيوكارديني Guicciardini, Francesco (٦ مارس ١٤٨٣ –
[illegible] ١٥٤٠) وقد كان رجل دولة ايطاليا ، مؤرخا ، ومفكرا سياسيا ينتمى الى عصر النهضة
Renaissance [illegible] تعلم أدب الاغريق والرومان classics والقانون · كتب فى ١٥٠٩
[illegible] قبل ان ينطلق نحو تاريخه السياسى المشرق · فى ١٥١٢ خدم فى الجمهورية
[illegible] كسفير عند بلاط فرديناند الثانى الأرغونى Ferdinand II of Argon
[illegible] البابا ليو العاشر Leo x حاكما لمودينا Modena فى ١٥١٦ ثم حاكما لولايات
[illegible] Reggio وبارما parma عام ١٥١٧ · فى ١٥٢٤ عين حاكما بابويا لروماجنا
Romagna · وبعد هزيمة الفرنسيين فى معركة بافيا Pavia (١٥٢٥) ساعد
جيوكارديني فى تكوين عصبة كونياك Cognac ضد الامبراطور شارل الخامس امبراطور
الامبراطورية الرومانية المقدسة · ناصر جيوكيارديني آل لمديتشي فى احياء ١٥٣٠ لكنة تقاعد
[illegible] فى ضيعته فى اركيترى Arcetri · هناك كتب تاريخ روما المطول كشاهد عيان
من ١٤٩٤ – ١٥٣٤ ، وتقع عمله ريكوردى Ricordi ، قواعد سلوك Maxims
فى السياسة ، والطبيعة الانسانية · وباعتباره كلبيا Cynical (شاك فى طيبة الدوافع
البشرية ، ومرائيا واقعيا أكثر من معاصره الأكبر نيكولو ماكيافيللى ، فان جيوكيارديني
[illegible] لافتقاره للمثالية ونظرته المتشائمة للجنس البشرى ·

راجع Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 9.

المترجم

(٣٨) الغائية Teleology هى دراسة الأشياء أو الأحداث من حيث أغراضها أو نهاياتها · ومن ازمنة قديمة ، ظن كثير من الفلاسفة والعلماء أن الأنشطة الطبيعية العديدة والمختلفة يمكن تفسيرها فقط من حيث الأغراض التى تحققها أو الأهداف التى تصل اليها · وفى فيزياء Physics أريستوتل Aristotle قدمت اربعة أنواع من التفسير ، لكن أهم هذه الأنواع كانت المتصلة بالأغراض (تيلوس télos باليونانية) ، أو الأهداف النهائية ، أو التغير الطبيعى · وبتطبيق هذه الغائية (من الغاية) على الدنيا وأحوالها بالنسبة للانسان فقد ظهرت مسألة وجود الله فى جدل غائى انتهى الى ان الأغراض التى وجدت فى الطبيعة احتاجت الى مصمم ذى عزم ، أو الله ؛

راجع Lexicon Universal Encyclopedia, Vol. 19.

المترجم

(٣٩) فيتزسيمونس Fitzsimons
"Historiography" p. 101.
ويقال ان التاريخ البريطانى الحديث قد بدأ لنفس الأسباب بالتفاصيل حول نهاية القرن السابع عشر ·

J.R. Hale "The Evolution of British Historiography : From Bacon to Namier

ج · آر · هيل
(Cleveland and New York : The World Publishing Co. Meridian Books, 1964), pp. 9-10.

(٤٠) من بين هؤلاء الذين استخدموا التاريخ ليحاولوا تسوية الادعاءات الدينية المختلفة – ارازموس Erasmus ، ريتشارد سيمون Richard Simon ، بيير بيل Pierre Bayle ، فولتير Voltaire ، ريوس Reuss ؛ فيلهاوزن Wellhausen الخ ·

(٤١) القديس ايزيدور الاشبيلي Isidor of Seville, Saint (حوالي ٥٦٠ – ٦٣٦) ، كان رجل كنيسة اسبانيا ، وموسوعيا يعتبر عامة آخر آباء الكنيسة الغربيين . خلف اخاه الاكبر ليندر "Leander عام ٦٠٠ كأسقف لاشبيليه ، وراس (٦٣٣) المجمع القومى الرابع فى طليطلة (Toledo) . تمتع ايزيدور بنفوذ عريض فى إسبانيا وقام بالتوحيد بين المسيحيين الأرثوذكس الرومان والقوط الآريين .

ويعتبر ايزيدور جامعا ومصنفا اكثر منه مفكرا أصيلا . وقد غطت كتاباته الموسوعية كل نواحى المعرفة فى زمانه واستخدمت ككتب دراسية بواسطة التلاميذ وكمصادر للمؤلفين خلال العصور الوسطى . ويعتبر Etymologiae (Origins) أحسن أعماله المعروفة ، وهو خلاصة وافية للمعرفة الكلاسيكية . كذلك فان كتابه

Historia de Regibus Gothorum, Vandalorum et Suevorum (History of the Reigns of the Goths, Vandals, and suevi

من اهم كتب التاريخ فى عصره . وقد اكسبته كتاباته اللاهوتية والتوراتية مكانا بين دكاترة الكنيسة . ونظرا لما عرف عنه من الاحسان الى الفقراء ، فقد ضم الى قائمة القديسين فى ١٥٩٨ .

راجع Lexicon Universal Encyclopedia vol. 11

المترجم

(٤٢) عن المدائنى انظر H.A.R. Gibb
"Tarikh", Studies on the Civilization of Islam, p. 115.

(٤٣) قد يشعر جاليليو Galileo بان لا شيء قد تغير كثيرا ، حيث يبعث بفجاة فى الاتحاد السوفييتى ويشهد مبادرة ستالين الصليبية ضد « نظرية النسبية » على أساس أنها تتعارض مع المادية الجدلية dialectical materialism (لنظرية تعتبر الأســـاس الفلسفى للماركسية وتقول بأن المجتمع البشرى يتطور بسلسلة من التناقضات ، فالمجتمع الرأســـمالى مثلا يحدث نقيضته antithesis ، البروليتاريا ، فتقضى هذه بدورها الى تقويضه) .

عن هذا الموضوع انظر ميلوفان دجيلاس Milovan Djilas
"The Unperfect Society : Beyond the New Class",

ترجمة دوريان كوك Dorian Cooke
(New York : Harcourt, Brace and world, Inc., 1969), p. 69 ff.

(٤٤) باستثناء فترة فاصلة قصيرة شاذة فى التاريخ اللاتينى عندما لعب النثر دورا أكثر اهمية .

عن هذا الموضوع انظر مايكل جرانت Michael Grant
"The Ancient Historians"
(New York : Charles Scribner's sons, 1970), pp. 89, 115, 136-43, 184.

(٤٥) مارى شولتز Marie Schulz
Die lehre von der historischen Methode beiden Geschichtschreibern des Mittelalters, Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte, no. 13, (Basel : Verlag für Recht and Gessellchaft A. G., 1909), pp. 86-97.

(٤٦) د . س . مارجوليوث D. S. Margoliouth
"Lectures on Arabic Historians
(Calcutta : Calcutta University Pres', 1930), p. 155.

(٤٧) الموقر بيد Venerable Bede مثقف انجليزى من أتباع القديس بنيديكت Benedict — ولد حوالى ٦٧٢ وتوفى مايو ٧٣٥ . كان أعظم علماء عصره . كتب عن كل فروع المعرفة بما فى ذلك النحو والصرف ، القياس ، الاملاء ، التشبيه والاستعارة ، التاريخ (الحوليات) ، اللاهوت ، والتاريخ . والف ملخصا لأعمال الطبيعيين الرومان . ويعد Ecclesiastical History of the English People الذى اكمل عام ٧٣١ من أهم اعماله ويعد مصدرا هاما للتاريخ الانجليزى المبكر . وقد تميز بيد كمؤرخ بنفاذ بصيرته وقدرته على الفهم والتعويل عليه . وقد منح لقب Venerable من مجمع آخن فى ٨٠٣ وأصبح قديسا ودكتور كنيسة فى ١٨٩٩ .

راجع Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 3.

المترجم

(٤٨) روزنتال Rosenthal
"Muslim Historiography", pp. 176-85.
وبه تعززت فى نفس الوقت القيمة الشعرية للتاريخ .

(٤٩) برنارد لويس Bernard Lewis,
"History-Writing and National Revival in Turkey",
Middle Eastern affairs 4 (1953) : 219.

(٥٠) عمر الدسوقى « فى الأدب الحديث » — القاهرة — دار الفكر العربى ، ١٩٦٦) المجلد الأول — ١٣ .

(٥١) هـ . أ . ر . جب H.A.R. Gibb
"Studies in Contemporary Arabic Literature",
Bulletin of the School of Oriental and African Studies (1926-28).
وتسمى فيما بعد BSOAS

(٥٢) جمال الدين الشيال "Historiography in Egypt" Historians of the Middle East, pp. 417-18.

(٥٣) محمد عمارة « الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى » المجلد الأول : التمدن والحضارة والعمران (بيروت — المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣) ص ٩٨ .

(٥٤) ويكشف فيروز كاظم زاده Firuz Kazemzadeh عن ظاهرة مماثلة تتصل بالتاريخ الايرانى الحالى ، الذى يقول عنه انه أكثر دقة ويعول عليه من الكتابات الأقدم ، لكنه « كئيب وغير رقيق » ، وانه فى بعض الأحيان يكون عبارة عن ترجمات تذكرية من الدرجة الثانية من لغة أجنبية قد يكون بعض منها جيدا جدا فى الحقيقة .

راجع كاظم زادة Kazemzade,
"Iranian Historiography" p. 434.

(٥٥) حسين فوزى النجار كاتب مقال مصرى معاصر موهوب ، كتب مقالات فى التاريخ والمؤرخين والتاريخ فى دوريات مختلفة كما كتب ترجمة لأحمد لطفى السيد . وتميل آراؤه كثيرا الى اليسار ، لكنه يمتلك القدرة الاسترجاعية للتفكير العميق والأصالة . واسلوب النجار نموذجى ودلالى indicative للنضوج الأدبى الكامل للمؤرخ المصرى .

(٥٦) توماس بابينجتون ماكيولاى Macaulay, Thomas Babington
(٢٥ أكتوبر ١٨٠٠ ــ ٢٨ ديسمبر ١٨٥٩) ــ مؤرخ انجليزى ، كاتب مقال ، ورجل دولة ــ مؤسس مدرسة الهويج للتاريخ • صاحب دور كبير فى البرلمان الانجليزى منذ ١٨٣٠ فيما يتعلق بالاصلاح والتسامح الدينى ــ شارك فى قانون الاصلاح عام ١٨٣٢ ونادى بتوسيع حق الانتخاب ــ خدم فى الهندبين ١٨٣٤ ــ ١٨٣٨ ــ كتب فى ١٨٤٣ Critical and Historical Essays ، ثم كتب بعد ذلك تاريخه الشهير History of England from the Accession of James the second

راجع Lexicon Universal Encyclopedia, Vol. 13.

المترجم

(٥٧) جون هيجام ، ليونارد كريجر وفيلكس جيلبرت
John Higham, Leonard Krieger and Felix Gilbert
History (EngleWood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, Inc., 1965). المقدمة

(٥٨) قارن الاقتباس من بترفيلد Butterfield فى بداية المقدمة •

(٥٩) فى هذا المقام فانه يمكن القول ان "Mirrors of Princes" فى شأن العصور الوسطى الاسلامية ، والتى تهدف الى تعليم الدروس الأخلاقية العامة والسياسية ، كانت أكثر حداثة عن التاريخ الماركسى فى القرن العشرين •

عن Mirrors of Princes انظر جب Gibb, "Ta'rikh", p. 121.



الفصل الثاني

الارث الاسلامي

في الفصل السابق وضع عدد من المعايير العامة للمفاضلة بين الاقتراب الحديث والوسيط من الكتابة التاريخية · وستقدم هذه المعايير فيما بعد أحد المفاتيح لفهم كتابات القرن التاسع عشر · أما المفتاح الآخر فهو يعنى التقليد الاسلامى الطبيعى للتاريخ ، وهو ما يركز عليه هذا الفصل · كان التقليد الاسلامى التاريخى ـ كما سنرى ـ تقليدا ثريا ، لم ينقرض تماما بالجبرتى ـ آخر ممثليه الأنقياء ـ بل على العكس فقد استمر (التقليد الاسلامي التاريخي) في شكل خافت متزايد يؤثر في التأريخ المصرى على مدى فترة كبيرة من القرن التاسع عشر · كان المصريون واعين كثيرا جدا بالانجازات الماضية في التأريخ الاسلامى وفي حالات كثيرة استخدموا كتابات العصور الوسطى كمصادر لأعمالهم · وقد اقتبسوا الكثير من المنهجية التى طبقوها من الحقب المبكرة ، لهذا فإنه من الأساس أن يفهم كل من نقاط القوة والضعف في الارث الاسلامى ·

كان الاسلام ـ من بين العقائد الثلاث التوحيدية ، اليهودية ، المسيحية ، والاسلام ـ هو الوحيد الذى بزغ في ضوء التاريخ الغامر · ولقد سبق إهتمام العرب بالتاريخ ظهور الديانة الجديدة ، كما سترى أي تحليلات للشعر الجاهلى أو قصص المعارك الشعبية مثل (أيام العرب)· لكن بصيرة الناس وأدراكهم للزمن التاريخى تزايدت حدتها مع ظهور الاسلام ، وكان للديانة نفسها بداية تاريخية دقيقة مدهشة ـ هجرة محمد (عليه الصلاة والسلام) من مكة الى المدينة يوم الخميس ١٥ يوليو عام ٦٢٢ ميلادية (١) ؛ وقد ظهرت كلمة (تاريخ) على ورقة بردى مؤرخة عام ٢٢ للهجرة وبدأت الكتابة التاريخية الاسلامية بعد ذلك بوقت قصير (٢) : ولا تزال أصولها الدقيقة غامضة ، لكنه طبقا لمصدر واحد على الأقل فإنها نتجت من (امتزاج مجاري مختلفة من تكوين تاريخي وشبه تاريخي (٣) ·

مع مضى القرون بنى العرب (وآخرون أيضا ممن يكتبون بالعربية) كيانا ضخما من الكتابة التاريخية العصور أوسطية فاق حجمها التخيل . وقد استطاع فوستنفلد Wustenfeld
Die Geschichtsschreiber der Araber und ihre Werke (Göttingen, 1882)
أن يفهرس ٥٩٠ مؤرخا عربيا خلال الألف الأولى بعد موت الرسول ، وربما يكون كثيرون آخرون قد سقطوا من اهتمامه . وعندما أراد (الطبرى) المعلم أن يملى على تلاميذه تاريخا من ثلاثين ألف صفحة ، اعترض هؤلاء بأن قراءته قد تأخذ عمرا بأكمله ، فوافق الطبرى بشفقة على انقاصه الى ثلاثة آلاف صفحة فقط (٤) .

ورغم أنه (الطبرى) من أصل فارسى فقد كان يكتب بالعربية ، وفى الأزمنة المتأخرة الوسيطة بدأ الفرس والأتراك يسجلون تاريخهم بلغتهم ، ونافست انجازاتهم تواريخ العرب . ومع هذا فان هذه التطورات كان لها أثر هامشى على التقاليد العربية فى الأراضى الاسلامية العربيه .

ورغم الاسهامات العظيمة للمسلمين فى مجال التاريخ ، فان الدراسات التاريخية الوسيطة سواء فى الغرب المسيحى أو فى الشرق المسلم لم تستطع أن تحقق استقلالا كاملا باعتبارها أحد فروع الدراسة العقلية . وعلى سبيل المثال فان التاريخ فى الغرب خلال الفترة الكارولينجية (٥) كان يعتبر مفيدا لدراسة قواعد اللغة ، ولم يعتبره أحد ممن كتبوا التاريخ خلال العصور الوسطى مهمة أساسية فى حياته (٦) . وبالمثل فان التاريخ فى الشرق الاسلامي بدأ وظيفته الطويلة كرفيق مساعد للدراسات الدينية . وطبقا للقرآن الكريم فان حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت النموذج الذى يحتذيه المسلم التقى ، ووجه الانتباه أساسا الى أعمال محمد وعظاته للمؤمنين ، ونشاطاته الحربية (المغازى) ، ونسب قريش (٧) . كان الدارس لهذه الأشياء يعرف بانه (عالم) ، ويمكن أن يكون متمكنا من العقيدة لكنه مع هذا كان يعتبر مؤرخا فى نفس الوقت . وكان الشكل الآخر للمؤرخ المسلم المبكر هو المعقب القبلى (الاخبارى) الذى كان يذكر مآثر القبيلة ونسبها، ولذلك فانه لم يكن معنيا بصفة خاصة بالتاريخ الدينى (٨) .

لقد أعطى الارتباط الوثيق بين التاريخ والدين لكثير من التاريخ الاسلامى الوسيط ما سبق لنا أن عرفناه بانه « الغرض الايمانى الأخروى "eschatological purpose" . وقد اعتبر « مؤرخون » أمثال ابن شهاب الزهرى (المولود عام ٦٧١ م تقريبا) وعروة بن الزبير (المتوفى عام ٧١٢ — ١٣ تقريبا) أنفسهم أساسا قضاة وتقليديين ، لكنهم لم يعتبروا

انفسهم مؤرخين الا بصورة طارئة فقط (٩) • فقد كتب ابن هشام وابن اسحاق تراجم مفصلة (ومتعاطفة بالطبع ولكنها يعول عليها رغم ذلك) عن الرسول (عليه الصلاة والسلام) • ولم يكن مقصد الطبرى من كتابه (تاريخ الأنبياء والملوك) أن يكون دراسة تاريخية مستقلة بقدر ما كان مقصده أن يكون ملحقا لتعليقه على القرآن (١٠) • وكتابات (الطبقات) من التراجم التاريخية (والتى ستناقش فيما بعد) كتبت لأسباب دينية أكثر منها تاريخية ، ولذلك فان قيمتها اليوم لنا محل سؤال (١١) • لقد اختفت هذه الاتجاهات فى الأزمنة التالية ، لكن التاريخ بالنسبة للمسلم بدءا من المدائنى (المتوفى ٨٤٠) وحتى ابن خلدون (١٣٣٢ ــ ١٤٠٦) لم يفصل نفســه أبدا عن الدور الدينى الخاص الذى دعيت أمة محمــد (صلى الله عليه وسلم) الى أن تلعبه (١٢) •

ولأن التــاريخ لم يكن يعتبر ــ الا فى النادر ــ جديرا بالدراسة المستقلة ، فانه وقع فى شرك ميادين كثيرة الى جانب الدين • ومثــل الغرب ، فانه من المشكوك فيه أن يكون التاريخ قد اعتبر يوما ما مادة أساسية فى منهج الدراسة الاسلامية الوسيطة ، رغم أنه ربما يكون قد درس على المستوى الابتدائى كأحد أشكال « التدريب الأدبى » (١٣) • وفى كلمات أخرى ، فان التاريخ كان ينظر اليه كمعلومات عامة أو أدب ، ولذا فقد حاز بنية متغايرة الخواص كلية • لقد ضمن اليعقوبى (المتوفى ٨٩٧) والمسعودى (المتوفى ٩٥٦) الكثير من المادة الجغرافية الخالصة فى « تاريخهما » (١٤) ، و « مروج الذهب » الشهير للمسعودى أبلغ دليل وأروع مثال للتصور الاسلامى الوسيط للتاريخ كمعلومات عامة • فهو يحوى الكثير مما لا يعد تاريخا حقيقة فى حد ذاته (أساطير ، حكايات ، أنساب ، دين ، أدب شعبى ، وأدب محض) (١٥) • ولقد ظل هذا الخليط حيا حتى القرن التاسع عشر •

كانت هنــاك سمة أخرى هامة فى التأريخ الاســلامى الوسيط وهى واحدة من الخصائص القليلة التى تفصله تماما عن التقليد الغربى الوسيط ــ هى التشديد المتزايد على الأشكال الأدبية المنمقة كالسجع وحتى الشعر أحيــانا • لقد كان الشعر معتبرا الشــكل غير المنــازع par excellence من الفن العربى ، ومع ان التأريخ الاسلامى لم يستعمل الشعر للتعبير المباشر فى قرونه القليلة الأولى ، الا أن الانفصال لم يكن كاملا أبدا • بل ان المؤرخين المسلمين المبــكرين لم يكونوا على الاطــلاق كارهين للاستشهاد من الشعر المألوف لتقوية وجهات نظرهم ، وفى العصر العباسى استخدم الشعراء فنهم كثيرا لتعليم الدروس التاريخية ، وأمثلتنا هنا عن أعمال أبو تمام والبحترى والمتنبى (١٦) •

أصبح استخدام الأشكال المنمقة بعد العصر العباسى أكثر الحاحا •

ويشعر جب Gibb أن انتصار الشعر كان نتيجة جزئية « للفرص المنقطعة النظير للبراعة الأدبية التى احتوتها اللغة العربية من خلال تنوع اشتقاقاتها » (١٧) • كذلك فان عنصرا آخر كان بلا شك اعادة التأكيد من القرن السابع (الثامن ؟) على التقليد التاريخى الفارسى القديم ، الذى مال نحو الشعر المقفى الطنان المنمق • وربما كان « مرايا الأمراء "The Mirrors of princes" مثلا ، مستمدا من النماذج الفارسية حيث صور الحاكم في صورة الرجل المثالي • وقد استخدم هذا النوع من التراجم بصفة عامة قدرا كبيرا من السجع الأمر الذى أدى الى تفسخها الى مديح فارغ (١٨) •

وطبقا لروزنتال Rosenthal فان أول حالات من السجع في الكتابات التاريخية تعود الى أواخر القرن العاشر (١٩) • وحتى هذا التقدير قد يكون متحفظا للغاية ، ذلك أن السجع يمكن أن يوجد في كتابات المسعودى (المتوفى فى ٩٥٦) • وقد أصبح مؤرخون متأخرون أمثال عماد الدين الأصفهانى (١١٢٥ – ١٢٠١) كاتب سيرة صلاح الدين ، والأندلسى الفتح بن خاقان (المتوفى حوالى ١١٤٠) من أشهر أصحاب أسلوب السجع • ففي وقتهم كان تضمين السجع فى نقاط معينة قد أصبح ضرورة ، وعلى ما يبدو فان ابن الأثير (١١٦٠ – ١٢٣٤) فقط كان قادرا على تجنبه •

ويحتمل أن يكون هذا السجع قد بلغ ذروة شعبيته حول وقت ابن الفرات (المتوفى ١٤٠٥) وابن اياس (المولود ١٤٤٨) (٢٠) •

ونظرا لأسلوب ابن الأثير الواضح غير المعقد وتجنبه لأشكال السجع ، فانه كثيرا ما يكون المؤرخ العربى الأول ، الذى يتوجه اليه اهتمام الدارس الغربى • وبصفة عامة فان أساليب السجع يتم تجنبها باستثناء بالنسبة للطلبة الأكثر تقدما ، رغم أن التقاليد التى تحكم السجع بسيطة فى الواقع كما سيتعلم بسرعة متعلم اللغة العربية • بل انه حتى بالنسبة للمؤرخين الذين لم يكونوا قادرين على الكتابة بلغة عربية كلاسيكية جيدة فانهم لا يجدون صعوبة فى التعامل مع فقرات السجع المطولة ، نظرا لأن المناسبات التى تحتاج لاستخدامها – كالعناوين، والمقدمات ، والتأبين والمدح قد أصبحت مقننة ، وعندما سلكت الرواية التاريخية الواقعية طريقها ، فلم تكن هناك أى خطوط رئيسية رسمية تتبع ، وسرعان ما سقط السجع جانبا •

وهناك خصيصة ثالثة لكل من الكتابة التاريخية الاسلامية والغربية خلال الفترة الوسيطة – وهى ما سنجده فى كتابات المصريين فى القرن التاسع عشر – هذه الخصيصة كانت التأكيد على أن التاريخ الحولى Chronicle بطبيعته مبنى على حقائق منقولة فقط أكثر منها مفهومة

تاريخيا ٠ وتعود أصول هذا المدخل فى العالم الاسلامى الى (الخبر) القبلى الذى كان يعتبر حدثا مستقلا وحيدا ، غير مشروح تسبيبيا ، ومسلوخا تماما عن ما سبقه وما لحقه (٢١) ، ومع الوقت تطور الخبر الى التاريخ الحولى Chronicle ، وهو تقدم رسمى أكثر منه تصورى ، حيث أن المظهر الخارجى للحدث هو الذى كان يتعلق به ، ولقد ظل التاريخ الزمنى الاسلامى ماديا عاريا من أى محتوى فكرى ٠ وما يسمى بأدب الطبقات عكس نفس المدخل وكان فى طبيعته تقنيا أكثر منه تراجميا (٢٢) ٠ كان القصد فى (الطبقات) تسجيل المظاهر المحسوسة والمتصلة بالحقيقة لحياة الفرد ومهنته فقط ٠ وفى النهاية ، فانه بالنسبة للمنهجية ، فان منهج الاسناد الخارجى المحض للنقد النصى قد أقر باحجام المؤرخ المسلم عن فحص المعنى ، بالمقابلة بالدقة التوصيلية للحقائق (٢٣)٠

ومع هذا ، فاننا يجب أن نتذكر أن نحترس من المبالغة فى التمييز بين التاريخ والتاريخ الحولى Chronicle (٢٤) ٠فقد تفاوتت قيمة التواريخ الحولية الاسلامية بشكل كبير ، والمحاولات المتفرقة من أجل أسلوب كتابة أكثر دقة محسوسة فى الحقيقة ٠ فقد ضمن البلاذرى (توفى ٨٩٢) — على سبيل المثال — فى كتاباته تقييمه الخاص للأحداث (٢٥) ٠ وحاول المسعودى أن يحدد الصلة بين المرء وبيئته ، وتحرى أوجه الشبه بين دورات حياة النبات والنظم الانسانية (٢٦)٠ ويعتبر عمل الطبرى عادة قمة التقليد التدوينى التاريخى المبكر ، وحتى هنا فان الأسلوب الرقيق اللطيف كان ضد المدخل التدوينى التاريخى الخالص ، وكان التقارب بين الروايات المتناقضة فى نفس سلسلة الأحداث ايحاء بالحث على ايجاد معنى ما فى السجل التاريخى (٢٧) ٠ ولقد علق مسكويه (توفى ١٠٣٠) أحيانا على التسبيب وقدم احساسا مدهشا ودقيقا ومستقلا للتقييم فى تصويره للشخصيات القيادية (٢٨) ٠ أما ابن خلدون فان أقل ما يقال فيه أنه كان الاستثناء الشامخ السامق على كل التعميمات (٢٩)٠

لم يكن التاريخ الاسلامى الوسيط خاليا من العناصر التفسيرية ٠ فهناك بعض الكتابات المبكرة ذات الاعتبار الكبير ، والأعلى مقاما من التأريخ المملوكى والمصرى العثمانى التالى لها ٠ وعلى الجانب الآخر ، فان التقليد التأريخى الأقدم — والذى يعد العمل العظيم للطبرى نموذجا له — لم يستطع أن يتملص منه واستمر تأثيره على مدى الفترة الوسيطة ٠ فالمسعودى ، على سبيل المثال والذى يعتبر عند البعض صاحب ميل واضح تجاه « التاريخ التفسيرى » شعر بأن التاريخ مع ذلك يجب أن يكون (خبرا) أكثر منه (بحث أو نظر) ٠ واعتبر المسعودى نفسه — فيما يبدو (جامع) (٣٠) ٠ ومثله كان ابن خلدون ، فانه لم يستطع أبدا أن

بحسب «هود » (التاريخ الزمنى) ، برغم نياته الثورية التى عبر عنها فى « مقدمه » • وبصورة موازنة ، فان أى جهود فى العصور الوسطى نحو اتجاه آخر نظرية من الكتابة ظلت تجريبية بدرجة كبيرة وغير قياسية • ان تعميم روزنتال غليظ لكنه صحيح : « لقد سبق التاريخ الحديث بصفة عامة أى شىء تم تحقيقه فى حقل الكتابة التاريخية فى الاسلام • وهناك العامل الذى يمكن قوله عن التاريخ المسلم اذا المرء طبق عليه مشروعا كذلك الذى قدمه (درويسين J. G. Droysen فى "Gurundriss der Historik (٣١) •

فاذا ما انتقلنا الآن الى الأشكال المختلفة التى استخدمها التاريخ المسلم الوسيط ، فان كل الأنماط التالية كانت مستخدمة •

(١) التاريخ الزمنى Chronicle ولا نرى ضرورة لمناقشة أكثر لهذا الشكل • والمثل الأفضل هنا هو كتاب الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » (٣٢) •

(٢) التاريخ الموضوعى : Topical ورغم أنه مرتب وفقا للبلد ، الخليفة ، السلطان ، الخ ، فان هذا الشكل ــ مع هذا ــ مثل بدقة التاريخ الزمنى Chronicle فى اطار الوحدات (الموضوعية) **Topical** فحسب ، ولقد كان هذا محاولة بدائية لكنها كانت فى النهاية غير ناجحة لايجاد مبدأ تنظيمى بديل عن مبدأ التتابع الزمنى وحده • وخير أمثلة هى اعمال المسعودى واليعقوبى •

(٣) التاريخ العالمى : ورغم أن القصد هنا كان هو التعامل مع تاريخ العالم منذ بدء الخليقة وحتى وقتنا هذا ، فان المناطق غير المسلمة قد جرى تجاهلها (٣٣) • ومن الأمثلة الكثيرة لهذا التاريخ ، فان كتاب رشيد الدين « تاريخى غزانى »Tarikh-i Ghazani قد يعتبر أكثر الاعمال انطباقا على هذا الشكل من التاريخ المسلم •

(٤) التواريخ المحلية : كانت هذه التواريخ دائما شعبية بالنظر لأنها تنحدر مباشرة من التقليد العراقى (الأخبارى) •

وخلال الفترة الوسيطة المتأخرة عندما انقطعت الاتصالات بين الأجزاء المختلفة من العالم الاسلامى انتعشت التواريخ المحلية • والأمثلة التى يمكن الاستشهاد بها عديدة للغاية ، لكنهم يأخذون أحد اتجاهات ثلاثة أساسية :

(أ) علمانى ــ ويشرح أخبار الحكام المحليين والمناطق ، كما يدل المصطلح •

(ب) دينى • ويشتمل على معلومات عن صحة الحديث وناقليه ، والشعائر الدينية ، والأماكن المقدسة •

(ج) **أدب الخطط** : وهو خليط من الطبوغرافيا والآثار القديمة ، ذو نسب أو حصص موسوعية (تحتوى التقسيمات الثانية والثالثة معلومات أكثر ليست فى طبيعتها تاريخية) .

(٥) **التراجم** : (أ) الطبقات ، وهى نمو كبير مباشر للاهتمام المبكر والمكثف بحياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والصحابة . والمثل الكلاسيكى لهذا الشكل هو لابن سعد (المتوفى فى عام ٨٤٥) . أما الطبقات المتأخرة فقد اهتمت بالعلماء والأعيان المحليين ، المسائل الروحانية والصوفية ، أو الشعراء

(ب) الأنساب القبلية والشريفية الخ .

(ح) التراجم للاشخاص مثل صلاح الدين ، بيبرس الخ ، ولقد كان هذا التنوع اقل اعتيادا عنه فى الأمثلة (أ) و (ب) .

(٦) **التاريخ المعاصر** : المذكرات والذكريات . وهذا النوع يتضمن فى المفهوم العريض مؤرخين أمثال المسعودى ، ابن الأثير والمقريزى (٣٤٦ ـ ١٤٤٢) . ولقد كان كل هؤلاء معاصرين لبعض الحوادث التى سجلوها . ولعل أدق شكل للمذكرات والذكريات هو ما قدمه كل من أسامة بن المنقذ ، الأمير عبد الله بن بلقين ، ابن تومارت ، القاضى الفاضل، عبد الرحمن البيسانى ، ثم الجبرتى . وهو الأحدث .

لكن هذه التقسيمات ليست محصورة تماما ومحدودة ، فقد يأتى عمل تاريخى ما تحت أكثر من تقسيم منها (٣٥) .

ولقد جنحت الاشكال المبكرة من الكتابة التاريخية الى اقامة النمط للقرون التالية ، بل ان كثيرا من المؤرخين المصريين فى القرن التاسع عشر شكلوا دراساتهم التاريخية وفق أساليب أسلافهم . ووفقا لروزنتال Rosenthal فان « الأشكال البدائية من التأريخ المسلم قد نمت فى تاريخ مبكر . ولم تعان هذه الأشكال أى تطور أبعد خلال مرحلة الكتابة التاريخية الاسلامية بصفة عامة . ولم تخلق أى أشكال جديدة ذات نتيجة ، باستثناء التواريخ الشعرية . لقد تشكل التطور فى الكتابة التاريخية الاسلامية من خليط من الأشكال التاريخية المختلفة ومن ادماج النظم ـ على الخصوص ـ التى لم تكن تاريخية بالقطع ، فى اطار التأريخ » (٣٦) .

هذا لا يعنى القول ان التأريخ الاسلامى لم يتغير فيما بعد ، أو أن تحولات هامة فى التأكيد لم تظهر . واذا نحن عدنا الآن الى الفترة الوسيطة المتأخرة ، فاننا نجد ان روزنتال قد أصدر حكما فى الموضوع بقوة كبيرة .

ومع قدوم الأتراك فى القرنين العاشر والحادى عشر ، والمغول فى أوائل الثالث عشر ، فان الوحدة اللغوية لقلب العالم الاسلامى بدأت فى التداعى • واعتنق الغزاة فى النهاية الفارسية كواسطتهم الثقافية ؛ وهبطت العربية كنتيجة لتخصيصها للنفوذ الذى تتمتع به الدراسات الدينية • ولم تحتفظ اللغة العربية بكثير من اهميتها القديمة الا فى مصر وسوريا العراق والجزيرة العربية • وقد لعبت مصر على وجه الخصوص دورا ثقافيا عربيا هاما نتيجة لهزيمة الظاهر بيبرس لجيوش هولاكو عام ١٢٦٠ • ومع توقف التقدم المغولى ، حاز المماليك السيطرة على أغلب المنطقة الواقعة بين النيل والفرات لمدة قرنين ونصف من الزمان • حتى عام ١٥١٧ عندما خضعت مصر للحكم العثمانى المباشر • وسنناقش هنا التطورات التى أصابت التأريخ خلال الفترتين المملوكية والعثمانية •

أنتجت مصر المملوكية (حوالى ١٢٦٠ ــ ١٥١٧) قبل أى شيء عددا مذهلا من المؤرخين ، وكان أغلب المتألقين منهم خصبى الانتاج بصورة لا تصدق •فابن حجر العسقلانى (المولود فى ١٣٧٢) مثلا ، كتب أكثر من ١٥٠ عملا (٣٧) • والسيوطى (المولود فى ١٤٤٥) كتب أكثر وأكثر وربما كان أكثر الكتاب العرب انتاجا فى الفترة كلها (٣٨) • ان المرء ليعجب ــ عند استعراض الفترة بصفة عامة ــ عن أسباب هذا الارتفاع وهذه الغزارة • وربما يعود السبب الى أن مركز مصر كحصن الدفاع الأخير للثقافة العربية فى خضم البحر المغـولى ــ التركى قد زاد من اهتمام مؤرخيها بالحوادث المعاصرة • وبالاضافة الى ذلك ، فان طبيعة الحكومة المملوكية ــ الاقلية الفخيمة من مئات الأمراء ، القادة ، نواب القادة ، والولاة ، الخ ــ ربما تكون قد خلقت جوا مشابها لذلك الجو الذى ساد النهضة الايطالية ، والذى كان فى استطاعة كل مؤرخ ناشيء فيه أن يجد راعيا ونصيرا • وأيا كانت الأسباب ، فان حقيقة أن هذا القدر الغزير من الأدب التاريخى المملوكى قد وصلنا ــ يعكس شكلا خطيرا عن تأثير الفوضى الاجتماعية الشاملة التى يتلقاها المرء من قراءة التواريخ الزمنية المملوكية • وربما كانت الحروب الحزبية المهلكة المستمرة خلال العصور المملوكية ــ مجرد ظاهرة خارجية لم تقلق الحياة الثقافية الأهلية (٣٩) •

حدثت تحولات عديدة هامة فى أشكال التاريخ من حيث التأكيد • فقد استمرت كتابة **التواريخ العالمية** ، لكنها فقدت كثيرا من شعبيتها التى كانت لها فى القرون المبكرة • اما **التأريخ المحلى** فقد أصبح أكثر شعبية نسبيا ، فى داخل كل من مصر والأرض المجاورة كسوريا ؛ حيث ظهرت التواريخ المحلية أولا فى القرن الثانى عشر • وكان موضوع التواريخ السورية المحلية هو بلا تغير ، مدينة معينة مثل دمشق ، حلب

أو بيروت • وكانت التواريخ الحضرية وتواريخ المناطق تتطور أيضا حول ذلك الوقت فى كل من الجزيرة العربية ، العراق ، اليمن ، فارس ، واسبانيا ــ وهنا أيضا كانت هذه التواريخ تتعلق بمدن معينة (٤٠) • فقط فان موضوع التواريخ المحلية فى مصر لم يكن عن مدينة ولكن عن مصر نفسها ــ وهى ظاهرة تعكس التجزؤ المطبق فى مناطق أخرى ، وعلى العكس ــ الاحساس المستمر القوى بالشخصية الاقليمية فى مصر • وخلال هذه الفترة بدأ المؤرخون المصريون،المعزولون عن جيرانهم المسلمين بشكل لم يحدث من قبل ، يكتبون بثبات عن مصر فقط دون المجتمع الاسلامى كله • ولقد كان واضحا ان لهذا التطور مضامين هامة •

وقد تضمنت الأشكال التاريخية المملوكية الأخرى ، التراجم ، والطبقات • ووجد كل أمير أو قائد من ترجم له • وتركزت قصص المؤرخ هنا حول نضال الأمير مع أنداده ، مآثره القتالية ، ترقياته ، الخ (٤١) • ومن أشهر المجموعات **البيوجرافية** عن حياة القادة العسكريين (المصريين)، عمل العسقلانى « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » وعمل العينى « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » (٤٢) • أما شكل **الطبقات** فيمثله خير تمثيل عمل السيوطى « طبقات المفسرين » ، ومجمله عن عمل الذهبى « طبقات الحفاظ » •

وفيما خلا التحولات فى الشعبية فى الأشكال المختلفة للكتابة التاريخية ، فان الخاصية الرئيسية لأغلب التاريخ المملوكى أيا كان شكله ــ كانت الانشغال المغالى فيه باقتراب التاريخ الزمنى Chronicle من التاريخ • وسواء أكان عملا معينا مقصودا به أن يكون تاريخا زمنيا أم لا ، فان هذا لم يحدث اختلافا كبيرا : لقد أصبحا دائما واحدا ــ وبصفة عامة فان الشكل المتطرف كان تاريخا زمنيا ليس أكثر من التاريخ الاسلامى • ولقد كان فى النشاط المتصل للصراع الملكى والثورات ، التى شكلت مادة التاريخ المملوكى ــ مادة نموذجية للتاريخ الزمنى ، وخضع المؤرخون المملوكيون تماما أكثر من أى من أسلافهم لفكرة التطور العنصرى المادى الخالص للحوادث • ويمكن اعتبار مجىء التاريخ المملوكى فى الحقيقة نهاية الاتجاه البدائى النظرى البادى فى كتابات المسعودى ، البيرونى ، مسكويه ، الخ • حتى الطبرى ، الذى مثل قمة التفكير الحولى المبكر ، لم يتشبث بالأشكال الحولية بصلابة كما فعل مؤرخو مصر المملوكية •

وعلى ذلك ، فقد مثل التاريخ المملوكى تدهورا فى الفهم التاريخى • ولقد قاد الاقتراب الآلى من جانب مؤرخين كابن اياس وابن تغرى بردى ــ كما هو حتمى أن يحدث ــ الى تاريخ مسجل وليس الى تاريخ مفهوم • وهذا بدوره قدم لنا مشكلة الاستحواذ على ثروة من المعلومات التاريخية

فى مصر المملوكية دون أى فهم حقيقى لما كان عليه شكل الحياة فيها .
ان قراءة التواريخ الزمنية المملوكية أو دراسة التنظيم السياسى والادارى
... هو الوقوف وجها لوجه أمـام نظـام من الحكومات يجب أن لا
... يستطيع أن ــ يعمل . والواقع أن كتاب التاريخ الزمنى المملوكيين
لم يعملوا شيئا على الاطلاق لتبديد هذا الغموض ، بنتيجـة مؤداها اننا
لا نستطيع بأطلاقنا أن نشرح كيف أن نظاما كهذا قد استطاع أن يعيش
... من قرنين ونصف من الزمان .

وبسبب غزارة الكتابات التاريخية فى العصور المملوكية ، وندرتها
... خلال الفترة العثمانية المتأخرة ، فانه كثيرا ما يفترض أن الفترة
... وليس السابقة ــ كانت واحدة من فترات التدهور الثقافى العام(٤٣) .
ومع ... صحيح الى حد ما ــ فان هذا الادعاء مع هذا فيه مبالغة ، حيث
... التاريخ الزمنى المملوكى نفسه كان نتاجا لانهيار فى التقنية التاريخية .
وخلال العهد المملوكى بدأت اللغة التركية تغير بخطورة على اللغة العربية .
... كان الأمراء المماليك أنفسهم فى الغالب من أقوام متكلمة بالتركية
... من القوقاز والقرم ، وكان المؤرخ المصرى مضطرا لتعلم التركية حتى
... أن يتخاطب مع ظهيره ــ وهذا أسهم فى انهيار قدرته على استخدام
العربية جيدا (٤٤) . ولقد كان اللجوء الشديد الى السجع مجرد ميكانيزم
... فى بعض الأحيـان ، ومع وقت ابن اياس كان الأسلوب العربى
التاريخى قد انحط الى مستوى قريب جدا من العامية (٤٥) . من هنا
... اذا كانت الفترة العثمانية تمثل تدهورا فى المستويات التاريخية ،
... على الأقل لم تكن بداية هذا التدهور .

لقـد ساعد انعزال مصر عن مجاوراتها الاسـلامية خلال العصـور
الاسلامية ــ على اعتناقها اتجاها كان دائما موجودا الى حد ما : انشغال
خاص بالأمور المصرية ، دون الاسلامية . وهنا أيضا فان مصر كانت نسيج
وحدها . ولا شىء فى الماضى قبل الاسلامى السورى أو العراقى يعـدل
مجد الخلافة الاسلامية عندما تواجدت فى هذه البلاد ، بينما كانت مصر
الاسلامية مجرد مقر خلافة مخففة كثيرا ــ وليس قاعـدة لامبراطورية .
لقد كان الكثير من المجـد فى الماضى المصرى غير اسـلامى (فرعونى
وهللينى) : ومن المحتمـل أن يكون الاحسـاس الأعظم عنـد المصريين
بشخصيتهم الاقليمية و « القومية » قد نبع من هنا . وكان (ابن ذولاق)
هو أول من عبر عن هذه المشاعر فى (فضـائل مصر وأخبارها) ،
واستمر المؤرخون التالون أمثال (المسبحى) و (ابن ميسر) فى ممارسة
تقليد الكتابة خصيصا عن مصر ، وقد صنف رجال مثل محمد بن أسعد
الجوانى (المتوفى فى ١١٩٢) ومحيى الدين بن عبد الله بن عبـد الظاهر
(المتوفى فى ١٢٩٣) أعمالا كمراجع عن التاريخ المصرى ، والطبوغرافيا

والتراجم (٤٦) • وقد أصبحت الخطط الأدبية ـ على وجه الخصوص ـ شعبية بافراط فى مصر ، ومكنت المؤرخ من أن يفهرس بعناية شغوفة كل مسجد ، نافورة ، شارع ، وميدان فى المدن المصرية الكبرى (٤٧) • وأفضل مثل معروف للخطط كتب فى الواقع خلال العصور المملوكية بمعرفة (تقى الدين المقريزى) • وهو عمل موسوعى يبدأ بمقدمة طويلة عن التاريخ المصرى والجغرافيا ثم ينتقل بعد ذلك الى توصيفات ثرية مفصلة عن الاسكندرية ، القاهرة ، والفسطاط (مصر القديمة) (٤٨) • وخلال القرن التاسع عشر قام عمل المقريزى بدور الموحى لخطط مصرية مصورة أخرى ستناقش فى فصل آخر (٤٩) •

ومنذ منتصف القرن الثالث عشر الى بداية القرن السادس عشر لعبت مصر على الأقل ثلاثة أدوار تاريخية هامة :

١ ــ كحارس للخلافة •

٢ ــ كمدافع عن دار الاسلام ضد المغول والصليبيين •

٣ ــ كحافظ للتقليد الثقافى العربى الاسلامى • ومع هذا فانه مع الفتح العثمانى فى ١٥١٧ ، فان أغلب هذا بلغ نهايته ، وأصبحت مصر مجرد ولاية أخرى فى الامبراطورية العثمانية مترامية الأطراف (٥٠) •

ولابد أن الفتح العثمانى كان له بعض التأثير على الحياة المصرية والثقافة ، حيث أصبحت اللغة التركية هى لغة الحكومة الرسمية • ولم يقم الحكام العثمانيون فى ممتلكاتهم مثلما كان المماليك ، فقد كانوا يعينون لمدد لا تتجاوز سنة ، وعادة ما كانوا يرسلون عادة الى أجزاء أخرى من الامبراطورية (٥١) • وهناك شك كبير فى أن يكونوا قد فهموا العربية ، واذا كانت عملية تتريك مصر لم تتعاظم بعد عام ١٥١٧ ، فمن المؤكد أنها لم تتناقص • ورغم أن الوسط الثقافى المحلى بقى عربيا ، واستمر الأزهر واحدا من أكبر المراكز للتعليم الاسلامى ، فان الآثار الثقافية لقرنين ونصف من الحكم التركى المملوكى ثم ثلاثة قرون بعد ذلك من الحكم التركى ــ لابد أنها كانت عظيمة • يؤكد هذه الحقيقة ذلك العدد المتزايد من المصطلحات التركية التى وجدت طريقها فى التواريخ الزمنية المملوكية والتركو ــ مصرية منذ البداية وانتهاء بالجبرتى ، والتدهور المتواصل فى مستوى التفوق فى اللغة العربية •

ولسوء الحظ فاننا لا نستطيع سوى أن نتأمل فى هذا كله ، حيث ان القليل هو الذى يعرف عن هذه القرون الثلاثة • ومثلما كانت مصر المملوكية غزيرة فى المصادر الثرية المفصلة ، فان مصر العثمانية تقدم صورة التبدد والضياع للسجلات التاريخية التى يصعب شرحها • وربما

كان هذا راجعا الى أن شيئا ذا أهمية لم يحدث (٥٢) أو الى أن بعض السجلات المكتوبة القيمة قد أتلفت خلال الصراع العثمانى ـ المملوكى المستمر ، وأن البعض الآخر قد نقل الى أماكن نائية ٠ كذلك فان من المحتمل أن الباقى قد جرى اغفال الاهتمام به من جانب المثقفين ولعل هذا الاغفال يعود بدوره الى الاهتمام القوى للغاية بمصر القرن التاسع عشر من الناحية الثقافية ، والى التشجيع بهذا الاهتمام من جانب الملك فؤاد الأول الذى كان مستعدا للمعاونة ودعم الأبحاث المتعلقة بالأسرة الملكية (٥٣) ٠ ورغم وجاهة هذه الافتراضات ، فان لغز غموض الفترة العثمانية قد يكمن ببساطة فى عدم قدرة أى مركز سياسى أو ثقافى على المواظبة على حماسه ، بمجرد أن أصبحت (مصر) مجرد ولاية نائية فى امبراطورية يقع مركز جاذبيتها فى مكان آخر ٠

ولما كانت الثقافة التاريخية فى انحدار بالفعل قبل قدوم العثمانيين، ولما كان العثمانيون أنفسهم قد عانوا فترة من الانحدار الثقافى فى القرون المتأخرة ، فانه لم يكن متوقعا منهم والحال كذلك أن يكبحوا نشاطا مماثلا فى مصر (٥٤) ٠ وبالاضافة الى ذلك فان الآلية التوينبية للتحدى والاستجابة (٥٥) لا يمكنها أن تعمل فى مجال فتح عثمانى لمصر ٠ لقد انجرف العثمانيون فى ذلك الوقت فى الصراع ضد الشيعة ، وهكذا فانه فى مصر ، المعقل التقليدى للاسلام السنى العربى ، لم يكن من الممكن أن يوجد محل لتحد عثمانى ٠ ولم يكن عند المصرى أى سبب ليشعر ثقافيا انه أحط من العثمانى التركى أو ليعيد التحقق من ارثه الخاص ٠ وعلى العكس ، فان الاهتمام العثمانى بمسائل التقوى والتخلص من الهرطقة قد دعم التوجه الدينى القائم فى الثقافة المصرية على حساب الاهتمامات الأكثر عالمية ٠ ويظهر التزايد من شعبية التصوف بين العلماء المصريين أن التأثير الثقافى العثمانى قد ظهر ـ وعلى وجه التحديد فى المنطقة حيث نتوقع أن نجده (٥٦) ٠

أثر دعم ، أو تجميد النزعات الثقافية القائمة ، الى جانب التقليل من قيمة وسيط التعبير (العربية) ـ أثر هذا على كل مظاهر المساعى المصرية الأدبية ٠ وعانت الدراسات التاريخية انخفاضا عظيما فى الكم ـ وفى أحسن الأحوال كان الموجود استمرارا للمستويات المملوكية فى الكيف ٠ وظهر الى الوجود نوعان متميزان من الكتابة التاريخية العثمانية ـ المصرية :

١ ـ **التاريخ الزمنى الأدبى :** ويتميز بأسلوب رخيص غير نحوى ، لكنه مكتوب بواسطة رجال عندهم بعض الطموح نحو التعليم الرسمى الأدبى ، وأغلبهم فى الحقيقة من العلماء ـ ويشار الى هذا النوع من التاريخ

عادة « بحوليات السلاطين ــ والباشوات » نظرا لان الاطار التنظيمى كان يتطابق مع العهد • وتتضمن الأمثلة لهذا النوع من التواريخ أعمال كل من أحمد شلبى عبد الغنى ، والاسحاقى ، وابن أبى السرور (٥٧) •

٢ ــ **التاريخ الشعبى** : ويشار اليه أيضا « بمدرسة الأجناد » • ويتميز هذا النوع من التواريخ بالأسلوب العامى ، والنحو الضعيف ، والخطب والصيغ المقولبة (كليشيه) الخ • وقد كتب هذا النوع من التواريخ بمعرفة رجال ذوى ثقافة محدودة أو معدومة ــ أغلبهم جنود ــ لأسباب تتعلق جزئيا بالتسلية والترويح • ولقد كان اطار « السلاطين ــ والباشوات » من التاريخ الزمنى الأدبى موجودا ولكن دون التركيز عليه حقيقة • وتميز التاريخ الشعبى بأن الأشخاص ودوافع أعمالهم كانت محددة بوضوح أكثر من التاريخ الزمنى الأدبى • ويمثل هذا التاريخ كلا من أحمد الدمرداش وابن زنبل الرمال (٥٨) •

ولكى نقدم فكرة أفضل عن بناء ما يسمى بالتاريخ الزمنى الأدبى ، فاليك هذين المثلين :

(أ) كان كوجك على ــ عضوا فى الحزب الفقارى المملوكى الذى كان منضما الى الحاكم العثمانى محمد باشا فى الحملة ضد حاكم جرجا الفقارى الثائر محمد بك فى جمادى الثانى سنة ١٠٦٩/فبراير ــ مارس ١٦٥٩ • وكان كوجك على هذا أحد العظماء الرئيسيين الذين تورطوا فى الثورة الكبرى الفقارية (صفر ١٠٧١/أكتوبر ١٦٦٠) • ورغم أنه كان فى ذلك الوقت حاكما لدمياط الا أنه كان يقيم فى القاهرة وتجاهل أمر الباشا بأن يعود الى قيادته • وعندما تفرق شمل قادة الفقارية أمام قوات الباشا ، اتجه كوجك على وحسن بك ولاجين بك الى البحيرة • وهناك استسلم هو ورفاقه تحت شرط أمان ، لكنه أعدم فى الطرانة بأمر أحمد بك فى ليلة ٢٣ صفر ٢٧/١٠٧١ ــ ٢٨ أكتوبر ١٦٦٠ •

(ب) نظرا لثروة قنصوه بك أمير الحج ــ فقد عين بناء على اقتراح محمد باشا كحاكم عام لليمن ، التى كانت تنزلق من السيطرة العثمانية : فى بواكير جمادى الأولى ١٠٣٨/أواخر ديسمبر ١٢٦٨ • وكان فى نفس الوقت معينا حاكما عاما للحبش (٥٩) ، التى عين محمد بك كقائمقام له فيها • قاد قنصوه بك قوة مؤلفة جزئيا من قوات مرسلة من قبل السلطان، وتحرك بها فى محرم ١٠٣٩/أغسطس ــ سبتمبر ١٦٢٩ • وقد فشلت الحملة ووجدت بعض من القوات التى صاحبت قنصوه فى مكة بواسطة الحملة التى صاحبت قاسم بك فى ١٠٤١/١٦٣١ ــ ٣٢ (٦٠) •

نستطيع أن نلمس اذا ان التاريخ الزمنى العثمانى ــ المصرى كان لا يكشف تاريخيا أكثر من ذلك التاريخ الزمنى المملوكى السالف ، وربما

كان أقل منه فى الحقيقة • ومن هذه السجلات فان هيكل التاريخ ، أو كمال قال كروس Croce (٦١) (جنة التاريخ) تظهر •

وقليل هو الذى نعرفه عن المدرسة الشعبية ـ أو مدرسة الأجناد • وعلى سبيل المثال فان أعمال ابن زنبل الرمال ، على الشاذلى ، أحمد الدمرداش ، وابراهيم مصطفى لم تنشر أو تحقق أو تستخدم حتى الآن للبحوث (٦٢) • وفائدتهم للطلاب لا زالت محل تساؤل ، حيث انهم يركرون بقدر كبير على نفس الموضوعات التى تركز عليها التواريخ الزمنية الأدبية • وأحيانا ما يجد المرء فى هذه الأعمال معلومات تفصيلية عن الصراعات الحزبية ، معانى المصطلحات المختلفة العسكرية ، الادارية ، والمالية ، تقلب الأسعار الخ • لكن مثل هذه المادة متوفرة بأكثر من اللازم فى التواريخ الزمنية الأدبية عادة • أيضا فان مصداقية المعلومات الاضافية هذه محل تساؤل (٦٣) •

وطبقا لما نعرفه الآن ، فان التأريخ العثمانى ـ المصرى يمثل الدرك الأسفل من تقليد طويل ومجيد أحيانا من التقليد التاريخى • لقد تدهورت بنية التاريخ الزمنى فى الأزمنة العثمانية أكثر من بنيتها المملوكية البالية بالفعل ، وتناقص تدريجيا بطريقة مسرحية ذلك الكم المطلق من الكتابة التاريخية • أصبح الأسلوب التاريخى خليطا من الكرونولوجيا الجافة العارية والتقليد السجعى الفارغ • بل ان القدرة على استخدام السجع نفسه تدهورت ، وان المرء ليشك فى أن المؤرخين قد استعاروا فقرات بكرا كاملة من الكتاب المبكرين • ومع زمن الجبرتى لم يكن هناك سوى عدد قليل من العلماء الذين نذروا أنفسهم للدراسات التاريخية أو حتى الأدبية بصورة جادة (٦٤) • قد يزود التاريخ والأدب الانسان أحيانا ببعض الحكايات المسلية القليلة ، لكن هذه الحكايات لم تكن أبدا شعبية أو محترمة (٥٦) • وانحرف منهج الدراسة الأزهرى ـ مثل نظيره فى مدرسة القصر باستانبول ـ بشدة نحو الميدانين التوأمين (النظريات الدينية) و (فقه اللغة) (٦٦) •

حواشي الفصـــل الثاني

(١) جوليان أوبرمان Julian Obermann .
Early Islam." (The Idea of History in the Ancient Near East) New Haven and London : Yale University Press, 1955), pp. 239, 242-43.

(٢) السيد عبد العزيز سالم « التأريخ والمؤرخون العرب » (القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ــ ١٩٦٧) ص ١٩ ، ٤٢ .

(٣) جب Gibb
"Tarikh", p. 108.

(٤) مارجوليوث Margoliouth
"Arabic Historians", p. 1.

(٥) الكارولنجيون أسرة من الفرنجة الذين استقروا في القرن الرابع على طول نهر الراين قرب كولونيــا Ripuarian Franks والذين اســتمدوا اسمهم من شـــارل مارتل Charles Martel جد شارلمان Charlemagne . كانت هذه الأسرة أهم سلالة حاكمة فى أوروبا العصور الوسطى المبكرة . وتعود أصولهم الى اتحاد أسرة أرنولف Arnulf أسقف متز Metz مع أسرة ببين Pepin فى لاندن Landen (توفى حوالى ٦٤٠) العمدة الوراثى لقصر اوستراسيا Austrasia فى بواكير القرن السابع . كان الكارولينجيون كعمد للقصر المذكور الحكام الحقيقيين للأقاليم الفرنجية التى آلت للميروفنجيين . وقد فشلت محاولة للاستيلاء على الملكية فى منتصف القرن السابع ، لكن ببين pepin المتوفى فى ٧١٤ وابنه غير الشرعى شارل مارتل Charles Martel المتوفى فى ٧٤٢ تمكنا من المحافظة على أملاك الأسرة . عزل ببين القصير Pepin the Short آخر ملوك الميروفنجيين شيلدريك الثالث Childeric III ، وبمعاونة بابوية أصبح ملكا للفرنجة عام ٧٥١ . كان لببن ولدان (كارلومان Carloman) و (شارلمان Charlemagne) اللذان خلفاه معا فى ٧٦٨ . وقد مات الأول فى ٧٧١ تاركا شارلمان مسيطرا على المملكة بأكملها . ثم ضاعف من حجم المملكة وحصل على القاب ملك اللومبارديين (٧٧٤) وامبراطور (٨٠٠) . ورث ابن شارلمان الوحيد لويس الأول Louis I (٨١٤) أملاكه والقابه ..... ومشاكله أيضا ــ غزوات الفايكنج ، غارات المسلمين ، والنبلاء الطامعين . وقد ساء الموقف لوجود ثلاثة ورثة له (لوثير الأول Lothair I) و (لويس الألمانى Louis the German) و (شارل الثانى Charles the Bald) . وعندما توفى لويس عام ٨٤٠ استمرت الحروب الأهلية التى كانت قد بدأت خلال عهده ، ونتج عن ذلك انقسام الامبراطورية الى ثلاث ملكيات وفقا لمعاهدة فردون Verdun عام ٨٤٣ . ثم أعيد تقسيم هذه الملكيات وفقا لمعاهدة مرسين Mersen عام ٨٧٠ . وبعد اضطرابات . انتهى عهد الكارولنجيين عام ٩٨٧ فى فرنسا وعام ٩١١ فى المانيا .
Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 4.

المترجم

(٦) فيتزسيمونس Fitzsimons
"Historiography', pp. 30-31, 49.

(٧) سالم « المؤرخون العرب » ص ٢٦ – ٢٧

(٨) أ ٠ أ ٠ دوری A.A. Duri
"The Iraq School of History to the Ninth Century — a sketch"
Historians of the Middle East, p. 46.

(٩) عن الزهرى انظر دورى Duri
'Al-Zuhri : A study on the Beginnings of History Writing in Islam," BSOAS 19 (1957).

وسالم « المؤرخون العرب » ص ٥٩ – ٦٠ ٠

وعن ابن الزبير انظر أيضا مقالة دورى Duri المشار اليها هنا عن الزهرى ص ١ ٠

(١٢) جب Gibb
"Tarikh", p. 118.

(١١) روزنتال Rosenthal
"Muslim Historiography", pp. 94-95.

(١٢) Gibb
"Tarikh", p. 115

وجورج م ٠ حداد George M. Haddad
"Modern Arab Historians and World History".
The Moslem World 51 (1961), 38.

وقد نلاحظ أيضا فى هذا المقام ان الصليبيين – وهم عائق مؤقت دخيل للتطور التاريخى الاسلامى – لم يسببوا أكثر من موجة خفيفة فى تاريخ الفترة ٠

انظر برنارد لويس Bernard Lewis
'The Muslim Discovery of Europe "BSOAS 20 (1957) :
441, 415-16.

(١٣) روزنتال Rosenthal
"Muslim Historiography, pp. 45-46.

(١٤) جب Gibb
"Tarikh", p. 118.

وبالطبع فان المعلومات الجغرافية يمكن ان تكون حيوية للفهم التاريخى ، ولكنها فى هذه الحالات قد أدرجت كمجرد عنصر حيوى اضافى للعمل الأدبى العام ٠

(١٥) ايلس ليختنشتاتر Ilse Lichtenstadter
'Arabic and Islamic Historiography," The Moslem World 53 (1945) 133.

قارن روزنتال Rosenthal
Muslim Historiography, p 99.

(١٦) مارجوليوث Margolioth
"Arabic Historians", pp. 59-81.

(١٧) هـ · أ · ر · جب H.A.R. Gibb طبعة ثانية ـ منقحة "Arabic Literature"
(Oxford : At the Clrandon Press, 1963), p. 9.

ومن احدى السقطات التى لا يمكن استدراكها فى هذه المجادلة هى ان التاريخ المتاخر الفارسى والتركى قد عانيا كثيرا نفس التطور كالتاريخ العربى ، ويفترض بدون ميزة توافر « ثروة من المرادفات » « التميز الرقيق فى المعنى » الخ التى يعزوها جب الى اللغة العربية ٠

(١٨) ج · ريختر G. Richter
"Medival Arabic Historiography," Islamic Culture 34 (1160) : 149-50.

قارن جب Gibb
"Tarikh", pp. 130-33.

(١٩) روزنتال Rosenthal
"Muslim Historiography", p. 177.

(٢٠) المعلومة أخذت من سالم « المؤرخون العرب » ص ٧٥ ـ ٨٢ ٠

(٢١) روزنتال Rosenthal
"Muslim Historiography", pp. 69-70.

(٢٢) جب Gibb.
"Tarikh", p. 122.

(٢٣) فرانز روزنتال Franz Rosenthal
The Technique and Approach of Muslim Scholarship,"
Analecta Orientalia., no. 24 (Rome : Ponificum Institum Biblicum, 1947), p. 34.

ويرى عبد الله لاروى Abdallah Laroui أن استمرار شكل (الخبر) ومنهج الاسناد فى النقد التاريخى انما يعود الى الأهمية التى أولاها الاسلام (للبينة) سواء أكانت (خبرا) أم (اسنادا) أو (القرآن) نفسه فى المقام الأول ٠

انظر لاروى Laroui
"The Crisis of the Arab Intellectual,"

ترجمة ديامولد كاميل Diamond Cammel
(Berkeley, Los Angeles and Toronto : University of California Press, 1974,) pp. 16-17.

وفى الحقيقة فان مؤرخى العصور الوسطى الغربيين لم يكونوا أكثر نجاحا من نظرائهم المسلمين فى البروز فى الحدود المعرفية للتاريخ الزمنى ٠ عن هذا الموضوع انظر ٠

شولتز Schultz
"Die Geschichtschrieber des Mittelalters," pp. 98-107.

وفيتزسيمونس "Historiography", pp. 19-20, 23, 31-32, 42, 51, 63, 75, 79, 82-83.

(٢٤) قارن فى ذلك ما جاء عن التاريخ History والتاريخ الزمنى Chronicle فى الفصل الأول ٠

(٢٥) سالم « المؤرخون العرب » ص ١١٦ ٠

(٢٦) محسن مهدى Muhsin Mahdi
Ibn Khaldun's Philosophy of History" (Chicago : University of Chicago press, Phoenix Books, 1964), p. 137.

وقد ركز طريف خالدى Tarif Khalidi فى رسالته للدكتوراه التى أصبحت كتابا حاليا ، على (عصرية) المسعودى ، بما فى ذلك استخدامه المتكرر للنقد الباطنى التاريخى •

انظر خالدى Khalidi
"Ma'sudi's Theory and practice of History"
(Ph. D. dissertation, University of Chicago, 1970).

(٢٧) سوف نواجه نفس التقنيـــات فيما بعد فى عمل مجموعة اسميتها المؤرخين الزمنيين المحدثين neo-Chroniclers

انظر ص ١٣٤ ـ ١٤٣ من الفصل السابع •

(٢٨) مارجوليوث Margolioth "Arabic Historians" p. 130 ff.

(٢٩) نعتبر دراسة محسن مهدى عن ابن خلدون من أعمق الدراسات وأكثرها تفصيلا ، وهى تلك التى استشهدنا بهـا فى الصـــفحات الســـابقة • وتعد دراسة أنور شيجنه Anwar Chejne عن ابن خلدون The Concept of History in the Modern Arab World." Studies in Islam 4 (1967).

أفضل شرح تفسيرى مختصر عن نظريات ابن خلدون ، وعرض واضح لأهميته ـ انظر صفحات ١٢ ـ ١٧ من هذه الدراسة •

(٣٠) روزنتال Rosenthal
"Muslim Historiography", p. 42.

(٣١) Ibid., p. 197.

(٣٢) سيلاحظ القارىء غياب السجع فى العنوان •

(٣٣) قارن الحاشية ١٢ من حواشى هذا الفصل •

(٣٤) يعتبر أحد المراقبين عمل (رشيد الدين) أول تاريخ عالمى اسلامى •

انظر جون اندروبويل John Andrew Boyle
"Rashid al-Din : The First World Historian"
Islamic Culture 44 (1970), 17.

(٣٥) اختلف المثقفون على كيفية ترتيب الكتابات التاريخية الاسلامية ـ وفقا للمادة المقدمة ـ البنية الداخلية ـ الفترة الزمنية المغطاة ، الخ • وهذا التقسيم مؤسس على مقارنة أعمال كل من جب ، سالم ، وروزنتال •

(٣٦) روزنتال Rosenthal
Muslim Historiography, p. 99.

ومن ملاحظة « اندماج النظم التى لم تكن تاريخية على نحو تام ، فى اطار التاريخ » فقد رأينا ان هذا كان أيضا خاصية للكتابات التاريخية الاسلامية المبكرة • واشارة روزنتال الى « الاستثناء الهام للغاية للتاريخ الشعرى » هى أيضا غامضة بعض الشىء • وربما كان لا يعنى شيئا مثل ترجمة (ابن عبد الظاهر) عن (بيبرس) ، حيث ان قليلا من المؤرخين المسلمين قد اتبعوا هذا النموذج • وربما يكون من المرجح ان روزنتال كان يشير الى استخدام السجع ، رغم ان هذا ليس شعرا ، ولكنه نثر ، وفى النهاية ، فاننا قد نلاحظ انه رغم ما قد تكون عليه أشكال التاريخ الاسلامى من جمود ، فان التاريخ الغربى الوسيط لم يخترع أى أشـــكال جديدة حقيقية بالمرة • ومن المشكوك فيه ان يكون ماكيافيللى Machiavelli أو فون رانكه Von Ranke قد استطاعا ان يأتيا بأى أشكال جديدة ، على الأقل بالمعنى الذى نستخدمه للمصطلح •

(٣٧) س ٠ فان أريندونك C. Van Arendonk
"Ibn Hadjar al 'Askalani, The Encyclopedia of Isıam (Leiden : E. J. Brill, Ltd., 1913), II, 380.

وسيرمز ب EI (1965), EI (1913) الى طبعتى 1965, 1913 من Encyclopedia of Islam

(٣٨) بروكلمان Brokelman
"Al-suyuti" EI (1913) IV, 573.

(٣٩) يحار المثقفون والمفكرون الحديثون حول كيف تحمل المصريون حكم مثل هذه الزمرة العنصرية الأجنبية المملوكية كل هذا التحمل ٠ ان يكون المماليك طبقة منغلقة فهذا ما لا يمكن انكاره ، لكن مع هذا فقد كان هناك بعض الميزات المؤكدة للمصريين من هذا الترتيب ٠ فعلى سبيل المثال ، كان المصريون معافين من الخدمة العسكرية الصارمة تحت الحكم المملوكى ، ويحتمل أنهم كانوا غير مبالين بصراعات المماليك وقتالهم بصفة عامة ٠ وأحس المصريون بحكمة ان هذه الحكومة تحكم بأحسن ما تستطيعه ، وقد قاوموا بصلابة الجهود التى بذلها محمد على فى القرن التاسع عشر لازالة الاحتكار التركى التمييزى ــ والمريع مع هذا ــ للحرب ٠ وقد واجه السلاطين العثمانيون ، وأحمد باى تونس وحكام مسلمون آخرون فى القرن التاسع عشر حركات مقاومة مماثلة ٠

(٤٠) روزنتال Rosenthal
"Muslim Historiography", pp. 150-72.

(٤١) دافيد آيلون David Ayalon
"Studies on the Structure of the Mamluk Army-I", BSOAS 15 (1953) : 205, 210, 212, 214.

(٤٢) ويمكن ان تحسب هذه الأعمال كأدب طبقات أيضا ، وهذه دلالة أخرى على مدى التفكك والرخاوة التى يجب ان تفسر بها هذه التصنيفات ٠

(٤٣) محمد أنيس « مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى » (القاهرة ــ دار الجيل للطباعة ، ١٩٦٢) ص ١١ ٠

(٤٤) وعلى سبيل المثال ، فحتى العينى كتب بعض أعماله التاريخية بالتركية ٠
Marcais, "Al Aini," EI (1913) I, 213.

ونستطيع ان تحزر أكثر بأن التدهور فى قدرة المؤرخ على استخدام لغته جيدا قد يقود الى تبسيط محتوى التاريخ الزمنى ، مبعدا بذلك التاريخ عن المدخل التحليلى ، المفاهيمى للقرون المبكرة ٠

(٤٥) الدسوقى « فى الأدب الحديث » الجزء الأول ــ ١٣ ٠

(٤٦) روزنتال Rosenthal
"Muslim Historiography"., pp. 154-56.

(٤٧) جب Gibb
"Tarikh", p. 125.

(٤٨) بروكلمان Brockelmann
"Al-Makrizi", EI, (1913), III, 175.

(٤٩) انظر الفصل السادس

(٥٠) ستانفورد ج شو Stanford J. Shaw
"The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798 (Princeton, Princeton University Press, 1962), p. 1.

(٥١) Ibid.

(٥٢) هذا هو رأى البروفيسور هولت Holt ، وهو رأى يبدو لى بعيد الاحتمال

انظر ب ٠ م ٠ هولت P. M. Holt
"The Beylicate in Ottoman Egypt during the 17th Century." BSOAS 24 (1961) : 214.

(٥٣) أنيس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ٨ ــ ١١ ، قارن مقالته « مؤرخ مجهول سبق الجبرتى » ــ الهلال ــ رقم ٧ (١٩٦٤) ص ٢٥ ٠

(٥٤) ريتشارد فردرى Richard N. Verdery
"Abd al-Rahman al-Jabarti as a source for Muhammad Ali's Early Years in Egypt (1801-1821)" (Ph. D. dissertation, Princeton University, 1967, p. 5.

ان كلمات مثل تدهور "decline" عرضة بالطبع لاستعمال خاطىء كثير ٠ وقد يكون مصطلح « الثبات » الثقافى أفضل بالمقابلة بفترة من الاحياء والابتداع ٠ والتدهور التاريخى يكون فى أغلب الحالات جليا عند التأمل واستعادة الأحداث ، وقد يكون الانطباع الشخصى مثل « الأيام القديمة الحلوة » أو « العصر الذهبى » خياليا كما هو حقيقى ٠ وبالاضافة الى ذلك فان المراقبين المعاصرين لفترة من التدهور قد يجدون أوقاتا أسعد بل وأكثر اشباعا للثقافة من المقابل فى عهد من القلق الممزق ٠ وعلى العكس فان هؤلاء الذين يقاسون النهضة والاحياء قد يرونها (النهضة) مجرد مدمرة لقيم أساسية معينة ٠

(٥٥) آرنولد جوزيف توينبى Arnold Joseph Toynbee (١٤ أبريل ١٨٨٩ ــ ٢٢ أكتوبر ١٩٧٥) مؤرخ بريطانى وفيلسوف ، بحث فى أنماط نمو وتآكل المدنيات ٠ كان خلال الفترة ١٩٢٥ ــ ١٩٥٥ مديرا للدراسات فى المعهد الملكى للشئون الدولية ــ وأستاذا باحثا فى التاريخ العالمى بجامعة لندن ٠

فى دراسته البارزة "Study of History" (12 Vols., 1934-61) وهى أفضل أعماله قرر توينبى ان انهيار المدنية يظهر عندما تفشل الأقليات المبدعة فى الاستجابة بنجاح للتحديات وتستسلم للأقليات المتسيدة الحاكمة بالقوة فقط لمجاميع تتحول الى بروليتاريا ٠ فى المجلدات الأولى المنشورة فى ثلاثينيات القرن العشرين أكد توينبى أن الغرب قد لا يستطيع الهرب من هذا المصير ٠ ومع هذا فانه تنبأ فيما بعد بظهور وتطور دين عالمى يجمع أفضل ما فى تقاليد الغرب والشرق ومؤديا الى قيام نظام جديد ٠ ومع ان عمل توينبى قد انتقد من جانب مؤرخين محترفين بحسبانه مجرد تأمل ، الا أنه يبقى ذا دلالة كتحد للمفهوم الأوروبى المركزى الضيق للثقافة التاريخية التقليدية ٠

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 19.

المترجم :

(٥٦) انني مدين للبروفيسور أنيس للثروة التى احتوتها آراؤه ، رغم أننى طوفت أبعد قليلا مما فعل ٠

أنيس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ١٤ ــ ١٧ ٠

(٥٧) أحمد شلبى بن عبد الغنى الحنفى المصرى ٠ ولد فى الربع الأخير من القرن السابع عشر وتوفى فى سبتمبر/أكتوبر ١٧٣٧ ، وهو حنفى مصرى سنى ، تثقف ثقافة واسعة ، وتعلم بالأزهر ٠ ألف تاريخه « أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات » ــ وهى نسخة محفوظة بمكتبة جامعة ييل Yale بالولايات المتحدة الأمريكية ، وتغطى الفترة من الفتح العثمانى وحتى سبتمبر ١٧٣٧ ٠

أما الاسحاقي فهو محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى على الاسحاقى المنوفى الشافعى من بلدة منوف بمصر ــ أديب شاعر ــ قرأ على كثير من العلماء ، وكان قاضيا عالما مؤرخا كثير نظم الشعر • ألف كتابه « لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » ، وفرغ منه عام ١٠٣٣ هـ/١٦٢٣ م •

وثالث الأمثلة هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى المصرى المولود بالقاهرة عام ١٥٩٦ والمتوفى بها عام ١٦٥٠ • نشأ فى بيت علم وثراء ونفوذ • كان أبوه شيخا للاسلام • ألف « عيون الأخبار » فى التاريخ الاسلامى العام مع التركيز على تاريخ مصر ــ و « النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية » وهو فى تاريخ مصر العثمانية ــ و « المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية » وفيه يؤرخ لسلاطين الدولة العثمانية حتى السلطان سليم الأول •

انظر : مخطوطة « أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات » • تقديم وضبط وتصحيح الدكتور/ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ــ مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٧٨ ــ ص ٢١ ، ٣٢ ــ ٣٣ •

وأحمد طربين « التاريخ والمؤرخون العرب فى العصر الحديث دراسة عن حركة التأليف التاريخى فى أقطار الوطن العربى » مطبعة الانشاء ــ دمشق ١٩٧٠ ص ٣٩ ــ ٤٢ •

المترجم

(٥٨) استخدمت هنا جدول وتقسيم هولت Holt

انظر ب • م • هولت P. M. Holt

"Al-Jabarti's introduction to the History of Ottoman Egypt" BSOAS 25 (1962) : 40-42.

ويضيف أنيس تصنيفا ثالثا ــ مدرسة التراجم ــ وباعترافه هو فانه كان تصنيفا سوريا أكثر منه مصريا (أحضر) الى مصر بمعرفة الجبرتى •

(٥٩) كانت المنطقة الساحلية من الساحل الافريقى بالبحر الأحمر ، بما فى ذلك موانى (سواكن) و (مصوع) تسمى (الحبش) عند العثمانيين • وقد احتل القائد العثمانى أوزدمير Ozdmir هذه المنطقة بين عامى ١٥٥٥ ــ ١٥٥٦ وتم تنظيمها اداريا كولاية أصبح اسمها (ولاية الحبش) •

انظر دانيال كريسيليوس وعبد الوهاب بكر « صفحات من تاريخ مصر العثمانية • مخطوطة الدرة المصانة فى أخبار الكنانة للأمير أحمد الدمرداش كتخدا عزبان ــ دار الزهراء ــ القاهرة ١٩٩٢ ــ ص ١٢٤ حاشية ٨٥ » •

المترجم

(٦٠) نقلا عن هولت Holt

"The Beylicate in Ottoman Egypt", pp. 232, 241.

(٦١) بينيدتو كروسى Benedetto Croce (٢٢ فبراير ١٨٦٦ ــ ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢) • فيلسوف ايطالى وناقد ومؤرخ عاش ودرس فى نابولى • كان شغوفا بكارل ماركس Karl Marx وألف كتابه :

— Historical Materialism and the Economics of Karl Marx (1900)

ترجم الى الانجليزية عام ١٩١٤

وفى هذا الاهتمام دخل فى تعاون مع المثالى جيوفانى جنتيل Giovanni Gentile
تدى هدمه الى هيجل Hegel • شغل كروسى منصب وزير التعليم (١٩٢٠ - ١٩٢١)
نكن ظهور الفاشية التى هاجمها ، أدى الى تقاعده من الحياة العامة وأنهى تعاونه مع جنتيل •

ترجم العمل الرئيسى لكروسى الى الانجليزية تحت مسمى Philosophy of Spirit
وهو كتاب من اربعة أجزاء : الجماليات Aesthetics (1902) المنطق Logic (1905)
فلسفة العمل Philosophy of the Practical (1909)
التاريخ : نظريته وتطبيقه History : its theory and practice

آمن كروسى بأنه توجد روح انسانية عالمية ذات اربعة أقسام : حدسية - مفاهيمية - حيوية - واخلاقية • وتظهر الحدسية فى النشاط الفنى - وتسبر المفاهيمية غور التاريخ • وتعرض الحيوية نفسها فى الأنظمة القضائية ، والاقتصادية ، والعلمية • أما الأخلاق فهى تسمح للبشر باكتشاف أنفسهم كأفراد اخلاقيين احرار • ووفقا لكروسى فان التاريخ يصور تحقق النهضة الانسانية النظرية على الأنشطة العملية (قانون ، اقتصاد ، علوم ، أخرى) •

Lexicon Universal Encyclopedia vol. 5.

المترجم

(٦٢) من المؤكد ان معلومات المؤلف عن الجهود المبذولة فى تحقيق أعمال كتاب الفترة العثمانية قليلة للغاية • فقد ذكر ان أعمال ابن زنبل الرمال ، وعلى الشاذلى ، وأحمد الدمرداشى ، وابراهيم مصطفى لم تنشر ولم تحقق ولم تستخدم من أجل البحوث • والواقع ان عمل ابن زنبل الرمال (آخرة المماليك) محقق بمعرفة عبد المنعم عامر - القاهرة ١٩٦٢ ، وعمل على بن محمد الشاذلى الفرا (ذكر ما وقع بين عسكر المحروسة) محقق بمعرفة الدكتور/ عبد الناذر أحمد طليمات - المجلة التاريخية المصرية - العدد ١٤ - ١٩٦٨ - وعمل أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان (الدرة المصانة فى أخبار الكنانة) محقق بمعرفة الدكتور/ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة - نصوص عربية ودراسات اسلامية - المجلد ٢٨ • ١٩٨٩ • وحققه كل من دانيال كريسيليوس من جامعة كاليفورنيا وعبد الوهاب بكر من جامعة الزقازيق (مصر) باللغة الانجليزية بعنوان
"Al-Damurdashi's Chronicle of Egypt 1688-1755.
Al-Durra Al-Musana Fi Akhbar Al-Kinana." Arab History and Civilization-studies and Texts — Vol. 2 — E.J. Brill-Leiden-1991.
كما حققه المؤلفان باللغة العربية تحت عنوان « صفحات من تاريخ مصر العثمانية - مخطوطة الدرة المصانة فى أخبار الكنانة - للأمير أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان - القاهرة - دار الزهراء - ١٩٩٢ •

أما مخطوطة ابراهيم مصطفى التى ذكرها المؤلف - فصحة اسم صاحبها هو « مصطفى ابن ابراهيم تابع المرحوم حسن اغا عزبان الدمرداشى » وهى بعنوان « تاريخ وقايع مصر القاهرة » بدار الكتب القومية تحت رقم ٤٠٤٨ مخطوط • وقد حققها الدكتور/ صلاح احمد هريدى - ونشرتها دار المعرفة - الاسكندرية ١٩٨٨ • اما استخدام هذه الأعمال فى البحوث - فان أكثر من عمل فى الجامعات المصرية استخدمت فيه هذه الأعمال وغيرها للكشف عن غوامض الفترة العثمانية وقد استمد المؤلف معلوماته هذه من عمل المرحوم الدكتور/ محمد أنيس « مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى » الصادر عن معهد الدراسات

العربية التابع لجامعة الدول العربية ـ وفات المؤلف أن يلاحظ ان ما كتبه المرحوم محمد أنيس كان عام ١٩٦٢ ٠ كما استعان فيما ذكره عن الدمرداشي بما ورد في كتاب بيتر جران
Peter Gran

Islamic Roots of Capitalism : Egypt, 1760-1840 (Austin, Texas and London : University of Texas Press, 1979), pp. 68-69.

المترجم

(٦٣) يعتقد أنيس ان معلومات الأجناد قد تكون ذات فائدة عالية ٠ راجع أنيس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ٥٥ ـ ٥٧ ٠

ولهذه الأسباب فانني أميل الى الاتفاق مع هولت Holt في تفاؤله الحذر للغاية

انظر هولت Holt
"Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt," pp 41-42..

(٦٤) وفقا لشهادة الجبرتي نفسه ، فان دراسة التاريخ كان متجاهلة تماما ومحتقرة من جانب معاصريه ٠

دافيد آيلون David Ayalon.
"Al-Djabarti," EI (1965), II, 355.

وسنلاحظ في الفصل التالي ميل آيلون احيانا الى المغالاة في قضيته ٠

(٦٥) كان ابن الأثير وابن خلكان يقرآن في مكة في القرن التاسع عشر ليس من أجل التنوير والثقافة ولكن منّ أجل (التألق في الحوار) ٠

روزنتال Rosenthal
"Muslim Historiography", p. 53.

(٦٦) انظر ، على سبيل المثال ج ٠ هيوورث دن J. Heyworth Dunne
"An Introduction to the History of Education in Modern Egypt (London: Luzac and Co., 1939), pp. 41-42, 65.

الفصـــل الثالث :

عبد الرحمن الجبرتي ونهاية التقليد الكلاسيكي

اذا ما وضعنا في الاعتبار الحالة المؤسفة للثقافة التاريخية خلال الفترة العثمانية ، فان المرء قد يتوقع أن الكتابات المصرية الأولى الجديدة بالاعتبار في القرن التاسع عشر قد نتجت من خارج هذا التأثير · ولكن على العكس ، فمن بين الخواء الظاهر يخرج مؤرخ تبز جدارته في الواقع جهود سابقيه ومعاصريه والمؤرخين المتأخرين أيضا ـ مؤرخ ينتمي بوضوح لتقليد تاريخي محلي ميت ، لكنه يسعى بشكل ما الى النهوض فوق بيئته الثقافية الجدباء ليصبح ليس مجرد الأخير بل أيضا واحدا من أعظم ممثلي المدرسة الوسيطة النقية للتاريخ الاسلامي ·

وعلى نقيض الكثير من مؤرخي القرن التاسع عشر المتأخرين الذين جرى التجاهل لعملهم ، فان الجبرتي لم يعدم المعجبين · ففي عمل منشور في ١٨٦٣ أشار المستشرق الألماني الشهير فون كريمر Von Kremer الى (العجائب) (١) على أنها « عمل تاريخي يصف تاريخ زمانه بصدق وجدارة التعويل » · وقال توينبي ان الجبرتي قد « يتصدر بلا شك قائمة المرشحين لطبقة الامتياز كمؤرخين قادة للمجتمع المتمدين حتى وقتنا » · واعتبره دافيد آيلون « عملاق بين الأقزام » ودعاه أنيس « أعظم مؤرخ » (٢) ·

وعلى ذلك فانه يبدو أنه قد تم التوصل الى الحكم القاطع على الجبرتي (٣) · واذا ما حاول أي شخص أن يتهور باعادة تقييم عمله فانه سيجد نفسه في مواجهة سد منيع من كل الجوانب مكون من الأفكار العلمية (نسبة الى العلماء) ، التي لا يمكن الهروب من تأثيرها · ومن ناحية اخرى فان تجميع كل هذه الآراء المتعددة معا ثم اخضاع الجبرتي بعد ذلك للتمحيص على أساس المعايير السابق دراستها في الفصل الأول قد ينتج مردودا آخر · وهذا على أية حال هو ما نقصده في هذا الفصل ·

ولد عبد الرحمن بن حسن الجبرتي في القاهرة عام ١٧٥٣ أو ١٧٥٤ وتوفي ما بين ١٨٢٤ و ١٨٢٦ (٤) · وقد جاءت أسرته أصلا من قرية

جبرت قرب ميناء زيلع على البحر الأحمر ـ وهى منطقة كانت تابعة لنجاشى الحبشة وعرفت للتقوى البالغة لسكانها • ومع نهاية القرن السادس عشر هاجر عبد الرحمن الجد السابع لمؤرخنا الى مصر ليصبح شيخا لرواق الجبرتية بالأزهر الشريف ـ وهو منصب كان ينتقل وقتئذ من الأب الى الابن (٥) •

وتضع حقيقة كون أسلاف الجبرتى من مشايخ الأزهر ـ تضع مؤرخنا فى الصفوة المتفقة المصرية • وكان والده هو الشخصية الكبيرة الضخمة فى حياته • كان (حسن) والد شيخنا والمتوفى عام ١٧٧٤ ثريا • فقد كان رجل أعمال له أقارب بين التجار المصريين ومالكى السفن• ونظرا لوراثته وقفا ضخما من جدته لأبيه (٦) فقد اختار أيضا زوجة من أسرة ثرية ، ولمدة ما كان مسئولا عن قلعة الطور، السويس، والمويلح(٧)• وكان للأسرة ثلاثة منازل على الأقل : واحد فى الأبزارية على النيل ، وآخر فى بولاق ، وثالث فى الصنادقية قرب الأزهر (٨) واحتوت كل هذه المنازل على مماليك ، عبيد وجوار سود وبيض (٩) •

وبصرف النظر عن ثرائه ، فقد زود (حسن) أسرته بمحيط غير مسبوق من ثقافة عهده • فقد كان على علاقات طيبة مع البكوات المماليك والعثمانيين وكان معروفا لدى السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ ـ ٧٣) وأعيان عثمانيين آخرين ، اعتادوا أن يرسلوا له كتبا(١٠) • وكان منزله مكانا للقاء مشايخ الأزهر وضم مكتبة جيدة تحوى كتبا عربية وتركية وفارسية الى جانب عدد قليل من المخطوطات النادرة (١١) • ورغم انه كان خبيرا بداءة فى علوم الدين ، الا أن (حسن) كان يعتبر أيضا مرجعا رئيسيا فى الحساب ، الفلك ، التقويم ، الخطوط ، الحفر ، النحت ، وموازين القبان (١٢) •

ويقول الجبرتى نفسه ان والده كان لغويا موهوبا وصلت طلاقته فى التركية والفارسية طلاقة أهل هاتين اللغتين (١٣) ، ويبدو أنه لم ينقب فى التاريخ فى حد ذاته ، لكن معرفته بمجالات أخرى غير دينية قد حفزت ابنه بلا شك الى التحرى فى موضوعات دنيوية مماثلة كالهندسة والتاريخ (١٤) •

عندما وصلت الحملة الفرنسية الى مصر فى عام ١٧٩٨ كان الجبرتى فى أربعينياته المبكرة • فاذا ما وضع فى الاعتبار خلفيته التعليمية فانه لا يمكن أن يوجد مواطن مراقب للأحداث أفضل منه • كان الجبرتى على علاقة طيبة بحكام مصر وقادتها الدينيين وكان يمكنه أن يترجم لهم من واقع خبرته الشخصية (١٥) • وقد مكنته صداقته الحميمة باسماعيل الخشاب ، الذى كان عضوا منتظما بالدواوين التى أقامها الفرنسيون من

أن يتصـــل بوثائق المحكمة الكبيرة (١٦) ، رغم أنه نادرا ما احتـاج الى الاشارة اليها حيث انه كان شاهد عيان لكثير من الأحداث التي سجلها ٠

ومع هذا فان الميزات المادية والثقافية التي امتاز بها الجبرتي على معاصريه لا تزال غير قادرة على شرح نجاحه تماما ٠ فثراؤه ، ودرجة تعلمه العالية نسبيا ، وصلاته بالقادة المصريين ، وقدرته كشاهد عيان مراقب يمكن أن ينتج عنها بسهولة مجرد تاريخ آخر للفترة وليس أى عمل عظيم magnum opus ٠ فاذا كان فى الواقع قد أنتج بصدق عملا عظيمـا ـ كما يظن أغلب المثقفين ـ فلابد أن عناصر أخرى حققت هذا الانجاز قد وجدت ٠

رغم أن الجبـرتي كانت له اهتمـامات متنـوعة ، فمن البدهى ان اهتمـامه كمؤرخ هو الذى جعله معروفا (١٧) ٠ كتب الجبرتي عملين ، وربما ثلاثة أعمال تاريخية :

١ ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ٠

٢ ـ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ٠

٣ ـ تاريخ مدة الفرنسيس بمصر ٠

ولا يزال أمر العمل الثالث محل شك ، حيث انه غير واضح ما اذا كان دراســة تاريخية مستقلة أم مجـرد نسـخة مبدئية من مظهـر التقديس (١٨) ٠ وتوجد نسخ عديدة منها فى شكل نسخ تحضيرية ٠ واذا كان المعتقد أنها كتبت حول عام ١٧٩٨ (١٩) ، فانها تكون عبارة عن نقد للفرنسيين ملىء بالأخطاء النحوية والأسلوبية ٠ واذا كان الجبرتي قد قصد من هذه الدراسة أن تكون دراسة تاريخية مستقلة ، فانها تكون بالقطع أقل الأعمال أهمية من ثلاثة الأعمال التي ذكرناها بعاليه ولا تحتاج الى أى اهتمام فى المناقشات التي ستلى ٠

يقع (عجائب الآثار) ، العمل الرئيسى للجبرتي فى أربعة مجلدات تمتد بمساحة الفترة ١٦٨٨ ـ ١٨٢١ لكن التفاصيل الدقيقة والتواريخ الصحيحة تبدأ بعد عـام ١٧٨٦ (٢٠) ٠ أما مظهر التقديس فهو كتاب أصغر كثيرا ، كتب على ما يبدو بالاتحاد مع (حسن العطار) ويغطى فترة الاحتلال الفرنسى (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) فقط (٢١) ٠ ولقد ظل هناك اعتقاد لفترة طويلة ان (مظهر) قد كتب بعد (العجائب) لكن أغلب المثقفين يتفقون الآن ان (مظهر) قد اسـتكمل فى ديسمبر ١٨٠١ وأن ثلاثة الأجزاء الأولى من (العجائب) قد أكملت فقط فى ١٨٠٥ ـ ١٨٠٦ (٢٢) ٠ ومن المهم أن يعرف أى عمل أتى أولا ، حيث ان هناك تحولات فى الرأى ذات دلالة من عمل الى آخر :

سميت (مظهر) من جانب أحد المثقفين (التاريخ الرسمي للاحتلال الفرنسي) (٢٣) • وقد أهديت الى الحاكم العثمانى يوسف باشا ، وأخذت الى السلطان سليم الثالث فى استانبول حيث ترجمت الى التركية (٢٤) • وقد كان هناك اعتقادا لمدة طويلة بوجود نسخة مترجمة للفرنسية بمعرفة ألكسندر كاردان Alexander Cardin (حوالى ١٧٩٠ ــ حوالى ١٨٣٩) مترجم القنصلية الفرنسية فى الاسكندرية (٢٥) • لكن هذا الاعتقاد زال نهائيا الآن بعد أن ثبت دون أى شك ان عمل كاردان هذا هو موجز (للعجائب) وليس ترجمة (لمظهر) (٢٦) • وقد ظهرت النسخة العربية الأصلية من (مظهر) ــ بما فيها من غرابة ــ قريبا جدا بعنوان (يوميات الجبرتى) بمعرفة محمد عطا فى مجلدين من نشر دار المعارف وبدون تاريخ (٢٧) •

لقد تأخر نشر عجائب الآثار لمدة طويلة نظرا للمطاعن المعارضة التى صبها العمل على عهد محمد على • وعندما زار فون كريمر Von kremer مصر فى ١٨٥٠ قال ان (العجائب) أصبح مرجعا نادرا نظرا لقيام السلطات باتلاف أى نسخ وقعت فى أيديها • وقد رفع الحظر عن العمل فى نهايات سبعينيات القرن الماضى ، وظهرت أول طبعة من أجزاء (العجائب) فى الجريدة السكندرية (مصر) عام ١٨٧٨ • وفى ١٨٧٩ ــ ١٨٨٠ طبع العمل كله فى مطبعة بولاق ، وأصبحت هذه الطبعة بالتبعية الطبعة القياسية والتى يستشهد بها المستشرقون (٢٨) • وتوجد ترجمة فرنسية (للعجائب) بعنوان :

Merveilles biographiques et historiques ou chronique d' Cheikh Abd El-Rahman El-Djabarti (Cairo, 1888-96)

لكن آيلون Ayalon لا يبالغ عندما يقول انها « غير دقيقة لدرجة خطيرة ، وترجمتها رديئة ، ومن الخطير استعمالها » (٢٩) •

وتشير الدراسات الحالية الى أن الجزء الثالث من (العجائب) الذى يغطى الفترة ١٧٩٨ ــ ١٨٠٥ ، هو أساسا امتداد (لمظهر) • فقد انتهى (مظهر) بأحداث يناير ١٨٠٢ واحتوى فقط تراجم لأمراء المماليك وألحقت بهم تراجم للعلماء ليكون هذا الجزء الثالث من (العجائب) (٣٠) • وعلى ذلك فان (العجائب) يعطى دراسة أكمل للفترة ، ومع هذا فرغم أنه أكثر أهمية ، الا أنه كتب من وجهة نظر جد مختلفة عن وجهة النظر التى كتب بها (مظهر) •

لتكوين رأى من (مظهر) وحده ، فان الجبرتى لا يشعر بغير الاحتقار للفرنسيين • وهو يهاجم المنشور الأول لنابليون بعنف معلنا ان الفرنسيين ملحدين برغم تأكيداتهم بعكس ذلك ، وأنهم مع قولهم باحترامهم للقرآن الا انهم لا يتورعون عن لمسه بعد التبول • ويرى ان الفرنسيين

سيئو الخلق يحلقون وينتعلون الأحذية فوق السجاجيد الغالية • وعندما يشير الجبرتى الى ضباط فرنسيين معينين فانه لا يتردد فى نعتهم بنعوت الى جانب أسمائهم (كاللعين ـ والكافر ـ والخبيث ـ والتعيس) • كما يسخر من اصلاحات الفرنسيين السياسية مدعيا أن أفكار الفرنسيين عن المساواة تعنى فقط حكم المعتوهين • أما عن الاصلاحات الجادة فى الشئون الصحية وما أشبه فان الجبرتى لا يتكلم (٣١) •

وعلى الجانب الآخر فان (عجائب الآثار) تحكى قصة الغزو الفرنسى من منظور آخر • فالجبرتى يأتى واضحا مؤكدا « أن السلوك العام للكفار صريح وغير معيب ، بعكس سلوك المسلمين » (٣٢) • ومعلومات الفرنسيين العلمية مشروحة بالتفصيل وباعجاب • لا توجد نعوت تتبع الأسماء الفرنسية • وبينما يصف (مظهر) الفرنسيين بأنهم (سكيرون) ، فان (عجائب) يقول فقط انهم يشربون فقط من أجل الانتعاش • وبينما تذكر محاكمة سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر Kleber فى (مظهر) دون اطالة فانها تتلقى ست عشرة صفحة فى (العجائب) مليئة بالاعجاب بالاحساس بالعدل عند الفرنسيين • وبينما يوصف المحررون العثمانيون من الحكم الفرنسى (بالجيش المسلم) فى (مظهر) ، وهو ما يرى قبول الجبرتى لعودة الحكم الاسلامى ، فانهم فى (عجائب) يوصفون ببساطة (بالعثمانيين) أو (الجيش) • وفى تعقيبه على جلاء الفرنسيين فى (مظهر) يقول الجبرتى انه « كان يوما بهيجا ونهاية للجزع والشرور » • وهى جملة حظرت فى (عجائب) • والجبرتى فى (العجائب) قانع بملاحظة مشاعر الأهالى بأن عودة الحكم الاسلامى كان فألا حسنا (٣٣) • وفى النهاية ، وربما كان أغرب ما فى الأمر ، ان الجبرتى كان فيما يبدو محبطا لفشل الحملة الانجليزية على مصر عام ١٨٠٧ (٣٤) •

ما الذى جعل الجبرتى يغير فكرته عن الفرنسيين هذا التغير الجذرى ؟ احدى الاجابات هو أنه لما كان (مظهر) يمثل الانطباع الأول عند الجبرتى، فان (عجائب) كانت نتاج ادراكه المؤخر وانعكاسه • ليس من الصعب فهم أسباب رد الفعل الأولى المعارض للاحتلال الفرنسى • كمسلم تقى ، وفوق هذا شيخ أزهرى ، رأى الجبرتى فى الفرنسيين متطفلين قلبوا حكم السلطان (الخليفة) وممثليه فى مصر (٣٥) • وكان دائما مشمئزا بالعادات المغايرة الفرنسية ، شاجبا على سبيل المثال ، السلوك الخليع للنساء الفرنسيات ، الذى خشى أن يصيب المصريين (٣٦) • ولقد ظل الجبرتى منعزلا عن الفرنسيين خلال أغلب سنوات الاحتلال الثلاث وانتقد العلماء الذين تدنوا وخدموا سادتهم الجدد • لكن مع نهاية الوجود الفرنسى وعلى الخصوص بعد اغتيال كليبر شرع الجبرتى يغير أفكاره : وعندما شكل الجنرال جاك مينو Jacque Menou مجلسا حاكما جديدا فى

أكتوبر ١٨٠٠ وافق الجبرتي للمرة الأولى على أن يكون عضوا فيه (٣٧) • ربما كان تحول مينو الى الاسلام قد أزال معارضة هامة للحكم الفرنسى عند الجبرتى ، وربما يكون قد خلص الى أن استمرار مقاومة الفرنسيين عديمة الجدوى ــ فلماذا لا يستسلم للمحتوم ؟ وتشير (مظهر) التى كتبها بعد رحيل الفرنسيين الى أنه رغم وظيفته فى الديوان (والتى لا تشير اليها تواريخــه اطلاقا) فانه مع هذا كان مبتهجا لهزيمة الفرنسيين فى ١٨٠١ (٣٨) •

لنأخذ الحوار خطوة أبعد ، فنقول انه اذا لم يكن الموقف المعــدل (للعجائب) تجاه الاحتلال الفرنسى قائما عــام ١٨٠١ ، فلابد انه قد تشكل فورا فيما بعد ــ خلال الفترةالمضطربة المربكة للاحيــاء العثمانى (١٨٠١ ــ ١٨٠٥) • والجبرتى نفسه يقول لنا انه خــلال السنوات الخمس التالية بدء الكـثير والكثير من الناس يحنون لعودة الفرنسيين • فقد أثبت الحكام العثمانيون الجدد أنهم أكثر توحشــا مما سبق • ولم يجاريهم فى قسوتهم سوى محمد على وألبانه غير النظاميين (الدلاة) الذين احتقرهم الجبرتى لدرجة أنه رفض التوقيع على التماس للمشايخ بطلب ابقاء (محمد على) فى الباشوية المصرية • حتى المماليك الأثيرون عنــد الجبرتى ــ جاء دورهم عنده الآن ليلومهم على استمرارهم فى القتال مع بعضهم البعض ولعدم قدرتهم على توفير الاستقرار للبلد • وبدء النظام الوحيد للحكومة الذى عرفه الجبرتى ــ وهو النظام الفرنسى بالطبع ــ يبدو أكثر جاذبية من معظم المماليك والعثمانيين • ومن ثم فان الادراك الجديد (للعجائب) كان محاولة الجبرتى تعديل ما خلص اليه مسبقا فى (مظهر) (٣٩) • كان (العجائب) عملا ناضجا ، كتب بعد امتحان طويل للضمير ، وهذا هو السبب فى حصوله على تقدير وتعظيم أكثر من (مظهر) • فى حين أن (مظهر) كان ببساطة رواية شاهد عيان للأحداث • و (العجائب) تاريخ بالمعنى الذى حددناه سابقا • فى (العجائب) على سبيل المثال يروح الجبرتى بعيدا الى حد نقد الشيخ عبد الله الشرقاوى لرفضه ارتداء الجوكار (Gocarde) (٤٠) ، حيث ان ارتداء قبعــة معينة أو عدم ارتدائها لا صلة له ــ عند الجبرتى ــ بأن يكون المرء مسلما حقيقيا (٤١) • وهذا النوع من الحكم يبين ان الجبرتى قد أخذ وقتا ليتفكر فى معنى الاســـلام ومعنى الوجود الفرنسى كليــة • وان كون الفرنسيين كفارا أو حتى حكاما جائرين لا يمكن أن يعمى عينيه عن حقيقة بعض انجازاتهم الحقيقية : وبرغم تفضيله المطلق للحكم المملوكى ، فانه يلاحظ بالقبول ان الفرنسيين قد ألغوا السخرة (٤٢) • وبرغم كراهيته الشديدة لمحمد على فانه يسجل على نحو واف ان الباشا (المصرى) قد استهل بعض المشروعات العامة القيمة مثل اصلاح سد الاسكندرية عام ١٨١٦ (٤٣) •

ان السمعة التاريخية للجبرتى فى محلها تماما • ومع هذا ، فان الحوار المقدم حتى هذه النقطة كان مؤسسا على وجه الخصوص على هذا الجزء من (العجائب) الذى يتناول الاحتلال الفرنسى • (ومظهر التقديس) غير جدير بأى انتباه باستثناء أنه يقدم مفاتيح هامة لفهم (العجائب) • و (مظهر) فى الواقع أفضل من تواريخ زمنية معاصرة أخرى لكنه لم يكن ليوفر على الاطلاق وحده هذه الرتبة من التفوق التى يتمتع بها الجبرتى • وحتى (عجائب الآثار) اذا أخذ فى جملته ، ليس عملا تحليليا أو تفسيريا فى الحقيقة ـ اذا ما طبقنا المناقشات التى قدمناها فى الفصول الأولى من هذا الكتاب •

عند هذه النقطة يجب أن نعود الى مقاييسنا الأصلية للحكم على حداثة الكتابة التاريخية • فبالنسبة (للغرض) من التاريخ ، على سبيل المثال ، فان الجبرتى يقول :

« اعلم أن التاريخ علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم ، وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم •

وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم •

والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هى ، وكيف كانت ، وفائدة العبرة بتلك الأحوال ، والتنصح بها ، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين ، من الأمم المذكورة السالفين ، ويستجلب خيار أفعالهم ، ويتجنب سوء أقوالهم ، ويزهد فى الفانى ، ويجتهد فى طلب الباقى » (٤٤) •

وبصورة لا تنكر فان هناك أثرا من التدين ينساب فى كلام الجبرتى عن (الغرض) وخاصة فى الجملة النهائية • لكن النغمة العامة تساعد على الكشف دون حدود • ان الجبرتى لم يشعر فقط بان التاريخ مرتبط ومقيد بالأمور الانسانية ـ وهو ما يفيد الأجيال القادمة من عبره ـ لكنه أيضا مهتم بالتسبيب ، حيث ان كلماته نفسها عن الغرض من التاريخ « الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هى وكيف كانت » • ونلاحظ ان الجبرتى لا يستخدم كلمة (أخبار) فى أى موضع ، مقررا بدلا من ذلك ان التاريخ يعنى (بالأحوال) ـ أحوال الناس • وهذا مدخل مرض للتاريخ عند المقارنة ، ولا يؤدى اذا أنجز ـ الى تاريخ زمنى Chronicle ذا طابع تقليدى •

وعلى عكس المتوقع ، فان التنظيم العمومى (للعجائب) حولى تماما • وشأنه شأن أغلب كتاب العصور الوسطى فقد تحمس الجبرتى حماسا زائداً للتواريخ والمواعيد مثل قبل الظهر ، ومساء اليوم الثالث فى

رمضان الخ • والواقع أنه لا يوجد تماسك بنائي (للعجائب) أكثر من ذلك المتعلق بمضى الزمن ـ وهي حقيقة دفعت آيلون Ayalon الى القول بان أفضل وسيلة لدراسة الجبرتي هي اعادة كتابة تاريخه (٤٥) • فالأحداث والوفيات ترص الى جانب بعضها البعض طالما انهما كانا ينتميان الى نفس السنة • ولا يمثل مشكلة ما أن يكون أو لا يكون للشخص المتوفى أى صلة بالأحداث التي وردت • وكنتيجة لذلك ، فان (العجائب) مربكة وصعبة الاستعمال ، وفوق هذا فهى زاخرة بالاسهاب والاطناب • فللترجمة لمتوفى بعد مرور سنوات عشر على زوال نفوذه وسلطانه ، كان الجبرتي مجبرا على التقاط الكثير من الحقائق والحوادث التي قدمت مسبقا في القصة التاريخية •

لكن السؤال الأساسى هو ما اذا كان الجبرتي في ظل خطة كهذه يتعامل مع التاريخ كسلسلة لا تنتهى من الظواهر الخارجية أم انه يركز على الاقناع الفكرى للحوادث • قد يكفينا مثلان :

١ ـ « ذو الحجة ١١٨١ هـ / أبريل ١٧٦٣ :

فيه وصلت أخبار عن حسين بك كشكش وخليل بك ، أنهم لما وصلوا الى غزة جمعوا جموعا ، وأنهم قادمون الى مصر • فشرع على بك في تشهيل تجريدة عظيمة ، وبرزوا وسافروا •

ثم ورد الخبر بعد ثلاثة أيام أنهم عرجوا الى جهة دمياط ، ونهبوا منها شيئا كثيرا ، ثم حضروا الى المنصورة ونهبوا منها كذلك • فأرسل على بك يأمر التجريدة بالذهاب اليهم ، وأرسل لهم أيضا عسكرا من البحر ، فتلاقوا معهم عند الديرص والجراح من اعمال المنصورة عند سمنود • فوقع بينهم وقعة عظيمة ، وانهزمت التجريدة وولوا راجعين ، وقتل في هذه المعركة سليمان جربجى باش اختيار جميليان ، وأحمد طنان جراكسة (٤٦) وعمر أغا جاووشان أمين الشون •• وكانوا صدور الوجاقات •

ولم يزالوا فى هزيمتهم الى دجوة • فلما وصل الخبر بذلك الى على بك اهتم لذلك ونزل الباشا وخرج الى قبة باب النصر خارج القاهرة ، وجمع الوجاقلية والعلماء وأرباب السجاجيد ، وأمر الباشا بأن كل من كان وجاقليا أو عليه عتامنة(٤٧) يشهل نفسه ويطلع الى التجريدة أو يخرج عنه بدلا •

واجتهد على بك فى تشهيل تجريدة عظيمة أخرى ، وكبيرها محمد بيك أبو الذهب ، وسافروا فى أوائل المحرم ، واجتمعوا بالتجريدة الأولى •••• وسار الجميع خلف حسين بيك وخليل بيك ومن معهم • وكانوا

عدوا الى بر الغربيــة بعــد أن هزموا التجريدة ٠ فلو قدر الله أنهم لما كسروا التجريدة ساقوا خلفهم ، كما فعل على بيك وصالح بيك ، لدخلوا الى مصر من غير مانع ٠٠٠٠ ولكن لم يرد الله تعالى ذلك (٤٨) ٠

٢ ــ ومات الأمير قاســم بك أبو سيف وهو مملوك عثمــان بك أبى سيف ، الذى سافر بالخزينة ، ومات بالروم وذلك سنة ثمانين ومائة وألف ، وهى آخر خزينة رأيناها سافرت اسلامبول على الوضع القديم ، وعثمان بك هذا مملوك عثمان بك أبى سيف الذى كان من جملة المقاتلين لعلى بك الدمياطى وخليل بك قطامش ومحمد بك قطامش فى ولاية راغب باشا كما تقــدم ، وخدم المترجم مراد بك وكان يعرف بقاســم كاشف أبى سيف ، وكان له اقطــاع والتزام وايراد ، واشتهر ذكره فى أيام مراد بك ، وبنى داره التى بالناصرية وأنفق أموالا جمة ، وكان له ملكة وفكرة فى هندسة البنــاء ، واستأجر قطعــة عظيمة من أراضى البركة الناصرية تجاه داره من وقف المولوية ، وسورها بالبناء وبنى فى داخلها قصرا مزخرفا برحبة متسعة ، وقسم تلك الأرض بتقاسيم المزارع وحولها طرق ممهدة مستطيلة ومجارى للمياه التى تصل اليها أيام النيل ومجار أخرى عالية مبنية بالمؤن والخافقى من داخلهــا تجرى فيهــا الميــاه من السواقى ، ويحيط بذلك جميعه أشجار الصفصاف المتدانية القطاف ، وبداخل تلك البركة المنقسمة النخيل والأشجار ومزارع المقاثىء والبرسيم والغلة وغيرها يسرح فيها النظر من سائر جهاتها وتنشرح النفوس فى أرجائها ومساحاتها ، وجعل السواقى فى ناحية تجتمع مياهها فى حوض وبأسفله أنابيب تتدفق منها المياه الى حوض أسفل منه ٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ولما حضر حسن باشا الجزايرلى الى مصر وخرج منها أمراؤها تخلف المترجم عن مخــدومه واستقر بمصر فقلدوه الامارة والصنجقية فى ســنة احدى ومائتين وألف فعظمت امــرته وزادت شــــهرته ، وتقلد امارة الحــج مرتين (٤٩) ٠

سنجد لدينا هنا طريقة معــالجة الجبرتى للأشخاص والحوادث ٠ فالحكاية التاريخية تركز على مجرد المرور الانتقالى من مكان الى آخر ، ولا تعطينا الترجمة أى ادراك حقيقى للشخصية موضوع المناقشة (٥٠) ٠ وطرائق المعالجة الفنية (التقنية) هى نفس الطرائق الخاصة بالتاريخ الزمنى الاسلامى الوسيط ٠ وقد يقدم الجبرتى فى بعض المناسبات مادة قصصية أكثر قليـــلا من بعض التواريخ الزمنيــة المملوكيــة والمصرية العثمــانية الجرداء ، لكن يبقى أن الاختــلافات طفيفة والأسلوب حافل بالذكريات عن حــوادث العساكر العثمانيين ٠ ويقول شفيق غربال ان الجبرتى يستطيع أن يكتب (تراجم خــلابة بديعة للرجال) ، لكن هذا القول عندنا فيــه مبالغة ٠ ويستشــهد غربال بتراجم الجبرتى لمرتضى

الزبيدى ومحمد بك الألفى باعتبارها متميزة (٥١) ، ومع ذلك ، فان الفحص المتأنى لهــذه التراجم يتبت انها أفضــل قليلا فقط من مثيلاتها الوسيطة البدائية • فأغلب قصة الجبرتى عن الزبيدى تتصل بأناشيد المديح والهدايا التى تلقاها من المعجبين المعاصرين (٥٢) • وترجمة الألفى أطول وتحتوى حكايات مسلية قليلة تصور شخصيته • وكما فى ترجمة قاسم بك ، فان أغلب الحكاية مخصصة لعدد أماكن الاقامة والقصور التى بناها الألفى (وكل قصر له وصف متقن) ، وتقــدير لثروته المادية والرتب العديدة التى حازها (٥٣) • ومعالجة موضوع الرجلين (الزبيدى والألفى) هو أساسا نفس معالجة (الطبقات) من الكتابة ، حيث يظهر مجرد صورة ظلية Silhouette للشخص موضوع الدراسة ، وبالقطع فانه ليس لهذه السجايا اعتبر (العجائب) فى بعض الأحيان مثلا نموذجيا للكتابة التاريخية (٥٤) •

والتناقض القائم هو أنه رغم أن كلا من المحتوى والأســلوب فى (عجائب الآثار) يضللان اقترابا تقليديا حوليا أساسيا للتاريخ ، فان كثيرا من عناصره لا تناسب تصورا كهذا • كيف ستيسر لنا رؤية تحليل الجبرتى العويص العميق لأثر الفرنسيين على مصر ، وقدرته على رؤية الحملة الفرنســية من كلا من الجانبين الفرنسى والمصرى ، ملاحظــاته القاسية والحادة عن عادات الفرنسيين وحكومتهم ، كيف يتيسر لنا أن نوفق بين ارادته الدائمة فى تقــديم تقييمه للرجال والحوادث ، وبين الأدلة المقنعة التى يدلى بها لأفكاره ، والأسلوب التقليدى للمؤرخ الزمنى فى احتباس كل نقده الشخصى لمثل هذه القضايا ؟

والاجابة الوحيدة لمثل هذه الأسئلة هى ان الجبرتى برغم كل شىء أكثر من مجرد مؤرخ حولى • ربما يكون العنصر التفسيرى فى كتاباته غير محسوس كما ينبغى أن يكون فى الكتابة التاريخية اليوم ، وأنه يتبع بدقة ممارسة العصور الوســطى التقليدية فى تسجيل المظهر الخارجى للأحداث ، لكن فى نفس الوقت فان العقلية التحليلية الاستجوابية فى (العجائب) قوية لدرجة تجعله فى مرتبة منفصلة عن الأعمال المبكرة • لقد فاز الجبرتى بسمعته العظيمة بفضل هذه المواصفات ، أكثر من أى شىء آخر •

لقد افترض أغلب المثقفين ان العناصر التفسيرية فى (العجائب) قد نتجت عن قدرات الجبرتى الفريدة فى الملاحظة ، مع اغفال حقيقة ان أغلب (العجائب) و (مظهر) تتبع النهج الحولى المقبول الذى يتركنا مع نفس النقاط العمياء التى توجد فى التواريخ الزمنية المبكرة • ولقــد شعروا بالحرج عندما اكتشفوا ما ســاعد الجبرتى على اخراج مثل هذا العمل الفريد من بيئة تأريخية جدباء • ومثل كل نصراء نظرية الرجل

العظيم ، فقد اضطروا فى النهاية الى قبول عبقرية الجبرتى الشخصية كشىء بدهى ـ ليس له سوابق ـ ليس له مواز معاصر ـ ودون مكملين له فى القرن التاسع عشر • ولا حاجة بنا الى القول بأن مثل هذا التفسير لا يكفى تماما •

لكن الوجه الآخر من الرأى ••• فهو أن الكثير ـ ان لم يكن كل ـ من العنصر التفسيرى فى (العجائب) ينبع من طبيعة الموضـوع نفسه وليس من مواهب الجبرتى الشخصية الغامضة • وأقصد بهذا أنه لم يكن فى استطاعة أى مراقب مصرى واع أن يسجل تاريخ الاحتلال الفرنسى دون أن يتنبه للخصائص التى وضعت الفرنسيين فى وضع منفرد عن الجمـاعات المألوفة كالممـاليك ، العثمانيين أو حتى السكان المحليين أنفسهم • لقد كان الفرنسيون ـ برغم كل شىء ـ هم الذين عدلوا بعنف الشكل المصرى للحكومة ، والجبرتى لم يكن أكثر من مسجل لهذا الحدث• وكان الفرنسيون أيضا هم الذين كانت لهم وجهات نظر دينية جذرية مختلفة وأسلوب حياة غير معتاد كلية ، والجبرتى ببساطة سجل هذه الاختلافات • وفى النهاية فان الفرنسيين امتلكوا علما متفوقا وتكنولوجيا، والجبرتى حاز شرف ملاحظة وتقييم هذا التفوق ، بكلمات أخرى ، فان الاحتلال الفرنسى كان للمصرى ظاهرة فريدة ، لم يكن من الممكن النظر اليها كما ينظر المرء الى معارك المماليك الداخلية ، وفى الواقع كمـا نظر الجبرتى الى هذه المعارك • لقد كانت التجربة الفرنسية مناقضة لأى شىء عرفه المصريون ، فقد مالت طبيعتها الى استفزاز الفكر واعادة تقييم القيم • واقتضت، من الجبرتى أن يكتب تاريخا مختلفا عن ذلك الذى كان سيكتبه لولا التجربة الفرنسية التى سببت هذا التغير من جانبه (٥٥) •

« قد يكون غير طبيعى لنا أن نتوقع من الجبرتى أن يسجل مظاهر الحياة الاجتماعية كما كانت تعاش فى ذلك الوقت ، فى القاهرة أو فى الريف • هذا نوع جديد من الكلام والكتابة ، التى لم تكن معروفة لرجال فى زمانه وجرى تجاهله من جانب كتاب ومؤلفين • ان أيا من كان قد عاش بين الناس وشاهد وشارك فى عاداتهم كل ساعة من كل يوم قد لا يهتم بالتطورات المرحلية والتعديلات فى حياته أو حياتهم • وماذا دخل فى حياتهم أو اختفى منها ، وماذا اختلط مع الوقت مع حياتهم ، الى أثر الاحتكاكات والتعاملات بين الناس فى التجارة ، الحرب ، أو السفر ، الى غير ذلك من شئون الحياة التى لا تنى عن التطور والتحول والمزج •

وهكذا فان الجبرتى آمن أو أحس أن عادات معاصريه والحياة التى أحاطت بهم ـ يجب أن تبقى من كل الوجوه كما كانت ، غير ممسوسة بأى تغيير أو تبديل • وتسجيل هذه العادات أو الكتابة عنها قد يكون عديم الفائدة ، بافتراض ان الفكرة قد مرت بخاطره • ومن ناحية أخرى

فان الجبرتى انحرف عن مثل هذه المبادىء فيما يخص فترة معينة سجا
تاريخه ٠٠ هى على وجه التحديد ـ فترة الغزو الفرنسى ـ ففى هـ
الحالة سجل الجبرتى فوق كل شيء ، عددا من الآثار الاجتماعية المعي
التى أحدثها جنود هذه الحملة على القاهرة ٠٠٠٠٠٠ لقد كان انحرا
الجبرتى عن مبدئه فيما يخص هذه الفترة طبيعيا ، حيث ان أثر الحم
كان واضحا وقويا ٠ ولقد أخذ الجبرتى علما بذلك وأحس بأثرها ؛
حياة القاهريين الاجتماعية التى كان هو أحد أعمدتها » (٥٦) ٠

لقد وفر (الشرقاوى) المفتاح لهذا الطريق المسدود ٠ فوفقا له ، ف
الجبرتى قد استسلم ببساطة لقوة الدفع الطبيعية ، مثلما فعل ابن الأ
منذ قرون كثيرة مبكرة عندما أجبره الوجود الأجنبى المغولى على تخصيص
اهتمامه لطرقهم الغريبة ٠ وربما كانت قوى الملاحظة عند ابن الأثير أق
حدة من قوى الملاحظة عند الجبرتى ، لكن ربما كان هناك الكثير أيض
ليلاحظ عن الفرنسيين أكثر من المغول ، الذين فى المراحل الأولى لغزوهم ع
الأقل لم يجلبوا سوى التدمير ٠ وعلى خلاف الجبرتى ، فان ابن الأثير كا
عنده بعد واحد ليشتغل به ٠ فاننا اذا نظرنا لوصفه لقتل المغول للأج
فى بطون الأمهات وممارستهم بنـــاء الاهرامات من الرؤوس الآدمية
سنكتشف أنه لم يكن كسولا فى التسجيل (لوحشية هؤلاء الغزاة)
كذلك فان ابن فضـــلان والبيرونى كانا مراقبين حريصين من العصـــو
الوسطى للمسارح الروسية والهندية على وجه التحديد ، والتعليقات الت
قدماها عن ثقافات الأجنبى مساوية فى كثير من الأوجه لعمل الجبرتى
من حيث احتياج المؤرخ فى كل حالة الى شرح وتقييم لأشياء كان يمك
أن يعتبرها أمورا مسلما بها فى محيط ثقافته هو ٠

لكن لا شيء من هذا يوهن من حقيقة ان الجبرتى قد لاحظ وراقد
بذكاء متوقد أكثر من أغلب معاصريه ٠ لكن هذا يفسر أيضا لماذا كان
قوى الجبرتى التحليلية ذات عمق متـــراوح : فهى مختـــــرقة فى حا
الفرنسيين ، وضحلة عندما يتعامل مع المواضيع « التقليدية » كتراج
كبار العلماء ٠ اذا كان هذا كله يفسر كلية نجاح عمل (العجائب)
فانه على الأقل يقدم جزءا من هذا التفسير ٠

دللنـــا فى الفصـــل الأول أن الابتعاد عن محتوى التاريخ الزمن
Chronicle تجاه الكتـــابة التاريخية كان من ناحيـــة معينة أقل
« موضوعية » (٥٧) ٠ ولقد خاطر الجبرتى هذه المخاطرة عندما كتب ع
الاحتلال الفرنسى ، وهو ما جعل هذه الفصول من (العجائب) أكثر قيم
من التاريخ الزمنى دورانى الطاحونة Run-of-the-mill Chronicle ٠
فعندما يأتى الى الفرنسيين ، يبدأ الجبرتى لأول مرة بالتفاعل الشخص

مع مادته ، بدلا من تسجيلها • يهجر « الموضـوعية » عديمة اللون في ـ التاريخ الزمنى Chronicle ولا يكتب ـ كما يؤكد آيلون Ayalon رواية هى « نموذج للموضوعية » • والصعوبة هنا تكمن فى اختيار آيلون للكلمات ، فهو نفسه يحسمها عن طريق مناقضة تأكيده السابق واضافة انه قد يكون من غير المعقول ان يكون الجبرتى أى شىء أكثر من أن يكون نتاجا لبيئته وأزمنته (٥٨) • لكن هذا هو الطرف الآخر ، الذى يعرف أحيانا « بالتاريخ الحتمى » • وهذا غير مناسب ، حيث اننا نتوقع من المؤرخ الجيد ان يتفوق ـ كما فعل الجبرتى ـ على بيئته المباشرة من خلال اعادة التفكير فى معناها • فعلى سبيل المثال لا يمكن ان يشرح أن مسلك الجبرتى تجاه الفرنسيين ، المماليك ، محمد على ، أو أى أحد آخر كان مقدما اليه ببساطة كلية بواسطة بيئته • فعلى العكس لقد كون الجبرتى وجهات نظره الخاصة تأسيسا على ملاحظاته ، وكان عنده حس المؤرخ الكافى بداخله ليريد اعادة تقييم الكره الغريزى للكافر الذى شعر به أثناء كتابة (مظهر) • لم يعد الجبرتى هو « المؤرخ الزمنى » الموضوعى ، لقد شعر الآن ان واجبه هو ان يتكلم عن القضايا العديدة وأن يجعل معلوما ان (الانحيازات) التى شعر بها قد بلغها بذكاء • وقد ساعده منظوره التاريخى على ان يرى وجهى العملة فى الاحتلال الفرنسى ، ونتج عن تدقيقه فى الحقائق تقديرا واحتراما واضحين للفرنسيين ـ وهو شعور لم يبذل هو جهدا فى اخفائه (٥٩) • وأحكام الجبرتى عن (محمد على) كانت واضحة وقاطعة ، وكانت ايضا ذات قيمة عظيمة كمصححة للآراء العامة المؤيدة فى الأجيال التالية (٦٠) • وعلى ذلك ، فالجبرتى ليس موضوعيا ، اذا كان هذا يعنى (محايدا) • لكنه متفتح العقل ، شامل ، وفوق كل شىء ، متأمل • انه يعطينا كل الحقائق الضرورية لنصل الى استنتاجاتنا الخاصة ، لكنه فى نفس الوقت يقدم أفكاره الخاصة عن الشخصيات والحوادث • فعلى سبيل المثال ، يجعلها الجبرتى واضحة ان المماليك عاملوا العلماء ، باحترام أكثر مما فعل محمد على ، ولا يخفى رأيه الخاص ان العلماء جـديرون بالمناصب الرفيعـة باعتبـارهم حائزين لأعلى درجـات (العلم والعدل) (٦١) • فاذا كنا نرغب فى ان نستدل من هذا ان الجبرتى (كعالم) كان غير قادر على الحكم على محمد على بانصاف ، فان هذا هو ما نمتاز به • والمغزى هنا هو أن الجبرتى هو الذى عاوننا على ان ندرك موضوعا كهذا • فبشرح وجهات نظره بصراحة منحنا الجبرتى عمقا فى الفهم التاريخى أبعـد بكثير من الامكانيـات الهزيلة للتـاريخ الزمنى Chronicle •

ان ومضات الجبرتى العميقة من نفاذ البصيرة لا تغير من حقيقة ان (العجائب) فى أغلبها مجرد نمـوذج للتاريخ الزمنى Chronicle

الاسلامى الوسيط • ولولا العوامل الملطفة من المواضيع غير المعتادة والمعاصرة البادية فى الفكرة الرئيسية فيه لكان العمل (العجائب) قد أودى بصاحبه الى زوايا النسيان التاريخى • كان التاريخ المعاصر ـ كما رأينا ـ شكلا فجا من كتابات العصور الوسطى التاريخية التى نتجت فى بعض من أحسن الأمثلة فى التاريخ الوسيط • كان المسعودى وابن الأثير فى أحسن أحوالهما عندما ناقشا الحوادث التى عايناها بنفسيهما ، حيث ان ذلك كان وقتئذ أفضل ما يستطيع مؤرخ العصور الوسطى بدءا من الطبرى وحتى الجبرتى نفسه ، أن يقدمه فى ظل انعدام التوثيق • ولم تمكنه مصادره بالنسبة للفترات المبكرة من أن يقـدم الاتقـان اللازم ليجعل من روايته شيئا نافعا بحق •

ومع انه يمكن اعتبار الأجزاء النهائية من (العجائب) تاريخا زمنيا Chronicle وتاريخا معاصرا ، الا ان العمل بشكل عام يحوى خصائص تصنيفات عديدة أخرى أيضا • فالعنصر الخاص بالسير يحتل مساحة أكثر من التاريخ الزمنى ـ الذى يضع الجبرتى مرة أخرى فى منتصف التجربة الوسيطة Medieval بانصاف • كانت السير دائما شكلا تاريخيا محبوبا ، وأصبحت هكذا خاصـة خلال العصـور الوسطى المتأخرة (٦٢) • وكان المؤرخون السوريون على وجه الخصوص نشطين للغاية فى هذا المجال ، ولعل غزارة مادة التراجم فى (العجائب) تنبع من تعاون الجبرتى مع المؤرخ السورى المرادى (٦٣) •

كان مسلك الجبرتى فى التراجم هو أساسا (طبقـات) العصور الوسطى ، فالفقرات التراجمية والتواريخ الزمنية تتعاقب خـلال العمل بأكمله • وكانت النتيجة مزيجا من التاريخ الزمنى ، اليوميات ، والتراجم، وهذا كان محتوى غير متناسق فى بعض الأوقات الى حد انه كان يتضمن تفاصـيل غـير متصلة بالموضـوع كوصـف ممتلكـات أمـيرية Princely estates • وفى هذا المقام أيضا فان (عجائب الآثار) خلدت التقليد الوسيط المتأخر •

اتبع الجبرتى أيضا طرائق العصور الوسطى المتأخرة فى الاسلوب ، وأمطر (العجائب) بسخاء «بالسجع» حيث اقتضى التقليد ذلك (المقدمات ، وصف المعارك والمشاكل الأخرى ، وشحن فقرات عاطفية من المديح والهجاء ، وهكذا) (٦٤) لكنه لم يكن خبيرا فى هذا المجال حيث يستطيع أى شخص حسن الاطلاع على الأعمال المبكرة ان يقرر ذلك • بل ان مصر أواخر القرن التاسع عشر انتجت مؤرخين أفضل فى اسلوب السجع من الجبرتى ، رغم انهم كانوا بعيدين كثيرا عن التقليد أكثر منه (٦٥) • لقد كان اسلوب الجبرتى فى الحقيقة فقيرا بصفة عامة ، يعكس التدهور فى المقاييس الأدبية الذى كان قد بدأ فى العصور المملوكية • ويبدو ان السجع كان الوسيلة

الوحيدة التى عرفها الجبرتى ليأتى بجمله خارج بناء الاسناد الموضوعى المكون من عشر كلمات أو أقل · واستخدم قواعد غير ملائمة نحويا ، وعاميات ولغة دارجة ، ولم يثبت فى أى مناسبة قدرته على الكتابة على مستوى أعلى (٦٦) · وكما لاحظنا مسبقا ، فان مثل هذه الأخطاء اللغوية كان يمكن أن تعوق جهوده لتخطى المستوى الضحل من النوع المادى من التاريخ الذى هو جوهر التاريخ الزمنى Chronicle ·

قبل الاقدام على تقييم نهائى (للعجائب) فان نظرة على عدد قليل من المؤرخين الآخرين قد تساعدنا على ان نضع الجبرتى فى بيئته أو محيطه الملائم وأن نحكم على ما اذا كان بالفعل عملاقا بين الأقزام أم لا ·

لقد أنجبت مصر العديد من مؤرخى القرن التاسع عشر المبكر ممن يستحقون الاشادة ، كانوا جميعا معاصرين للجبرتى بصورة أو بأخرى · وكان أشهرهم بلا شك محمد بن عمر التونسى (١٧٨٩ ـ ١٨٥٧) ، الذى سماه « الشيال » أعظم المحررين المحدثين وصائغى النصوص (٦٧)· باشر التونسى أنشطة أخرى كثيرة ليكون قادرا على تكريس وقت كثير للكتابة التاريخية ، لكنه نشر وصفا لرحلاته الى السودان · وهو مصدر قيم من المادة الجغرافية والاجتماعية فضلا عن المصادر التاريخية · وليسير على نفس النهج السجعى التقليدى المتفشى فقد سـمى عمله « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » · كان الكتاب مزيجا من ملاحظات التونسى العشوائية عن الحياة السودانية ، والماحات متفرقة عن القرآن ، الشعر ، والحكايات · وكأى من مؤرخى العصور الوسطى فقد كان التونسى فى أغلب أجزاء كتابه قانعا بأن يصف ، ولم يبحث حقيقة فيما تحت سطح الحوادث · كان ترتيب الكتاب جغرافيـا ومواضيعيا topical أكثر منه تاريخا زمنيا ، وهذا ما كان متوقعا ، موضوعا في الاعتبار انه لم يكن تاريخا بل قصة رحلة · واسلوب التونسى ـ مع شذوذه ـ مطابق بصورة لصيقة للنمـاذج العربية الكلاسيكية أكثر من الجبرتى ـ وربما بسبب التدريب المتطور الذى تلقاه كمترجم ومصحح فى مدرسة الطب وفى مطبعة بولاق (٦٨) · وقد تحدى التونسى فى بعض المناسبات قواعد النحو والصرف أو انحرف الى فقرات عامية ، لكن هذه الحالات مع هذا تعتبر نادرة بالمقارنة بالجبرتى (٦٩) · وقد كتب التونسى مثل (التشحيذ) قصة عن رحلة أخرى الى السودان (رحلة وداى) وقاموسا طبيا (الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية) · وحرر أيضا العديد من النصـوص الطبية (٧٠) ·

كان هناك ثلاثة مؤلفين آخرين خلال هذه الفترة ـ عبد الله الشرقاوى ، إسماعيل الخشاب ، ومصطفي القلعاوى ، لكن ابداعهم العقلى كان أقل

من الونسى ، بيد أنهم كانوا أكثر انتسابا للتاريخ فى رواياتهم (٧١) • وكان كلا من الشرقاوى والخشاب معارف شخصيين للجبرتى •

وعلى خلاف الجبرتى ، فان عبد الله الشرقاوى (المتوفى ١٨١٢) صار من البداية المبكرة أن يعمل متعاونا مع القوات المحتلة الفرنسية • وكان أيضا شيخا أزهريا ، لكنه كان ذا شهرة أكثر من الجبرتى • ويبدو أنه انبهر بتفوق الفرنســـيين على بنى وطنه المتخلفين ، فكان اختيـــاره كرئيس للديوان الأول الذى أقيم تحت الاحتلال اختيارا طبيعيا من جانب نابليون (٢٧) • وبحسبانه عالما من علماء زمانه فقد تحاشى التاريخ فى غالب الأحوال وكتب بدلا منه مواضيع دينية ولغوية • وكانت كل أعماله التاريخية ستا وخمسين صفحة عن تاريخ مصر (تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين) ومجموعة من التراجم عن الأئمة الشافعية من القرن الخـــامس عشر وحتى زمنـــه (التحفـــة البهيـــة فى طبقـــات الشافعية) (٧٣) •

عبرت (تحفة الناظرين) ثمانى طبعات ، وهى نفسها دليل وافر عن مركز الشرقاوى فى مجتمعه • والعمل به نقاط ضعف أساسية ، ومع ذلك فان ايجازه المخل وتطبيقه اسلوب الحوليات يجعل منه عملا عديم القيمه فى هذه الأيام • ومع ان الكتاب يوحى بأنه دراسة للحوادث المعاصرة فانه يتجاهل الاحتلال الفرنسى ــ ربما لأن الشرقاوى أراد أن يغطى دوره فى الادارة الفرنسية • كان (تحفة) فى الحقيقة دراسة هيكلية للتاريخ المصرى من الفتح العربى حتى العصر العثمانى واتجه الى ان يصبح قائمة بحكام مصر • وتعود شعبيته الغامرة ربما الى الافتقار الى كتابات تاريخية معتدلة فى ذلك الوقت •

ولا يستحق عمل الشرقاوى الآخر أى اهتمام • وكما يدل العنوان ضمنا فقد كان الكتاب نوعا من كتب الطبقات وليس به أى خلق أصيل • وقد انتحل الشرقاوى أغلب معلوماته من كتاب مبكرين أمثال الشعرانى والسيوطى أو من معاصرين كالجبرتى (٧٤) •

أما عمل اسماعيل الخشاب (المتوفى ١٨١٤) فكان أقل دلالة من أعمال الشرقاوى • كان والده نجارا أو تاجر أخشاب كما يوحى اسمه ، وخلال سنواته المبكرة عمل (كشاهد) فى المحكمة العليا بالقاهرة • ويبدو أنه كان ضليعا فى العلم ومحبوبا من الناس ، وحائزا لرضا كل أطراف الصراع الحزبى الذى كان يغطى زمنه • خلال الاحتلال الفرنسى عين كاتبا رسميا للديوان الذى أقامه (مينو Jack Menou) وكان أيضا على علاقات طيبة مع العديد من العلماء الفرنسيين الذين صحبوا نابليون الى مصر ــ

وهى حقيقة منعته من ان يكون قريبا من الدوائر الأزهرية وخاصة الجبرتى (٧٥) ، وكذلك من البقاء فى الخدمة مع (محمد على) وبعض الباشوات العثمانيين الآخرين فيما بعد • ولابد أن الخشاب كان على اتصال ممتاز بالوثائق ومعرفة وثيقة بأمور الدولة باعتباره كان يشتغل بتسجيل المحاضر الرسمية لاجتماعات المجلس • ويقول الجبرتى لنا انه حاول على أساس هذه المعرفة ان يكتب تاريخا للاحتلال الفرنسى • لكنه اذا كان قد نجح فعلا ، فان عمله لم يعثر عليه لسوء الحظ (٧٦) •

لا يبقى سوى القليل ليقال عن (القلعاوى) • فقد كتب تاريخا زمنيا Chronicle مختصرا عن الحوادث من ١٧٩٨ ــ ١٨٠٨ ، ولا يحوى شيئا لم يكتبه الجبرتى بصورة أفضل وبتفاصيل أكثر • وكالشرقاوى فانه يحتمل ان يكون قد انتحل أغلب عمله من مصادر أخرى (٧٧) •

ينتمى كل من (التونسى) ، والشرقاوى ، والخشاب والقلعاوى بوضوح الى التقليد الاسلامى الوسيط من التأريخ • ولقد كان هذا التقليد سائدا فى أراض اسلامية أخرى الى جانب مصر : فقد ظل حيا فى شبه الجزيرة العربية والمغرب حتى نهاية القرن التاسع عشر (٧٨) • وفى تركيا أيضا ، رغم الادعاء بجدب التقليد العثمانى (٧٩) ، فان نموذجا صادقا لتأريخ العصور الوسطى ظهر فى تاريخى دولتى ــ عليه Tarik-i develet-i aliyye (١٢ جزءا) لأحمد جودت Ahmed Jevdet كان تاريخى جودت Tarikh-i Jevedt كما يسمى ، تاريخا زمنيا للفترة ١٧٧٤ ــ ١٨٢٦ وكلف صاحبه ما لا يقل عن ثلاثين عاما لاعداده • ورغم ان جودت استخدم كما غزيرا من المادة المصدرية ، فان تاريخه مع هذا لم يسم عن أسلوب المدرسة القديمة ، الترقيات ، الترفيع فى الرتب ، والوفيات ــ كل هذا سجل فى اسلوب تقليدى • ومع هذا فان تفاصيل (جودت) الثرية وعنايته الفائقة بتسجيل الأحداث نافست الجبرتى وجعلت من عمله أساسا للباحثين المتأخرين • واذا لم يكن (جودت) آخر المؤرخين العثمانيين التقليديين ، فقد كان بالقطع آخر العظماء منهم (٨٠) •

وأنجبت لبنان أيضا مؤرخا له بعض الأهمية خلال هذه الفترة ــ نقولا الترك (١٧٦٣ ــ ١٨٢٨) • ورغم انه ولد فى دير القمر ، فان أسلافه كانوا يونانيين من القسطنطينية ، التى استمد منها لقبه (الترك) • دخل (نقولا) خدمة الزعيم الدرزى بشير الثانى ، وأرسل الى مصر ليراقب تطور الحملة الفرنسية • وخلال اقامته أغلب الوقت فى دمياط من ١٧٩٨ حتى ١٨٠٤ تمكن من جمع المادة اللازمة ل (ذكر تملك الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية) •

ورواية الترك بلا شك أرفع من (مظهر) الجبرتى ، وقد تعتبر الآن وثيقة ذات اهمية حاسمة ، ما لم تكن فى قدر (العجائب) · ان وجود (العجائب) هو المسئول عن تراجع (الترك) الى مستوى مؤرخ من الدرجة الثانية ــ وهذا ظلم بين لمواهبه العديدة · فتاريخه يحتوى بالفعل على نسبة كبيرة من الأخطاء ، لكنها قد تكون أخطاء النسـاخ المتأخرين · وكالجبرتى فان الترك يستعمل السجع بحرية ، ولا يلقى بالا لقواعد النحو ويكتب بالعامية · وترتيب المواد فى (ذكر) يتبع الاسـلوب الحولى ، ومثل أغلب كتاب العصور الوسطى فان (الترك) لا يعنى بربط الأحداث أو تفسيرها الا عرضا · وفى النهاية فانه لا يخفى انحيازه كعربى مسيحى للاحتلال الفرنسى فى كتابة روايته · والفرنسيون فى نظر (الترك) هم حملة أعلى حضارة يؤمل أن تحل محل بربرية الأزمنة السابقة (٨١) ·

ان دراسة هؤلاء المؤرخين تجعلنا فى وضع يسمح لنا بأن نضع الجبرتى فى المنظور الملائم · فمن جهة لا يوجد أى غموض على الاطلاق حول سمعته العظيمة ، حيث ان مقارنته بالشرقاوى مثلا تشبه مقارنة القمح بالقش · وحتى تاريخ (الترك) ــ دون عزله اطلاقا عن المؤرخين الآخرين ــ يبدو باهتا بلا مضمون عند قياسه (بالعجائب) ، التى ليست أكثر ملاءة وأكثر دقة بل أيضا أكثر عمقا فى الادراك وأكثر توازنا فى المنظور (٨٢) · فبينما تبدو مشاعر (الترك) تجاه الفرنسيين أشبه بالمداهنة والنفاق ، فان مشاعر (الجبرتى) هى الاعجاب الحذر (٨٣) · وبينما يعزز (الترك) قضية وفكرة عزيزة على قلبه ، فان الجبرتى يحاول ببساطة أن يصل الى الحقيقة ·

هل يمكن اعتبار الجبرتى أعظم من احترف التاريخ بين المسلمين ، قد يبدو فى ذلك بعض المبالغة ، نظرا لأن أغلب مظـاهر تاريخه مجرد استمرار لمنهجية العصـور الوسطى وليس تحسينا لهـا · ولا تختلف (العجائب) فى الأسلوب والشكل عن التواريخ الزمنية الوسيطة الأخرى ، والتى يمكن اعتبار بعضها أفضل من عمله (٨٤) · وأغلب نقاط الضعف فى كتابات العصور الوسطى موجودة فى عمل الجبرتى ، فعلى سبيل المثال هناك المحتوى المتغاير (٨٥) ، الاقتراب المتنافر المشوش من الأحداث ، والتعامل مع الطبقات كالتعامل مع التراجم ، والتناول الفج للسجع فى مراحل معينة ، والاسلوب الأدبى الفقير بصفة عامة ، والترتيب الزمنى الصارم للمادة ، وهكذا · وكل هذه الخصائص شائعة فى تواريخ العصور الوسطى الاسلامية · ولا يشير وجود هذه الخصائص فى كتابات الجبرتى الى شىء فريد فى خصوص مساهمته فى التأريخ الاسلامى ·

وبعد ، فان حوليات الجبرتى تملأ ما كان يمكن ان يعتبر فجوة ضخمة فى مفهومنا لمصر فى بواكير القرن التاسع عشر · وكما ان كثيرا يمكن ان يقال عن الكثير من الكتابات التاريخية ، فان ما يميز (العجائب) عن الجهود الأخرى هو أنها تزودنا بادراك اضافي ، والتفاصيل الثرية والدرجة المذهلة من الدقة (٨٦) · وفى هذه الفصول من (العجائب) حيث يقدم لنا الجبرتى ليس فقط الخبر الخام ، ولكن أيضا تعليقه الثمين عليه ــ نترك عالم التاريخ الزمنى ونبدأ فى رؤية الدلالة الحقيقية للحوادث · وفى هذا المقام فان الجبرتى بالقطع لم يكن مؤرخا تقليديا من مؤرخى العصـــور الوسطى ، بل كان ــ كما سنرى ــ أكثر حداثة من العديد من المؤرخين المصريين لأواخر القرن التاسع عشر · لكن هذه السجايا على العموم ليست سوية فى عمله ، وترجع الى طبيعة الموضوع أكثر من ادراك الجبرتى الشخصى لكيفية كتابة التاريخ · ذلك انه رغم ان ملاحظاته عن الفرنسيين واضحة فى الواقع ، فانه فى باقى (العجائب) يستخدم بثبات تقنيــات أقدم وتقليدية ، مثبتا ان محاولة الوصول الى عمق التجربة الفرنســـية كان مفروضا عليه تقريبا من جانب الطبيعة الأجنبية لموضوعه ·

قد يبدو أكثر وضوحا الآن تبين ما الذى ساعد الجبرتى ، كنتاج لتقليد تاريخى واهن ، ان يكتب ما كتب · والنقص الوحيد الباقى فى هذا الحوار هو ان كلا من (نقولا الترك) و (عبد الله الشرقاوى) كان لهما نفس فرص الجبرتى لملاحظة الفرنسيين ، ومع هذا فان أيا منهما لم ينتج عملا من نفس عيار (عجائب الآثار) · وبنفس الحافز ، فان الجبرتى وحده زين موضوعه بالتفكير العميق والعقل الفطن للمؤرخ · لأنه مهما كانت الأسباب ، فقد شعر الجبرتى فى هذه المرحلة بأنه مدفوع لأن يضع أفكارا بدلا من مجرد تسجيلات للحركة المادية · وبعمله هذا فقد كتب الجبرتى تاريخا وليس مجرد تأريخ زمنى آخر ·

حواشي الفصـل الثالث

(١) ترجم المـؤلف عنوان تاريـخ الجبرتي الى الانجليـزية على النحـو التالى
البذور المدهشة للرجال Wondrous Seeds of Men and Their Deeds
وأعمالهم ــ وهى ترجمة لا تمت بأى صلة لعنوان الكتاب « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » • وقد نوه فى حاشيته الى أنه سيحاول بعد ذلك ان يحفظ الايقاع السجعى للعناوين فى احالة الأعمال الكبرى ــ راجع ص ٤٣ •

المترجم •

(٢) اخذنا افكار فون كريمر Von Kremer ، توينبى Toynbee وآيلون من مقالة آيلون نفسه ــ انظر دافيد آيلون

David Ayalon

"The Historian al-Jabarti and His Background". BSOAS 23 (1960) : 218

عن وضع أنيس انظر محمد أنيس « الجبرتى أعظم المؤرخين » ، الهلال رقم ١٢ (١٩٦٧) ص ٢٨٧ •

(٣) كانت وجهات النظر السلبية نادرة • فقد رأى سلامة موسى ان الجبرتى « افتقر لفهم حقيقى للتغيرات العظيمة التى ظهرت وأهميتها التاريخية • لقد آمن بمعجزات الأولياء ، وكان لنمط عقليته من ذلك الطراز الذى كان موجودا فى الشرق فى العصور الوسطى » •

سلامة موسى

"Intellectual Currents in Egypt," Middle Eastern Affairs 2 (1951) : 267.

وبالقطع فان مقولة سلامة موسى بأن الجبرتى « افتقر لفهم حقيقى للتغيرات العظيمة التى ظهرت » يمكن مجادلتها • وبالاضافة الى ذلك فان من الصعب اعتبار حكم (موسى) تاريخيا اذا توقع ان يكون للجبرتى عقلية الغرب فى القرن العشرين •

ولعله من المناسب ذكر وجهة نظر محمد مصطفى زيادة هنا أيضا • فقد كان قليل التسامح مع الجبرتى عندما قال ان الجبرتى يكتب أكثر من « تاريخا ليوم بعد يوم » فى شكل يوميات » •

انظر زيادة "Modern Egyptian Historiography" Middle Eastern Affairs 4 (1953) : 267.

(٤) يقول ماكدونالد Macdonald ان الجبرتى ولد فى ١٧٥٤ •

د• ب ماكدونالد D. B. Macdonald

"Al-Djabarti," EI (1913), I, 986.

ومن جهة أخرى فان آيلون Ayalon يعتقد أنه ولد فى ١٧٥٣ •

آيلون Ayalon
"Al-Djabarti," EI (1956), II, 355.

وهناك خلاف أيضا حول تاريخ وفاته • ففي مقالته عام ١٩١٣ يقبل ماكدونالد رأى المترجمين الفرنسيين « لعجائب الآثار » بأن الجبرتي قد اغتيل على يد عملاء لمحمد على فى يونية ١٨٢٢ • ومع هذا فان دراسة حالية تشير الى ان الجبرتى قد مات ميتة طبيعية • ويقبل آيلون تقرير لين Lane انه مات فى ١٨٢٥ أو ١٨٢٦ •

انظر آيلون Ayalon "The Historian al-Jabarti", pp. 247-48 المكررة فى كتابته Al-Djabarti" "EI (1956), II 355 • ويقود فحص أنيس لسجلات المحكمة الشرعية الى اعتقاده ان الجبرتى قد مات في وقت ما عام ١٢٤٠ هـ ، أو بالضبط بين ٢٣ نوفمبر ١٨٢٤ و ١٤ مايو ١٨٢٥ •

راجع محمد أنيس « حقائق عن عبد الرحمن الجبرتى مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية » المجلة التاريخية المصرية ٩ ـ ١٠ (١٩٦٠ ـ ٦١) : ٧٠ ـ ٧٣ •

لقد كانت أيام الجبرتى الأخيرة مليئة بالبؤس • كان مريضا ، وفى الغالب فاقدا لبصره تماما ، حزينا على وفاة ابنه خليل ـ الذى يحتمل ان يكون قد قتل بمعرفة رجال محمد على عام ١٨٢٢ ـ وعاش الجبرتى فى عزلة فى بيته بالصنادقية •

عن هذا انظر محمود الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧) I ، ١٥ ـ ١٦ •

(٥) آيلون Ayalon
"The Historian al-Jabarti," pp. 237-38.

(٦) Ibid., p. 238.

وخليل شيبوب « عبد الرحمن الجبرتى » (القاهرة ـ دار المعارف للطباعة والنشر • سلسلة اقرأ ـ رقم ٧٠ ١٩٤٨) ص ١٩ •

(٧) آيلون Ayalon
"The Historian al-Jabarti" pp. 237-38.

وشيبوب « الجبرتى » ص ١٩ •

(٨) الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٦ • وتفيد الأدلة الحديثة انه ربما كان للجبرتى عقاران فى الصنادقية وحدها •

انظر انيس « حقائق عن الجبرتى » ص ٨٠ ـ ٨٤ •

(٩) الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ، ص ٧ •

(١٠) آيلون Ayalon
"The Historian al-Jabarti," p. 239.

(١١) شيبوب « الجبرتى » ص ٥ ، ٢٢ ـ والشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٨ •

(١٢) آيلون Ayalon
"The Historian al-Jabarti," p. 239.

(١٣) فردرى Verdery
"Al-Jabarti", p. 153.

وربما كان هذا فيه مبالغة • قارن الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٥ •

(١٤) محمد فؤاد شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » (القاهرة ــ مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٨) III ، ١١٦٣ .

(١٥) شيبوب « الجبرتى » ص ٥٤ .

(١٦) شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » III ، ١١٦٦ .

(١٧) ذكر ادوارد لين Edward Lane على سبيل المثال ان الجبرتى كان مفتونا « بالف ليلة وليلة » (ومع هذا فان الجبرتى لا يذكر شيئا من ذلك فى العجائب) ويبدو أيضا انه كان مهتما بالطب وكتب مختصرا (لتذكره الألباب) لداود الانطاكى .

آيلون Ayalon
"The Historian al-Jabarti", pp. 246-47

(١٨) ولا يذكر فردرى Verdery هذه المخطوطة فى دراسته عن الجبرتى . وقد قام مورى Moreh باشمل تحليل مخطوطى لكل أعمال الجبرتى ، وقد شعر بداءة ان هذا كان مجرد (مظهر) تحت مسمى مختلف .

انظر س . مورى S. Moreh
"Reputed Autographs of 'Abd al-Rahman al-Jabarti and Related problems" BSOAS 28 (1965) : 524-36.

وفى دراسة أكثر حداثة وتفصيلا عن الجبرتى يؤكد مورى Moreh أنها نص منفصل ومستقل .

س . مورى S Moreh
"Al-Jabarti's Chronicle of the first Seven Months of the French Occupation of Egypt (Leiden : E.J. Brill, 1975), p. 18.

(١٩) Ibid., pp. 18, 23, 26.

(٢٠) شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » III ، ١١٦٨ .

(٢١) مورى Moreh
"Al-Jabarti's Chronicle", pp. 18,30.

والشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٣٦ . قارن آيلون Ayalon الذى يرى ان دور العطار كان أقل .

آيلون Ayalon
"The Historian al-Jabarti", p. 245.

(٢٢) لمن يرغب فى متابعة المزيد من المناقشة حول اى الأعمال كتب أولا ــ راجع المصادر الآتية : ــ

١ ــ آيلون Ayalon
"The Historian al-Jabarti", pp. 223-24.

٢ ــ أليس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ٣٤ ــ ٣٧ .

٣ ــ مورى Moreh
"Reputed Autographs of al-Jabarti." pp. 536-37.

٤ ــ مورى Moreh
"Al-Jabarti's Chronicle", p 19

٥ ـ اسماعيل ك • بوناوالا Ismail K. Poonawala
'The Evolution of al-Jabarti's Historical Thinking as Reflected in the (Mazhar) and the 'Ajaib", Arabica 15 (1968) : 270-87.

٦ ـ محمد أنيس « الجبرتى بين مظهر التقديس وعجايب الآثار » ـ مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ١٨ (١٩٥٦) : ٥٩ ـ ٧٠ •

٧ ـ الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٤٣ ـ ٤٤ •

٨ ـ فردرى Verdery
"Al-Jabarti", pp. 11-12.

وآراء أنيس ، بوناوالا ، وموري متشابهة لدرجة ان المرء يشك انهم قد استعاروا من بعضهم • (يمثل آيلون والشرقاوى الرأى الأقدم الذى يقول ان (العجائب) قد كتب أولا لكنهما يصلان الى نتائج مختلفة من هذه الحقيقة • انظر الحاشية ٣٩ من هذا الفصل) وقد ظهرت مقالة أنيس أولا ، لكن آيلون والآخرين لم يشيروا اليها • وهذا ليس عدلا فى حق أنيس ودعواه السابقة ، لكن اذا كان الأمر كذلك فقد ردها أنيس بنفس الاسلوب فى « مدرسة التاريخ المصرى » التى ظهرت عام ١٩٦٢ ـ بعد سنة واحدة من ظهور مقالة آيلون عن الجبرتى • وفى « مدرسة التاريخ المصرى » يشير أنيس أحيانا الى مقالة آيلون ، لكن هناك أيضا فقرات كاملة مأخوذة بالحرف الواحد من آيلون دون نسبتها فى الحواشى اليه (انظر على سبيل المثال « مدرسة التاريخ المصرى » ص ٢٧ ـ ٢٩) • على ان هذا لا يعنى بالضرورة ، رغم ذلك أن أنيس قد انتحل عمدا • ان خطوات كتابة الحواشى لا تزال عامة مشوشة فى العالم العربى ، وعلى الأقل فان أنيس يذكر مقالة آيلون ، أكثر مما ذكر كتاب آخرون • ولعل نوعية الطباعة فى « مدرسة التاريخ المصرى » تترك الكثير للكلام وقد تكون جزءا من الصعوبة •

(٢٣) أنيس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ٣٨ •

(٢٤) بوناوالا . Poonawala
"Al-Jabarti's Historical Thinking", p. 283.

وموري Moreh
"Al-Jabarti's Chronicle", p. 23.

(٢٥) الدكتور الشيال شديد التدقيق كان واحدا فقط من الكثيرين الذين وقعوا فى هذا الشرك • انظر له :

A History of Egyptian Historiography in the Nineteenth Century." Faculty of Arts, no. 15 (Alexandria : Alexandria University Press, 1962), pp. 111-12 n. 12.

(٢٦) عن هذا ـ انظر فردرى
"Al-Jabarti", p., 158 ff.

وموري Moreh
"Al-Jabarti's Chronicle", pp. 19-21.

(٢٧) آيلون Ayalon
"The Historian al-Jabarti" p. 245.

(٢٨) يرى موري Moreh ان أخطاء الجبرتى النحوية والاسلوبية قد حذفت من طبعة بولاق 'Al-Jabarti's Chronicle", p. 16. وهو لا يقول ، مع ذلك ، ان محتويات طبعة بولاق تختلف عن النسخ الموثقة من « العجائب » المودعة فى

المتحف البريطانى British Museum والمكتبة الوطنية Bibliotheque National
ويتفق فرردى verdery على ان طبعة بولاق قد هذبت بشكل طفيف فقط ان لم يكن قد حدث بها تعديل على الاطلاق ٠

انظر فرردى Verdery
"Al-Jabarti", pp. 17-18, 156-57.

(٢٩) ما لم يشر الى غـير ذلك ، فان هـذه المعلومة قـد أخـذت عن آيلون Ayalon. "The Historian al-Jabarti," pp. 22-30 وقد ترجمت (العجائب) فى الوقت الحالى الى الروسية ، وفى دار الكتب وحدها الآن ما لا يقل عن ثلاثة عشر نسخة من العمل ٠

الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٣٣ ٠

(٣٠) أنيس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ٣٦ ٠

(٣١) بوناوالا Poonawala
"Al-Jabarti's Historical Thinking", pp. 274-81.

(٣٢) « جميع معاملات الكفار سالمة من الغش والنقص بخلاف معاملات المسلمين » ٠

الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ١٩ ٠ وفى هذا السياق فان كلمة (معاملات) قد تشير الى صفقات تجارية ٠

(٣٣) بوناوالا Poonawala
"Al-Jabarti's Historical Thinking", pp. 286-87.

لمزيد من التفاصيل عن التغيرات فى المصطلحات بين العملين ، والفقرات المحذوفه ، الخ انظر ٠

الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٣٩ ــ ٤٣ ٠

(٣٤) شيبوب « الجبرتى » ص ١٠١ ٠

(٣٥) شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » ، ١١٨٣ ٠

(٣٦) متى موسى Matti I. Mousa
"The Development of Modern Arabic Fiction" The Islamic Quarterly 13 (1969). 142-43.

(٣٧) شكرى ، « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » ج ٣ ، ١١٨٣ ٠

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ١١٨٩ ــ ٩٠ ٠

(٣٩) هذا التحليل مبنى على المصادر الآتية :

١ ــ أنيس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ٣٧ ــ ٤٢ ٠

٢ ــ شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » ج ٣ ــ ١١٨٦ ــ ٩٣ ٠

٣ ــ مورى Moreh
"Reputed Autographs of al-Jabarti," pp. 536-37.

٤ ــ أنيس « الجبرتى » بين « مظهر » و « عجائب » ص ٦٤ ــ ٦٦ ٠

ويقول مورى Moreh فى دراسته المتاخره ان « تاريخ مدة الفرنسيس بمصر » يمثل انتفاضة الجبرتى الفطرية نحو الفرنسى الكافر ، ثم تصبح « مظهر » التى كتبت بعد ذلك بقليل ، أكثر عداوة بسبب رغبة الجبرتى فى تغطية تعاونه مع قوات الاحتلال الفرنسى وفى

نفس الوقت ليفوز بحظوة العثمانيين • ويستمر مورى Moreh فى اعتبار (العجائب) مع هذا اعادة تقييم نهائية من جانب الجبرتى للوجود الفرنسى •

مورى
Moreh
Al-Jabarti's Chronicle, pp. 23-25.

ويجب ان لا تقلقنا هذه الفروق البسيطة هنا • ويجب ببساطة ان نلاحظ عداوة الجبرتى الأولية للفرنسيين (كما يبينها كل من (مدة) أو (مظهر) قد تحولت الى اعجاب حذر بعد ذلك بعدة سنوات فى (عجائب) • ونستطيع أيضا ان نلاحظ مواقف آيلون والشرقاوى • كان آيلون غير متأكد ــ عندما كتب عام ١٩٦٠ ــ أى الأعمال جاء أولا • وهكذا فانه ادعى أن الجبرتى حاول أن يكسب رضـــا العثمانيين بتقديم « تاريخ معدل » عن الاحتلال الفرنسى للعثمانيين ، معبرا (آيلون) عن شكه فى أن يكون (عجائب) قد كتب أولا • وهذه هى نفس النتيجة التى توصل اليها محمود الشرقاوى فى دراسته الأكثر تبكيرا وتفاصيلا عن (الجبرتى) ، لكن آيلون حاول (دون نجاح كبير) أن ينافس الشرقاوى • فهو لم يقبل رأى الشرقاوى أن الوجود الفرنسى فى مصر أثناء كتابة (العجائب) قد أجبر (الجبرتى) على تبرئة الاحتلال دون حق • وعلى ذلك فانه استشهد بهجوم (الجبرتى) على (محمد على) كدليل على دعوى (الجبرتى) ان (عجائب) قد كتبت بأمانة شجاعة وليس لمداهنة فرد أو حزب • ومع هذا فان هذا لم يكن رأيا مقنعا عند آيلون ، فقد رأى ان (مظهر) لم تكتب بأمانة ، ولكن لمداهنة العثمانيين •

عن هذين الموقفين انظر

آيلون
Ayalon
"The Historian al-Jabarti", pp. 231 n. I, 245.

والشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٤٣ ــ ٤٤ •

(٤٠) ذكر الجبرتى فى وصف (الجوكار) • أنها « العلامة المعروفة بالوردة وهى عبارة عن ثلاث دواير من جوخ أو غيره متلاصقة ثلاثة ألوان : أزرق وأبيض وأحمر فى قدر مقعر الكف وأصغر وأكبر دوايرها متصاغرة الثانية أصغر من الأولى والثالثة أصغر منها بحيث تبقى الألوان الثلاثة ظاهرة ، وربما شرشروا أطراف الدواير ونفنوا فى تحسينها وهى عبارة عن الطاعة وعلامة على الامتثال » •

راجع « عبد الرحمن الجبرتى ــ دراسات وبحوث » ــ المكتبة العربية ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٧٦ ــ ص ٢٤٣ • حاشية ٣ •

المترجم

(٤١) شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » ــ الجزء الثالث ــ ص ١١٨٨ •

(٤٢) لويس عوض « المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث » • الجزء الثانى : الفكر السياسى والاجتماعى (القاهرة ــ دار المعارف ــ منشورات مركز الدراسات العربية العالية ــ الجامعة العربية ، ١٩٦٦) ص ١٤٩ •

(٤٣) شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » الجزء الثالث ــ ١١٨٨ •

(٤٤) محمد قنديل البقلى « المختار من تاريخ الجبرتى » (القاهرة : مطابع الشعب ــ كتاب الشعب ــ رقم ٢٧ ــ ١٩٥٨) ص ٣ • •

وقد قدم المؤلف ترجمة الى الانجليزية للنص الذى استشهد به فى ص ٤٩ من كتابه ــ وبطبيعة الحال فقد قدمنا نص ما كتبه الجبرتى فى هذا الموضع بدلا من الترجمة الانجليزية •

المترجم •

(٤٥) آيلون
Ayalon
The Historian al-Jabarti", p. 244.

وهذا هو ما حاول الشرقاوى ان يلمله بصورة أو باخرى فى الجزء الأول من عمله « مصر فى القرن الثامن عشر » ٠

(٤٦) ترجم المؤلف جملة « احمد طنان جراكسة » فى النص الذى كتبه (الجبرتى) (احمد الجركسى حامل البيرق) ٠

Ahmad, The Circassian Standard Bearer.

واشار فى الحاشية (٤٦) هذه الى ان النص العربى هو « أحمد طنان جراكسة » ٠ وبالطبع فانه لا توجد أدنى صلة بين ما ترجمه المؤلف وما هو فى النص الأصلى — ولا نفهم السبب فى ترجمة المؤلف كلمة « طنان » بحامل البيرق — علما بأن حامل البيرق فى لغة ذلك الزمان وفى المصطلحات العثمانية المستخدمة هو (بيرقدار) — وهو ما لم يرد فى النص الأصلى — كذلك فان المؤلف اثبت أن تاريخ النص هو ذو الحجة ١١٨١ (أبريل ١٧٦٣) — وصحة التاريخ الميلادى هى أبريل ١٧٦٨ ٠ ذلك أن الحوادث التى أوردها المؤلف هنا هى تلك التى وقعت بين حسين بك كشكش أمير الحج وخليل بك السكران (شيخ البلد) من ناحية — (وعلى بك) (على بك الكبير فيما بعد) الذى كان قد تقرر نفيه الى أسيوط من قبل المتنفذين (حسين بكً كشكش وخليل بك) ٠

وقصة المعارك التى دارت بين (على بك) وغريميه فى عام ١٧٦٨ أعظم من أن ينسى احد أو يخطىء فى تاريخها — فهى الحوادث التى انتهت بانتصار الأول على المتنفذين المملوكيين فى طنطا (حسين بك كشكش وخليل بك السكران) وقطع رأس الأول فى ٢٤ مايو ١٧٦٨ والثانى فى ١٨ يوليو من نفس العام ٠ وهو ما سجله الجبرتى فى (عجائبه) فى ٢٧ مايو ١٧٦٨ عندما تحدث عن عودة (محمد بك أبو الذهب) مملوك (على بك) وقائد قواته ، منتصرا بعد قضائه على أعداء سيده — ودخوله القاهرة من باب النصر فى موكب عظيم « وأمامهم الروس محمولة فى صوان من فضة والخدم يقولون صلوا على النبى ٠٠٠٠ وعدتها ستة رؤوس وهى راس حسين بك كشكش وخليل بك السكران وحسن بك شبكة وحمزة بك واسماعيل بك أبى مدفع وسليمان آغا » ٠

وقيمة هذا التاريخ ترجع الى انه يسجل تثبيت نفوذ (على بك) فى مصر كشيخ للبلد — وماتلا ذلك من انتهاجه سياسة الانفصال عن الحكومة المركزية فى استانبول حتى عام ١٧٧٢ م ٠

راجع محمد قنديل البقلى « المختار من تاريخ الجبرتى » كتاب الشعب ٢٧ — مرجع سبق ذكره — ص ٨١ — ٨٢ ٠

ودانيال كريسيليوس Daniel Crecelius « جذور مصر الحديثة » — ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر — مكتبة نهضة الشرق — جامعة القاهرة — القاهرة ١٩٨٥ — ص ١١٠ — ١١٦ ، ١٤٩ حاشية ٤١ ٠

وجاك ا ٠ كرابس Jack A. Crabbs

"The writing of History in 19th Century Egypt - A study in National Transformation" — The American University in Cairo press, Cairo, Wayne state University Press, Detroit — 1984. p. 50.

المترجم

(٤٧) تقدم الترجمة الفرنسية تعبير Jouissant d'une Solde متمتع بحق الحصول على قطعة نقدية معينة — كمقابل للنص العربى فى العجائب (عليه عثامنه) — ونحن نقبل التعبير الفرنسى ، بينما نرى ان النص العربى غامض ومبهم ٠

والواقع ان غموض وابهام النص عند المؤلف كما ذكر فى حاشيته هذه راجع الى عدم فهمه لمصطلح (عتامنه) . فقد استخدم هذا المصطلح فى مصر كوحدة حسابية لبيان كمية (الجراية والعليق) التى كان يتلقاها موظفى الديوان الحائزين لرتبة (بيك) وما فوقها من الشون لأنفسهم ورجالهم وحيواناتهم . وكانت مائة عتامنة تعتبر (وحدة) للحصول على طعام كاف للحاجة اليومية لرجل واحد وحصانه . بكلمات أخرى فان (العتامنة) كانت تشير الى حق شخص ما فى تلقى راتب أو أجر من الخزينة . والمصطلح (عليه عتامنة) بالصورة التى ورد بها فى النص (فلما وصل الخبر بذلك الى على بك اهتم لذلك ونزل الباشا وخرج الى قبة باب النصر خارج القاهرة ، وجمع الوجاقلية والعلماء وأرباب السجاجيد ، وأمر الباشا بأن كل من كان وجاقليا أو عليه عتامنة يشهل نفسه ويطلع الى التجريدة أو يخرج عنه بدلا) هذا المصطلح والنص يعنى انه مع وصول أنباء هزيمة التجريدة (الحملة) الموجهة ضد حسين بك كشكش وخليل بيك عند (الديرص والجراح) من أعمال المنصورة ـ انزعج على بك والباشا (الحاكم) ـ الذى أمر بتجمع القوات الحكومية عند قبة باب النصر خارج القاهرة ، وجمع أعضاء الاوجاقات العسكرية (الفرق العسكرية السبعة ويسميهم الجبرتى (الوجاقلية) ، والعلماء وأرباب السجاجيد (أى السادة البكرية والوفائية والعمرية والخضرية وهم رؤساء الطرق الصوفية فى مصر) ـ وأعلن النفير العام أو التعبئة العامة لمواجهة خطر القوات المتمردة ـ وأمر الباشا بأن ينضم الى الحملة كل من كان من الأوجاقات أو كان يتقاضى راتبا نقديا أو عينيا من الخزينة (عليه عتامنة) ـ فاذا لم يستطع فانه يقدم بديلا عنه للاشتراك فى الحملة (أو يخرج عنه بدلا) .

راجع دانيال كريسيليوس Daniel Crecelius وعبد الوهاب بكر

Al-Damurdashi's Chronicle of Egypt 1688-1755 "Al-Durra al-Musana fi Akhbar al-Kinana". E.J. Brill - Leiden, 1991, pp. 49, 128 n. 50, 130 n.

المترجم

(٤٨) محمد قنديل البقلى « المختار من تاريخ الجبرتى » ص ٨١ ـ ٨٢ .

وقد قدمنا نص ما كتبه الجبرتى فى هذا الموضوع بدلا من الترجمة الانجليزية ـ المترجم .

(٤٩) المصدر نفسه ص ٤٨٥ ـ ٨٦ . وقد قدمنا نص ما كتبه الجبرتى فى هذا الموضع بدلا من الترجمة الانجليزية .

راجع عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للعلامة المؤرخ « عبد الرحمن الجبرتى » الجزء الخامس ـ تحقيق وشرح الأساتذة حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقى ، السيد ابراهيم سالم ـ الطبعة الأولى ١٩٦٦ ـ لجنة البيان العربى ص ٣٤٦ ـ ٤٧ .

وعن « أبو سيف عثمان » وأعماله انظر .

دانيال كريسيليوس وعبد الوهاب بكر « صفحات من تاريخ مصر العثمانية فى القرن الثامن عشر ـ مخطوطة الدرة المصانة فى أخبار الكنانة للأمير أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان » ـ دار الزهراء ـ القاهرة ١٩٩٢ ـ ص ٣٤٦ ـ ٤٨ .

المترجم

(٥٠) أو كما يصف فردرى Richard Verrery" « ان الجبرتى يميل الى أن يخسر الغابة من أجل الأشجار » .

فردرى

Verdery
"Al-Jabarti", p. 115.

(٥١) شفيق غربال « مصادر الالهام عند بعض المؤرخين » ــ الهلال ٦٢ (١٩٥٤) : ٤٩ ٠

(٥٢) محمد قنديل البقلى « المختار من تاريخ الجبرتى » ص ٢٢٣ ــ ٢٦ ٠

(٥٣) المصدر نفسه ص ٦٩١ ــ ٧٠٨ ٠

(٥٤) حتى آيلون Ayalon كان عليه أن يسلم بأن تراجم الجبرتى عن « العلماء » مقولبة للغاية ، تحتوى أسماء أساتذة العالم ، الكتب التى قرأها ، والأعمال التى ألفها ، الخ ، وأنها تبعا لذلك قليلة الفائدة للطالب ٠

آيلون

Ayalon

"The Historian al-Jabarti," p. 236.

(٥٥) رغم اننا لا نستطيع ان ننكر ما ذهب اليه المؤلف ــ ومن قبله الشرقاوى ــ فى أثر « طبيعة الموضوع نفسه » فى تشكيل العنصر التفسيرى فى (عجائب) ، الا اننا فى نفس الوقت لا نتفق مع المؤلف فى انكار « مواهب الجبرتى الشخصية » ودورها فى تقديم هذا التاريخ ٠٠ والمؤلف هنا يتناقض مع نفسه فى سطور سابقة ٠ فبينما يقول فى ص ٥٢ من عمله ان العقلية التحليلية الاستجوابية فى (عجايب) قوية لدرجة تجعله فى مرتبة منفصلة عن الأعمال المبكرة

The analytic, questioning mind in Ajaib is Strong enough to set it apart from earlier works.

وهو اعتراف بقدرات الجبرتى الشخصية ــ اذا به يعود فينسب « العنصر التفسيرى » فى العجايب الى « طبيعة الموضوع » نفسه ، وهو هنا (الخصائص التى وضعت الفرنسيين فى وضع مفرد ــ وانهم عدلوا ٠٠٠ الشكل المصرى للحكومة ــ وأساليب حياتهم الغير معتادة ــ وجهات نظرهم الدينية المختلفة ــ وامتلاكهم لعلم متفوق وتكنولوجيا) ٠٠ الخ ما سجله عن الفرنسيين ٠

ولم يكتف المؤلف بكل هذا الوصف « لطبيعة الموضوع » ، لكنه قال ان الجبرتى [لم يكن أكثر من مسجل لهذا الحدث (al-Jabarti merely recorded this event) وهذا فى الواقع غبن لدور الجبرتى ــ لا يبرره ما كتبه الشرقاوى فى هذا المقام ٠ لقد نقد الجبرتى الفرنسيين فى المواضع التى استلزمت النقد ٠ ولم ينكر أثرهم فى المواضع التى وجدهم يستحقون التقدير ٠ وفى هذا كان الرجل موضوعيا فى كتابته ٠ لكن من الغلو ان نذهب مذهب المؤلف فى ان الفرنسيين قد وجهوا المجتمع المصرى والثقافة المصرية وجهة جديدة ٠ فالأرضية التى كان يقف عليها كل من الفريقين ــ والقول لأحمد عزت عبد الكريم ، كانت جد مختلفة ٠ والجبرتى كان أسبق من الكثير من المؤرخين فى تقديم ما للحملة الفرنسية وما عليها ٠

راجع « عبد الرحمن الجبرتى ــ بحوث القيت فى ندوة أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ١٦ ــ ٢٣ أبريل ١٩٧٤ » ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ــ ص ٢٥ ٠

المترجم

(٥٦) الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٤٧ ــ ٤٨ ٠

(٥٧) انظر ص ١٤ ــ ١٦ من الكتاب ٠

(٥٨) آيلون

Ayalon

"The Historian al-Jabarti", p. 231.

ويقع الشرقاوى فى نفس الشرك عندما يقول ان الجبرتى قد كتب « تاريخا دون احساس » ٠

الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٢٨ ـ ٣٠ » • ان أحاسيس الجبرتى تأتى واضحة عبر عمله • وما يلقى استحسان الشرقاوى هو الأسباب التاريخية المقنعة لهذه الأحاسيس •

(٥٩) يرى الشرقاوى ان موقف الجبرتى النهائى كان متطرفا للغاية ، حيث أن حكم جاك مينو Jacques Menou الذى ساعد فيه الجبرتى ، كان أكثر قسوة من فترات حكم سابقيه •

الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٣٠ (ومثل أيلون Ayalon ، فان الشرقاوى يأبى بصورة عارضة الآن لبعض تأكيده السابق بأن الجبرتى قد كتب « تاريخا بدون احساس » •

(٦٠) آيلون
Ayalon
"The Historian al-Jabarti" p. 234.

(٦١) شكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » ـ الجزء الثالث ـ ص ١١٧١ •

(٦٢) أنيس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ٤٦ •

(٦٣) المصدر نفسه ص ٥٢ • وربما كانت مدرسة التراجم الأكثر فعالية فى سوريا ، لكن الغريب ان نجد علماء مثل آيلون Ayalon وأنيس يزعمون أنها كانت ميتة فى مصر • فأنيس على سبيل المثال ، يصر على ان الجبرتى قد أحضر اسلوب التراجم من بلاد الشام الى مصر • انظر الحاشية (٥٨) من الفصل السابق • ويذهب آيلون Ayalon أبعد من ذلك ليقرر أنه من بين كل كتاب الحوليات فى مصر العثمانية فان الجبرتى كان الوحيد الذى كتب تراجم •

آيلون
Ayalon
"The Historian al-Jabarti" p. 225.

وقد تكرر هذا فى عمله
"Al-Djabarti", EI (1965) II, 356.

واعتقد أنه يمكن دعم رأى كهذا عن طريق النظر الى التراجم نظرة ضيقة للغاية • عندئذ فان حوليات مصر العثمانية ستبقى حوليات ، حتى ولو كانت تحتوى على تراجم عديدة كتاريخ الجبرتى • لقد استشهدنا بمثلين من التراجم المصرية العثمانية فى ص ٣٨ ـ ٣٩ ، ولاحظنا ان ما يسمى بالتاريخ الزمنى الأدبى Literary Chronicle يشار اليه أيضا بالتاريخ الزمنى للسلاطين والباشوات Sultan-Pasha Chronicle لاحتوائه على تراجم كثيرة للسلاطين والباشوات ، الخ • وبالتالى فان موقف جب Gibb من كتابة التراجم الاسلامية يبدو منسجما مع حقائق ـ انه « بالتناقض مع التقليد التاريخى ، فان التقليد التراجمى biographical tradition الذى هو أقل اعتمادا على التغيرات السياسية ، حافظ على حيويته ، وخاصة فى سوريا • فقد واظب العلماء الدمشقيون على كتابة سلاسل من القواميس عن أعيان القرون العاشرة ، الحادية عشرة ، والثانية عشرة (البيرونى ـ المحبى ـ المرادى) وأعمال أخرى خلدت ذكرى علماء مدن ومناطق معينة • والى جانب هذا ازدهر فى مصر وسوريا نوع من التراجم المنمقة المشوشة فى شكل سجع نثرى ، تحمل الى حد كبير نفس العلاقة بالأعمال السابقة كالتاريخ السجعى النثرى وعلاقته بالحوليات العادية • والممثل الرئيسى لهذه المدرســـة هو المصرى شهاب الدين الخفاجى (المتوفى ١٠٦٩ : ١٦٥٩) ••••• » •

انظر جب
Gib
"Tarikh" pp. 135-36.

(٦٤) شيبوب « الجبرتى » ص ٨٨ ، وشكرى « مصر فى مطلع القرن التاسع عشر » الجزء الثالث ، ص ١١٧٦ ، ١١٧٩ .

(٦٥) انظر الفصل التاسع ص ١٧٤ .

(٦٦) آيلون Ayalon
"The Historian al-Jabarti", p. 231 n. 2.

وحتى فى عمل مورى Moreh باقناع أكثر "Al-Jabarti's Chronicle" pp. 25-30.

(قارن الشرقاوى الذى يرى أن أخطاء (عجائب) الكثيرة ربما تكون قد نتجت من عدم قدرة الجبرتى على توفير الوقت لكتابته) .

الشرقاوى (مصر فى القرن الثامن عشر) ص ٢٦ . ويضيف آيلون Ayalon ان الجبرتى فى كتابته بهذه الطريقة كان يتتبع مثال المؤرخين المصريين القدامى ، الذين تحركوا منذ الأزمنة المملوكية تجاه « لغة أدبية حية تضمنت هذه الأشياء » .

آيلون Ayalon
"The Historian al-Jabarti" p, 231.

بل وفى الوقت الحالى ، فان جران Gran قد أكد ان كتابة الجبرتى التاريخية هى خصيصة لما يسمى « بالاحياء فى القرن الثامن عشر » Eighteenth-Century revival فى مصر ، الذى يصفه جران Gran بأنه يحتوى على أنماط تجارية متغيرة بين مصر وأوروبا ، جهود الطرق الصوفية ذات العقلية الاصلاحية ، الاهتمام المتزايد بـ (١) موقعة بدر (٢) الصحابة و (٣) دراسات الحديث ! وهو تنافر الى حد ما ، ثم يحط جران Gran بعد ذلك من قدر كل من تاريخ الجبرتى وشعره باعتبارهما محاولات ضحلة لكسب رضاء حاشية (محمد على) .

جران Gran
"Islamic Roots of Capitalism", pp. xii-xiv, 73, 88.

وبرغم ما قدمه آيلون Ayalon وجران Gran ، فان الجبرتى انتمى الى حقبة تفشت فيها تقنيات « الانشاء » والبراعة الأدبية ، سواء فى التاريخ العربى ، التركى ، أو الفارسى . ولذلك فانه من غير الملائم الكلام عن حركة متأنية تجاه أشكال أكثر شعبية فى الكتابة . لقد كان هناك حركة فى الواقع ، لكنها كانت مجرد تدهور فى القواعد الأدبية ، ولا تحمل أى اندفاع تجاه ما يسمى « باللغة الأدبية الحية » .

(٦٧) جمال الدين الشيال « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على » (القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٥١) ص ١٧٩ .

(٦٨) جمال الدين الشيال « دكتور بيرون والشيخان محمد عياد الطنطاوى ومحمد عمر التونسى » ، مجلة كلية الآداب ـ جامعة فاروق الأول ، (١٩٤٤) : ٢٢١ . قارن الشيال « تاريخ الترجمة » ص ١٨٠ ـ ٨١ .

(٦٩) قد تكون بعض أخطاء التونسى قد حذفت من طبعة ١٩٦٥ لعمله ، وهى الطبعة الوحيدة التى استخدمتها .

(٧٠) الشيال « دكتور بيرون والشيخان » ص ٢١٨ . وما لم يشار الى العكس ، فان تعليقاتى عن (تشحيذ) قد أخذت من طبعة خليل محمود عساكر ، مصطفى محمد مسعد

ومحمد مصطفى زيادة لعمل محمد بن عمر التونسى « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » (القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥) ص ٢٠ ــ ٢١ وفى أكثر من موضع ٠

(٧١) طبقا لجران Gran ، فان الشيخ العطار قد كتب أيضا « عملا كبيرا فى مجال التاريخ مؤسس على منهجية ابن خلدون » ٠ وفى عمله هذا ، فانه حول موضوعا دينيا تقليديا ذا وقار ومهابة الى أساس للجدل العقلانى العلمانى ٠

جران Gran
Islamic Roots of Capitalism", pp. 159-61, 243 n. 25.

وأنا لم أطلع على عمل العطار عن الخلافة ، لكن اذا كان يمكن تصديق جران Gran فان العمل لابد أن يكون كلية غير كتاباته الأخرى ٠

(٧٢) الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٥٥ ٠

(٧٣) يمكن ان تترجم هذه العناوين الى الانجليزية كالآتى :

١ ــ "Gems of Observation in Egyptian Government and Administration"

٢ ــ Dazzling Jewels of the shafiite schools

وقد تكون الترجمة الثانية قريبة الى (التحفة البهية فى طبقات الشافعية) ٠ لكننا لا نوافق المؤلف فى ترجمته للعنوان الأول (تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين) ــ فالترجمة غير دقيقة ، وقد ترجم المؤلف كلمة الولاة الى Government وترجم كلمة السلاطين الى Administration ، وهى ترجمة بعيدة للغاية عن العنوان ٠

المترجم

(٧٤) عن حياة الشرقاوى وكتاباته انظر Ayalon
"The Historian al-Jabarti", pp. 248-49.

الشيال "A History of Egyptian Historiography", pp. 12-14.

الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٥٥ ــ ٥٧ ٠

جورجى زيدان : تاريخ أدب اللغة العربية (القاهرة : مطبعة الهلال ــ ١٩١٤) المجلد الرابع ، ص ٢٨١ ــ ٢٨٢ ٠

(٧٥) كما ذكرنا من قبل فقد كان ممكنا للجبرتى ان يحصل على مادة موثقة رسمية من خلال صداقته لاسماعيل الخشاب ٠

انظر ص ٤٥ ٠

(٧٦) عن الخشاب انظر

١ ــ جران Gran
"Islamic Roots of Capitalism", pp. 60-61, 80, 224 n 46.

٢ ــ آيلون Ayalon
"The Historian al-Jabarti" pp. 241-43.

٣ ــ الشيال
"A History of Egyptian Historiography.

(٧٧) عن تاريخ القلعاوى انظر فردرى Verdery
"Al-Jabarti", pp. 13-14, 70.

(٧٨) جب Gibb
"Tarikh", p. 135.

(٧٩) انظر الفصل الأول ص ٢١ .

(٨٠) عن جودت والمؤرخين العثمانيين المتأخرين انظر كوران Kuran.
"Ottoman Historiography", pp. 422-23.

(٨١) عن حياة « الترك » وعمله انظر على وجه الخصوص جورج م . حداد
Georg M. Haddad
"The Historical Work of Niqula el-Turk," 1763-1828, Journal of the American Oriental Society 81 (1961) : 247-51.

وتحتاج وجهـــات نظر حداد الى بعض العلاج ، نظرا لأنه – كايلون Ayalon
قد أصبح مفتونا بعض الشيء بموضوعه ، عن هذا العلاج انظر هنرى بيريه Henri Pérès
"L'institut d'Egypte et l'Oeuvre de Bonaparte Jugés par deux historiens arabes Contemporains", Arabica 4 (1957) : 120-29.

والشيال
"A History of Egyptian Distoriography," pp. 16-17.

(٨٢) كان واضحا انه ليس من السهل استغفال الجبرتى ، فعندما حاول الفرنسيون – على سبيل المثال – اقناعه بأن نزول الانجليز فى مصر عام ١٨٠١ لا يشكل تهديدا لوضعهم ، عقب الجبرتى بقوله « وكلام كثير من هذا النمط فى معنى ذلك : .... من بحر الغفلة » كما وردت عند فردرى Verdery
"Al-Jabarti", p. 44.

وقد قدمت النص العربى وفق ما كتبه الجبرتى فى « العجايب » .

انظر محمد حسنين البقلى « المختار من تاريخ الجبرتى » ج ٤ – كتاب الشعب – مطابع الشعب ١٩٥٨ ص ٤٣٧ .

المترجم

(٨٣) بيريه Pérès
"L'institut d'Egypte et L'oeuvre de Bonaparte," p. 122.

(٨٤) فعمل المسعودى ، والبلاذرى ، والطبرى من بين أعمال جيدة أخرى هى أعمال من الدرجة الأولى . وحتى من بين معاصرى الجبرتى فان « تاريخ جودت باشا » والى حد ما عمل التونسى أحمد بن أبى ضياف لا يقل فى انجازه عن عمل الجبرتى .

لدراسة تقييمية لعمل ابن أبى ضياف انظر ل . كارل براون L. Carl Brown
"The Tunisia of Ahmad Bey, 1837-1855 (Princeton : Princeton University Press, 1974), p. 12.

(٨٥) فعلى سبيل المثال تحتوى أخبار الجبرتى عن السياسة بعض الأخبار عن الطقس ، غارات البدو فى بعض الأحيان ، قتل بعض رجال الأعمال القاهريين البارزين ، الخ .

فردرى Verdery
"Al-Jabarti", pp. 150-51.

(٨٦) تحتوى المجلدات الأربعة من (العجائب) مقدار ضخما من النشر التاريخى ·
ولذلك فليس من المستغرب ان يختلف العلماء بعض الشىء حول دقته بصفة عامة · ويدعى آيلون ـ الذى يسرف كعادته فى المدح ـ ان الجبرتى كان دقيقا وموثوقا به فى كل جزئية بصورة تطابق « روائع التاريخ » الفرنسية التى كتبت عن الفترة ·

آيلون
Ayalon
"The Historian al-Jabarti", pp. 232-33.

ويعطى فردرى Verdery أيضا الجبرتى درجات عالية لدقته ، وخاصة عندما يكتب عن حوادث القاهرة ·

فردرى
Verdery
" Al-Jabarti", pp. 38-39, 44, 68, 154-155.

ومع هذا فان آيلون Ayalon وفردرى Verdery لم يأخذا فى اعتبارهما آراء « عبد الرحمن الرافعى » الذى قام بدراسة شاملة ومجتهدة عن دقة الجبرتى وانتهى الى نتائج مختلفة تماما عن ما انتهى اليه الباحثان ·

انظر الرافعى « تاريخ الحركة القومية » جزءان (القاهرة : مطبعة النهضة ، ١٩٢٩) الجزء الأول ص ٩٩ ، ١٠٥ ـ ٦ ، ١٠٩ ، ١٩٦ ـ ٩٧ · الجزء الثانى ٣٢٥ ـ ٢٦ ، ٣٩٠ ومواضع أخرى ·

وفيما يتعلق بتمكن الجبرتى ، فانه يقدم فى خمسة وعشرون صفحة فقط دراسة عن الغزو المصرى لشبه الجزيرة العربية تعد أكثر حيوية مما يمكن ان ياتيها مؤرخ سعودى معاصر فى مائتى صفحة · كما انه مصدر قيم أيضا للمعلومات عن التاريخ الاقتصادى والمالى ·

فردرى
Verdery
"Al-Jabarti", pp. 109-10, 117.

الفصـل الرابع :

رفاعة الطهطاوى وبدايات التأثير الغربى

أن تستطيع الفترة العثمانية فى مصر ــ المفتـرض انها كانت فترة انحدار ثقافى ومادى ــ أن تنتج مؤرخا فى منزلة الجبرتى بينما لا يستطيع عهد محمد على (١٨٠٥ ــ ٤٩) الذى يعتبر عادة فترة من القوة الدافعة الى الأمام ، والتحديث والاصلاح ، أن يلد مؤرخا من الدرجة الأولى ــ أن يكون الأمر كذلك ، فانه باعث على الحيرة • كان هذا الشذوذ الواضح راجـع للمظاهر الثقافية سريعة التغير فى عهد الى آخر • لقد كانت أسس انجازات الجبرتى هى التقليد التاريخى الاسلامى الوسيط ، الذى رغم انه كان فى مرحلة الاحتضـار الا انه كان على الأقل مفهـوما بوضوح ومستمرا فى العمل • لكن مصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأت تتحرك فى اكثر من اتجاه جذرى ، لم تفهم مصر الكثير منه حتى الآن (١) • كانت عيوب الأشكال الحولية القديمة قد بدأت تتضح ، لكن لم يكن من السهل ترجمة هذا الادراك الى تطبيق فعلى للمنهجية التاريخية الجديدة •

كانت هنـاك أيضـا صعوبة عملية • فقد كانت الحركة الثقافية المصرية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر محددة لدرجة كبيرة بالرغبات الشخصية للحاكم ، الذى لم يكن اهتمامه يتجاوز مشروعا عسكريا وتطبيقاته • كان نظام محمد على التعليمى بأكمله موجها بصفة أساسية لخدمة الاحتياجات العسكرية ، وكانت وجهة نظره فى الحياة لا تسمح بأى تطورات ذات دلالة للدراسات التاريخية •

ويحتمل ان ما أنقذ (التاريخ) من النسـيان الكلى هو احساس الحاكم المصرى انه (التاريخ) قد يكون له صلة ولو غامضـة بالشئون الحربية والادارة العامة • كان للسلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ــ ١٨٠٧) بعض الانطبـاعات المماثلة ، وأمل ان ينقذ امبراطوريته بتتبع النموذج التاريخى لبطرس الأكبر (٢) • ويبدو أن محمد على بدوره كان قد اعتبر نفسه الشكل الحديث للاسكندر الأكبر • فقد شعر ان دراسة شخصيات

الحكام العظام كالاسكندر ، يوليوس قيصر ، بطرس الأكبر ، كاترين الثانية ، نابليون الأول،وشارل الثانى عشر قد تمكنه من أن يجعل من مصر قوة عظمى • وقد شجعه مستشاروه الفرنسيون على قراءة التاريخ فى ضوء ذلك ، لكن جهله باللغات باستثناء التركية (التى كان لا يجيدها تماما أيضا) استلزمت ترجمة كتب التاريخ الى هذه اللغة (٣) • وجرت حركة ترجمة ضخمة لمؤلفات فرنسية ، ايطالية وحتى عربية الى اللغة التركية • ومن بين أهم هذه الأعمال كانت (المقدمة Prologmena لابن خلدون ، الأمير لماكيافيللى ، (مظهر) للجبرتى ، وتاريخ فرنسى عن كاترين العظيمة ، وتاريخ نابليون ، وتاريخ ايطاليا (٤)

ويوجد اشارة أخرى الى اهتمام محمد على بالتاريخ في أمر تنفيذى صادر منه إلى خزينته (١٨٢٩) يذكر فيه تحديدا انه قد قرأ فى كتب التاريخ ان (النزعة الأشرفية) كانت قد حفرت أصلا بمعرفة الاسكندر الأكبر • بل ان هناك دليلا يقول انه انتوى تكليف من يلزم بكتابة موسوعة تاريخية لعهده (كتاب العمران) ، وأكثر من ذلك انه أراد ان يسجل ذكرياته عن الفترة • لكن الكم الضخم من اهتماماته حال دون تحقيق أى من هذه المشروعات (٥) •

وعلى ذلك فان تقرير بورنج Bowring ، الذى يصف محمد على بانه جاهل تماما بالتاريخ ، لا يجب ان يؤخذ بجدية (٦) • فالرجل (بورنج) لم يكن بالتأكيد ذلك المراقب المنصف للأحداث ، وربما يكون قد راقب الباشا المصرى فى احدى نوبات إنفعاله • وما كان محمد على ليقبل بأي حال أى تضمينات للأوروبيين بانه لم يكن يعرف التاريخ بما فيه الكفاية ، أو أى شىء آخر فى هذا المضمون • بالاضافة الى ذلك ، فان اللقاء مع بورنج Bowring تم قبل ١٨٤٠ بوقت قصير ، وهو وقت كان يستطيع فيه محمد على أن يزعم ، بقدر كبير من التبرير ، انه كان ناجحا بدرجة كافية دون ان يكون عالما بأى شىء فى التاريخ • ومن المحقق ان بورنج اختار ان يقبل مثل هذه التصريحات بشكلها الظاهرى ، رغم ان عبء الدليل المشار اليه فى سطورنا السابقة يناقض تقريره • لقد كان محمد على بصراحة مهتما بالتاريخ ولهذا فقد كلف (الطهطاوى) بان يتولى من بين اشياء اخرى — ترجمة العديد من الأعمال التاريخية الى التركية •

ومثلما فاق الجبرتى كل معاصريه ، كذلك فان سمعة الطهطاوى بزت فى الواقع كل مصريى بواكير القرن التاسع عشر • كانت سيرة الطهطاوى على غير المألوف متعددة المظاهر ، وقد فحصت هذه السيرة من أكثر من منظور مختلف (٧) • فقد كان ، على سبيل المثال ، شخصية هامة ليس فقط من اجل الأعمال التاريخية التى قام بها فعلا ، ولكن من اجل قوة

الدفع والاحساس بالاتجاه الذى أعطاه للدراسات التاريخية بصفة عامة . لقد كان الطهطاوى هو الذى أرسى حجر الأساس للانجازات التاريخية المصرية التالية ، أكثر من أى شخص آخر .

ولد رفاعة الطهطاوى فى نفس السنة التى ترك فيها الفرنسيون مصر (١٨٠١) . ويزعم كاتب سيرته (صالح مجدى) انه ينحدر من أصول رفيعة تقود الى الحسين حفيد الرسول عليه الصلاة والسلام (٨) . لكن هذا اذا كان صحيحا (وعادة ما تطرح هذه الأشياء) ، فان نسبه لا يبدو أنه قد ساعده فى أى شىء مادى . والمعلوم ان عائلته كانت فقيرة تماما (٩) .

فى عام ١٨١٧ كان الطهطاوى محظوظا عندما قبل كطالب بالأزهر . وبالطبع فانه اشتغل بالأزهر كطالب فى البداية ثم مدرسا فيما بعد ، حتى ١٨٢٤ ، عندما عين (واعظا) فى أحد آلايات الجيش الجديد (١٠) . وخلال دراسته بالأزهر تتلمذ على الشيخ (حسن العطار) أحد الشخصيات ذات التأثير الكبير فى حياته . كان العطار أحد الأصدقاء المقربين للجبرتى وكان أحد الأزهريين المحترمين للغاية فى وقته . وخلال الحملة الفرنسية حافظ العطار على صلات وثيقة مع الدوائر العلمية الفرنسية . وقد اكتشف — متأثرا بما رآه — الحاجة الى الاصلاح فى التعليم المصرى ، والعلم والمجتمع . وبعد رحيل الحملة الفرنسية ، سافر (العطار) الى سوريا والاناضول (١٨٠٢ — ١٥) وتزوج بتركية خلال اقامته فى الاناضول (١١) . جاءت ذروة نفوذ العطار فيما بعد عندما عاد الى مصر وعينه محمد على شيخا للأزهر ومحررا للجريدة المصرية الرسمية (الوقائع المصرية) . فى ذلك الوقت اقام (رفاعه) صلته الوثيقة بالعطار ، وقامت صداقة حميمة بين الرجلين . وقد أصبح (رفاعة) مدينا فيما بعد لهذه الصداقة ، حيث ان العطار هو الذى فتح الباب للفرص العديدة التى جاءت لـه .

فعلى سبيل المثال ، عندما سئل محمد على (العطار) ان يسمى له اماما ليؤم أول بعثة تعليمية مصرية الى فرنسا عام ١٨٢٦ ، اختار العطار (رفاعه) . فقضى (رفاعه) خمس سنوات رائعة ومنتجة فى باريس . وعندما عاد رفاعه الى مصر عام ١٨٣١ ليبدأ عملا ممتازا فى الحكومة ، يبدو أن العطار هو أيضا الذى اقترح عليه أن يكتب دراسة عن تجاربه فى فرنسا . وقد أصبحت هذه الدراسة بالطبع هذا العمل الناجح « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » (١٢) .

بالقطع لم يكن متوقعا من (رفاعه) أن يتعلم الفرنسية وهو امام للطلبة المصريين الذين يدرسون فى باريس . ومع هذا فانه بدأ دراسة اللغة بمجرد ان تركت الباخرة الميناء ، وفى وقت قصير استطاع ان يتوفر

على معلومات فى ميادين معينة فى التاريخ ، الجغرافيا ، الفلسفة ، والأدب (١٣) • كان مدير البعثة المصرية فى باريس هو ادموند ــ فرانسوا جومار Edmond Francois Jomard ، الذى كان عضو حملة نابليون عام ١٧٩٨ وفيما بعد مشرفا على نشر العمل التذكارى Description de l'Egypt • كان جومار بحكم التخصص مهندسا ، لكنه كان جغرافيا ضليعا أيضا وربما استطاع أن يحيل أفكار (الطهطاوى) الخاصة الى هذا الاتجاه (١٤) • وبالاضافة الى جومار فقد كان (الطهطاوى) محظوظا بما فيه الكفاية لأن يتصادق مع بعض مشاهير المستشرقين الفرنسيين فى ذلك الزمان أمثال سلفستر دى ساسى Silvester de Sacy فى الكولييج دى فرانس College de France ، كوسان دى برسيفال Coussin de Perceval فى الأيكول دى لانج اورينتال Ecole de langues Orientales ، وجوزيف رينو Joseph Reinaud فى المكتبة الوطنية Bibliotheque Nationale (١٥) • ومن السهل تصور ما الذى كان حتما يدور فى أذهان هؤلاء الناس من أفكار ، حيث أن سنة ١٨٢٢ سجلت فك الأثرى شامبليون Champollion لأسرار الهيروغليفية المصرية • ولا شك ان الطهطاوى كمصرى كان سريع الاستجابة لهذا الكشف الكبير وما سببه من اثارة ، وأظهر من جانبه اهتماما حيويا بمصر الفرعونية (١٦) • ولابد انه ناقش التاريخ الاسلامى مع دى ساسى de Sacy وآخرين ولابد انه لاحظ الاختلافات الضخمة فى المنهجية التاريخية بين مصر وأوروبا • فحقيقة ان التاريخ كان يعتبر مهنة ذات شأن فى اوروبا قد اصابته بهزة شديدة •

لقد اعتبر الطهطاوى ان اقامته المؤقتة فى باريس فرصة عظيمة أكثر منها تضحية • فما يوصف به عادة الأزهرى بضيق الأفق والتخوف من التاوث بالغرب المسيحى لا ينطبق على سلوكه تجاه هذه التجربة الفريدة (١٧) • فقد اغتنم الفرصة (وجوده فى فرنسا) الى أقصاها بادئا بالحصول على البراعة فى اللغة الفرنسية ، ثم بعد ذلك قراءة كم كبير من الموضوعات (١٨) • أصبح التاريخ والجغرافيا هما أفضل الموضوعات عنه ، وضمت بعض دراسته الرئيسية :

(١) بحث فى التاريخ القديم (٢) مدخل الى الفلسفة الاغريقية (٣) كتاب فى الأساطير اليونانية (٤) كتاب ديبينج (Depping) Les moeures des peuples (٥) تاريخ مونتسكيو Montesquieu عن الامبراطورية الرومانية (٦) ترجمة عن نابليون (٧) كتاب مالتبرون Universal Geography (Malte-Brun) (٨) كتاب مونتسكيو l'esprit des lois (Montesquieu) (٩) أجزاء من أعمال فولتير Voltaire وكونديلاك Condillak (١٩) •

والى جانب القراءة فقد وجد الطهطاوى وقتا اثناء وجوده فى باريس ليترجم اثنا عشر عملا فرنسيا الى العربية ، بما فى ذلك تاريخ الاسكندر الأكبر ، ودراسة فى العلوم السياسـية ، وجزء من جغـرافية مالتبرون Matle-Brun السابق ذكرها (٢٠) ٠

وبينما كان الطهطاوى يمارس مهام وظيفته الدينية (كامام للبعثة التعليمية) فى باريس تعرف على مساحات عريضة من الثقافة الأوروبية ٠ وعندما عاد الى مصر عام ١٨٣١ ، كان نجمه لا يزال فى صعود ٠ فقد استقبله ابراهيم باشا شخصيا فى الاسكندرية ، وكافأه على خدماته بمنحه ٣٠ فدانا فى منطقة الخانكة ٠ وعين وقتئذ مترجما لمدرسة الطب الجديدة ٠ وهى أول مرة يتولى فيها مصرى هذا المنصب ٠ وخدم أيضا لمدة كمترجم بمدرسة المدفعية ، لكن أهم منصب له الى حد بعيد كان نظارة مدرسة الألسن ، التى أسست عام ١٨٣٥ لتعليم (العلوم التكميلية) كالتاريخ ، الجغرافيـا والرياضيات ٠ وقد اضيف عام ١٨٤١ (قلم الترجمة) الى مدرسة الألسن ، وسنناقش كلاهما فى الفصل الخامس بالتفصيل ٠ ظل الطهطاوى ناظرا لمدرسة الألسن (الترجمة بعد ١٨٤١) للستة عشر عاما التالية ٠ بل وأوكل اليه تحرير (الوقائع المصرية) لزمن ما ، واعترافا بفضله وتفوقه فقد رقاه محمد على (فى ١٨٤٤) الى رتبة (القائمقام) ٠ وفى ١٨٤٧ تلقى ترقية اضافية الى رتبة (الأميرالاى) مع منحة من الأرض قدرها ٢٥٠ فدانا ـ وكذلك حديقة مساحتها ٣٦ فدانا لقاء الانتهاء من ترجمة جغرافية مالتبرون Malte Brun وقد اضاف (سعيد) فيما بعد ٢٠٠ فدان الى هـذه الأملاك المتزايدة بسرعة ، وأضـاف اسـماعيل الى هـذا ٢٥٠ فدانا أخرى (٢١) ٠ وهكذا فبالرغم من اصوله المتواضعة ، فان الطهطاوى أصبح فى ذلك الوقت أحد كبار أثرياء مصر (٢٢) ٠

ولم يحـدث لرفاعة أن خشى طوال حيـاته الوظيفية على مستقبله ورفاهيته سوى مرة واحدة ٠ وكان هذا فى عهد عباس الذى تولى السلطة عام ١٨٤٩ واغلق بسرعة اغلب منشآت جده المدرسية الجديدة ٠ وفى العام التالى ارسل رفاعه (أو نفى كما يزعم) الى السودان ٠ ولا تبدو أسباب عباس فى ابعاده واضحة ، لكن هناك على الأقل ثلاثة احتمالات محددة :

(١) احتواء الطبعة الثانية من تخليص الابريز عام ١٨٤٩ على فقرات تنقد مبدأ الحكم المطلق ٠

(٢) مؤامرات على مبارك ضـده ٠

(٣) غيرة بعض مشايخ الأزهر ، الذين شعروا انه كان يتعدى على وظائفهم كمعلمين للشباب المصرى ٠

لكل هـذا ، فان (الطهطـاوى) حاول أن يفيد أحسن فائدة من سنواته الثلاثة فى الخرطوم • فقد تركت له واجباته التعليمية كمـدير للمدرسـة المصرية وقتـا لينجز الترجمـة العربية لكتاب فنيـلون Les aventures de Telemaque (Fenelon) الذى نشر فى بيروت حيث كان أكثر صراحة فى نقد الحكم المطلق من (تخليص) (٢٣) • وأسند الكثير من واجبات (رفاعة) السابقة الى معاصره الأصغر سنا والأقدر (على مبارك) الذى يبدو انه كان حائزا على ثقة عباس الكاملة • لهـذا فانه كان لبعض الوقت المنافس الرئيسى (لرفاعة) فى العطف الملكى •

ومع تولى سعيد السلطة عام ١٨٥٤ أعيد رفاعه الى مصر وأرسـل مبارك الى (القرم) • ومع هذا فان انشغال سعيد باهتماماته بالاصـلاح العسكرى وحفر قنـاة السـويس ، أدى الى بقاء الطهطـاوى لعدة أشهر بلا عمل (٢٤) • فى ١٨٥٥ عين وكيلا للمدرسة الحربية التى انشئت فى نفس السنة لتعليم الضباط مهام الأركان حرب General Staff • وعند تقاعد الكولونيل سيف Colonel Seves (سليمان باشا) بعد سنوات قليلة رقى (الطهطاوى) الى مدير لها • وخلال نفس الفترة كان ذا أثر فى حث الحكومة على القيام بطبع كتب الأدب العربى العتيقة مثل تفسير فخر الدين الرازى ومقامات الحريرى • وفجأة انتهت مهامه الرسمية فى ١٨٦١ عندما قرر سعيد الغاء المدرسة الحربية • وعلى مدى العامين التاليين ظل (رفاعه) بلا عمل مرة أخرى (٢٥) •

بتولى اسماعيل الخديوية عام ١٨٦٣ بدأ ما يسمى بالنهضة المصرية• كان اسماعيل أكثر وافضـل تعليما من سابقيه ، وبخطط بعيدة المـدى للاصلاح والرغبة فى ان يجعل من مصر « قطعة من أوروبا » • ولمثل هذا المشروع الطموح فقد احتاج الأمير الجديد الى مواهب كل الرجال المتعلمين ، وبرغم سنى (رفاعه) الطويلة التى كان يحملها على كتفيه فقد أصبح مرة أخرى قطبا محوريا فى هذا المشروع • عينه (اسماعيل) فورا مديرا لقلم الترجمة الذى اعيد احياؤه ، والذى كان دوره الأساسى وقتئذ هو ترجمة كود نابليون (Code Napoleon) ووثائق قانونيـة أخرى الى العربية • اعيد كذلك فتح (مدرسة الألسن) فى ١٨٦٨ تحت مسـمى (مدرسة الادارة والألسن) ، رغم ان رفاعة لم يخدم فى هيئة التدريس بها• فقد كلف من قبل اسماعيل بمهام أعظم وأصبح العضو الوحيد الدائم فى قومسيون المدارس (٢٦) •

وسوف نجرى بالطبع تقييما لكتابات الطهطاوى التاريخية فى مواضع أخرى من هذا الفصل • من الواضح بالفعل أن أهمية الطهطاوى للدراسات التاريخية والتعليم بصفة عامة فاقت انتاجه الأدبى • لقد لعب (رفاعة)

دورا انشائيا فى مناطق كثيرة مختلفة ، وكانت خدمته الأعظم لبلده هى نفوذه الواسع والمنتشر على التلاميذ (٢٧) • وترجم هو وتلاميذه فى مدرسة الألسن ما يربو على ١٠٠٠ كتاب الى التركية والعربية (٢٨) • وكان أغلب هذه الكتب فى مجالات تقنية متنوعة ، لكن القائمة الآتية تضم نماذج قليلة من النصوص التاريخية والشبه تاريخية الكثيرة :

١ ـ اتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى أوروبا ـ ترجمة خليفة محمود •

٢ ـ أتحاف ملوك الزمان بتاريخ امبراطورية شارلكان ـ ترجمة خليفة محمود •

٣ ـ نظم اللآلىء فى السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك ـ ترجمة عبد الله أبو السعود •

٤ ـ قناصة أهل العصر فى خلاصة تاريخ مصر ـ ترجمة عبد الله أبو السعود (من تاريخ ماريوت بك (Marriot) عن مصر القديمة) •

٥ ـ كتاب غاية الأدب فى خلاصة تاريخ العرب ـ ترجمة محمد عبد الرازق (من تاريخ سيديلوت Sedillot عن العرب) •

٦ ـ برهان البيان وبيان البرهان فى استكمال واختلال دولة الرومان ترجمة حسن الجبيلى (٢٩) •

وقد ساعدته جهوده الصحفية على ان يلفت الانتباه الى موضوعات ذات أهمية تاريخية • فقد استطاع من خلال تعيينه محررا (بالوقائع المصرية) عام ١٨٤٢ ان يوجه الصحيفة الى حد ما نحو الاهتمام بالأنباء رغم العين المراقبة التى كان يسلكها حاكم مصر على مثل هذا الأمر • وتحت ادارة الطهطاوى ، على سبيل المثال ، بدأت اللغة العربية تتسيد على التركية (٣٠) وتحول محور نشاط الصحيفة من مجرد مدح الحاكم الى مناقشة الأحداث الجديرة بالنشر ، ومن مجرد النشر التقريرى الى تحليل نقدى أكثر للشئون الداخلية والخارجية (٣١) • فتحت حكم محمد على كان الحذر واجبا ، ولذلك فان النتائج كانت مع هذا هزيلة •

خلال عهد أسماعيل حصل الطهطاوى على فرصة ثانية فى الصحافة ، وفى هذه المرة سمح له بحرية أكثر فى العمل • ففى ١٨٧٠ عينه (على مبارك) محررا للجريدة الجديدة (روضة المدارس) التى أنشئت من أجل اعادة احياء اللغة العربية والثقافة ونشر (المعارف الحديثة) (٣٢) • وقد نشرت (روضة المدارس) مقالات تغطى مجالات واسعة من الاهتمامات ، بما فى ذلك التاريخ • وشارك الطهطاوى نفسه فى كثير من هذه المقالات ،

وظهرت ترجمته للرسول عليه الصلاة والسلام فى هذه الجريدة لأول مرة فى شكل حلقات متتابعة . وفيما بعد نشرت هذه الترجمة فى شكلها الكامل (٣٣) .

ومع ان اهتمامات الطهطاوى الخاصة كانت فى التاريخ والجغرافيا ، الا انه كان يضع فى الاعتبار دائما رغبات حاكم البلاد فى قصر جهوده على الميادين التقنية كالرياضيات والعلوم الطبيعية والتطبيقية ، والقانون . ومع ذلك فقد عمل على توجيه اهتمام ضخم تجاه الاهتمامات التى اعتبرها هو نفسه جديرة بالدراسة ، بل ونجح لفترة ما فى أن ينشىء مدرسة التاريخ والجغرافيا - وهى دلالة واضحة على الأهمية التى اولاها لهذه الموضوعات (٣٤) . لقد كان الطهطاوى بحق موظفا حرا ، وكان فى قدرته ان يشيد مشروعات أكثر طموحا . ولا نعرف ما اذا كان قد حاول ان يوقظ اهتمام محمد على بالتاريخ ، لكنه بالقطع قد شجع تلاميذه على متابعة الدراسات التاريخية .

الى جانب وظائف الطهطاوى كمعلم ، مدير ، ومترجم ، فقد كان أيضا كاتبا . ويعدد (بدوى) ثمانية وعشرين عملا من انواع مختلفة كتبها ، أو ترجمها ، أو أشرف على تحريرها - وهو انجاز ضخم ، اذا وضع فى الاعتبار تعدد واجباته الأخرى (٣٥) . ومن بين هذه الثمانية عشرين عملا - اعمال تاريخية وشبه تاريخية الى جانب أربعة دراسات كبيرة كتبها الطهطاوى نفسه .

١ - مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية .

٢ - تخليص الابريز فى تلخيص باريز .

٣ - أنوار توفيق الجليل فى اخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل .

٤ - نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز (٣٦) .

وسنناقش كلا من هذه الموضوعات فى دوره .

من بين هذه الأعمال الأربعة ينحصر اهتمامنا (بمناهج الألباب) . فهو الوحيد الذى يناقش التاريخ المصرى الحديث ، ومع هذا فانه ليس تاريخا على الاطلاق - اذا تكلمنا بتحديد (٣٧) . فالمحتوى التاريخى فى الغالب يأتى اتفاقا وهو واحد فقط من بين عدد عظيم من الموضوعات التى يحتويها الكتاب ، كالأخلاق ، الصدقات فى الاسلام ، الشعر ، مناهج التعليم ، التوفيق بين أحزاب الدينية المختلفة فى الدولة ، اصلاح الحكومة المحلية ، تفسير القرآن ، حديث ، الجغرافية المصرية ، الخ . و (مناهج) فى الواقع خليط من المعلومات دون وحدة بنائية من أى نوع . وهو يحتاج

الى تفكير وملاحظة كبيرين للتحقق حتى من أمل الطهطاوى في ان يحققه من هذا الكتاب ٠

ويبدو أن اهتمام الكاتب هو بما يسميه (المنافع العمومية) ٠ والمصطلح العربى ، مع هذا ، غير واضح ، وان المرء ليعجب عن أسباب تجنب الطهطاوى لمفاهيم تقليدية أكثر (العمران) ٠ ان عدم ملائمة مصطلحاته تجبره على توسيع تعريفه السابق (المنافع العمومية) ، ثم ينطلق ليفرق بين معنيين اساسيين لتمدين الناس :

(١) من خلال الدين ، الذى سيرفع الناس أخلاقيا (٢) من خلال (التمدن المادى) كالتقدم فى الزراعة ، التجارة والصناعة (٣٨) ٠ ويقرر ان (الصناعة) تماثل (المنافع العمومية) (٣٩) ٠

اذا كان هذا يبدو واضحا بما فيه الكفاية ، فان مؤلفنا مع هذا يناقض نفسه عندما يزعم ان (المنافع العمومية) يمكن ان توازى كلمة Industrie (صناعة) الفرنسية (٤٠) ، مستبعدا بذلك الصناعة والتجارة من التعريف ٠ وربما كان هذا التناقض راجع الى رغبة (الطهطاوى) فى تملق (السان سيمونية) (٤١) التى كانت البدعة السائدة في فرنسا وقت اقامة الطهطاوى بها ، وربما أخذ المصطلح معه الى مصر ٠ ومن غير المحتمل أنه قصد استبعاد الزراعة والتجارة من التعريف ، أى أننا اذا حكمنا من هذا التأكيد انه من بين الأشكال الثلاثة للنشاط الاقتصادى ـ الزراعة ، التجارة ، والصناعة ـ فان الزراعة هى الأكثر نفعا (٤٢) ٠ ويحتمل ان يكون الطهطاوى قد انغمس فى بعض التفلسف اللغوى عندما أضاف مصطلح (Industrie) فان كان الأمر كذلك ، فان الفحوى العام لبقية المناقشة تشير الى أن تعريف (حورانى) « للمنافع العمومية » بانه هو « النشاط الاقتصادى Economic activity يكون قريبا جدا الى ما قصده (الطهطاوى) بهذا التعبير (٤٣) ٠

ورغم ان النشاط الاقتصادى هو نقطة اهتمام العمل ، فان (رفاعه) مع هذا يتكلم عن تشكيلة من الموضوعات الأخرى ٠ فالكتاب يبدأ بشرح موجز لمصر ، جغرافيتها ، ودورها التاريخي المجيد الذى لعبته (٤٤) ٠ هذه هى « المقدمة » ٠ يلى ذلك خمسة فصول (٤٥) وخاتمة ٠ فى الفصل الأول يكتب بلا ترابط حوالى مائة صفحة دون موضوع أساسى واضح أو غرض ٠ ثم ينقلب سريعا جيئة وذهابا من التفسير الى الحديث الى الشعر ، ورغم محاولة معتدلة عارضة لتقديم تبرير دينى لبعض (الأفكار الجديدة) التى يقترحها أو يقدمها فيما بعد فى الكتاب ، فانه لا يوجد مع هذا أى وحدة عضوية فى المناقشة (٤٦) ٠

في الفصل الثانى (٤١ صفحة) يكتب (رفاعه) عن التاريخ القديم والوسيط وعلى وجه الخصـــوص عن المنجزات العلمية العظيمة للعـــرب كاختراع البوصلة ، ونفوق العرب فى صناعة الساعات ، والخبرة السورية فى صناعه الصباغة الخ (٤٧) ويقاد القارىء الى نتيجة خلاصتها انه اذا كان العرب علماء عظام وتقنيون فى الماضى ، فانهم يمكن ان يصبحوا كذلك فى المســتقبل ٠

ويهتم الفصل الثالث (٣٧ صفحة) فى الغالب وخاصة بالتاريخ القــديم ٠ ويشــير رفاعة الى (بابيلون Babylon القديمة على انها (مملكة عربية) وبالطبع فانه يكتب عن الانجازات الخالدة لمصر فى ظل الفراعـة ٠ ويتكلم بصورة انتقائية عن الشخصـيات البارزة فى التاريخ العربى القديم مثل سولون Solon ، الاسكندر الأكبر والبطالة (٤٨) ، وفى صفحتين يقفز من البطالة الى عهد محمـــد على ٠ ويذكــر فى هاتين الصحفتين ان المماليك والعثمانيين هم الذين تسببوا فى تدهور مصر من وضعها المجيد السابق (٤٩) ٠

يبدأ الفصل الرابع بمدح مطول لمحمد على ثم ينتقل بعد ذلك للحديث باختصار عن الحكام العظام مثل « مولانا » سليمان العظيم ، فرنسيس الأول ، ولويس الرابع عشر ٠ ويعلق الطهطاوى باستحسان على استخدام لويس الرابع عشر لرجال أمثال كولبير Colbert وتورين Turenne والتضمين هنا يتصل باستخدام محمد على أيضا لرجال ذوى قدرات مؤكدة بدلا من ذوى الأصول الاجتماعية(٥٠) ٠ وينتهى الفصل بنظرة الى مشروعات محمد على الاصلاحية العديدة (٥١) ٠

والفصل الخامس عبارة عن قائمة باصلاحات أخرى يرى (الطهطاوى) أنها قد تكون مفيدة للتخطيط فى المستقبل ، كالاصلاح الزراعى ، استيراد شجر التوت وماعز المارينو ، وتشجيع زراعة القطن ، وقصب السكر ، وانتاج الماشية (٥٢) ٠ ويشير الى أن المخترعات « الحديثة » كالتلغراف ، السكك الحديدية ، والخدمة البريدية كان لها مقابل اسلامى متمتع بالقداسة التى القديم (٥٣) ٠ وينتهى الفصـــل بحاشية سياسية تقود مبـــاشرة الى « نتيجة » يناقش فيها الطبقات الاجتماعية ، حقوق الحكام ورعاياهم ، الواجبـات المدنية ، وضرورة تسـجيل خـدمات موظفى الخدمة العـــامة المستنيرين (٥٤) ٠ وكل هذه الأشياء لا تمت للتاريخ بصلة ولا تعنينـــا فى شىء (٥٥) ٠

لم يكن القصد من (مناهج) ان يكون تاريخا بل كدليل ثقافى عام لزمانه ٠ ورغم أنه قرىء على مســتوى واسع ولاقى تقديرا ، فان أمل الطهطاوى فى أن يدمج فى المنهج الدراسى فى جدول مدارس رسمية معينة

لم يتحقق تماما (٥٦) • كان عدم إنتظام الكتاب موحيا بالمدخل الوسيط للتاريخ كأدب عام ، رغم انه في مظاهر أخرى اختلف جوهريا عن كتابات العصور الوسطى • وربما كان الطهطاوى قد قصد منه ان يكون نسخة مصرية مما اتصل بعلمه في فرنسا كاقتصاد سياسى Economie Politique رغم أنه في هذه الحالة كان لديه معرفة ضئيلة بهذا العلم شديد الصعوبة والتعقيد •

ومع هذا فإن (مناهج) اقتحم في بعده التاريخي أرضا جديدة هامة، ولأول مرة ابتعد التأريخ المصرى في القرن التاسع عشر عن التقنيات الحولية القديمة بعنف • كان العمل موضوعاتيا topically أكثر منه حوليا ، وعوملت موضوعاته تحليليا أكثر منه وصفيا • وكأى مؤرخ آخر ، فقد كتب الطهطاوى من وجهة نظر معينة اشتملت في حالته على :

(١) الفخر بمنجزات العرب الماضية (٢) الاعجاب بفرنسا والثقافة الفرنسية (٣) الولاء للأسرة العلوية (٥٧) •

وكل هذه الأشياء انحيازات واضحة ، وبناء على ذلك فانها يجب ان توضح في الاعتبار في أى تقدير لعمله • ومع هذا فان وضع ارثه العربى ـ المصرى ووظيفته في الاعتبار ، ينبغى ان يتوقع معه أن تعكس كتاباته مثل هذه الاتجاهات • وفي الواقع فانه لا يوجد استغراب مع هذه الاتجاهات، طالما كان في استطاعته ان يقدم دليلا تاريخيا قويا ليدعمها •

ولا يخفى (مناهج) اعجاب (الطهطاوى) بمحمد على ويرمز اليه عامة بجنتمكان (Cennetmekan) • وهو تعبير تركى يسبغ الاحترام على الحاكم المتوفى (٥٨) • فيبدأ بمناقشة عهد محمد على في أسلوب عصور وسطى متأخرة ، بانيا تعبيرا سجعيا مزخرفا على آخر لصفحتين كاملتين (٥٩) • (لم يكن متصورا في وقته ان يخاطب حاكم مهيب بطريقة أخرى غير هذا •) وعلى خلاف كتاب العصور الوسطى ، مع هذا ، فانه يذهب الى تعديد أسبابه التاريخية في اعجابه • فيذكر ، على سبيل المثال، ان محمد على هو الذى حرر مكة والمدينة من الوهابيين ، الذين جعلوا من الحج مهمة خطيرة (٦٠) • ويكتب عن الحرب في اليونان ، مزودا ايانا بمعلومات قيمة عن وجهة النظر المصرية لهذا الحدث • ويؤكد ان الغزو المصرى للمورة كان محتما نتيجة للهجمات اليونانية على المسلمين ومساجدهم • فاليونانيون ـ وفقا للطهطاوى ـ لم ينتهكوا (الشريعة العيسوية) فقط بل (النواميس الطبيعية) أيضا (٦١) • ولا يدخل في المناقشة قضية الاستقلال أو الاستقلال الذاتى لليونانيين (وفى الواقع ، لماذا تدخل ؟) ، ولا يرى الطهطاوى في هذه الحرب نوعا من التوسع الاقليمى من جانب محمد على •

بعد مقارنة محمد على بلويس الرابع عشر ، وابراهيم باشا بالجنرال تورين Turenne ينتقل الطهطاوى الى تقدير سياسات محمد على الداخلية • ومع تمسكه بايمانه ان الزراعة هى أكبر مصدر قوة لمصر(٦٢)، فانه ينفق وقتا كثيرا لاصلاحات محمد على الزراعية • ومع أن اختصاص الطهطاوى كان التعليم ، الذى كان يتصور ان يتباهى به فانه مع ذلك يقتصر على سبع صفحات ليذكر فيها اصلاحات محمد على التعليمية بالمقابلة لتسعة عشر صفحة للزراعة • أيضا فانه يصف بصورة مطولة سياسات محمد على فى السودان ، وخاصة جهوده لاكتشاف مصادر جديدة من الثروة المعدنية (٦٣) •

وسواء اتفقنا مع وجهة نظر الطهطاوى أو لم نتفق ، فان كتابته عن محمد على كان لها بلا جدال طعم حديث • لقد عرض نفسه بالطبع لتهمة الانحياز ، لكنه بفعله هذا فانه هز أيضا البنية المجدبة للتاريخ الحولى • وهذا المظهر لكتاباته يجعله أكثر حداثة من الجبرتى • فبينما تأتى بصيرة الجبرتى بصورة عرضية الى حد ما ، فان بصيرة الطهطاوى عبارة عن نتيجة مباشرة للاتجاه الجديد الذى يأخذه فى الكتابة التاريخية •

هناك علامة مميزة فى كتابات الطهطاوى ، فبالخلاف لكتابات الجبرتى تبدو التقريرات الناشئة وغير الناضجة للقومية المصرية التى تحتويها هذه الكتابات • وهذا النوع من الانحياز قد ظهر كسمة مشتركة للنشاط الثقافى والفكرى فى القرن التاسع عشر بصفة عامة (٦٤) ، وفى حالة مصر فان بعض الاحساس بشخصية اقليمية منفصلة ظهرت حتى قبل القرن التاسع عشر • ومن المشكوك فيه امكانية تسمية هذا الاحساس (قومية) بالمعنى الحقيقى للكلمة ، رغم ان المثقفين الغربيين والعرب ليسوا على اتفاق تام على هذه القضايا (٦٥) •

وأيا كان تفكير المرء عن (القومية) فى العصور الوسطى أو القديمة ، فان (القومية) كانت قد ظهرت فى وقت (الطهطاوى) ، وتركت وشما لا يمحى فى كتاباته ، كما فى (مناهج) على سبيل المثال عندما يقرر انه قد كتب الكتاب كخدمة (للوطن) (٦٦) وهو لا يهدى العمل لمحمد على ولكن لمصر ، « فى ذكر هذا الوطن وما قاله فى شأن تمدينه أرباب الفطن » (٦٧) • وليبرر هذه الأحاسيس فانه يستشهد بالتقليد النبوئى (حب الوطن من الايمان) (٦٨) • ويتبع هذا سلسلة من الأشعار الحماسية الوطنية (٦٩) • وفى موضع من كتابه يشير الى مصر بأنها « أم الدنيا » وهو ما يعنى أنها متميزة عن وأفضل بعض الشيء من سوريا أو العراق (٧٠) •

ولا يبدو اذا ان هناك مبالغة فى القول بان الطهطاوى كان قوميا مصريا (٧١) • فقد تكون القومية قد مرت بعض التهذيبات الايديولوجية

المعينة فى العصور التالية ، لكن هذا لايغير من الدافع وراء هذه الأحاسيس• فعند الطهطاوى عملت « القومية » حتى من المنظور المفرط فى الرومانسية التى فهمها به كواقع للكتابة التاريخية وكذلك كمحدد أساسى للمدخل الذى يتخذه (الكاتب) تجاه الموضوع • فقد اسرف فى تخصيص كتابته لوطنه واعتبر هذا بلا شك كعاطفة نقية ، نبيلة ، وطبيعية كلية • ويحتمل انه لم يتضح له ان صراعا فلسفيا قد يثور بين التفانى نحو « الوطن » والتفانى « للحقيقة التاريخية » •

من الناحيـــة المثالية فان الطهطاوى كان يجب عليه ان يتبين هذه الامكانية ، لكنه فى الواقع لم يضع نفسه فى المشاكل • فهو أساسا كان رجلا أمينا ولم يحاول بادراك ان يشوه أو يزيف السجل التاريخى • وكتب دون ارتباك من وجهة نظر مصرية ، لكنه كان حذرا فى دعم مواقفه نحو المادة اللازمة• وبالاضافة الى ذلك فان «قوميته» كان لها مظاهرها الايجابية، التى ساعدته فى بعض الأحيان على ان يضع فاصلا بين نفسه والأسرة الحاكمة فى مصر ، التى كانت مسئوليتها ـ كما زعم الطهطاوى ـ هى حكم البلاد بحكمة • ولقد قال انه يمكن للتاريخ ان يؤدى خدمة فى تحويل الحكام عن التصرفات الباطشة التى قد تتهمهم بها الأجيال القادمة (٧٢) •

لم تترك مهام الطهطاوى العديدة كادارى ، محرر ، مترجم ، معلم ، وأديب ـ له وقتا كافيا ليخصصه للأبحاث التاريخية المحضة • وبالاضافة (لمناهج) يبدو انه كان عنده آمال فى كتابة تاريخ متعدد الأجزاء عن مصر من العصور المبكرة وحتى القرن التاسع عشر ، ولكن مع نهاية القرن فانه كان قد انجز فقط جزءين فقط من السلسلة التى أرادها ـ احدهما عن مصر القديمة والآخر عن الرسول وبواكير الاسلام • وحاول فى كل من الحالتين ان يجعل عمله متفقا مع المقاييس التاريخية الحديثة ـ مثلما فعل فى (مناهج) • فعلى سبيل المثال ادمج فى دراســـته عن مصر القديمة تشكيلة واسعة من المصـــادر الأوروبية والعربية بل وضـــمنها قليلا من الاكتشافات الأثرية الحديثة الكثيرة (٧٣) • لقد تحقق من ان مجرد التاريخ الحولى لا يكون مجديا ، ومن ثم فانه حاول أن يذهب فيما تحت سطح الأحداث(٧٤) • لقد استقبل الكتاب استقبالا حسنا ، دالا على أن حداثته لم تنجح كثـــيرا عند الأتقيـــاء ، المسلمين المتعلمين جيدا ؛ ذلك انه كان على الطهطاوى أن يكون حريصا على ألا يضايق المعتقدات الدينية الراســـخة • وتبعا لذلك فقد فسر مجرى التاريخ القديم على انه يعزز اجزاء معينة من القرآن ، بل وأكثر من ذلك سذاجة فقد قبل بعض الخرافات والأساطير التى رغم انها مسلية ، الا أنها لم تشكل جزءا من أى معالجة تاريخية فى الموضـــوع (٧٥) •

كان الجزء الثانى من سلسلته التى لم تكمل عن حياة محمد (عليه

الصلاه والسلام) • وكما يتوقع ، فان المعالجة هنا كانت حذرة ومتحفظة ، وانسجم الطهطاوى بأمانة مع التفسير الأدبى للقرآن (٧٦) • وفى احدى النقاط الهامة مثلت ترجمة الطهطاوى للنبى (عليه الصلاة والسلام) تقدما اخر فى التكنيك • فلأنه كان غير قانع بأن يكتب مجرد تاريخ حولى، فقد حاول بدلا من ذلك ان يضمن فى دراسته دراسة مستفيضة عن المؤسسات الاسلامية المبكرة – وهى بدعة هامة فى زمانه ، ربما يكون قد أوحى له بها قراءاته لتاريخ فولتير Voltaire عن لويس الرابع عشر ، الذى حاز شهرة لهذا السبب بالتحديد • وأيا كان الايحاء ، فان « نهاية الايجاز » اثبتت ان الطهطاوى كان مدركا للاتجاهات الجديدة التى كان التاريخ الأوروبى فى القرن التاسع عشر يتخذها (٧٧) •

أما العمل الرابع والأخير للطهطاوى فكان « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ، الذى اجتاز ثلاث طبعات فى مصر وحدها ، وترجم فيما بعد الى التركية ، محققا انتشارا واسعا فى استانبول كما فى مصر (٧٨) • كان (تخليص) عبارة عن قصة رحلة وليس عملا فى التاريخ ، لكنه احتوى مظاهر معينة سوف تساعدنا على فهم الطهطاوى نفسه بصورة أفضل • فهناك شيئان عن (تخليص) لهما أهمية خاصة •

أولا ، فان (تخليص) يضم ثروة من التفاصيل وعمقا فى التعليق يذكر فورا بوصف (الجبرتى) للفرنسيين • يفحص (الطهطاوى) كل مظاهر الحياة الفرنسية – السياسية ، وضع المرأة ، عادات الأكل ، الأثاث ، العلوم ، الخ • وهو ليس مجرد مراقب مدقق فقط للمشهد الفرنسى ، فهو كالجبرتى لا يتردد فى التعليق شخصيا على ما يصادفه (٧٩) •

وهكذا فان (تخليص) يحوز الاحساس البدهى والحيوية التى لا يوجد مثيلها فى أى عمل آخر من أعماله ، لأنه واجه بعض المظاهر الاساسية كما واجه الجبرتى ، مثل الثقافة الأجنبية وطريقة الحياة التى تطلبت تحليلا مكثفا ونقدا • ولقد كان مختلفا كلية عن الكتابة عن الوطن الذى يأتى منه الانسان ، وهذا باد (مثل الجبرتى) عندما حاول دون نجاح فى (مناهج) ان يطبق نفس التقنيات •

والمظر الآخر فى (تخليص) هو أسلوبه ، الذى يمثل فى مظاهر كثيرة تقدما ادبيا هاما • فرغم انه لا يستطيع ان يهجر السجع بأكمله ، فانه فى (تخليص) يبذل مجهودا جادا ولأول مرة ليقلل استخدامه بصورة جذرية،وأن يكتب،بصفة عامة ، مباشرة وبدقة وايجاز قدر استطاعته(٨٠)• وبمقارنة (مناهج) و (أنوار) (بتخليص) فان العملان الأولان ضعيفان اسلوبيا تماما ، ويمكن تبين ذلك من الفقرة التالية :

« وسميتها مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية متحفا بها حضرة ولى عهد هذا الوطن الشريف وحامى حمى مصر المنيف الوزير الأعظم والمشير الأفخم الجامع لأسباب الفضائل والحكم والرافع لجمعية المعارف تحت لواء أبيه أعلى علم من هو بالمجد الأثيل جدير وحقيق حضرة محمد باشا توفيق لازال فى ظل والده متمتعا بطريف العز وتالده » (٨١) .

كان هذا السجع الأجوف اسلوبا من أساليب العصور الوسطى التقليدية المتأخرة ، ومع هذا فان الطهطاوى لم يتردد فى استخدام هذا الاسلوب فى (مناهج) . أما فى (تخليص الابريز) فان السجع أصبح ندرة ، وحتى القصص تبدو أرفع كثيرا من قصص أعماله الأخرى ، واللغة العربية فى (تخليص) تتدفق بسلاسة وسهولة دون اضاعة وقت أو مسافة ، على نقيض أسلوب (مناهج) الغير متقن والملئ بالاطناب والمقاطع الانتقالية المبتورة (٨٢) .

ولا يمكن تفسير أو شرح هذه التناقضات فى نطاق التطور الأدبى الشخصى للطهطاوى (٨٣) . والتفسير الوحيد المقبول هو أن يكون (تخليص) ، على خلاف « مناهج » « وأنوار » ، قد كتب أولا فى شكل مسودة تمهيدية بينما كان الطهطاوى لا يزال مع البعثة التعليمية المصرية فى باريس (ثم نقح بعد ذلك على مهل) . ولقد كان فيما يبدو مليئا بالاخطاء النحوية والاسلوبية التى استطاع المستشرق الفرنسى سيلفستر دى ساسى Silvester de Sacy ان يلفت النظر اليها (٨٤) . ومن المثير للسخرية أن يكون دى ساسى de Sacy هو الذى ساعد الطهطاوى فى صقل اسلوب الكتاب ـ وهو اختيار لم يبق قائما طويلا سواء بالنسبة (لمناهج) أو (أنوار) لسوء الحظ .

لم يكن الطهطاوى ـ مع وضع كل شئ فى الاعتبار ـ مؤرخا من الدرجة الأولى . فهو لم ير الكتابة التاريخية وظيفة أساسية فى الحياة ولم يتلق تشجيعا ملحوظا للجهود التى بذلها (فى هذا الصدد) . ومع هذا فانه ليس صوابا استبعاد مساهمته كلية . فقد كان حديثا عن الجبرتى فى أوجه كثيرة وكان لا يقل عنه دقة فى الملاحظة . وفى الأسلوب فانه يمكن القول انه ساوى الجبرتى على الأقل ، واذا كانت له بعض الهنات تتعلق بالاتقان والابهام فان هذا يعود الى محاولته أن يوضح مفاهيم أجنبية ومعقدة لم تكن اللغة العربية مستعدة لتقبلها بعد . ومحاولته معاملة التاريخ بالتوكيد على التنظيم على حساب العوامل الأخرى وأن يدمج نتائج البحث الغربية فى روايته لم يفهما تماما بل ونفذا على غير المطلوب ، لكن هذا كان محاولة (وفى الواقع ، أول محاولة) .

كتب الطهطاوى عن محمد على بطريقة جديدة ومبتكرة ، ركز على الموضـوعات ذات المغزى كالزراعة ، التجارة ، والتعليم • لكنه كان فى الشكل شاردا ، ملأ عمله بالاستطراد وعدم التتبع non sequiturs . وكان يعود باسـتمرار الى المناهج القديمة من العودة الى قضايا داخليـة كالتقاليد أو الشعر المعروف جيدا • ومع هذا فخلال كتابته كان يحاول الحفاظ على رؤيته مثبتة على نوع جديد من التاريخ الذى يحمل قليلا من المماثلة للأنماط التى تعود الى العصور الوسطى مثل « حوليات السلطان ـ الباشا » • كان هذا هو ما أثبت فى النهاية انه غير قادر على تحقيقه • لكن الجبرتى فى هذا المقام لم يكن ليستطيع حتى ان يتصوره •

وعلى عكس الجبـرتى ـ فان الطهطـاوى نشأ فى جو من التغيرات الثقافية المستمرة • وكما لاحظ البروفيسور أنيس فانه لم يكن من المقبول لمثل هذا العهـد ان ينتج مؤرخا فى منزلة الجبرتى (٨٥) • وكان على الطهطاوى ان يعمل فى موطن ثقافى انتقالى ، كما كان تحت رحمة نزوات حكام لم يكونوا على الاطلاق متعاطفين مع أى دراسات ليبرالية ايا كان نوعها • لقد أرسى الطهطاوى القاعدة وأقام المثل للأجيال المقبلة ، وحقق الكثير كمدير ، معلم ، ومـؤلف • واذا اخذنا ما حققه بتماميته فان هذه المنجزات كانت مدهشة • وهى تبرر رتبة التفوق والتميز التى حازها فى اعين بنى وطنـه •

حواشي الفصـل الرابع

(١) أنيس « مدرسة التاريخ المصرى » ص ١٦ ٠

(٢) ادوارد س ٠ كريزى Edward S. Creasy
"His.ory of the Ottoman Turks" (Beirut : Khayats, Oriental Reprints, no. 1, 1901), pp. 456-59.

(٣) يخلص فردرى Verdery من تقارير المراقبين المعاصرين الى ان محمد على تعلم القراءة فى وقت ما فى الأربعينيات من عمره ٠

فردرى Verdery
"Al-Jabarti", p. 7.

(٤) زياده Ziada
"Modern Egyptian Historiography", p. 267.

والشيال « تاريخ الترجمة » ص ١٦٦ ــ ٦٨ ٠

(٥) جاك تاجر Jacques Tagher
"Mohammad Ali etudiat l'histoire et regardeait des memoires"
Chaiers d'histoire egyptienne 2 (1949) : 73-75.

(٦) عن تقرير بورنج Bowring انظر الشيال
"A History of Egyptian Historiography", p. 19.

(٧) رغم ان الكثير قد كتب عن الطهطاوى ، فإنه لا توجد دراسة عن دوره كمؤرخ ٠ وهذا هو ما يعنى به هذا الفصل من التركيز على هذا المظهر من سيرته ٠

(٨) أحمد أحمد بدوى « رفاعة رافع الطهطاوى » (القاهرة : مطبعة لجنة البيان العربى ـ بدون تاريخ) ص ١٢ ٠

(٩) موريس شيمول Maurice Chemoul
"Rifaa Bey," EI (1913), III, 1155.

قارن جبريل باير Gabriel Baer
"A His.ory of Landownersdip in Egypt, 1800-1950."
London, New York, and Toronto ; Oxford University Press, 1962), p. 49.

(١٠) بدوى « الطهطاوى » ص ١٧ ــ ١٩ ، قارن جمال الدين الشيال « رفاعه رافع الطهطاوى ـ نوابغ الفكر العربى » رقم ٢٤ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٨) ص ٢٢ ٠

(١١) لعل غيابه المطول عن مصر والذى كان يعتبر غير عادى بصورة كبيرة بالنسبة لعالم فى زمانه ، يوحى بانه ربما يكون قد وصم بالتعاون ٠

(١٢) ان أشمل دراسة عن حياة العطار وكتاباته هى جران Gran
"Islamic Roots of Capitalism" p. 76.

انظر أيضا (١) سامى بدراوى « الشيخ حسن العطار » ــ المجلة ــ رقم ٩٩ (١٩٦٥) ص ٣٠ ــ ٣٥ ٠

٢ ــ بدوى « الطهطاوى » ص ١٦ ٠

٣ ــ الشرقاوى « مصر فى القرن الثامن عشر » ص ٤٩ ٠

٤ ــ آيلون Ayalon
"The Historian al-Jabarti", p. 243.

٥ ــ الشيال « الطهطاوى » ص ٢٤ ٠

٦ ــ عماره « الأعمال الكاملة » ص ٤٦ ٠

(١٣) الدسوقى « فى الأدب الحديث » ج ١ ، ص ٢٥ ــ ٢٦ ٠

(١٤) رفاعه بدوى رافع الطهطاوى « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » تحقيق مهدى علام وأحمد أحمد بدوى وأنور لوقا (القاهرة : مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، ١٩٥٨) ، ص ٥ ــ ٦ ٠ ووفقا لمحمد عمارة فان هذه الطبعة من (تخليص) يعيبها حذف متعمد يشوه معانى الطهطاوى ٠ والنماذج التى يستشهد عمارة بها (عمارة « الأعمال الكاملة » ص ٢٤ ــ ٢٦) مع هذا لا توفر دعما مقنعا لمثل هذا الاتهام ، وتحقيقه هو لأعمال الطهطاوى لا تقل فى الشك فى هذا المقام عن النسخة المصرية ٠

للمزيد عن هذا انظر حاشية ٥٥ من هذا الفصل ٠

(١٥) « تخليص الابريز » ص ٢٩ ٠ وقد افترضت هنا أن الجملة العربية « دار الكتب الفرنسية » تقابل جملة « المكتبة القومية الفرنسية » Bibliotheque Nationale

(١٦) انظر على سبيل المثال ص ٧٥ ــ ٧٦ ٠

(١٧) كان الطهطاوى شاذا عن علماء زمانه من حيث اعتباره كل المعرفة ــ وليس فقط العلوم الدينية ــ مفيدة ٠

عمارة « الأعمال الكاملة » ، ص ٢٢٧ ــ ٢٩ ٠

(١٨) الشيال « الطهطاوى » ص ٣٠ ٠

(١٩) هذا مركب ماخوذ من بدوى « الطهطاوى » ص ٢١ ــ ٢٢ ، ٢٧ ــ ٢٨ ٠

عوض « المؤثرات الأجنبية » ص ٢٠٠ ٠

« وتخليص الابريز » ص ٣٠ ــ ٣١ ، ٢٤١ ٠

(٢٠) بدوى « الطهطاوى » ص ٢٨ ــ ٢٩ ٠ ولقد شاهدنا أن محمد على كان مهتما بسير الرجال مثل الاسكندر الأكبر ٠

(٢١) الشيال « تاريخ الترجمة » ، ص ١٣١ ــ ٣٢ ، ١٤١ ٠ ويؤيد باير Baer هذه الأرقام ويضيف ان الطهطاوى اشترى بصفة خاصة ٩٠٠ فدان خلال فترة حياته وأن ورثته وسعوا أملاكه فى النهاية الى ٢٥٠٠ فدان ٠

باير Baer
Islamic Roots of Capitalism" p. 67.

(٢٢) بالاضافة الى العائد من هذه الأراضى ، فان الترقية الى رتبة أميرالاى (عميد) حملت معها راتبا قدره ١٢٫٠٠٠ قرش شهريا ٠ الدسوقى « فى الأدب الحديث » ج ١ ، ص ٣٠ ٠

لقد خلقت جهود محمد على فى التحديث كثيرا من هذه الفرص لرجال من أصول متواضعة كالطهطاوى ، حيث ان محمد على كان قد قضى أو حاول تجنب الاعتماد على الطبقة التقليدية الأولى والثانية (مشايخ الأزهر والأمراء المماليك) • وهكذا فان رتب الحكومة أصبحت مفتوحة لمن يغترف من الرجال الأجدد ، مثلما اعترف الطهطاوى نفسه بامتنان فى تاريخه عن عهد محمد على •

قارن ص ٧٦ •

(٢٣) وبالتبعية فان العمل كان غير فعال كوسيلة « لتعليم » عباس عن شرور الاستبداد ، وهو ما دفع الطهطاوى الى ترجمته فى المقام الأول •

عمارة « الأعمال الكاملة » ص ١٦١ •

(٢٤) وفقا لمؤلف معين فان الطهطاوى قد اقترح (دون جدوى على ما يظهر) ان يقيم (سعيد) نظاما من المدارس الشعبية الابتدائية لتعليم جموع المصريين موضوعات كاللغات التركية والفارسية والعربية ، والتاريخ المصرى والعثمانى •

انظر ج • ت J. T. (يفترض ان يكون جاك تاجر) •

"La Creation d'eclos populaires en Egypte, selon un projet de Rifaa Rafee", Chaiers d'histoire egyptienne 1 (1944), 186-88.

لسوء الحظ فان تاجر لا يقدم أى بينة لهذا التأكيد •

(٢٥) المعلومات التراجمية Biographical عن أنشطة رفاعة خلال عهدى عباس وسعيد قد أخذت من الشيال « الطهطاوى » ص ٣٩ ــ ٤٥ •

(٢٦) عن سيرة الطهطاوى فى عهد اسماعيل انظر الشيال « الطهطاوى » ص ٤٦ ــ ٥٠ ، وبدوى « الطهطاوى » ص ٦٢ ــ ٦٣ •

(٢٧) بدوى « الطهطاوى » ص ٩٤ ــ ٩٨ •

(٢٨) موسى Moosa

"Modern Arabic Fiction", pp. 145-46.

(٢٩) يمكن الحصول على قائمة أكثر اكتمالا فى بدوى « الطهطاوى » ص ٩٤ ــ ٩٥ • ومما يؤسف له ان بدوى لا يكشف دائما عن الأعمال الاوروبية التى أخذت منها الترجمة •

(٣٠) طبقا لعمارة فان الطهطاوى نفسه كان هو مهندس هذا التغيير •

عمارة « الأعمال الكاملة » ص ٥٤ •

(٣١) ابراهيم عبده « أعلام الصحافة العربية » (القاهرة : مكتبة الآداب بالجماميز ، ١٩٤٤) ص ٤١ ــ ٤٦ •

(٣٢) المصدر نفسه ص ٤٩ •

(٣٣) بدوى « الطهطاوى » ص ٧٤ ــ ٧٧ • قارن عبده « اعلام الصحافة العربية » ص ٤٧ •

(٣٤) الشيال « تاريخ الترجمة » ص ٣٨ ــ ٣٩ •

وعمارة « الأعمال الكاملة » ص ٥٤ •

(٣٥) بدوى « الطهطاوى » ص ٣٥١ ــ ٣٥٣ • قارن عمارة « الأعمال الكاملة » ص ٧٨ ــ ٨٤ ، ويزعم حورانى ان الطهطاوى نفسه قد قام بترجمات لحوالى ٢٠ عملا •

البرت حورانى

Albert Hourani
'Arabic Thought in the Liberal Age" 1798-1939.
(London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1962), p. 71.

(٣٦) لقد استخدمت ترجمة حورانى لسجع « مناهج الألباب » ٠

حورانى

Hourani
"Arabic Thought", p. 72.

أما الترجمات الثلاث الأخرى فهى من تاليفى

والواقع أن المؤلف قد خانه الوفيق فيما ذهب اليه من ترجمة لمؤلفات الطهطاوى ـ كذلك فعل حورانى ٠

فبالنسبة لحورانى فقد ترجم كلمة « الألباب » بكلمة قلوب Hearts فقال على مناهج الألباب المصرية The Paths of Egyptian hearts ٠ وألباب فى مؤلف الطهطاوى تعنى العقول فى اللغة العربية ومفردها لب ـ واللبيب هو العاقل ٠ وكان المفروض ان يستخدم كلمة Minds

انظر مختار الصحاح للشيخ محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٨٧ ٠

أما المؤلف فقد ترجم كلمة « تلخيص » بكلمة تصوير ـ تخطيط ـ وصف delineation ٠ وكان المفروض ان يستخدم كلمة تلخيص Abridgement او Summarising ـ ولم يكن هناك داع لترجمة باريس بجملة « المعرفة الباريسية Parisian Tore ٠ فكان المفروض ان يكون العنوان هو

The Purification of Gold ore in the Summarising of Paris.

كذلك فانه فى ترجمة عنوان كتاب « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل ـ ترجم جملة « أنوار توفيق الجليل » بجملة The Glory and God-given Resplendence. وهى تعنى مجد وعطاء الله المتالق ـ بينما المقصود فى هذا المقطع من العنوان هو الأمير محمد توفيق خديو مصر ١٨٧٩ ـ ١٨٩٢ والترجمة الصحيحة تكون

The Resplendence of Tewfik the Great.

ثم جاء فى الشق الثانى من العنوان « فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل ، فلم يترجم « وتوثيق بنى اسماعيل » الترجمة السليمة واكتفى بقوله ونسل اسماعيل and Ishmael's descendants ـ لكن الطهطاوى كان يقصد تاصيل سلالة الخديو اسماعيل وعلى ذلك فان الترجمة الصحيحة تكون

and the genealogy of Ishmael's family

وجاء الخطا الثالث فى ترجمة عنوان كتاب الطهطاوى الرابع « نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز » ، حيث اعتقد المؤلف ان « ساكن الحجاز » تعنى سكان بلاد الحجاز دون ان يدرك ان « سيرة ساكن الحجاز » تعنى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ٠ وعلى ذلك فالترجمة الصحيحة هنا تكون

The final briefing on the biography of Prophet Mohammed

ولعل العذر الوحيد لخطا المؤلف هو احتمال انه لم يقرأ الكتاب ٠ « فنهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز » عبارة عن ترجمة للرسول عليه الصلاة والسلام بدأ الطهطاوى نشرها على حلقات فى مجلة روضة المدارس ـ ثم طبع فى كتاب فيما بعد بمعرفة ابنه ٠ فى هذا العمل تتبع رفاعة حياة الرسول منذ مولده الى وفاته ، وأفرد فصلا للحديث عن زوجات

النبى ، وفصلا عن معجزاته ــ وعقد فصلا عن نظام الحكومة فى عصر النبى • وليس فى الكتاب أى اشارة الى سكان الحجاز أو أى حجازى •

انظر الشيال « التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر » ــ المكتبة التاريخية ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٥٨ ــ ص ٨٠ ــ ٨٣ •

المترجم

(٣٧) أسماه أحد الكتاب « دراسة عن التقدم الوطنى » •

جمال محمود أحمد "The intellectual Origins of Egyptian Nationalism (London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1960), p. 13.

ويرى آخر أن الدلالة الأساسية فيه تنبع من كونه انطباعة واضحة وجلية عن القومية المصرية •

أنور عبد الملك

Ideologie et renaissance nationale : l'Egypte moderne (Paris : Edition Anthropos Paris, 1969), pp. 222-23.

ووصف جمال محمود أحمد أكثر ملائمة •

(٣٨) ربما يكون هذا قطعة مهذبة من التعديلية الدينية • فالطهطاوى يعامل الاسلام هنا كنافع أكثر منه صادق ، وبالاضافة الى ذلك كواحد من أى نظم دينية شرعية متساوية •

(٣٩) رفاعة رافع الطهطاوى « كتاب مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » (القاهرة ، مطبعة شركة الرغائب ، ١٩١٢) ص ٧ ــ ٩ • ولابد ان هذه هى النسخة التى يزعم عمارة أنها ظهرت عام ١٩١١ • والكتاب ظهر أول ما ظهر عام ١٨٦٩ •

عمارة « الأعمال الكاملة » ص ٧٩ •

(٤٠) مناهج الألباب ص ١٢٩ •

(٤١) السان سيمونية مذهب اشتراكى نشأ فى فرنسا خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر ــ وينسب الى الكونت هنرى دى سان سيمون Claude Henri de Rouvroy de Saint Simon الذى كان يسعى لايجاد (أفضل السبل لنهضة الانسان والانسـانية) • ارتأى سان سيمون ان تحقيق هذا المطلب لا يتحقق الا بوسيلتى العلم والصناعة • لذلك فقد دعا الى قيام دولة صناعية يديرها العلماء والمهندسون Technocrat الذين يشكلون حكومة الفنيين Technocracy

وان تستهدف دولة العلماء انتاج المفيد للحياة عن طريق استغلال قوى الطبيعة من خلال التعاون بين الأفراد • كذلك فقد كان يرى باعتباره مؤسس الاشتراكية الفرنسية وجوب امتلاك المجتمع لأدوات الانتاج حتى يتحرر العامل من قهر مالك أدوات الانتاج •

دعا سان سيمون الى الجمهورية كنظام للحكم فى المجتمع الصناعى الذى دعا الى قيامه • وقد رأت حكومة فرنسا فى السان سيمونية خطرا على الأمن العام ونظام الحكم ويدعو للثورة فسجن أتباع هذا المذهب فى ديسمبر ١٨٣٢ وحتى أغسطس ١٨٣٣ • اتصل السان سيمونيون بمحمد على عام ١٨٣٣ وجاءوا الى مصر لمحاولة اقناعه بشق قناة السويس لكنه فضل اقامة سدود تحجز خلفها المياه لتحويل الرى فى مصر من رى حوضى الى رى دائم •

عن سان سيمون والسان سيمونية انظر دكتور محمود صالح منسى « أتباع سان

سيمون ونشاطهم فى مصر ١٨٣٢ ـ ١٨٣٦ » ـ المجلة المصرية للدراسات التاريخية ـ العدد ٢٧ ـ ١٩٦٥ •

Lexicon Universal Encyclopedia, Vol. 17.

المترجم

(٤٢) « مناهج الألباب » ص ٨٠ •

(٤٣) حورانى

Hourani
"Arabic Thought", p. 72.

(٤٤) « مناهج الألباب » ص ٧ ـ ٢٣ •

(٤٥) سمى رفاعة هذه الأقسام « كتبا » ، وهى ما نسميها الآن فصولا •

(٤٦) يحمل ان الفصل الأول استخدم كستارة دخان لتجنب اعتراضات المتحفظين الدينيين • انه لمن المثبط للعزائم حقا ان كثيرا من الكتاب قد ألقوا بالكتاب دون حتى استكمال قراءة الفصل الأول •

(٤٧) « مناهج الألباب » ص ١٢٩ ـ ٦٩ •

(٤٨) المصدر نفسه ص ١٧٠ ـ ٢٢٦ • دون مراعاة لاهتمام حاكمه بمثل هؤلاء الرجال •

(٤٩) المصدر نفسه ص ٢٠٥ •

(٥٠) المصدر نفسه ص ٢١٧ ـ ٢١ • وطبقا لعمارة فان الطهطاوى نفسه كان مسئولا عن ادخال معايير جديدة يمكن بها الحكم على تصرفات الرجال • فقد اعتبر الموهبة و « المواهب الحميدة والفضائل المفيدة » أكثر أهمية من عائلة المرء ، ثروته ، أو وضعه الاجتماعى • وليطبق هذه النقطة في وطنه فقد قارن انجازات الرسول عليه الصلاة والسلام بقبيلة قريش ورجالاتها ذوى الأصل العريق • عمارة « الأعمال الخالدة » •

ومن المعروف ان محمدا عليه الصلاة والسلام المولود عام ٥٧٠م أحد أفراد فرع هاشم من قبيلة قريش أعرق قبائل شبه الجزيرة العربية ، وان جده كان عبد المطلب • أما عمه أبو طالب فكان رئيس فرع هاشم بعد وفاة عبد المطلب عام ٥٧٨م • من ثم فان الرسول عليه الصلاة والسلام كان من قبيلة قريش التى اعتبر المؤلف أفرادها ذوى حسب ونسب •

المترجم

(٥١) « مناهج الألباب » ص ٢٢٥ ـ ٤٩ •

(٥٢) المصدر نفسه ص ٢٦٨ ـ ٣٢٢ •

(٥٣) المصدر نفسه ص ٣٢٨ ـ ٤٠ •

(٥٤) المصدر نفسه ص ٣٤٨ ـ ٤٤٥ •

(٥٥) كتب حورانى أفضل دراسة مختصرة عن أفكار الطهطاوى السياسية ، مؤسسة بالدرجة الأولى على خاتمة « مناهج » •

حورانى

Hourani
"Arabic Thought", pp. 73-83.

وتحاول بعض التفسيرات العربية الحديثة الحالية لسياسة الطهطاوى ان تصنفه كاشتراكى أولى Proto-Socialist ، وعلى ذلك فانه يجب أخذها بحذر • ففى كتابه « تاريخ الفكر الاشتراكى فى مصر » (القاهرة ١٩٦٩) يؤكد (رفعت السعيد) ان الطهطاوى

سائد الاشتراكية علنا فى « مناهج الألباب » • أما لويس عوض فانه يحرف فى (المؤثرات الأجنبية ص ١٧٥) أفكار الطهطاوى ليجعلها غير مفهومة ، وفى مقالة عام ١٩٦٨ فى اهرام يسمى الطهطاوى « رجعى » وتابع للاشتراكيين المعتدلين : • وبينما لا يقل حسين فوزى النجار تعاطفا مع اليسار الا انه كاتب حريص (قارن حاشية ٥٥ من الفصل الأول) ويرى ان الطهطاوى مع وعظه بأن العدالة ، الشرف ، والرفاهية رموز للمجتمع الصالح ، الا أنه لم يبد ميولا واضـــحة تجاه الاشتراكية (التعليق على أقوال عوض « المؤثرات الأجنبية » هو من عندى ، أما الأحكام الأخرى فقد أخذت عن عمارة (الطبعة الجديدة لأعمال الطهطاوى ص ١٧٧) ، وبالمناسبة فان كتاب عمارة هو مثل آخر لمحاولة تحميل الطهطاوى بكلمات لم يقلها • وهكذا فانه وفقا لعمارة فان الطهطاوى كان مدركا (للصراعات الطبقية) فى فرنسا (ص ١٠٦) ، وادان « الامبريالية » العثمانية (ص ١٤٤ وما بعدها) ، وفضل القوى « التقدمية » فى وقته على المصالح الاقطاعية التى مثلها الأتراك ، الجراكسه ، والألبان (١٨٣) ، فهم فكرة المساواة باحساس « بورجوازى » (١٨٥) ، اعتبر العمل اليدوى نافعا وعمل الخدم فى المنازل غير مفيد (ص ١٩١) ، ناقش دور الملكية الخاصـــة فى « البناء الفوقى » للمجتمع (ص ١٩٢) ، حلل « النظام الطبقى » لمصر القديمة (نفس الصفحة) ، عرض آثار الفكر الاشتراكى ، اذا لم يكن من وجهة نظر اشتراكية (ص ١٩٥) ، وأراد تجنيب مصر « طبقية التعليم » (ص ٢٣٥) • وفى محاولاته المستمرة ليصوغ الطهطاوى كرها فى قالب معين ، فان عمارة اضطر الى تقديم آراء تبدو مناقضة لتأكيداته السابقة • فعلى سبيل المثال ، هو يوافق على ان الطهطاوى آمن (بالرق) (ص ١٩١ ــ ٩٢) وفى قصر التعليم العالى على أبناء الأغنياء (ص ٢٣٦) • ويمكن الاستشهاد بأمثلة أخرى ، لكن هذا كاف لاثبات ان النتيجة مشوشة وخليط مشوش •

(٥٦) ج • هيوورث ــ دن J. Heyworth-Dunne
"Rifa'ah Badawi Rafi āl-Tahtawi : The Egyptian Revivalist", BSOAS 10 (1940-42) : 405.

قارن الشيال « الطهطاوى » ص ٥٠ ــ ٥١ •

(٥٧) وفقا لعمارة فان الطهطاوى كان يرى ان الحكام ليسوا مسئولين أمام رعاياهم ولكن أمام الله فقط (عمارة « الأعمال الكاملة » ص ١٦١) ــ واتهام الطهطاوى من جانب عمارة فى مناسبات أخرى بأنه « المفكر الليبرالى الديمقراطى » هو دليل آخر على صعوبة وضع الطهطاوى فى القالب الاشتراكى •

المصدر نفسه ص ١٠٤ ، ١٠٦ ؛ ١٧٠ وما بعدها ، ١٩٣ ــ ٩٤ ، ١٩٩ •

(٥٨) « مناهج الألباب » ص ٢٠٧ ومواضع أخرى من العمل •

(٥٩) المصدر نفسه ص ٢٠٧ ــ ٨

(٦٠) المصدر نفسه ص ٢١١ •

(٦١) المصدر نفسه •

(٦٢) انظر ص ٧٥ •

(٦٣) « مناهج الألباب » ص ٢٢١ ــ ٨١ • ويزعم عمارة ان الطهطاوى انتقد « نقدا هادئا » سياسة محمد على الزراعية ، وتخطيطه الكلى السيء وانشغاله بالأمور العسكرية •

عمارة « الأعمال الكاملة » ص ١٦٥ ــ ٦٦ • واذا كان الأمر كذلك ، فقد كانت بالفعل سياسات معتدله •

(٦٤) انظر ص ١٦ ـ ١٨ . ووفقا لأحد الكتاب . فان القومية المصرية لم تصبح قوة حقيقية الا بعد الحرب الأولى ، عندما تولى محمد حسين هيكل تحرير جريدة « السياسة » .

Abdul Mu'id Khan عبد المعيد خان
"Modern Tendencies in Arabic literature", p. 322.

وهذه رواية سخيفة جرى نقدها فى كل خطوة من التاريخ المصرى فى القرن التاسع عشر بدأ من الطهطاوى مرورا بأحمد عرابى ، عبد الله النديم ، يعقوب صنوع ، مصطفى كامل ، محمد فريد ، شوقى ، البارودى ، حافظ ، الخ . لكن على الجانب الآخر يمكن تقديم قضية أخرى ، هى غياب الاحساس بالقومية العربية فى مصر : فحتى عام ١٩٤٤ أشار « عبد الرحمن الرافعى » الى القومية العربية مستخفا بالفكرة التى تقول بأن البلاد العربية عندها أى وعى مشترك حقيقى .

عبد الرحمن الرافعى « فى اعقاب الثورة المصرية » (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١) الجزء الثالث ، ١٤٢ .

(٦٥) يناقش أغلب المثقفون الغربيون على سبيل المثال بجدية الرأى الذى يقول ان المشاعر القومية أو حتى الأمم قد ظهرت فى الأزمنة القديمة أو الوسيطة . ومن ناحية أخرى فان المؤرخون العرب يدفعون بالتفسير المضاد الى أقصاه وذلك فى بحثهم عن الشخصية القومية . ويعتبر قسطنطين زريق (الوعى القومى ـ بيروت ١٩٣٨) محمدا عليه الصلاة والسلام « مهندس الوحدة العربية » . ويشير الى « الوعى العربى » ـ بدلا من الاسلامى ـ حتى خلال الفترة الاسلامية المبكرة .

Chejne شجنه
"The Use of History By Modern Arabic Writers", pp. 395-96.

ولقد بلغ التهور بعبد الرحمن الرافعى حد الكتابة عن الشعور القومى المصرى خلال الأزمنة الفرعونية .

انظر الرافعى « تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة » (القاهرة : مكتبة النهضة العربية ، ١٩٦٣) .

(٦٦) « مناهج الألباب » ص ٤ .

(٦٧) المصدر نفسه ص ٧ . وقد استعنت فى تقديم النص الأصلى بالرافعى « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » ـ ج ٣ ـ عصر محمد على ـ ط ١ (١٩٣٠) مطبعة النهضة ـ ص ٥٠٦ .

المترجم

(٦٨) المصدر نفسه ص ١٠ . ويحتمل ان يكون عمارة مصيبا فى تصور ان الطهطاوى كان أول كاتب عربى يستخدم هذا الشعار .

(٦٩) « مناهج الألباب » ص ١٠ ـ ١٦ . وقد كانت « الوطنيات » أحد مظاهر قوة الطهطاوى .

(٧٠) عوض « المؤثرات الأجنبية » ص ٢٠٧ .

(٧١) سيتذكر القارىء تصوير عبد الملك « للمناهج » ، انظر حاشية ٣٧ من هذا الفصل . ويتطرق عمارة بالحوار الى ما هو أبعد فيدعو الطهطاوى أبو القومية العربية .

عمارة « الأعمال الكاملة » ص ١٣٢ .

(٧٢) « مناهج الألباب » ص ٣٥٦ . وطبقا لعمارة ، فان الطهطاوى أيد خلق رأى عام مستنير كمفيد فى هذا الصدد .

عمارة « الأعمال الكاملة » ص ١٦٣ . وعلى أى حال فان اتجاه الطهطاوى حافل بالذكريات عن أدب "Mirros of Princes" الذى ربما كان فى عقله عندما كتب « مناهج » . وكما قرر هنا فان الغرض من التاريخ هو (المساعدة على الكشف (Heuristic

(٧٣) الشيال "A History of Egyptian Historiography," pp. 35-36.

(٧٤) هذا تعليق ناقد معاصر « لأنوار » ، وهو يشير الى ان المدخل « الجديد » كان يعتبر ضروريا فى الواقع . وهذا النقد موجود فى المقدمة فى « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل » (القاهرة : بدون رقم — ١٢٨٥ هـ/١٨٦٨ — ٦٩) الجزء الأول ، ١٤ .

(٧٥) بدوى « الطهطاوى » ص ١١٩ — ٢٠ .

(٧٦) المصدر نفسه ص ١٢٦ — ٢٧ وعمارة « الأعمال الكاملة » ص ٧٧ .

(٧٧) لمعلومات أكثر عن الاطار التنظيمى « لنهاية الايجاز » انظر الشيال
"A History of Egyptian Historiography", pp. 37-38.

(٧٨) هيوارث — دن Heyworth-Dunne
"Rifa'ah al-Tahtawi", p. 401.

والطبعات الأولى (١٨٣٤) والثالثة (١٩٠٥) من « تخليص » متطابقة ، لكن الطهطاوى أجرى بعض الاضافات والاصلاحات للطبعة الثانية (١٨٤٩) .

عمارة « الأعمال الكاملة » ص ٧٨ .

(٧٩) « تخليص الابريز » ص ٩٨ وما بعدها ، ١١٩ وما بعدها ، ١٣٢ — ١٣٣ وفى مواضع أخرى .

(٨٠) المصدر نفسه ص ٤٧ ، ٥٧ — ٥٨ ، ٨٠ ، وعمارة « الأعمال الكاملة » ص ٧٧ — ٧٨ .

(٨١) « مناهج الألباب » ص ٥ — وقد استعنت فى تقديم النص الأصلى بنفس المرجع — الطبعة الثانية المطبوع عام ١٩١٢ — ١٣٣٠ بمعرفة مطبعة شركة الرغائب — والمودعة بدار الكتب القومية .

المترجم

(٨٢) لم ينقد الشيال من كتب الطهطاوى سوى « أنوار » و « نهاية الايجاز » — أما « تخليص » و « مناهج » فقد سكت عنهما تماما ولم يشر الا الى عنوان « مناهج » الذى أخطأ فيه فسماه « مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » بينما عنوان الكتاب هو « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » .

انظر الشيال « التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر » — المكتبة التاريخية — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة — الطبعة الأولى ١٩٥٨ — ص ٧٠ — ٨٣ .

المترجم

(٨٣) لسبب واحد هو أن « تخليص » قد نشر قبل كل من « مناهج » و « أنوار » .

(٨٤) « تخليص الابريز » ص ٣٨ ، ويرى عمارة ان الطهطاوى قد لجأ بتأن الى العامية المصرية عندما أعوزه المقابل من اللغة الكلاسيكية •

انظر عمارة « الأعمال الكاملة » ص ٧٣ • وهذا أقرب كثيرا الى التقبل مثل الدعوى بتفضيل ما سمى بالنسبة للجبرتى « اللغة الأدبية الحية » •

انظر حاشية ٦٦ من الفصل الثالث •

(٨٥) انظر ص ٦٧ • أو كما أوردهـا أحمد بدوى « كان عصر محمد على عصر ترجمة أكثر منه عصر انشاء » • بدوى « الطهطاوى » ص ٤١ •

الفصل الخامس

التاريخ والتعليم المصرى

هناك ما هو أكثر للرواية والتسجيل عن مجرد سلسلة من الكتابات التاريخية ـ اذا ما نحن استخدمنا جمله ماينيكه Meinecke (١) • فقد ناقشنا فى المقدمة حاجة المؤرخ لتاريخ ينحرى كل العناصر التى تجعل كتابة التاريخ سهلا ـ نظام التعليم ، الجو الثقافى والسياسى العام ، امكانيات البحث الهادف ، الوعى التاريخى لمجتمع ما ، الخ • وهدف هذا الفصل بناء على ما تقدم هو فحص نظام التعليم المصرى والأهمية المتزايدة للتاريخ والتى حصل عليها فى اطار هذا النظام ، وحتى الآن فاننا لم نطرق هذه الميادين ، حيث ان المؤرخين الذين ناقشنا أمرهما قبلا يسبق أحدهما النظام التعليمى المصرى الحديث بينما ساعد الثـانى على خلقه • وعلى كل حال فمن الآن فصاعدا سنجد ان أغلب المؤرخين المصريين كانوا الى حد ما نتاج نظامهم التعليمى •

سنبدأ بحثنـا بأقدم مؤسسة تعليمية فى مصر ـ جامعـة الأزهر التى أسست منذ أكثر من ألف عام • كان الأزهـر أهم مركز للتعليم الاسلامى على مدى الفترة الوسيطة • ولقد تدهور نفوذه فى الأزمنـة الحالية ، ومع ذلك فانه يبقى قلعة تعليمية دينية فى كل من مصر والعالم الاسلامى بصفة عامة •

وكما رأينا فان التصور الاسلامى الوسيط للتعليم كان موجها نحو الدراسـات الدينيـة ـ الفقهيـة ولم يترك أى مكان لحرف أو مهن كالتاريخ (٢) • وكان منهج الأزهر مع نهاية القرن التاسع عشر يعكس هذا الاتجاه ، حيث انه قسم (العلوم) الى ثلاثة أقسام عريضة ـ دينية ـ لغوية ـ وعقلية ، امتص الاثنـان الأولان منهم أكثر من وقت الطالب ولم يترك للثالث سوى القليل • اعتبر المنطق ، الرياضيات ، الجبر ، الميقات ، الفلك ، الفلسفة ، وأدب البحث « علوم عقلية » ، بينما لم يعتبر التاريخ والجغرافيـا كذلك ، وفى ترجمـات الجبرتى العديدة للعلماء

المصريين من النادر أن نجد واحدا مهتما بالتاريخ أو بالفنون الأدبية (٣) • اهملت الدراسات التاريخية اهمالا تاما ، حتى بمقاييس العصور الوسطى العليـــا •

تغير الأزهر قليلا فى عهد محمد على (١٨٠٥ ــ ١٨٤٩) • ورغم انه كثيرا ما يزعم بأن محمد على قد كسر ظهر الأزهر عندما وضع نهـــاية لاحتكاره للتعليم وبمصادرته للعوائد الضخمة الموقوفة عليه ، فان هذا الضرر المقال به مبالغ فيه • بل ان محمد على لم يكن لديه الخيار ليرفض التعاون مع مشايخ الأزهر الذين كانوا لا يزالون أفضل الرجال المتعلمين فى مصر الى حد بعيد ، ورغم انه حاول ان يحتكر ميادين أخرى لصـــالح الدولة ، فان من الأمور ذات الدلالة أن « المدارس الجديدة » التى أسسها قد نافست الأزهر فقط ولم يكن المقصود بها الحلول محله بأى وجه • ورغبة محمد على فى التعليم الأكثر جدة ، وادخال الأنظمة العالمية (باللغة العربية » أيضا أجبره على أن ينشد التعاون مع الأزهريين الذين أرســـل الكثيرين منهم ــ مثل الطهطاوى ــ الى أوروبا مع بعثات تعليمية عديدة(٤)• وهكذا فان الأزهر قام بدور معسكر الامداد بالرجال لمحمد على ، ولم يكن من الحكمة ان يقطع كلية اليد التى كانت تطعم مدارس دولته الجديدة • وعندما أكد سيطرته الكاملة ، فانه ترك الأزهريون يديرون شـــئوونهم كما كانوا يديرونها فى السابق ، وعلى ذلك فان البدع فى مدارس الدولة لم يكن لها أى أثر ملحوظ على المناهج الأزهرية أو أساليب التعليم (٥) •

وكمؤسسة دينية ، فقد كان الأزهر ــ بادراك ــ بطيئـــا فى قبول الأفكار الجديدة • وربما حمل مركزه المنافس وزنا أكبر له خـــلال عهد اسماعيل (١٨٦٣ ــ ١٨٧٩) ، وذلك عندما أصبحت اللغة العربية هى لغة التعليم فى مدارس الدولة • كان ١٢٧ أزهريا يشتغلون عام ١٨٧٥ بالتدريس فى مدارس النظام الحكومى من بين مجموع مدرسى الحــكومة البالغ عددهم ٣٦٦ مدرسا ، وقد عزز دور دار العلوم (الذى سيناقش لاحقا) ككلية معلمين للأزهريين سمعة الأزهر كمؤسسة وحيــدة يستطيع خريجوها أن يعرضوا براعة تامة فى كل مظاهر اللغة العربية (٦) •

ورغم ان الأزهر كان مضطرا لأن يوسع من تسهيلاته خـــلال عهد اسماعيل ، الا أنه لم يستسلم للكثير من أفكار هذه الفترة التعليميـــــة الجديدة • ومن خــــلال العمـــــل المتعاون مع الشيخ مصطفى العروسى (شيخ الأزهر ١٨٦٤ ــ ١٨٧٠) فان اسماعيل ســـعى الى دفع بعض الاصلاحات المحدودة ، ورفع المستوى التعلمى المطلوب ليؤهل المدرس ، ولكن دون تعديل المنهج أو أساليب التعليم • وظلت الدراسة بالأزهـــر محصورة فى « العلوم الاثنى عشرة » ، وظل كل مقترح لنظام جديد معرضا

للاتهام بالهرطقة (٧) • ولقد رأينا الطهطاوى وموقفه الغير متفق مع مفهوم الأزهر من التعليم (٩) ، كمـا حاول « محمد عبده » فيما بعد ان يدخل الى المنهج الدراسى الأزهرى بعض المواد كالرياضيات الحديثة ، الهندسة ، الجبر ، الجغرافيا والتاريخ • وبعد معركة طويلة وشاقة تنـازل الأزهر متفضلا ووافق على دمج التاريخ والجغرافيـا فى برنامجـه الدراسى الرسمى (٩) •

كان تعديل المنهج الدراسى خلال نهايات القرن التاسع عشر طفيفا• فقد أقام برنامج الدراسة الرسمى للأزهر ثلاثة تصنيفات غير متساوية حجمـا :

١ ــ العلوم النقلية ــ الأديان ، الفقه ، تفسـير القـرآن ، التلاوة ، الحديث ، والعقيدة •

٢ ــ اللغة العربية والأدب ، النحو والصرف ، البلاغة ، علم الموسوعيات، أصول الكلمات ، العروض ، والانشاء •

٣ ــ التاريخ ، الجغرافيـا ، العلوم الطبيعية ، الرياضيات ، والفلك • ولم يستخدم التصنيف الثالث بجدية عند كثير من الأزهريين(١٠)• ولم تخضع ميزانية وادارة الأزهر لسيطرة الدولة قبـل منتصف العشرينيات من هذا القرن (١١) • وأمكن ادخال اصلاحات أسرع وأكفأ بواسطة الحـكومة نفسها • وفى ذلك الوقت أيضـا كانت الدفعـة للتغيير آتية من جـانب الأزهريين أنفسهم ، حيث كانوا يجدون أنفسـهم غير مؤهلين اطـلاقا لوظائف فى الحكومة ، ادارة الأعمال ، أو المهن •

ولسنا فى حاجة الى الدخول فى تفاصيل عن التطورات الحالية فى تاريخ الأزهر ، فيما عدا القول ان العقود الثلاثة الأخيرة قد شهدت توائم الأزهر مع العالم المعاصر وتقديمه اليـوم لدراسات تتوازى مع تلك التى تدرس فى المعاهد العلمانية • وبالقطع فان الأزهر لن يسترد أبدا مركزه القديم الأولى لكنه يبـدو وقد توائم مع دوره الجديد كمدرسـة ملية اسلامية حديثة ، وهو ليس على الاطلاق عضو تعليمى ميت (١٢) •

ولما كان الأزهـر قد أثبت فى أغلب الأحوال انه غير راغب أو غير قادر على ان يقدم للمصريين شيئا من التدريب المتقدم فى أى من العلوم الجديدة ، فقد كان على حكام مصر فى القرن التاسع عشر ان يلجأوا الى خارج هذا البناء لخلق جهاز تعليمى حديث ، ولقد كان هذا دورا طويلا وشاقا ، ملىء بالشراك وخيبـة الأمل • ومع هذا ، فقد كان دورا ضروريا

اذا كان على مصر أن تضيق الفجوة العلمية والتعليمية التى تفصل بينها وبين جيرانها الأوروبيين الأكثر تقدما ٠

انشئت أسس النظام التعليمى الجديد خلال عهد محمد على ٠ ولأنه كان معنى بتقوية مصر عسكريا واقتصاديا فان المدارس العديدة المتنوعة التى انشئها ــ المدفعية ، المشاة ، البحرية ، أركان الحرب ، الفرسان ، الطب البيطرى ، القبالة ، الزراعة ، الطب ، الخ ٠٠ كانت كلها موجهة وجهة تقنية بحتة ومالت الى تجاهل الدراسات التاريخية(١٣) ٠ ومع هذا ، فان التاريخ أدخل فى مناهج قليلة ، والفضل يرجع فى المقام الأول الى الطهطاوى ٠ ففى شهور قليلة نجح الطهطاوى فى اقامة مدرسة لتعليم التاريخ والجغرافيا خصيصا (١٤) ٠ لكن التجربة كانت قصيرة العمر وعلى المدى البعيد ــ وباستثناء مدرسة الادارة الملكية المؤسسة عام ١٨٣٤ والتى اشتغلت بنصوص تاريخية فرنسية بسيطة (١٥) ، فان التدريب الوحيد فى التاريخ الذى يعتبر ذو دلالة والذى حصل عليه المصريون فى جيل محمد على كان ذلك الذى ألقى فى مدرسة اللغات وادارة الترجمة ، واللتين كانتا تحت اشراف الطهطاوى ٠

عملت كل مدارس محمد على المتنوعة بداءة تحت رعاية « ديوان الجهادية » ٠ لذلك فلم يكن لديها حرية اختيار المواد الدراسية ، وفوق هذا ، فان اهتمامات هذه المدارس كانت تابعة لاهتمامات هذا « الديوان » الذى كان عنده أمور ملحة أخرى ليهتم بها (١٦) ٠ ولحسن الحظ فمع انشاء « شورى المدارس » والاعلان عن قانون الاصلاح التعليمى الجديد فى ١٨٣٦ (١٧) ، انشئت خمسة وخمسون مدرسة نظامية (جديدة) ابتدائية واثنتان تجهيزيتان ٠ كانت الأخيرتان هما (قصر العينى) فى القاهرة وبها ١٥٠٠ تلميذ ورأس التين فى الاسكندرية وبها خمسمائة تلميذ (١٨) ٠ كان لكل من المدرستين برنامج دراسى مدته أربعة سنوات يتضمن التاريخ فى السنوات الثالثة والرابعة ٠ وكان طلبة السنة الثالثة يقرءون المجلد الأول من تاريخ الطهطاوى عن مصر القديمة ، ودرس طلبة الفرقة الرابعة المجلد الثانى عن الرسول والاسلام المبكر ، وكان تاريخ (واصف) يقرء أيضا كجزء من برنامج تعليم اللغتين التركية والفارسية (١٩) ٠ أما تاريخ مصر الحديث فقد جرى تجاهله تماما ٠

كان ادخال التاريخ فى منهج المدرسة الثانوية يعنى ان منزلته كانت قد بدأت فى التحسن ٠ ومع هذا ، فان التعليم المصرى بصفة عامة قاسى ردة قاسية عام ١٨٤١ ، فى أعقاب هزيمة مصر فى بلاد الشام وتوقيع معاهدة لندن ٠ كانت الخزينة خاوية ، والوظائف للخريجين الجدد غير متوفرة ، وكان محمد على قد اعتبر نفسه رجلا مهزوما ٠ وتبعا لذلك فان

الاصلاح التعليمى عام ١٨٤١ دعا الى تخفيضات ضــخمة فى الاعتمادات والافــراد ، وخاصــة فى المــدارس الابتدائية التى أنقصت الى ٣٨ فى ١٨٤٠ ونهائيا الى ٤ عام ١٨٤١ بعد أن كانت قد بلغت عام ١٨٣٦ (٦٧) مدرسة • ومن المفارقات الغريبة ان الالغاء لم يشمل أى مدرســـة من المدارس ذات المستوى الأعلى ، مما يعنى ان التحفيض فى المدارس النظامية الابتدائية كان مؤقتــا ، وفى انتظار اعادة تنظيم النظام كله • ولكن مع الغاء أغلب مدارس الدولة الابتدائية فان المدارس الثانوية كان يمكنهــا ان تستمر فى الحصول على طلابهــا من الكتاتيب الكثيرة التى لم تمسها اجراءات محمد على الاصلاحية • ولما كان هذا يحتمل ان يرتب تدهــورا فى المستوى التعليمى للطلاب الداخلين الى هذه المدارس ، فان اعادة فتح بعض المدارس النظامية الابتدائية فى السنوات التاليــة ، ربما كان حلا لهذا الضرر (٢٠) •

من أكثر المسائل أهمية لنا هنا ، هو استبقاء المدارس المتخصصة بعد عام ١٨٤١ وخاصة مدرسة اللغات • عند انشائهــا فى عام ١٨٣٥ باسم (مدرسة الترجمة) كان ملحقا بها ثمانون طالبــا ، وزاد هذا العدد الى ١٥٠ ، ومع حلول عام ١٨٣٩ خرجت المدرسة عددا قليلا كلفوا بأعمال ترجمة النصوص التاريخية والأدبية (٢١) •

فى ظل خطة اعادة التنظيم لعام ١٨٤١ ظل التاريخ جزءا من منهج مدرسة اللغات (٢٢) ، وقد ضم الى هذا المعهد ادارة الترجمة التى احتوت أربعة فروع ل (١) النصوص العلميـــة والرياضية (٢) الطب والفيزياء (٣) الآداب والعلوم الاجتماعية كالتاريخ والجغرافيــا والمنطق والفلسفة والقانون (٤) الترجمات التركية ، وكان عدد المترجمين فى هذه الادارة لايقل عن خمسين مترجما فى أى وقت (٢٣) •

ورغم نزعات « محمد على » الحربية ، فان منزلة التاريخ تحسنت بعض الشىء عن أيام « الجبرتى » • فقرىء وعلم ، أولا فى مدرســـة الادارة الملكية وفيما بعد فى كل من المدارس التجهيزية ومدرسة اللغات • ولم يعط اهتمام حتى ذلك الوقت لمصر الحديثة ، ولم يكتب أى عمـــل تاريخى أصلى من أى نوع • لكن بدءا من الطهطـاوى مرورا بكل مراحل التعليم الأدنى كان التركيز والاهتمام بالتاريخ يكسب بوضوح قوة دفع •

خلال السنتين الأخيرتين من عهد محمد على كان ابنه (ابراهيم باشا) يتولى فعليا كل مظاهر الادارة • كان ابراهيـم رجلا غير عادى وأصبح يعتبر أشبه بالبطل القومى • ومع هذا ، فليس واضحا كلية ماذا كان

ينوى ان يفعل بنظام أبيه التعليمى خلال الوقت القصير الذى تولى فيه اداره • ويعتقد هيوارث دون Heyworth-Dunne معتمدا على دراسات هامون Hamont وسيلشر Schoelcher أن ابراهيم نفسه كان مسؤولا بصفه مبدئيه عن تقليل البرنامج التعليمى منذ فترة ما بعد الحرب السوريه (٢٤) • لكن « احمد عزت عبد الكريم » لا يوافق على هذا الرأى ويرى ان أفكار ابراهيم التعليمية كانت متقدمة بصفه عامة بمقاييس وقته • ويزعم عبد الكريم ان ابراهيم هو الذى أدخل فى نظام المدرسه « المنهج التجريبى » مستخدما قصص الأطفال ، والنصوص الجغرافية بدلا من المواد الازهرية الدينية المعتادة • ويؤكد ان هذا كان مجهودا واعيا لتعديل التعليم المصرى على أسس انجليزيه (٢٥) •

اذا كان اتجاه ابراهيم نحو التعليم متكافئا (مع اتجاهات سلفه) ، فان سياسة الحاكمين التاليين ــ عباس الأول (١٨٤٩ ــ ٥٤) وسعيد (١٨٥٤ ــ ٦٣) ــ واضحه تماما • كان « عباس » قاسيا ومقتصدا ، تعرض لقدر كبير من الافتراء من جانب المصادر الأوروبية والمصرية على السواء ، وبتوليه السلطة فقد قيل بان « قوة الدفع للأمام » لمصر قد تعرضت لتوقف مفاجىء (٢٦) • لقد هدأ عباس دولاب حركة الدولة لدرجة كبيرة ، لكن أغلب الأحكام التاريخية التى أعلنت عن عهده كانت قاسية للغاية • فالكثير مما يسمى « بقوة الدفع » كان قد توقف مع عام ١٨٤١ : وكما قلنا قبل ذلك فان أربعة فقط من المدارس السبعة وستون النظامية الابتدائية السابقة كانت تعمل عندما جاء عباس الى الحكم (٢٧) • ومع انخفاض وضعه فان « عباسا » قد أسدى لمصر صنيعا رائعا من بعض النواحى ، حيث ان سلوكه « المهمل اللطيف » أعطى مصر الفرصة لتتعافى من الارهاق الذى سببه لها عهد محمد على ــ وأمن لها حريتها ــ ولو لبعض الوقت على الأقل ــ من السيطرة الأوروبية •

لم يقم « سعيد » الحاكم التالى بأى تغيير جذرى لسياسات « عباس » • كان مهتما بالتوسع فى المسائل العسكرية واقتراح حفر قناة السويس (٢٨) • ولقد لخص فى احدى المناسبات فلسفته فى التعليم بقوله : ولماذا أفتح أعين الناس ؟ ان حكمهم يصبح أصعب (٢٩) • وبالطبع فان عقلية كهذه لابد ان يصاب التعليم فى ظلها بالركود ، رغم اننا قد رأينا أن وضع الطهطاوى فى هذه الفترة قد تحسن عما كان عليه فى عهد عباس • وفى النهاية كلف بالاشراف على ما لا يقل عن خمسة وظائف عليا : (١) مديرا للمدرسة الحربية (٢) مدير ادارة التوجيه (٣) مدير مدرسة المحاسبة ، ومن العجيب انها كانت نسخة مخفضة من المدرسة السابقة للغات (٤) مدير مدرسة المهندسخانة (٥) مفتش عام ادارة

المبـــانى (٣٠) • ومع هذا فمن غير المحتمل انه كان للتاريخ نصيب فى أى من هذه المدارس (٣١) •

تحت القيادة الديناميكية للخديو اسماعيل (١٨٦٣ ـ ٧٩) بدأ التعليم المصرى يتقدم بسرعة مرة أخرى ، فلم يكن عند اسماعيل ما يسمى بمشروع طموح أو مكلف ، ويبدو انه ـ مدركا أو غير مدرك ـ كان يشكل حكمه على نهج حكم نابليون الثالث والامبراطورية الثانية • فبينما كن البارون هاوسمان Baron Haussman (٣٢) على سبيل المثال يعيد بناء باريس ، كان اسماعيل يزين القاهرة والاســكندرية بالقصـور ، والمبانى على الطراز الأوروبى من كل الأنواع ، والأوبرا • ومول انشاء السكك الحديدية ، والقنوات ، والفنارات ، وخطوط التلغراف ، وخدمات الموانى الجديدة ، والمصانع ، والخدمة البريدية (٣٣) •

ولم تكن سياساته التعليمية أقل طموحا ، وأضاف الى المدرســة الأولية والمدرسة الثانوية والمدرسة الحربيــة ومدرسة الطب ومدرسة القبالة ، ومدرسة الصيدلة الوحيدة التى كانت لاتزال تعمـل منذ العهد السابق (٣٤) أضاف المدارس التالية بالتدريج : (١) البوليتكنيك ، أنشـئت ١٨٦٦ (٢) الطـب البيطـرى ، أنشـئت ١٨٦٧ ـ ١٨٧٩ (٣) المحاسبة ، أنشـئت ١٨٦٧ ـ ١٨٧٣ (٤) المساحة ، أنشـئت ١٨٦٧ (٥) مدرسة الفنون والصنائع ، أنشئت ١٨٦٨ (٦) مدرسة العلوم العسكرية ، أنشئت ١٨٦٨ ـ ١٨٢٧ (٧) مدرسة النقاشين ، أنشـئت ١٨٦٩ ـ ١٨٧١ (٨) مدرســة الحقوق ، أنشـئت ١٨٦٨ (٩) مدرســة اللســان المصرى القديم ، أنشـئت ١٨٧٠ ـ ١٨٧٥ (١٠) مدرسة البنات ، ١٨٧٣ (١١) مدرســة دار العلوم ، أنشئت ١٨٧٣ (٣٥) •

وارتفعت الحصة المخصصة للتعليم فى الميزانية من ستة آلاف جنيه الى ثمانون ألفا ، وعدد المدارس الأوليــة من ١٨٥ الى ٤٠٠٠ ، وعدد التلاميذ الى رقم جديد هو ١٠٠ر٠٠٠ (٣٦) • وكان اليد الراعية للكثير من هذه التغييرات هو على مبارك (٣٧) ، الذى ستناقش كتاباته وسيرته فى الفصل التالى •

جاء أهم اصلاح تعليمى فى عهد اسماعيل فى عام ١٨٦٨ • فوفقا لعلى مبارك ـ ناظر المعارف فى عهده ـ استمرت المدارس الأولية تؤدى دورها وفق المناهج التقليدية بتحفيظ القرآن والدراسة الكلاســيكية للغة العربية (٣٨) • وللخروج من هذه التجارب فان لائحة رجب (قانون التعليم الصادر عام ١٨٦٨) وضع كل مدارس تحفيظ القرآن التى كانت لا تزال أكبر نوع من المدارس الأوليــة عــددا فى مصر ، تحت اشراف

الحكومة • وأقيمت ثلاثة أصناف من التعليم الأولى طبقا لحجم المدينة أو المنطقة التى بها المدرسة • ففى المدرسة الصغرى (نوع ١) ظل المقرر مثل السابق • لكن مدارس النوع الثانى التى تضم أكثر من سبعين تلميذا أصبح لها موضوعاتها المحدثة التى اشتملت على الاقتصاديات ، التاريخ ، الجغرافيا ، بل وحتى لغة أجنبية • أما المدارس المركزية وهى النوع الثالث فى التصنيف والتى يقبل بها أفضل التلاميذ فقد ضم المنهج علم الحيوان ، النبات ، الزراعة الى جانب المواد السابق ذكرها (٣٩) •

ولقد كان من الممكن أن ينتج عن التشريع الجديد أفضل النتائج فى الدراسات التاريخية لو كان من الممكن تطبيق كل هذه الخطط • لكن المشكلة كانت تنحصر فى أنه « لا يوجد مدرسو تاريخ يستحقون الكلام عنهم ، واعتمد توفيرهم على كلية معلمين ، وانسحب هذا على الجغرافيا ، التى كانت تدرس بأساليب غاية فى السوء ووصل الأمر الى حد حفظ الأسماء فقط » (٤٠) • كان الافتقار الى أفراد مؤهلين والصعوبات المالية الهائلة التى واجهت ادارة اسماعيل فى سبعينيات القرن ـ كان هذا يعنى ان البرامج التعليمية المقترحة يجب ان تقطع وتوقف بصرامة • وهكذا فان الكثير من الاصلاحات خضعت لقرار البقاء على الورق (٤١) •

مرت المدارس الثانوية ببعض التوسع ـ فقد أقام قانون ١٨٦٨ مدرستان فقط ، واحدة فى القاهرة (العباسية) وأخرى فى الاسكندرية (رأس التين مرة أخرى) (٤٢) • وكانت المدرسة الثانوية فى القاهرة تحت الاشراف الشخصى لعلى مبارك ، وحرص على ان يزورها مرة للتفتيش كل يوم • ومع الوقت أصبحت مدرسة القاهرة الثانوية التى نقلت من العباسية الى قصر مصطفى فاضل فى درب الجماميز ـ مركز الحركة التعليمية بأكملها (٤٣) • ومن عام ١٨٤٧ فصاعدا كان التاريخ يدرس فى كل سنة من برنامج سنوات المدرسة الأربعة • وركز الاهتمام على الجوانب الآتية :

السنة الأولى : مصر القديمة والشرق الأدنى

السنة الثانية : اليونان القديمة ، الفترة الهللينية ، الجمهورية الرومانية وعصر الامبراطورية المبكر •

السنة الثالثة : الامبراطورية الرومانية حتى ثيودوسيوس Theodosius ، الغزوات البربرية ، التاريخ ما قبل الاسلامى والاسلامى ، اسبانيا المسلمة وصقلية •

السنة الرابعة : تاريخ العرب الوسيط : الصليبيون ، الأيوبيون ، والمماليك حتى الفتح العثماني (٤٤) ·

وكانت كل مقررات التاريخ في أفضلها مجرد مباحث مختصرة للأحداث ويحتمل ان تكون قد اعتمدت على تاريخ الطهطاوى كمصدرها الأولى : وفى ١٨٦٥ أمر اسماعيل مطبعة بولاق أن تطبع خمسمائة نسخة جديدة من الكتاب (٤٥) ·

كان التعليم في عصر اسماعيل لا يزال الى حد كبير تقنى التوجه ، وكان التاريخ يدرس فقط في المهندسخانة ومدرسة الادارة والألسن(٤٦)· وبالطبع في دار العلوم (٤٧) · وعلمت المدرسة البحرية وبعض المدارس الحربية مقررات بحتية في الجغرافيا لكنها لم تقدم أى دروس في التاريخ (٤٨) ·

وبالاضافة الى المدارس النظامية فان اسماعيل بذل كل جهد ليشجع اقامة المدارس الخاصة والطائفية ومدارس الجماعات · ومن ١٨٧٥ الى ١٨٨٧ زاد الالتحاق في المدارس الأجنبية من ١٨٩١٦ الى ٢٧٢٦٤ بينما كان الالتحاق في المدارس المصرية من ٤٨٧٨ الى ٥٥٠٠ فقط (٤٩) · وبصفة عامة ، فان برامج التعليم في المدارس الأجنبية ومدارس الجماعات مالت الى الضعف في اللغة العربية والى القوة في اللغات الأجنبية ، الرياضيات ، الجغرافيا والتاريخ (٥٠) · وقد بلغ التسامح الروحى عند اسماعيل حد دعم المدارس النظامية للأقباط ماليا · وكانت أكبر مدرسة قبطية في القاهرة تتمتع بمنهج متطور بما في ذلك مواد كالفرنسية ، الانجليزية ، الايطالية ، الحساب ، الهندسة ، التاريخ ، الجغرافيا والمنطق (٥١) ·

كان سجل اسماعيل التعليمى العام سجلا جيدا بكل وضوح · ورغم ان كثيرا من مشروعاته بعيدة المدى لم تتحقق ، الا أنه لا يمكن انكار انه كان يملك حسا ضميريا أكثر من أسلافه في خصوص تعليم شعبه · وبالنسبة للدراسات التاريخية فقد كان المصريون في عهد اسماعيل يتلقون دراسات فيه في كل المدارس الابتدائية ـ باستثناء المدارس الابتدائية الصغرى ـ طالما سمحت الاعتمادات ، وفى المدارس الثانوية ، وفى المدارس التخصصية · وكان انشاء « دار العلوم » في عهد اسماعيل ـ كما سنرى فيما بعد ـ علامة مميزة في كل من تطور التعليم المصرى وفى الدراسات التاريخية (٥٢) ·

قام الحاكمان التاليان ـ توفيق (١٨٧٩ ـ ٩٢) وعباس حلمى (١٨٩٢ ـ ١٩١٤) بجهود أعظم لنشر وتحديث النظام التعليمى المصرى·

فبعد تولى توفيق الحكم ، شكل لجنة حكومية لدراسة طرق أكثر لتغريب المنهج فى مدارس الحكومة ، وقد وجه هذه المرة انتباه خاص للعلوم التطبيقية ، ودعى طلاب المدارس الابتدائية الذين لم يرغبوا فى استكمال دراستهم الثانوية لدخول (فصول تكلميلية) كان التركيز فيهـا على المسائل الزراعية أو التجارية تبعا للمنطقة التى ينتمى اليها الطالب • وقد جعلت ثورة عرابى تحقيق هذه الخطط مستحيلا لفترة ، لكن عودة الهدوء فى عام ١٨٨٥ مكنت الحكومة مرة أخرى من البدء فى التحـرك قدما لانجاز مقترحات ١٨٨٠ (٥٣) •

كان توفيق وكيلا حرا (للسلطان) الى حد تفضيل التوسع فى النظام التعليمى • فقد ارتفع المخصص للمدارس فى الميزانية بانتظام من ٥٩٤١٥ جنيه عام ١٨٨٠ الى ٨١٩٤٩ عام ١٨٨١ ، لكن المسـائل المالية أصبحت أكثر حدة فى ظل الاحتلال البريطانى بعد أن كان نصيب التعليم من الميزانية قد وصل الى ٨٨٠٧٩ جنيها عام ١٨٨٢ (٥٤) • كانت أوروبا الآن فى موقف يسمح لها بأن تجبر مصر على احترام التزاماتهـا المالية التى كانت كبيرة الى حد أن ما تبقى لمجالات كالتعليم كان قليلا • فقد طبق كرومر Cromer بداءة سلسلة من الميزانيات المتقشفة ، ولم تتحسن الأمور الا بعـد فترة طويلة للغـاية وبعـد ان تمكنت مصر من تحقيق السيولة المالية ورحيل كرومر • فحتى ١٨٩٠ كان ٨١٠٠٠ جنيه هو المبلغ الرمزى الذى ينفق على التعليـم ، لكن هذا المبـلغ أصـبح ٤٥٠٤٥٠ جنيها مع عام ١٩٠٨ (٥٥) •

كان التقدم الذى قدمه البريطانيون للتعليـم المصرى قليلا جـدا ومتأخرا جدا • فمن ١٨٨٢ الى ١٩٠٢ سـمح كرومر باقل من ١٪ من الميزانية للتعليم ، وحتى بعد رحيله فان الرقم لم يتجاوز ٣ر٤٪ (٥٦) • وكان مستحيلا مجاراة الزيادات السـكانية ، وبدأ الوطنيـون المصريون يشيرون الى أن هدف بريطانيا هو نفس هدف (سعيد) ـ وهو ابقـاء مصر جاهلة لكى تحكم بسهولة • وقد جـاوب كرومر بحجة مفادها ان مشاكل الميزانية قد منعت الكثير من الجهـود المكثفة آن تبذل ، وزعم أيضا ان أغلب طبقة الباشـوات كانوا يعارضـون فكرة « التعليم الشعبى » (٥٧) ، ومع هذا فاننا نجد رجالا أمثال « أحمد لطفى السيد » ، مصطفى كامل ، وسعد زغلول وهبوا حياتهم لتعليم أبنـاء وطنهم • والحقيقة هى أن « كرومر » كان معنى بانتاج موظفى حكومة أكفـاء من المستوى الادنى وليس منقفين Litrati ، ذلك أنه الغى مدرسة اللغات وتوقف عن الاستمرار فى برنامج البعثـات التعليمية الى أوروبا مركزا على المدارس الابتدائية والثانوية (٥٨) •

لم يحدث سوى بعض التغيرات القليلة ذات الأهميــة فى منهج المدارس الحكومية فى ظل الاحتلال البريطانى • ففى عام ١٨٦٢ على سبيل المثال مد برنامج الدراسة فى المدارس الثانويه من اربع سنوات الى خمس • ودرست الفيزياء والكيمياء والتاريخ وبعض الهندسة بالفرنسية أو الانجليزية ، وارتفع تعليم اللغات الأجنبية بشدة • وتكون الأسبوع المدرسى من ثلاثه وثلاثون ساعة ، خصص سبع منها بالعربية فى السنة الأولى ، وخمسه عشر فى الثانية ، وأربعه عشر فى الثالثه ، وثلاثة عشر فى الرابعة ، واثنى عشر فى السنة الخامسة والنهائية • وبناء على اقتراح دوربك Dor Bey أصبح تخصص طلبة السنة الثالثة فى العلوم أو الاداب هو القاعدة (٥٩) •

ووافق البريطانيون أيضا (ولو متأخرا) عام ١٩١١ على المساعدة على تخفيف النقص المتكرر فى اعتمادات التعليم بالسماح لمجالس المديريات بفرض ضريبة قدرها ٥٪ على الأراضى من أجل دعم الكتاتيب : وكنتيجة لذلك فقد أقيم ثلاث وتسعون كتابا جديدا فى الحال (٦٠) • وفى ١٩١٣ ألان البريطانيين فى النهاية من موقعهم تجاه البعثات التعليمية • كان المصريون يطالبون منذ زمن بالتوسع فى برامج الدراسة بالخارج ، ووافقت نظارة المعارف على اقامة (لجنة ارشاد الطلبة المصريين) • وقررت هذه اللجنة تقديم العون المالى لبرامج الدراسة فى أوروبا لستمائة وأربعة عشر طالبا ، ٣٧٣ فى بريطانيا ، ١٣٩ فى فرنسا ، ٦٤ فى سويسرا ، الخ (٦١) •

كان لمصر مع بداية الحرب العالمية الأولى حوالى خمسة آلاف مدرسة من كل الأنواع والمستويات (٦٢) • وغطت هذه المدارس كل النطاق من الكتاب الالزامى ذو الشيخ المعلم الى الجامعة المصرية (٦٣) • ومن الصعب القطع بعدد هذه المدارس التى تحت الدعم الحكومى • فقد تراوح الدعم الحكومى من عون مالى حكومى كامل الى مقدار من الزيادة فى المعونة (٦٤) •

تلقت المدارس الأولية والثانوية مع ١٩١٤ تحديثا ضخما فى مناهجها • فقد تضمن منهج المدرسة الأولية تعاليم الدين ، النحو والصرف والاعراب ، الخط ، الرياضة ، الهندسة ، الرسم ، ومعلومات عامة (مثل التاريخ والجغرافيا والصحة الخ) ، رياضة بدنية للأولاد ، وتدبير منزلى للبنات (٦٥) • وفى المدارس الثانوية ظل البرنامج يتبع مشروع اعادة التنظيم الذى رسمه دوربك Dor Bey والذى بمقتضاه

يتخصص الطالب فى السنتين النهائيتين فى الآداب أو العلوم • ومع منتصف العشرينيات حاز التاريخ شعبية كتخصص أدبى حر (٦٦) •

أصبح التعليم فى مجال الآداب الحرة والعلوم الاجتماعية فى ذلك الوقت عند نقطة الانطلاق • وبعد الحصول على الاستقلال وعمل مسودة الدستور فى ١٩٢٢ ، تزايد التقدم • لكن صعوبات ضخمة كانت لاتزال باقية ، وحتى ١٩٣٧ كان ٨٠٪ من الرجال المصريين و ٩٦٪ من النساء المصريات أميون (٦٧) • لكن بدءا من نهايات القرن التاسع عشر فصاعدا بدء التركيز المتزايد على العلوم الاجتماعية والانسانيات ، والأعداد المتزايدة من المصريين الذين كانو يدرسو نهذه الموضوعات فى أوروبا ، الهجرة المستمرة لاصحفيين السوريين المتعلمين ، نضوج أتباع الأفغانى ومحمد عبده ــ بدء كل هذا فى خلق جمهور للتعليم ، والاهتمام ، والوقت اللازم لتشكيل سوق للكتاب عامة وللمؤرخين خاصة (٦٨) •

زود اصلاح النظام التعليمى كل جيل جديد من المصريين بفرص أكبر لدراسة التاريخ • ولم تستطع البلد كلهـا مع ذلك ان تتحمل الانتظار حتى تدرب شبابها على العلوم الجديدة فى الداخل واضطرت على مدى القرن التاسع عشر ان ترسل الطلاب الى الخارج للتدريب المتقدم • وكان الطهطاوى واحدا من الأوائل الذين أظهروا اهتماما بالدراسات التاريخية وفقا لهذا الاعتبار •

خلال أغلب القرن التاسع عشر أرسل الطلاب المصريون الى الخارج لدراسة العلوم الطبيعية ، الهندسة ، أو الطب ، لكنهم لم ينلقوا أى اتصال مباشر بأى من العلوم الاجتماعية • محمد على ، على سبيل المثال ، أرسل ٣٩٩ طالبا الى أوروبا قضى أغلبهم كالطهطاوى سنوات عديدة بالخارج (٦٩) • ومع هذا فان ستة منهم فقط تخصصوا فى مواد قد تتضمن بعض الدراسة الرسمية للتاريخ (٧٠) • أما الآخرين جميعا فقد وجهوا علميا ــ وهى حقيقة لم تكن بالضرورة تمنعهم من الحصول على معلومات غزيرة فى مجالات أخرى ، لو أنهم كانوا على نفس نزعة الطهطاوى وميوله • وبنفس القدر فاننا لا يجب ان نفترض ان هؤلاء الطلاب بتخصصاتهم التقنية والعلمية لم يتلقوا أى دراسات أيا كانت فى مبادين غير علمية • فعلى سبيل المثال ، خلال المرحلة المبكرة من التدريب بالخارج كان على الطلبة المصريين ان يدرسوا لغة أوروبية ، ولم يكونوا يستطيعون ان يفعلوا ذلك من قراءة نصوص تقنية أو علمية • ونعرف ان الطلبة المقيمين فى المدرسة الحربية المصرية بباريس عام ١٨٤٤ لدراسة الموضوعات العسكرية البحتة كانوا يعطون أيضا بعض التعليم فى التاريخ

والجغرافيـــا ، وهو ما يمـــكن ان يكون قد حفز انتبـــاههم فى هذه الموضوعات (٧١) ٠

واصل التوجه التقنى ـ العلمى للبعثات العلمية المصرية بالخارج ، واصل توجهه هذا فى فترة الاحتلال البريطـــانى ٠ وكان عباس الأول وسعيد قد خفضـــا لدرجة كبيرة أعداد الطلبة فى مثل هذه البرامج ، ورغم ان اسماعيلا قد نشط هـذا الاتجـاه التعليمى ومول فرص تعليم ١٧٢ شابا مصريا بين ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ ، الا انه مع هذا لم يرسل أحدا الى الخارج للتخصص فى العلوم الاجتماعية (٧٢) ٠

حدث تغير ملحوظ فى نهايات القرن التاسع عشر ٠ فبينما كانت ٩٦٪ من البعثات التعليمية الى أوروبا قبل ١٨٨٢ ذات توجهات تقنية ، فان ٦٠٪ من المصريين الذين أرسلوا الى الخارج خلال الاحتلال تخصصوا فى الانسانيات والعلوم الاجتماعية ٠ والى جـانب هؤلاء الذين كانـوا يدرسون فى الخارج على نفقة الحـكومة ، كان هناك مئات آخرون فى أوروبا يدرسون على نفقتهم (٧٣) ٠ ولا توجد لدينا احصائيات بما كان يدرسه هؤلاء ، لكن أحد الكتاب كان يعتقد انهم كانوا يدرسون القانون ، الطب ومجالات مهنية أخرى (٧٤) ٠

زاد عدد المصريين المسافرين للخارج للدراسة أكثر فأكثر بعد الحرب العالمية الأولى ٠ وخلال أواخر عشرينيات القرن العشرين وبواكير ثلاثينياته كان هنـــاك ٣٠٠ ـ ٥٠٠ طالب مصرى بالخـــارج على نفقة الحكومة الى جانب ٦٠٠ ـ ٨٠٠ آخرين يدرسون على نفقتهم (٧٥) ٠ وأغلب مشـــاهير المؤرخين المصريين فى الأوقات الحالية ـ شفيق غربال ، محمد صبرى ، ومحمد أنيس ، من بين آخرين ـ حصلوا على درجاتهم العلمية العالية من جامعات بريطانية أو فرنسية ٠ وعند استكمال دراساتهم عادوا الى بلدهم ليقدموا تقنيات تاريخية حديثة الى تلاميذهم ٠

حدثت تطورات حاسمة ثلاثة فى أواخر القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين ، ونظرا لأهميتها الطاغية بالنسبة للتعليم المصرى وللتأريخ خاصة ـ فقد تم استبعادها حتى الآن لنتمكن من اعطائها اهتماما خاصا ٠

فانشاء دار الكتب عام ١٨٧٠ ، ودار العلوم عام ١٨٧١ ، والجامعة المصرية عام ١٩٠٨ يستحق اهتماما منفصلا ٠

فى مجال توافر الوثائق والمصادر التاريخية الأخرى كانت مصر وحتى القرن العشرين تماثل ايطاليا عصر النهضة ٠ ومثلما كان بوكاشيو

Boccaccio (٧٦) يبكى فرحا عند اكتشاف مخطوطة قديمة لاتقدر بثمن في مونت كاسينو Monte Cassino ، فان مؤرخي مصر في أواخر القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين كانوا يجدون استحالة في تعيين مكان الوثائق التاريخية الهامة التي لا يزال أغلبها يرقد متعفنا في ركن منسي بمبنى حكومي أو أرشيف أسرة أو أحد المساجد ٠

اتخذت أول خطوات هامة لحفظ الارث التاريخي المصري خلال عهد اسماعيل ٠ وعندما زار السلطان عبد العزيز القاهرة في ١٨٦٥ اقترح ان يقيم اسماعيل مكتبة خديوية لجمع وحفظ الوثائق التاريخية ٠ وأحب الخديو الفكرة وعهد بتنفيذها الى وزيره للتعليم علي مبارك (٧٧) ٠ وكانت النتيجة هي المكتبة القومية المصرية ــ التي تعد أكبر مكتبة في العالم العربي حتى الآن ٠

كانت عملية العثور ، شراء ، تحرير ، وفهرسة الكتب الكثيرة والوثائق التي وجدت مكانها أخيرا في دار الكتب مهمة ضخمة ، ولايزال هذا العمل غير مستكمل حتى الان (١٩٨٤) ٠ ومع هذا فان محفوظات الدار تمت بانتظام منذ ابتدائها ٠ كان مكان دار الكتب في الأصل في قصر الأمير مصطفى فاضل بدرب الجماميز ، وهو نفس المبنى الذى كانت به وزارة المعارف ــ وفي ١٩٠٤ تكاثر عدد مجموعاتها الى ٥٤٠٠٠ مجلد ، واحتاج الأمر الى نقلها الى ميدان باب الخلق (٧٨) ٠ وفي ١٩١٣ اتسعت الدار لحوالى ٧٠٠٠٠ كتاب منها ٣٢٠٠ عمل تاريخي باللغة العربية (٧٩)٠ وخلال العقود التالية استلزم التوسع نقل جزء من رصيدها سنويا الى القلعة (٨٠) ٠ واليوم ، فبالاضافة الى المبنى الرئيسي بميدان أحمد ماهر ، فان الدار لها أحد عشر فرعا ويضم المبنى الرئيسي مليون مجلد (٨١) ٠

ودار الكتب هي أكبر مكتبة مصرية ، ويستخدم مصادرها دارسون في كل الميادين ٠ وهناك مكتبات أخرى مع هذا تحتوى على مجموعات هامة من المادة التاريخية :

١ ــ مكتبة الأزهر : أقيمت أصلا عام ١٨٧٩ ، وفي ١٩١٣ كانت تضم حوالى ٣٦٫٠٠٠ كتاب و ١١٫٠٠٠ وثيقة ٠ وكما هو متوقع فان أغلبية هذه المجموعة في العلوم الدينية ، وللتاريخ والجغرافيا فيها حوالى ألف مجلد (٨٢) ٠

٢ ــ مكتبة البلدية بالاسكندرية : أنشئت عام ١٨٩٢ واتسعت لـ ١٦٫١٩٣ مجلدا ٠ ومكتبة جامعة الاسكندرية تفوقها أهمية الآن وتضم حوالى مليون مجلد ، أغلبها باللغات الأوروبية (٨٣) ٠

٣ ــ المكتبات الخاصة : وكما في أى دولة نامية ، فان المجموعات

الخاصة كانت ولزمن طويل واحدة من المصادر الرئيسية للسجلات • ومن بين المكتبات الخاصة الرئيسية مكتبات أحمد تيمور ، أحمد زكى باشا ، محمد بك آصف ، أحمد الحسينى ، على رفاعة (أحد ورثة رفاعه)، عبد الله فكرى ، ابراهيم حليم باشا ، الخ • وبعض أكثر مقتنيات دار الكتب أهمية سلمت اليها من المجموعات الخاصة لرجال أمثال مصطفى فاضل والشيخ الشنقيطى •

٤ ـ مكتبات مدارس واتحادات أخرى : وأمثلتها مكتبة مدرسة الحقوق التى تضم ١٩٩٥٠ مجلد ، مكتبة مدرسة الطب (١٠٠٠٠ مجلد)، أكاديمية العلوم (٢٣٠٠٠ مجلد) ، ومكتبة الجمعية الجغرافية (٥٠٠٠ مجلد) • وقد حوت مكتبة الجامعة المصرية فى البداية ١١٩٣٠ مجلدا • وضمت مكتبة المخابرات التابعة لوزارة الحربية خمسة آلاف مجلد أغلبها فى التاريخ ، الجغرافيا ، الاقتصاد ، والادارة العامة •

كان أواخر القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين بالنسبة لمصر وقت اعداد المصادر • وكان لايزال كم كبير من الوقت لازما لجعل المجموعات المتسعة بالمكتبات الجديدة صالحا للاستخدام ، وهكذا مال المؤرخون المصريون فى هذه الفترة الى الكتابة عن موضوعات لهم القدرة على الوصول الى وثائقها اللازمة شخصيا • ولم يتيسر قدر كاف من الاعداد للمصادر يسمح للباحثين المحترفين باستخدام المكتبات لانجاز بحث ذو قيمة الا فى نهاية فترتنا فقط •

رغم ان مادة التاريخ قد نجحت فى الزحف الى مناهج المدارس الابتدائية والثانوية وبعض المدارس المتخصصة خلال القرن التاسع عشر ، الا أن ثباتها كتخصص أكاديمى ظل غير مؤكد حتى اقامه « دار العلوم » عام ١٨٧١ •

جاءت فكرة هذا المعهد من على مبارك الذى لاحظ أن الفجوة بين التعليم الأزهرى والتعليم العام قد استمرت وأن ادخال العلوم الجديدة فى منهج الأزهر هو محاولة عديمة الجدوى ـ فقرر أن ينشىء مؤسسة تعليمية جديدة كلية (٨٤)

فتحت دار العلوم أبوابها عام ١٨٧١ لتقدم على أيدى علماء مصريين وأوروبيين مقررات فى القرآن ، الشريعة ، والأدب العربى ، التاريخ ، النبات ، الفيزياء ، الفلك ، الميكانيكا ، فن العمارة ، وبناء السكك الحديدية (٨٥) • كان تقدمها فى البداية بطيئا ، وبين ١٨٧٢ ـ ١٨٧٩ خرجت حوالى ٢٧ طالبا فقط • وفوق هذا ، فان الخريجين أنفسهم كانوا لايزالون متشبعين بمبادىء الأزهر من حيث عدم القدرة على تدريس أى

شيء سوى العلوم التقليدية ، بل ان معرفتهم للعربيـــة كانت محـــل تساؤل (٨٦) • وكان الاستثناء محل الاعتبار هو « محمد عبده » الذى عين فى عام ١٨٧٨ بقسم التاريخ بالمدرسة • لكنه مع الأسف فصـــل بعد سنة واحدة من التدريس فى الوقت الذى طرد فيـه الأفغـــانى من البلاد (٨٧) •

بسبب المساوىء الواضحة فى بنية المدرسة ، فقد أقيمت مدرسة « معلمين » جـديدة فى عام ١٨٨٠ باســم « مدرسة المعلمين المركزية Ecole normale centrale تحت ادارة الفـرنسى موجيـــــل Mougel • انقسمت هذه المدرسة الى فرعين ، احدهمـــا للمواد التقليدية كالقرآن واللغة العربية والثانى للفروع الجديدة الدراسـية كاللغات الأوروبية ، التاريخ ، والجغرافيا • كانت الخطة هى تجنيـــد كل الهيئة التدريسية من دار العـلوم لتملأ الفـرع الأول فقط • لكن حيث ان هذا كان سيحتاج الى توسع ضخم فى الأفراد لمدة سنين عديدة وربما عقد كامل (٨٨) فان الخطة كانت أكثر من طموحة •

وبرغم العقبات الأولية ، فان مدرسة المعلمين تقدمت تقدما متصلا ومع عام ١٩٣٧ كانت قد خرجت ٢٤٣٥ معلما جديدا (٨٩) • وأصـبح التاريخ واحدا من المواد الأساسية فى المنهج الذى كان يطور وفق كل حديث من وقت لآخر • فعلى سبيل المثال ، مع حلول عــام ١٩٣٠ كان التوجه الدينى للجانب التقليدى من المنهج قد أهمل لحد كبير لصـــالح تركيز على الثقافة العربية والمدنية (٩٠) • ولا زالت المدرســـة تؤدى وظيفتهـــا حتى الآن كجزء من جامعة القـــاهرة ، ومن بين خريجيها بعض أعظم مؤرخى مصر كمحمد فؤاد شكرى ، محمـــد رفعت ، محمد أنيس وأحمد عبد الرحيم مصطفى (٩١) •

ورغم التقدم الذى حققته مصر فى التعليم خلال القرن التاسع عشر، فقـد كانت لاتزال مفتقرة الى جامعة حديثـــة قادرة على تخريج وتمويل وتوظيف مؤرخين محترفين وباحثين ، وبات واضحا انه اذا أرادت مصر انتاج أعداد مناسبة من العلماء ليس فقط فى التاريخ ولكن أيضـــا فى الفنون والعلوم بصفة عامة ، فان هذه الخطوة النهائية الحاسمة لابد أن تخطى • وهكذا ففى عام ١٩٠٨ اقترح عدد من المثقفين المصريين اقامة أول مؤسســة للفنـــون الحرة المصرية المؤسسة على النمط الغــــربى — الجامعة المصرية •

جاءت نواة هذا المشروع أساسا من الدوائر القومية ، ويتفق أغلب المثقفين على ان الفكرة نفسها تعود جذورها الى مصطفى كامـــل (٩٢) • (وقد مات مصطفى كامل نفسه قبل انشاء الجامعة ، وسقط حزبه من

دائرة رضا كل من القصر وقوى الاحتلال ، وبالتبعية فانه ذوى فى ظلام النسيان) • وما ان حصلت الخطط على مصادقة الخديوى حتى اقيمت لجنة تحضيرية برئاسة الامير احمد فؤاد ، وسعد زغلول (وكيل محكمة الاستئناف في ذلك الوقت) كنائب للرئيس ، وقاسم امين سكرتير وحسن سعيد كامين للصندوق • كانت المشكلة التي على اللجنة ان تواجهها هى الحاجة الى النقود ، حيث ان الجامعة كانت ستمول من الموارد الخاصة • كذلك فان الأزمة المالية فى سنة ١٩٠٧ عطلت التقدم لبعض الوقت ، لكن نظارة الأوقاف وبعد أقل من عام جاءت لانقاذ المشروع وقدمت اعانة مالية سنوية قدرها خمسة آلاف جنيه ، أضافت وزارة المعارف اليها ألفى جنيه سنويا ، وتبرع حسن باشا زايد بخمسين فدان من أملاكه الخاصة • وتأكد نجاح المشروع بعد ذلك بوقت قصير عندما أصبحت الجامعة تحت رعاية الأميرة فاطمة (عمة الخديو) التى ساهمت بأرض أخرى ، ومبنى جديد ، وثمانية عشر ألفا من الجنيهات فى شكل مجوهراتها الشخصية • وفى ١٩١٣ بلغت أصول الجامعة المالية عشرون ألفا من الجنيهات كوديعة فى البنك الألمانى Deutsche Bank • وبلغت عوائد الاستثمار ثلاثة آلاف جنيه (٩٣) •

كان خلق جامعة جديدة من فراغ عملا ضخما ، وبرغم هذه التبرعات الضخمة فان الجامعة المصرية بدأت بداية بطيئة للغاية • كان عدد الطلبة الملتحقين صغيرا فى البداية : فى ١٩١١ ــ ١٢ التحق ٣٤٤ رجلا و ٧٧ امرأة فقط (٩٤) •وكانت العقبة الأخرى هى النقص الخطير فى المعلمين المؤهلين ، وهو ما حاولت الجامعة ان تعالجه عام ١٩١١ عن طريق ارسال ثلاثين طالبا مصريا الى الخارج للدراسة العليا • وتلقى كل طالب منهم منحة دراسية قدرها ٤٣٨٠ جنيها مصريا فى العام (٩٥) على ان يقوم عند العودة الى بلاده بعد استكمال دراسته بتدريس مقررات متقدمة •

تضمن المنهج الدراسى فى الجامعة المصرية فى العام ١٩٠٨ ــ ٩ مناهج دراسية حديثة كالحضارة الاسلامية ، التاريخ العربى ، الجغرافيا وفقه اللغة ، والأدب الفرنسى والانجليزى • وفى عام ١٩٠٩ ــ ١٠ أضيف التاريخ والفلك العربى ، الفيزياء ، العلوم السياسية ، والأدب العربى ، وفى عام ١٩١٠ ــ ١١ أضيف تاريخ الشرق الأوسط ، فقه اللغة السامية ، الفلسفة العربية والأخلاق ، تاريخ الفلسفة وعلم الاجتماع (٩٦) •

لكن الحرب العالمية الأولى قطعت هذه المسيرة المتواضعة من الانجازات ، وأصبح مصير الجامعة معطلا بصفة مؤقتة • على أى حال فبعد الاستقلال

حولت الجامعة الى معهد حكومي ومنذ ذلك الوقت بدأت تنمـو ببطأ • ومع انها كانت مؤسسة للفنون والاداب الحرة على نحو كامل حتى عام ١٩١٥ الا انها استقبلت في ذلك العام ثلاثة كليات جديدة هي الحقوق ، الطب ، والعلوم ــ وبدات تنسق طريقها لتصبح واحـدة من افضـل مؤسسات التعليم العالى في الشرق الاوسـط (٩٧) • وفى ثلاثينيـات القرن كان التاريخ والجغرافيا اثنين من أكثر تخصصات الجامعه شعبية(٩٨) ولم تعد هناك مشكلة العثور على الأشخاص المؤهلين لتدريس هذه المواد • أصبح أحمد لطفى السيد أول مدير للجامعة ، وانخرط رجال أمثـال طه حسين واسماعيل رأفت وعدد من العلماء الأوروبيين المشهورين فى سلك معلميها (٩٩) • وفى قسم التاريخ نفسه كان رجال أكفاء أمثال شـفيق غربال ومحمـد مصطفى زيادة يبدأون فى استلام الزمام من المستشرقين الأوروبيين (١٠٠) •

فى ١٩٤٠ تحول اسم الجامعة الى فؤاد الأول وفى ١٩٥٢ الى جامعة القاهرة • وفى ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤ كان عدد كلياتها تسعة ، ووصـل عدد طلبتها الى ٢٤٫٠٠٠ (١٠١) • وقد بلغ عدد الطلبة الآن ١٠٠٫٠٠٠ فى القاهرة وحدها ، الى جانب أربعة جامعات أخرى فى الاسكندرية (أنشئت عام ١٩٤٢) ، عين شمس ، طنطا ، أسيوط •

يتحدد كم وكيف الكتابة التاريخية التى ينتجها بلد ما ــ لدرجة كبيرة ــ بوضع النظام التعليمى لذلك البلد والمناخ الفكرى الذى يساعد على خلقه • وقد دخلت مصر الى القـرن التاسع عشر وهى معتمدة كلية على طريقة الفهم الأزهرى الوسيط للتعليم الذى كان يتجاهل الدراسـات التاريخية • ثم تركت مصر هذا الاتجـاه وهى مزودة بشـبكة متسعة ومحدثة من المدارس التى أصبح التاريخ فيها مقررا أساسيا ومعترفا به • أصبح الكثير من المصريين قادرين على السفر الى الخارج للدراسة العليا ، وحتى هؤلاء الذين تخصصوا فى ميادين تقنية اتصلوا كثيرا واهتمـوا بالتاريخ خلال دراساتهم • انشئت المكتبات ، ودرس المدرسون العلوم الانسانية والاجتماعية ، ونشأت جامعة للفنون والآداب الحرة • وتغير المناخ الكلى للدراسات التاريخية تغيرا جذريا ، وأفاد المؤرخون المصريون فى أواخر القرن التاسع عشر من هذا الجو المساعد •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حواشي الفصـل الخامس

(١) فريدريش ماينيكه Friedrich Meinecke • مؤرخ الماني مرموق • جاهد ليكتب تاريخا يربط التطورات السياسية بالتيارات الثقافية والفكرية • وكوطني الماني غيور فقد حاول ماينيكه ان يبرهن في

Weltbürgertum und Nationalisaat (Cosmopolitanism and the Nation-state, 1907 ; Eng. trans., 1970).

ان الدولة الألمانية قد مثلت توليفة فريدة من القوة السياسية والثقافة • ومع هذا فانه تحرر فيما بعد من الأوهام بقيام الحرب الأولى فاعترف في كتابه

Idee der Staats räson in der neueren Geschichte (1924 ; trans. as Machiavellism, 1957).

بان مثل هذه التوليفة لم تعد ممكنة في المجتمع الجماهيري الحديث • ومع هذا فانه اعاد التاكيد في عمله الكبير الأخير

Die Entshehung des Historismus (1936; trans. as Historicism, 1972).

بايمانه بالمشاركة الايجابية للفكر الكلاسيكي الألماني والثقافة في الحضارة الغربية الحديثة

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 13, p. 282.

المترجم

(٢) قارن ص ٢٨ ـ ٢٩ من الفصل الثاني •

(٣) هيوارث دن Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt", pp., 41-42, 75.

(٤) محمد بديع شريف ، زكي المحاسني وأحمد عزت عبد الكريم « دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة » (القاهره : مطبعة الرسالة بدون تاريخ) ص ٦٠ ـ ٦١ •

(٥) الشيال « تاريخ الترجمة » ص ٢٢٥ •

(٦) هيوارث دن • Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt," pp., 376, 395.

(٧) المصدر نفسه ص ٣٩٨ ـ ٤٠١ •

(٨) انظر الحاشية ١٧ من الفصل الرابع •

(٩) هيوارث دن Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt," p. 403.

وموسى Moussa
"Intellectual Currents in Egypt," p. 270.

(١٠) س • ا • موريسون S. A. Morrison
"El Azhar Today and Tomorrow," The Moslem World 16 (1926) : 132-33,

(١١) اشيل صقلي
Achille Sekaly
"L'Université dél-Azhar et ses transformations", Revue des Etudes Islamiques 1 (1927) : 465-66.

(١٢) أكثر الدراسات تفصيلا عن الأزهر هو كتاب سنية قراعة « تاريخ الأزهر فى ألف عام (القاهرة : مكتب الصحافة الدولى للصحافة والنشر ، ١٩٦٨) .

(١٣) أحمد عزت عبد الكريم « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٣٨) ص ٢٥١ – ٣٢٦ ، ٣٤٥ – ٤٢١ .

(١٤) انظر ص ٧٣ – ٧٤ من الفصل الرابع . وقارن الشيال « تاريخ الترجمة » ص ١٣٠ – ٣٤ .

(١٥) عبد الكريم « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » ص ٣٢٧ – ٢٨ .

(١٦) المصدر نفسه ص ٨٤ – ٨٥ .

(١٧) فى فبراير ١٨٣٧ فى الواقع ، رغم ان النظام الجديد فى اغلب الأمور الأخرى اصبح نافذا فى ١٨٣٦ . المصدر نفسه ٩٣ – ٩٦ .

(١٨) كانت الاعداد فى بعض الأحيان فيما دون هذه الأرقام المثالية مع ذلك . المصدر نفسه ص ٢٢٧ .

(١٩) المصدر نفسه ص ٢٢٩ .

(٢٠) المصدر نفسه ص ١٢٣ – ٢٨ ، ١٣٣ – ٣٤ .

(٢١) عرف الخريجون فيما يبدو كلا من الفرنسية والعربية بدرجة تكفى لترجمة المواد الغير تقنية لكنهم كانوا لا يزالون غير مجهزين للتعامل مع النصوص العلمية . المصدر نفسه ص ٣٣٢ – ٣٣ ، ٣٤٠ – ٤١ ، والشيال « الطهطاوى » ص ٣٢ – ٣٣ .

(٢٢) بدوى « الطهطاوى » ص ٤٣ .

(٢٣) الشيال « الطهطاوى » ص ٣٥ .

(٢٤) هيوارث دن
Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt", pp. 229 ff., 235-36, 240.

(٢٥) عبد الكريم « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » ص ١٤٠ – ٤١ .

(٢٦) فى الحقيقة فان النفوذ الفرنسى لم يتعرض لانقطاع مفاجيء ، وأغلب الروايات الرديئة عن عهد عباس هى من المراقبين الفرنسيين بالتبعية .

(٢٧) تابع الغاء هذه المدارس الأربعة وكذلك فعل باغلب مدارس محمد على المتخصصة . انظر عبد الكريم « تاريخ التعليم فى مصر محمد على » ص ١٣٤ ، وهيوارث دن
Heyworth Dunne
"Education in Modern Egypt", p. 297.

(٢٨) عبد الكريم « تاريخ التعليم فى مصر » ج ١ عصر عباس وسعيد – القاهرة – مطبعة النصر – ١٩٤٥ ص ١٧١ – ٧٢ .

(٢٩) والتر بركمان
Walter Björkmann
"Probleme des ägyptischen Bidungswesens," Die welt des Islam 22 (1940) : 115.

(٣٠) هيوارث دن
Heyworth Dunne
"Education in Modern Egypt", p. 317.

(٣١) كان من المتوقع عقلا ان تواصل مدرسة المحاسبة التي علمت فى أوقات عديدة لغات أجنبية ومساحة ، سياسة « الألسن » فيما يتعلق بالتاريخ • ومع هذا فان كلا من هيوارث دن Heyworth Dunne وعبد الكريم يتفقان على أن التاريخ لم يكن يعلم فيها •

هيوارث دن
Heyworth Dunne
'Education in Modern Egypt," pp. 267-68, 317, 355.

وعبد الكريم « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » ص ٣٢٥ ــ ٢٦ •

(٣٢) البارون جورج ايوجين هاوسمان Georges Eugene Haüssmann
(٢٧ مارس ١٨٠٩ ــ ١١ يناير ١٨٩١) ادارى فرنسى للمجالس البلدية ومخطط حضرى ، غير مظهر باريس القرن التاسع عشر • كانت عائلته متميزة فى الشئون الثورية والنابليونية الفرنسية • بعد تعلمه القانون دخل هاوسمان الخدمة المدنية وارتقى ليصبح حاكم منطقة السين Seine dept. التى ضمت مدينة باريس • وظل فى هذا المنصب من ١٨٥٣ الى ١٨٧٠ فى ظل امبراطورية نابليون الثالث الثانية • وبفضل السلطة المعطاة له من الامبراطور فان هاوسمان قام **بحملة مكثفة للأشغال العامة مصممة** لتحديث وتجميل باريس من أجل جعلها أكثر صحة وروتقا للعيش وأسهل للحكومة لتضبطها • شقت الشوارع العريضة التى تكتنفها الأشجار عبر الممرات المعقدة القديمة والضيقة لتسهيل الحركة حول المدينة ، وشيدت أنظمة للصرف والمياه لتقليل الأخطار الصحية • وأقام هاوسمان غابة بولونيا Bois de Boulogne وأغلب حدائق باريس ، وبنى محطات السكة الحديد الرئيسية فيها ، دار الأوبرا ، والسوق المعروف بـ Les Halles الذى هدم عام ١٩٧١ • وعند موت هاوسمان كان عمله قد **مارس نفوذا رئيسيا على تخطيط المدن فى العالم** •
Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 10, p. 69.

المترجم

(٣٣) م • صبرى
M. Sabry
"La genese de l'esprit national egyptien, 1863-1882".
Thèse principale de Doctorat des lettres presentée à la Faculté des lettres de l'Université de Paris (Paris : le recteur de l'Academie de Paris, 1924), pp. 82-89.

(٣٤) موسى
Moosa
"Modern Arabic Fiction", p. 151.

(٣٥) صبرى
Sabry
"l'esprit national egyptien", p. 89.

(٣٦) خليل صابات « مطبعة بولاق فى عهدها الثانى ، ١٨٤١ ــ ١٨٨٢ » ، مجلة كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ٢٤ (١٩٦٢) : ٢٣ • وتبدو هذه الأرقام منضخمة قليلا ، لأن الكتاتيب محسوبة من بين الأرقام •

(٣٧) هنرى لاوست
Henri Loaust
"Introduction à une étude de l'enseignement arabe en Egypte", Revue des Etudes Islamiques 7 (1933) : 302.

(٣٨) هيوارث دن
Heyworth Dunne
"Education in Modern Egypt", p. 361.

(٣٩) فريتز شتيبات
Fritz Steppat
"National Education Projects in Egypt Before the British Occupation", Beginnings of Modernization in the Middle East : The Nineteenth Century eds. William R. Polk and Richard L. Chamber , Publications of the Center for Middle Eastern Studies, no. 1 (Chicago and London : University of Chicago Press, 1968), pp. 289, p. 90.

قارن سعيد زايد « علي مبارك وأعماله » الألف كتاب ، رقم ١٩٩ (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، بدون تاريخ) ص ٧٣ ، ٧٦ .

(٤٠) هيوارث دن
HeyWorth Dunne
"Education in Modern Egypt," p. 435.

(٤١) لا يوجد اثنين متفقين تماما على مدى الخفض خلال سبعينيات القرن التاسع عشر فهيوارث دن Heyworth-Dunne يقول ان عدد الطلبة انخفض من ١٣٦٨ الى ٦٦٣ خلال الفترة ١٨٧٣ ـ ٧٨ . المصدر نفسه ، ص ٣٨٣ . ويؤكد شتيبات Steppat أن عدد تلاميذ المدارس الأولية تحت حكم اسماعيل ربما لم يتجاوز الخمسة آلاف وخمسمائة تلميذ الذين كانوا طاقة المشروع الذى وضع فى عصر محمد على . شتيبات Steppat
"Education Proejcts in Egypt", p. 294.
وكلا الرقمين بون شاسع من رقم المائة ألف الذى زعمه صابات : والحقيقة الأساسية هى أن المدارس الابتدائية تدهورت بشكل كبير خلال منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر .

(٤٢) عبد الملك
Abdel-Malek
L'Egypte modern", p. 158.

(٤٣) هيوارث دن
Heyworth-Dunne
Education in Modern Egypt, p. 353.

(٤٤) أحمد عزت عبد الكريم « تاريخ التعليم فى مصر » . القاهرة : مطبعة النصر ، ١٩٤٥) الجزء الثانى ، ٤٣١ ـ ولا يتفق هيوارث دن Heyworth-Dunne مع عبد الكريم ويتمسك بأن لا تاريخ على الاطلاق كان يدرس فى مدرسة القاهرة الثانوية .

هيوارث دن
Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt", p. 354.

ودليل عبد الكريم مستمد من وثائق أصلية من الأرشيف المصرى . أما هيوارث دن Heyworth-Dunne فيستمد أدلته فى الأغلب من تقارير صادرة عن مراقبين أوروبيين .

(٤٥) صابات « مطبعة بولاق » ص ٢٤ .

(٤٦) أحييت عام ١٨٦٦ للقيام أساسا بترجمة كود نابليون Code Napoleon وثائق قانونية أخرى . وتشير المصادر الفرنسية اليها باسم "Ecole de Droit"

عبد الكريم « تاريخ التعليم فى مصر » ـ الجزء الثانى . ص ٥٤٦ .

(٤٧) المصدر نفسه ص ٤٩٨ ، ٥٥٣ ، ٥٨٢ ، ٥٨٧ ، ٥٩٨ . ولا يذكر هيوارث دن Heyworth-Dunne التاريخ كجزء من المنهج فى « المهندسخانة » .

هيوارث دن
Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt, pp. 354-55.

(٤٨) المصدر نفسه ص ٣٤٨ ، ٣٥١ .

(٤٩) زايد « على مبارك » ص ٦٨ .

(٥٠) هيوارث دن Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt." p. 436.

(٥١) عبد الكريم « تاريخ التعليم في عصر محمد على » ص ٦٦٨ .

(٥٢) انظر ص ١٠١ ـ ٢ من هذا الفصل .

(٥٣) اسماعيل محمد القبانى « سياسة التعليم فى مصر » (القاهرة : لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٤) ص ٦ ـ ٧ .

(٥٤) هيوارث دن Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt", p. 428.

(٥٥) بركمان Björkmann
"Probleme des ägyptischen Bildungswesens," p. 117.

(٥٦) روبرت تيجنور Robert Tignor
"Modernization and British Rule in Egypt, 1882-1914".
(Princeton : Princeton University Press, 1966), p. 346.

(٥٧) بركمان Björkmann
"Probleme des agyptischen Bildungswesens", p. 116.

(٥٨) موسى Moosa
"Modern Arabic Fiction," p. 156.

(٥٩) لاوست Laoust
"L'enseignement arabe en Egypt," p. 310.

لتفاصيل أكثر عن تعليم اللغة الأجنبية انظر الفصل الحادى عشر ص ٢٠٦ ـ ٧

(٦٠) زيدان « تاريخ أدب اللغة العربية » الجزء الرابع ٣٥٠ ـ ويزعم القبانى ان هذا الاجراء قد عمل به عام ١٩٠٩ .
القبانى « سياسة التعليم في مصر » ص ٧ .

(٦١) زيدان « تاريخ أدب اللغة العربية » الجزء الرابع ، ٣٥ .

(٦٢) تخمين مضطرب مبنى على الاحصائيات المتناقضة التى أوردها علماء عديدون . فزيدان على سبيل المثال يزعم ان العدد الكلى للمدارس وصل الى ٥٠٠٠ عام ١٩١٣ ، ضمت حوالى ٤٠٠٠٠٠ طالب . وهذا يمثل من وجهة نظره تدهورا عن الوضع عام ١٨٨٢ عندما كان عدد المدارس الأولية ٥٣٧٠ والمدارس الثانوية ٢٧ (ومع هذا فقد كان عدد الطلاب ١٤٢٢١٧) . وطبقا لزيدان فان تقديرات ١٨٨٢ فوق ذلك لم تتضمن المدارس « الخاصة » أو « التجهيزية » العديدة .

زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » الجزء الرابع ، ٣٤ ــ ٣٦ ، وأرقام زيدان مؤيدة تقريبا بمقالة ظهرت عام ١٩١٤ وربما كانت هي أيضا مؤسسة على كتاب زيدان · وطبقا لهذا المصدر ، فانه في عام ١٩١٣ كان هناك ٨٠٧ « مدرسة حكومية » ، ٣٨٠٠ مدرسة تحفيظ قرآن ، و ١١٠٠ مدرسة أخرى بمجموع قدره ٥٧٠٧ ·

Henri Laoust هنرى لاوست

'Mitteilungen : Agypten,'' Die Welt des Islams 2 (1915) : 336.

(٦٣) عن الجامعة المصرية انظر ص ١٠٢ ــ ٣ من هذا الفصل ·

(٦٤) تتعارض الاحصائيات بصورة جذرية بشأن هذه المسائل · فناداف سافران Nadaf Safran يزعم انه كان هناك ٦٨ مدرسة ابتدائية وثانوية مدعومة حكوميا في مصر عام ١٩١٤ ، الى جانب ٧٣٩ مدرسة خاصة و ٣٢٨ مدرسة تبشيرية وتابعة لجماعات Communal

Nadav Safran ناداف سافران

"Egypt in Search of Political Community"

(Cambridge, Mass. : Harvard University Press, 1961), p. 55.

ومن الواضح ان سافران Safran لا يضم الى « المدارس الابتدائية » آلاف الكتاتيب العديدة · وهذا مضلل حيث انه طبقا لمقالة عام ١٩١٤ المستشهد بها في السطور السابقة فان « الكتاتيب » كانت تتلقى معونة الحكومة State supported

Henri Laoust هنرى لاوست

"Mitteilungen : Agypten," p. 336.

وربما يرجع الارتباك والتشويش الى حقيقة ان كثيرا من المدارس التي كانت تتلقى معونة الحكومة "Governmental aid" لم تكن تحصل عليها مباشرة من وزارة المعارف · ولاوست Laoust على سبيل المثال يقرر ان ٥٢١ مدرسة من أنواع عديدة كانت تتلقى عام ١٩١٧ دعما ماليا من الحكومة المركزية (ولكن ليس من الوزارة) أو من مجالس المديريات · ويزعم أيضا ان ١٢١ مدرسة أولية كانت تحت الاشراف المباشر للوزارة في نفس العام (١٩١٧) · هذه الاحصائيات تتناقض بوضوح مع أرقام سافران Safran حيث انه لا يمكن ان يزيد عدد « المدارس المدعومة من الدولة » هذه الزيادة الكبيرة وخاصة خلال سنوات الحرب ·

Laoust لاوست

"L'enseignement arabe en Egypt," p. 305

ولا يبدو واضحا على الأقل انه كان في عام ١٩١٤ ستة مدارس ثانوية مدعومة من الدولة · ويتفق حول هذه النقطة كل من بروكمان Björkmann ولاوست Laoust

Björkmann بروكمان

"Probleme des agyptischen Bildungswesens." p. 121.

Laoust ولاوست

"L'enseignement arabe en Egypte", p. 310.

ويمثل هذا زيادة قدرها ثلاثة أضعاف بالمقارنة بعهد اسماعيل ·

(٦٥) لاوست Laoust
"L'enseignement arabe en Egypte", p. 306.

(٦٦) المصدر نفسه ص ٣١٠ ـ ٣١٢ ٠

(٦٧) بروكمان Björkmann
"Probleme des ägyptischen Bildungswesen," p. 112.

(٦٨) سافران Safran
"Egypt in Search of Political Community", pp. 55-52.

(٦٩) يختلف العلماء حول عدد الطلاب الذين أرسلهم محمد على فعلا الى أوروبا ٠ وأكثر الدراسات تفصيلا عن البعثات التعليمية المصرية هى دراسة عمر طوسون التى استخدمت ارقامها هنا ٠

انظر الأمير عمر طوسون « البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد (الاسكندرية : مطبعة صلاح الدين ، ١٩٣٤) ، ص ٤٠٤ ـ ٨ ٠

(٧٠) درس اثنان « العلوم السياسية » وأربعة درسوا « الادارة العامة » ٠
عبد الكريم « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » ص ٤٣٥ ـ ٣٦ ٠

(٧١) هيوارث دن Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt", pp. 245-46.

من الصعب ايجاد صلات مباشرة ، لكنه أمر ذو دلالة ان ثلاثة من مؤرخينا المتأخرين للقرن التاسع عشر ـ على مبارك ، أمين سامى ، واسماعيل سرهنك باشا ـ قد ضموا الى دائرة التاريخ من خلال التدريب فى ميادين تقنية ـ علمية ٠ والطهطاوى نفسه اجتاز الكثير من التدريب التقنى وكتب كتبا فى الرياضيات والهندسة ٠ لقائمة عن هذه الأعمال انظر بدوى « الطهطاوى » ص ٣٥١ ـ ٥٣ ٠
وخلال دراسته للميادين التقنية فى باريس اظهر اهتماما بالتاريخ ٠

(٧٢) عن عباس وسعيد انظر طوسون « البعثات العلمية » ص ٤١٦ وما بعدها ٠
عن اسماعيل انظر عبد الكريم « تاريخ التعليم فى مصر » الجزء الثانى ـ ص ٦٩٥ ـ ٧٧٥ ٠
قارن هيوارث دن
Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt", p. 394.

(٧٣) سافران Safran
"Egypt in Search of Political Community," pp. 55-56.

ويتفق عبد الملك مع نسبة ٩٦٪ لما قبل ١٨٨٢ التى أوردها سافران Safran عن نسبة التوجه التقنى للبعثات ، لكنه يزعم وقد أسس زعمه على عمل م ٠ م ٠ مشرفه 'Cultural Survey of Modern Egypt'' (London, 1947) ان حوالى ٧٥٪ (٢١٥ من ٢٨٩) من بعثات ما بعد ١٨٨٢ كانت فى « الأدب » ٠ ويعتقد عبد الملك ان الاحتلال لم يرسل أى طالب مصرى الى الخارج قبل ١٩٠٦ ـ ٧ ، وهو ما يعنى انه كان هناك برنامج مكثف غير معقول بعد ذلك التاريخ ٠ ويلخص عبد الملك السياسة التعليمية البريطانية فى مصر بقوله انها اجبرت مصر « على التخلى عن تسلحها الحديث ، بقدر ما كان عليها ان تتوقف عن الاستمرار فى أن تكون قوة حربية وصناعية ، وأن تهب نفسها بذلا

من ذلك مع موظفى الحكومة — أساتذة اللغات والمشرعين — ليتسلموا التعليم من القوة المحتلة ولا شيء غير ذلك » • ويقول عبد الملك ان هذه السياسة تقود الى نزع استقلال الثقافة المصرية والتردى والأيلولة الى الزوال •

عبد الملك
"L'Egypte moderne, pp. 355-56.

وهكذا فان عبد الملك يأخذ البريطانيين الى مهمة تسهيل هذه الأشياء التى كان الوطنيون المصريون أنفسهم يطالبون بها وهى التركيز الأكبر على تعليم جيد فى الميادين الغير تقنية •

(٧٤) تيجنور Tignor
"Modernization in Egypt," p. 339.

ومصطفى كامل على سبيل المثال ذهب الى أوروبا لدراسة القانون • انظر حاشية ١٧ من الفصل الثامن •

(٧٥) بروكمان Björkmann.
"Probleme des ägyptischen Bildungswesens", p. 127

(٧٦) جيوفانى بوكاشيو Giovanni Boccaccio (١٣١٣ — ١٣٧٥) شاعر وكاتب ايطالى • يعرف « بابى النثر الايطالى الكلاسيكى » • لتفاصيل عن بوكاشيو انظر
"Probleme des ägyptischen Bildungswesens", p. 127.

المترجم

(٧٧) زيدان « تاريخ أدب اللغة العربية » الجزء الرابع ص ١١٢ — ١٣ •

(٧٨) بدون مؤلف « دار الكتب فى عهد الثورة » ١٩٥٢ — ١٩٦٢ (القاهرة : مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٢) ص ٥ — ٦ •

(٧٩) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » الجزء الرابع ، ١١٤ — ١٥ •

(٨٠) « دار الكتب فى عهد الثورة » ص ٦ — ٧ •

(٨١) "The world of Learning, 24 th ed. (London : Europe Publications, Ltd., 1973), I, 375.

(٨٢) ما لم يذكر العكس فان المعلومات الآتية عن المكتبات المصرية قد أخذت من زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » الجزء الرابع ، ١١٤ — ١٦ ، ١١٨ — ٢١ ، ١٢٥ — ٢٨ •

(٨٣) طبعة أ • ب • ويلز A .P. Wales
"International Library Directory (London : The A.P. wales Organization, 1968), p. 213.

(٨٤) عبد المحسن طه بدر « تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر ، ١٨٧٠ — ١٩٣٨ » — مكتبة الدراسات الأدبية ، رقم ٣٢ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٣) ص ٢٦ — ٢٧ •

ودون الرغبة فى التقليل من أهمية دور مبارك ، الا انه يجب ان يذكر أن اليد المرشدة للكلية فى أيامها الأولى كان ادوارد دور Edouard Dor (المفتش العام للتعليم خلال سبعينيات القرن التاسع عشر ثم مستشارا بحكم المنصب بعد ذلك لوزير المعارف) • عن دور دوربك Dor Bey انظر عبد الكريم « تاريخ التعليم فى مصر » الجزء الثانى ، ص ٥٩٩ وما بعدها •

(٨٥) شتيبات Steppat
"Education Projects in Egypt", pp. 292-93.

(٨٦) هيوارث دن Heyworth-Dunn
"Education in Modern Egypt", p. 379.

ومن الواضح الآن أن اتجاه هيوارث دن Heyworth-Dunne تجاه التعليم المصرى سلبى بثبات .

(٨٧) س . س . آدامز C. C. Adams
"Mohammad Abduh, The Reformer," The Moslem World 19 (1939) . 268.

(٨٨) عبد الكريم « تاريخ التعليم فى مصر » الجزء الثانى ، ٦٠٧ .

(٨٩) « دار العلوم : حديث صادق جوهر بك » ، المقتطف ٣٩ (١٩٣٧) : ١٥٣ . عن نمو الكلية فى عهدى توفيق وعباس الثانى انظر أمين سامى باشا « المدارس فى ربع قرن : من سنة ١٨٧٥ ـ ١٩٠٠ » ، المقتطف ٣٨ (١٩٣٦) ٦٠٠ ـ ٦٠١ .

(٩٠) لاوست Laoust
"L'enseignement arabe en Egypte", p. 318.

(٩١) تخرج محمد فؤاد شكرى ومحمد رفعت من مدرسة المعلمين ، أما محمد أنيس فقد تخرج من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٣ ، وكذلك تخرج منها أحمد عبد الرحيم مصطفى عام ١٩٤٦ .

المترجم

(٩٢) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » الجزء الرابع ، ٤٤ . وقد أمل الحزب الوطنى ان ينشر معرفة تاريخ مصر الحديث بين جموع غير المتعلمين ومن أجل ذلك فانه اقام مدارس ليلية للفقراء عام ١٩٠٨ . ومع عام ١٩٠٩ كان هناك أربعة مدارس من هذا النوع تضم منها مائة وعشرون تلميذا : ودرس فيها كل من التاريخ الاسلامى والمصرى .

انظر عبد الرحمن الرافعى « محمد فريد : رمز الاخلاص والتضحية » (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١) ، ص ١٠٩ .

(٩٣) المعلومة مأخوذة من زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » الجزء الرابع ، ٤٤ ـ ٤٥ .

(٩٤) لاورافيشيا فاجليرى Laura Veccia Vagliere
"Notizie sulle Universita Egiziane", Oriente Moderno 30 (1950) : 89.

(٩٥) المصدر نفسه

(٩٦) المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

(٩٧) جيمس أ . بيللامى James A. Bellami
"Cairo University," Middle Eastern Affairs 6 (1955) : 185.

(٩٨) لاوست Laoust
"L'enseignement arabe en Egypte," p. 321.

(٩٩) عن أعضاء هيئة التدريس بالجامعة المصرية ، انظر على وجه الخصوص محمد محمود زيتون « جامعة فؤاد الأول » ـ الرسالة ، رقم ٨٩٣ (١٩٥٠) ، ص ٩١١ ، ولنفس المؤلف « فلنهدم الجامعة » ، الرسالة ، رقم ٨٩٤ (١٩٥٠) ص ٩٣٧ .

(١٠٠) عن سيرة غربال انظر محمد أنيس « شفيق غربال ومدرسة التاريخ المصرى الحديث » ، المجلة ، رقم ٥٨ (١٩٦١) ص ١٣ .

عن زيادة انظر عبد الفتاح عاشور « الدكتور محمد مصطفى زيادة » ـ المجلة ، رقم ١٤٥ (١٩٦٩) ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(١٠١) بيلامى

Bellamy
"Cairo University", p. 185.

الفصل الساس :

الموسوعيان : على مبارك وأمين سامى

بصرف النظر عن الجبرتى ، فقد كان على مبارك هو الشخص الوحيد فى القرن التاسع عشر الذى كتب عملا تاريخيا ضخما (أو لأغراض الدقة، بيوجرافيا ، طبوغرافيا) (الخطط التوفيقية) • ورغم انه يستشهد بالجبرتى مرارا الا انه لا يعتبر تابعه • ان عجائب الآثار والخطط التوفيقية مختلفان تماما فى البنية ، المحتوى ، والأهداف • والى جانب ذلك فان قوة الجبرتى الخلاقة كانت أكثر تفوقا عن تلك التى لدى مبارك ، الذى كان أساسا مصنفا أو جامعا (١) •

جذب كلا من الجبرتى والطهطاوى اهتمام المستشرقين الغربيين لأكثر من قرن • وحلل عملهما من وجهات نظر عديدة ومختلفة ، والأعمال الأدبية عنهما الآن كبيرة بما فيه الكفاية الى حد أن المهتمين بالشئون الثقافية ممن لا يقرأون العربية يستطيعون أن يتعلموا منها الكثير • ومن المؤسف ان المادة العلمية عن المؤرخين الذين سوف ندرسهم فى الفصول التالية أقل سهولة فى الحصول عليها ، حتى للقارىء العربى • فكل من الرجال وانجازاتهم الأدبية لابد أن تعرف تماما ، أو أن تقدر •

تلقى سيرة على مبارك وأمين سامى وآخرين ضوءا قيما على التطور الأبعد للدراسات التاريخية فى مصر القرن التاسع عشر • هذه السير هامة جدا للتبصر الذى تلقيه على المناخ الثقافى المتغير لأواخر القرن التاسع عشر والنشاط العام للاحتكاك الثقافى والتحديث • وعن طريق التأمل فى النشاطات المهنية والخلاقة لمثل هؤلاء الرجال نستطيع أن نعمق فهمنا للتغير الاجتماعى والثقافى المصرى بصفة عامة •

ولد على مبارك عام ١٨٢٣ فى قرية برنبال الجديدة بالدقهلية(٢)•ولم تكن أسرته ثرية ومثل أغلب الصبية المصريين فقد تلقى تعليمه الابتدائى

في كتاب القرية (٣) وقد أدى تفوقه في هذه المرحلة المبكرة الى اختياره للتعلم في مدرسة القاهرة الثانوية المعروفة بقصر العيني (٤) • كان ذلك توقيتا نموذجيا ، فقد كان برنامج محمد علي التعليمي في أقصى انطلاقه • في ١٨٣٢ كانت المدرسة تضم ١٢٢٠ تلميذا واتسعت مكتبتها لمجموعة ضخمة من الكتب تراوحت بين ١٢٫٠٠٠ – ١٥٫٠٠٠ مجلدا ، أغلبها بالفرنسية والايطالية (٥) • كانت هذه فرصة رائعة لمبارك ليدرس حتى مع الظروف المعيشية الغير مواتية هناك (بشهادته هو) • اذ يقول لنا أن كثيرا من اليوم كان يقضى في تدريبات السير•وارتدى الطلاب أحزمة خشنة ووزع الطعام السيء دون عدالة ، وكان التعليم غير كاف وعند الليل كان النوم على حشايا مملوءة بنبات الحلفاء (٦) • كان النظام التعليمي الجديد قد مد في الحجم بسرعة لا تتناسب مع تنظيمه في الحقيقة • ولم تكن الصلة بين كتاب القرية ، والمدارس الثانوية والمدارس ذات التدريب الخاص قد تأسست بوضوح بعد ، وكانت (قصر العيني) تلحق بفصولها كلا من الطلبة المبتدئين والمتقدمين • بل انه لم يكن معروفا على وجه اليقين ما الذى كان التلاميذ يجهزون له حيث ان التخرج لم يكن يضمن الاستمرار الى تدريب أكثر تخصصا (٧) •

ومع هذا فان مبارك أبدى استعدادا وأداءا متميزا في دراساته ، وفي ١٨٣٩ قبل في مدرسة المهندسخانة التي كانت تحت الادارة العتيدة لمحمود الفلكي (٨) • وفي هذه المدرسة تلقى مبارك دراسات في الميكانيكا ، الديناميكا ، الهيدروليكا ، الطبوغرافيا ، الفلك ، الكيمياء ، الجيولوجيا ، ومظهر الكون وتركيبه العام • وحيث ان الكتب المدرسية لم تكن متيسرة لهذه المواد فان كل التعليم في المهندسخانة كان شفويا (٩) •

في ١٨٤٤ كان مبارك محظوظا ليختار لمصاحبة أنجال محمد علي في بعثة تعليمية الى باريس (١٠) • وفي فرنسا قضى خمس سنوات دارسا العلوم العسكرية بصفة أساسية في باريس ومتز Metz • وفي عام ١٨٥٠ وفي اعقاب موت محمد علي استدعيت البعثة كلها الى مصر (١١) •

توقع حاكم مصر الجديد عباس الأول وقد نفى الطهطاوي الى السودان أن يتولى مبارك بعضا من واجباته • في البداية كان على (مبارك) أن يقنع بوظيفة المعلم المتواضعة في المدرسة الحربية بطرة(١٢) ، وفي رتبة الملازم (يوزباشي) • لكن عباسا سرعان ما رقاه مع حماد بك (عبد العاطي) وعلي ابراهيم الى وظيفة المراقب على امتحانات الهندسة الاقليمية • وقد استلزم هذا المنصب سفرا مستمرا من مديرية الى مديرية لاقامة مستويات الامتحان • وهو جهد أعطاه الفرصة بلا شك لأن يجمع المادة اللازمة (للخطط) • رسم مبارك مشروعا عمليا منخفض التكاليف للتعليم المصري ، نتج عنه تعيينه كأول (ناظر) وطني للمعارف • كما تلقى ترقية

الى رتبة الكولونيل (أميرالاى) وهدية من الأرض الزراعية مساحتها ثلاثمائة فدان (١٣) • ومع انه كان قد أصبح ثريا ، الا ان عباسا لم يتركه ينسى أبدا كيف يمكن لمثل هذه الثروة أن تعمل وأن تدمر بكل سهولة • فقد قال عباس انه يمكنه أن يجعله يرتدى ملابس الفلاحين وأن يعيش فى شظف كما كان فى السابق (١٤) • ووفقا لهذا التهديد فان مبارك حرص على أن لا يدان أبدا بارتكاب أقل هفوة •

وباعتلاء سعيد السلطة عام ١٨٥٤ فقد تعرضت حياة مبارك الوظيفية لتراجع سريع ، فأرسل الى القرم مع الجيش المصرى • ومضت سنتان ونصف قبل عودته الى مصر ، لكنه ظل مع هذا بعيدا عن عطف ورضاء سعيد ، وفى النهاية فان فشله فى أن يجد وظيفة مربحة أرغمته على بيع كل فدادينه الثلاثمائة • ولمدة عين (كوكيل) فى نظارة الجهادية ، ثم فى نظارة الداخلية وفى غرفة التجارة ، وأخيرا كمهندس مقيم لجزء من مصر العليا • كانت هذه الوظائف مؤقتة مع ذلك ، ولم تنجح أبدا فى ازالة سحب الشك التى كان يلصقها سعيد بكل من كان قريبا من عباس (١٥) •

وهكذا فقد كان على (على مبارك) أن ينتظر تغير الحظ حتى يأتى اسماعيل الى العرش فى ١٨٦٣ • فعين مشرفا على القناطر الخيرية وأصبح مسئولا عن مشروع اعادة توجيه مياه النيل من فرع رشيد • وبعد سنوات من العمل كوكيل لنظارة المعارف ، أصبح ناظرا لها فى ١٨٦٨ • وفى نفس الوقت كان ناظرا للأشغال وبعد فترة قصيرة عهد اليه بنظارة (عموم الأوقاف) أيضا (١٦) •

بوضع النزعة التقنية ـ العلمية المتنامية عند الأسرة الحاكمة المصرية فى الحسبان ، فان اختيار اسماعيل لمهندس كمبارك ليكون ناظرا للمعارف لم يكن مفاجأة • ومع ذلك فرغم كونه تقنى من البداية فقد أثبت مبارك انه مبتكر جدير بالاعتبـــار وادارى لا يكل • وكانت معرفته بالشئون الأوروبية واسعة كالطهطاوى ، وبعد اقامته فى فرنسا لمدة خمس سنوات قام فى عام ١٨٦٧ بجولة تفقدية قصيرة للمدارس الأوروبية ، وهذا ساعده على فحص الكتب الدراسية ، المناهج ، وأساليب التعليم (١٧) • وكوزير للمعارف فقد طبق مبارك بعضا من المعلومات التى حصل عليها وخاصة فى صياغة (لائحة رجب) الصادرة عام ١٨٦٨ • كان الايحاء لعمل هذا القانون صـــادر من مبـــارك أساسا (١٨) ، ومن أجل التأكد من تنفيـــذ التوجيهات الجديدة فقد نقل مدرسة القاهرة الثانوية من العباسية الى قصر (درب الجماميز) حيث يستطيع أن يتفقد فصولها شخصيا وبصفة يومية (١٩) • كذلك فقد عهد اليه تنفيذ مشروع انشاء المكتبـــة القومية الجديدة ، ويقف الآن تمثال له على قمة درجات دار الكتب اعترافا بجهوده كأب التعليم المصرى (٢٠) •

شعر مبارك بشدة باحتياج المصريين الى اتصال أكثر باللغات الأوروبية ، وفي الحقيقة فقد أراد أن يجعل التعليم المصرى بصفة عامة أوروبيا (٢١) • ولما كان الأزهر قد عجز عن القيام بهذه المبادرة ، فقد قرر مبارك ان يقيم مؤسسة جديدة هى (دار العلوم) • والقيت تحت رعايته سلسلة من المحاضرات العامة عن العلوم « الجديدة » ، الى جانب أحاديث عن مصر الفرعونية للمستشرق الأوروبى بروكش Brugsch (٢٢)• ولنشر المعرفة بالأساليب التعليمية الحديثة فقد أنشأ مجلة (روضة المدارس) وشارك بمقالات عديدة فيها (٢٣) •

ويبدو أن طاقات مبارك لم تكن تعرف حدودا • فقد وجد وقتا ليمارس أنشطة كثيرة خارج ميدان التعليم • فقد كان مسئولا كناظر للأشغال العامة عن انشاء كل مشروعات اسماعيل البنائية الكثيرة كالقصور والشوارع والقناطر ومصارف الرى الخ (٢٤)•وكان متوليا عمليات انشاء الخط الحديدى المصرى حتى ١٨٧٠ • وكان انشاء معامل الفيزياء والكيمياء فى دار العلوم داخلا فى نطاق اشرافه • ولفترة ما كان مبارك هو المفاوض الرئيسى فى مسائل حقوق الأراضى بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس (٢٥) •

ظل مبارك حائزا على رضاء اسماعيل حتى ١٨٧٠ ، عندما تسببت دسائس الحاشية المصحوبة باتجاهات اسماعيل المتزايدة نحو المحسوبية فى ترك مبارك لمناصبه العديدة واحدا تلو الآخر • وعلى مدى السنوات القليلة التالية كان يعين فى ويفصل من نفس المناصب التى شغلها خلال الستينيات بالتبادل • وذهبت الوظائف السخية والمكافآت الممتازة الى أعضاء من الأسرة المالكة وأصبح على (مبارك) أن يقنع بمنصب (مستشار) أو (وكيل) بدلا من المناصب الوزارية العليا (٢٦) •

هكذا كان سعود مبارك فى أفول عندما أتت الثورة العرابية بالمزيد من المتاعب له • كانت الأحداث عام ١٨٨٠ تجرى بسرعة مروعة ، وقاد الاضطراب الى تفسيرات عديدة ومتنوعة لها ، وتراوحت هذه التفسيرات من أفكار الولاء التى تبناها رياض باشا ونوبار نزولا الى التدرج الدستورى لرجال أمثال شريف باشا و (ربما) البارودى ، انتهاء بالموقف الثورى لعبد الله النديم وأحمد عرابى • ولقد كان موقف مبارك السياسى قريبا جدا من موقف أصحاب أفكار الولاء ــ وهى حقيقة سببت قدرا كبيرا من الارتباك للمؤرخين المصريين « الثوريين » فى العقود القليلة الأخيرة • فقد كان يمكن ان يكتب عن رجال مثل نوبار ورياض باشا بارتياح أنهم أوغاد تاريخيون ، دون ان يرفع أحد حاجبيه دهشة • أما بالنسبة لعلى مبارك بتاريخه

الطويل المتميز كموظف عام وتفوقه الغير منازع كمعلم ومؤرخ ، فان اسمه كان ينبغي ان يترك دون تلطيخ • وكان على المؤرخين المصريين - وفقا لما فات - أن يغوصوا في حيل بارعة أكروباتية لاختيار الألفاظ التي تصلح لاقامة ما يناسب التاريخ الرائع للرجل (٢٧) • ومع هـذا فاننـا اذا ما تجاهلنا مطالب (التأريخ الثورى) revolutionary historiography فان من الواضح ان مبارك قد عارض بنشاط كل ما ناضل العرابيون من أجله • فقد كان عضوا في كل الوزارات التي سمت عرابي طاغية ، والتي تدينها المعتقدات التاريخية التقليدية بالمثل • كان وزيرا للمعارف في وزارة نوبار الشهيرة التي ضمت وزيرين أوروبيين (أغسطس ١٨٧٨ - فبراير ١٨٧٩) • ثم انضم الى وزارة توفيق قصيرة العمر حيث شغل منصبي ناظر المعارف وناظر عموم الأوقاف • وكان عضوا في وزارة رياض باشا التي سقطت في سبتمبر ١٨٨١ مع ثورة عرابي • وكان أيضا في وزارة رياض الثانية (١٨٨٨ - ٩١) (٢٨) •

وعلى نقيض ذلك فان مبـــارك لم يتقلد أى وظيفة فيما يســـمى « بالحكومات الشعبية » ، باستثناء وزارة شريف باشا الرابعة (١٨٨٢ - ٨٤) (٢٩) • ومع الاشارات الأولى للاضطرابات الثورية لجأ مبارك الى قريته (برنبال الجديدة) حيث لزمها حتى بعد معركة (كفر الدوار أغسطس ١٨٨٢) (٣٠) • ودافع مبارك عن الخديو اسماعيل في كتبه وسمى أعظم أعماله باسم خليفة اسماعيل (توفيق) (٣١) • وقد أشار عرابي الى مبارك في مذكراته بوزير الأشغال (في زمان الاستبداد) • وسماه عبد الله النديم خائنا بلا تحفظ • ويزعم محمود فهمي ان مبارك قد ذهب (في معارضته للثورة العرابية) الى حد ارســال خطاب الى مزارعي محافظة الشرقية حاثا اياهم على عدم مساعدة عرابي وأتباعه بأى شكل • وقد أشار مبارك - في المناسبات القليلة التي علق فيها على الأحداث الثورية - الى (انصاف) توفيق واتهم العرابيون بحرق مدينة الاسكندرية ، وبصفة عامة بتجاوز (حد الأدب) (٣٢) •

ورغم هذه الحقائق فان المؤرخين المصريين المعاصرين لا يزالون يحاولون ربط مبارك بشكل ما بقضية عرابي • لكن معارضة عرابي لم تكن تعادل بالضرورة خيانة المرء لوطنه ، ومبارك الذى لم يكن مناصرا للعنف السياسى على الاطلاق كشف عن أصالة حبه لبلده بوسائل أخرى أهدأ • فالاصلاحات التعليمية على سبيل المثال انبثقت من ايمان شخصى راسخ بأن تعليم شباب مصر هو خدمة أفضل للوطن (٣٣) • وقد أكد مبارك في روايته (علم الدين) ان الوطني الحقيقي هو من قصد في المقام الأول الى نشر المعرفة بين بني قومه (٣٤) ؛ وقد حوت (خططه) بنفس هذا الغرض المحدد (٣٥) • ويبدو مبارك في بعض الأحيان وقد استبدت به فكرة الحاجة الى تقليل

التقهقر المصرى ، ومع ذلك فقد استطاع فى (نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر) أن يرسم صورة متملقة للغاية للشخصية المصرية مركزا على الشفقة الطبيعية ، الصبر ، والمثابرة التى يتحلى بها الشعب الى جانب استعدادهم لقبول الطرق والأفكار الجديدة . وطبقـا لمبـارك فان خطيئة المصريين الوحيدة هى أنهم فقراء (٣٦) .

كان لعلى مبارك خلال حياته الوظيفية فى الحكومة وحدها تأثير على مصر لا يقل عن تأثير رفاعة الطهطـاوى أو أى شخصية من شخصـيات القرن التاسع عشر . لم يكن للمشروعات التى أوحى بها أو أنجزها تأثير بارز دائما ، لكنها كانت تستهدف توفير غلة مربحة للأجيال المقبلة . كان مبارك معلما ، تقنيا ، اداريا ، سياسيا ، ومثقفا لم تستطع أى حكومة منذ عباس الأول أن تجد عنه بديلا .

كان مبارك أيضا كاتبا وافر الانتاج . ومع ان « الخطط التوفيقية » كان يمكنها وحدها ان تضمن له الخلود ، الا أنه مع ذلك كتب عددا من الكتب الأخرى . كان البعض من هذه الأعمال كراسـات تقنية تتعلق بالرياضيات ، المحاسبة ، الهندسة ، العلوم العسكرية ، الخ . ولم يكن لأى منها علاقة بالتاريخ (٣٧) . وسنركز على الأعمال التى لها صلة الى حد ما بالتاريخ .

فى (نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر) (٣٨) ركز مبارك على تاريخ الزراعة المصرية ، ملمحا الى أن أحوال الزراعة المصرية كان يمكن أن تكون أفضل فى الماضى عما كانت عليه فى زمنه ــ وهو اقتراح قد يولد فى مفهومه الظاهرى الشك فى ذهن اسماعيل فى ولاء أعظم كبار موظفيه ــ ثم واصل مبارك تتبع تاريخ التجارة ومشروعات الرى فى وادى النيل . واختتم عمله بمقترحات للاصلاح فى المستقبل (٣٩) ، جعلت الكتاب فى تنظيمه مماثلا (لمناهج) الطهطاوى . فقد ضم العملين مواد تاريخية وغير تاريخية تقود الى بيان نهائى كلى للسياسة Policy .

فى مسحة أدبية نقية كتب مبارك روايته الطويلة (علم الدين) ، وهى قصة شيخ أزهرى (ربما كان الطهطاوى نفسه) ذهب الى الخارج لتعلم الأساليب الأوروبية . وخلال اسفاره التقى بانجليزى ناقش معه بتفصيل كبير المظاهر الايجابية والسلبية لكل من المدنيتين . كان هدف الكتاب تعليميـا بصـورة واضحة ، والعمل هو النموذج الأول للرواية التعليميـة Erziehungsroman فى الأدب المصرى (٤٠) . والعمل طويل كقصة novel ، اذ يبلغ حجمه أربعة مجلدات ضخمة مرتبة فى سلسلة من (المسامرات) (٤١) . والاسلوب خليط انتقالى من النثر المقروء الواضح مع استخدام متكرر للاصطلاحات السجعية . ورغم ان

العمل وفر فرصة عظيمة لمبارك لأن يعلق على التاريخ العربي والمصرى ، فان كثيرا من مزاعمه خيالية وغريبة على الأقل • فعلى سبيل المثال ، يذكر مبارك أن ابن رشد جاء من الموصل (بدلا من اسبانيا) وأنه عاش فى القرن الثالث عشر (بدلا من الثانى عشر) • ويشير فى نقطة ما الى تيمور لنك على أنه عربى ويزعم ان مصدر النيل يقع فى الفردوس (كشف عن مصدر النيل قبل عدة سنوات من نشر الكتاب) • وتحتوى (علم الدين) أيضا على مناقشات مطولة فى القرآن ، الحديث ، الشعر ، والأمثال ، وحكايات أخلاقية (٤٢) •

ورغم ان مبارك قد تلقى تعليمه كمهندس الا أنه يبرز فى كتاباته ـ كالطهطاوى ـ اهتماما أصيلا بالتاريخ • وقد تضمنت أعماله دراسة أصلية لتاريخ الموازين والمكاييل المصرية (الميزان فى الأقيسة والمكاييل والأوزان) (٤٣) ، وترجمة لتاريخ سيديلوت Sedillot عن العرب من الفرنسية والذى ظهر عام ١٨٩٢ باسم « خلاصة تاريخ العرب » (٤٤) • ويقال أيضا انه كتب تاريخا عن الحضارة الاسلامية (أثر الاسلام فى المدنية والعمران) ، لكنه فقد للأسف (٤٥) •

ونظرا للمهام الرسمية الكثيرة التى كان على مبارك ان يقوم بها ، فان الكتابات التى أشرنا اليها تحتوى على سجل أدبى مثير للاعجاب • وأيا كانت مظاهر الضعف الكيفى التى قد نجدها فى عمله ، فان مبارك مع هذا كان رجلا غير محدود الطاقات يحاول ويتحرى ليعالج أمراضا اقتصادية واجتماعية كثيرة • كان مبارك مقتنعا بحاجة بلده للمعرفة العلمية والتقنية الى جانب التعليم الحديث والغربى ، وفى نفس الوقت فقد كان ملما تماما ومقدرا بماضى العرب والاسلام ولم يكن كارها أبدا الدفاع عنها فى كتاباته • وكتقنى بالتعليم ورجل غير ميال للصراع السياسى بحكم تركيبه المزاجى فانه نادرا ما كان يكشف عن حبه العميق لبلده • لم يكن ممن يعبرون عن عواطفهم علنا عندما كان الأمر يتعلق بالوطنية ، رغم اننا نستطيع ان نستشف هذا كتيار تحتى رقيق من خلال كتاباته (٤٦) • اختار مبارك لعمله الكبير أكثر الجهود البحثية الوسيطة قسوة ووعورة ـ الخطط ـ حيث ان هذا الاسلوب من الكتابة كان يكلفه فهرسة كل مظهر وأى منظر عرفه وتعلق به • وكانت المحصلة عملا لاقى من التهليل فى الحقيقة ما فاق أى عمل آخر قام بكتابته

لما كان « أدب الخطط » يحظى فى مصر بشعبية أكثر من أى من أجزاء العالم الاسلامى ، فقد كان من الملائم أن يتم احياء هذا الشكل على يد مصرى (٤٧) • كانت «خطط» مبارك نسخة معدلة من خطط تقى الدين المقريزى فى القرن الخامس عشر ، ولقد قرر فى الصفحة الأولى منها أنه

لن يقصر مجال الكتاب على القاهرة وحدها وانما سيغطى كل مدن وبلاد مصر كالمقريزى (٤٨) ٠

ومصادر هذه (الخطط الجديدة) (٤٩) هى الحكـايات العربيـة التقليدية ، حكايات الرحالة الأوروبيين ، الخرائط ، سجلات الملكية ، حجج الأوقاف ، واقتباسات من أنواع مختلفة (٥٠) ٠ لكن على الرغم من هذه التشكيلة الواسعة من المادة ، فان مبارك لا يعمل حرفيا وفقا لوعوده ٠ فيشير اشارات عرضية لهيرودوت ، وفى المجلد المخصص لقياس النيل يقدم احصائيات قليلة من كتابات الأمير البولندى رادزويل Radziwil والرحالة الانجليزى شو Show ، والفرنسى فولنى Volney ، ووصف مصر Description de l'Egypte (٥١) ٠ ومع هذا فقد كان اعتماده على المصادر الغربية قليلا ، وكان يستخدم فى أغلب الوقت مادة عربية تقليدية كالذهبى ، السيوطى ، والمقريزى على وجه الخصوص (٥٢) ٠ وفى كثير من الأحوال لا يعطى مبارك ايضاحا بمصدر معلوماته جاعلا الأمر مزدوج الصعوبة عند محاولة التأكد من دقة هذه المعلومات (٥٣) ٠ ويعود هذا الخلل الشائع الى أيام المؤرخ الاسلامى فى العصور الوسطى ٠

«والخطط التوفيقية» هى بكل المقاييس انجاز عملاق يصل الى عشرون مجلدا ٠ ومن الصعب الحكم كم من العمل كان من انتاجه هو شخصيا ، ويقرر مبارك نفسه بصراحة ان أعماله الرسمية الكثيرة جعلت من المستحيل عليه أن يكمل هـذا المهمة وحـده ٠ وقد عدد خدمات العلماء العديدين (جهابذة العلوم) الذى رفعوا اليه بانتظام المادة التى جمعوها (٥٤) ٠ ويفترض ان مبارك قام بعد ذلك بمراجعة وتنقيح واختيار هذه المعلومات ثم حررها لتشكل عملا مقبولا (٥٥) ٠ ولابد ان نصيبه من العمل كان كبيرا ، حيث ان المحتوى يعكس بشدة اهتماماته الشخصية والاسلوب متماسك ومتسق بصورة تكفى للتدليل على ان أغلب الكتابة كانت لشخص واحد (٥٦) ٠

لقد ذكرنا من قبل ان القصـد فى أدب الخطط هو فى العـادة طبوغرافى ـ معمارى أكثر منه تاريخى خالص (٥٧) ٠ « وخطط » مبارك هى نموذج لما ذكرنا ، ذلك ان القصـة التاريخية تنتهى فى الصحيفة السابعة والسبعون من المجلد الأول ٠ وتغطية الفترات التاريخية العديدة شاذ وغريب أيضا كما يبينه تنظيم هذا المجلد :

الموضوع	الصفحة
تاريخ القاهرة منذ انشائها فى عهد الفاطميين وحتى عام ١٥١٧	٤ ـ ٥٥
مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨)	٥٥ ـ ٦٠
الاحتلال الفرنسى	٦١ ـ ٦٢
عصر محمد على	٦٥ ـ ٧٦
ابراهيم ، عباس ، سعيد ، اسماعيل ، توفيق	٧٦ ـ ٧٧
جغرافية القاهرة وطبوغرافيتها	٧٧ وما بعدها

وتعطى المجلدات ٢ ـ ٦ وصفا للشوارع ، المزارات ، المدارس ، القصور ، المستشفيات ، الحدائق ، الخ بالقاهرة مع تنظيم كل فئة تنظيما أبجديا (٥٨) • ويعالج المجلد السابع مدينة الاسكندرية بنفس الأسلوب. فبعد مقدمة تاريخية مختصرة يأتى الى وصف المدينة متضمنا بعض مرافقها الحديثة كالطرق الحديدية والتلغراف (٥٩) • وتتبع المجلدات ٨ ـ ١٧ نفس البنية بالنسبة للمدن المصرية الأخرى •

تعكس المجلدات الثلاثة الأخيرة من « الخطط التوفيقية » تأثير التعليم الهندسى على مبارك واهتمامه بالزراعة المصرية وعلى الخصوص بالنيل (٦٠)• وفى المجلد الثامن عشر يتتبع قراءات مستوى مياه النيل من العام العشرين لما بعد الهجرة حتى زمنه • والمجلد التاسع عشر يحوى مناقشة عن القنوات ومشروعات الرى (٦١) : فيشرح مبارك كيف ان النيل قد غير مجراه عبر العصور وكيف ان «باب اللوق» لابد وأنها كانت تحت الماء فى وقت ما • ويتتبع أيضا فكرة القناة عند السويس (ترعة البرزخ) من أقدم العصور وحتى القرن التاسع عشر ، وينتهى بتوبيخ لطيف لسياسة اسماعيل حول هذا الموضوع • ويتصل المجلد الأخير بتاريخ النقود الاسلامية ، وربما كان هذا اشارة الى ان مبارك كان مدركا لأهمية العملات فى دراسة التاريخ • ويؤكد هنا ان أقدم عملة فضية اسلامية يعود تاريخها الى العام التاسع والسبعين بعد الهجرة (٦٢) •

تبدو الخطط التوفيقية من المناقشة السابقة ذات فائدة محدودة للمؤرخ • لكن العكس هو الصحيح ، حيث أن أغلب المعلومات التاريخية الخالصة بالعمل لا يتضمنها المدخل المختصر لكنها مموهة ، وفى الحقيقة مدفونة ، في التفاصيل الغزيرة عن الطبوغرافيا المصرية • فمجلد الاسكندرية على سبيل المثال يحوى دراسة قيمة عن تطور نظام السكك الحديدية المصرية ، والتراجم الكثيرة ـ التى قد تصل فى مجموعها الى نصف المحتوى الكلى للمجلد (٦٣) ـ ذات قيمة تاريخية رائعة •

وفى هذه الفصول يبدأ مبارك بالحديث عن مسجد أو شارع سمى باسم شخصية تاريخية ، ثم يستطرد الى ترجمة لهذه الشخصيه ، واذا كان المسجد أو الشارع قد اعيد تسميته كما هى العادة ـ فانه يقدم ترجمة للشخص الأصلى . وهكذا فانه يدمج عددا ضخما من التراجم فى الخطط لشخصيات ما كان يمكن لها ان ترى النور لولاه (٦٤) . ويزود مبارك القارىء بمنجم من المعلومات عن التاريخ الاجتماعى والاقتصادى لمصر القرن التاسع عشر (٦٥) ، مع أن هذا فى شكل تراجم تمثل للأسف « طبقات » العصور الوسطى ، كذلك فان المعلومات المقدمة هى من النوع السطحى الواقعى ذو القيمة القليلة للمثقفين المحدثين . وفى هذا المقال فان « خطط » مبارك تقليدية للغاية . فالراوية التاريخية مكسوة فى القالب الحولى النموذجى للعصور الوسطى . وكثير من التراجم أقل معلومات من تلك التى قدمها الجبرتى (٦٦) .

اذا نحن أخذنا « الخطط التوفيقية » وفق ما قصد لها أن تكون فهى ممثل محترم شامل للتقليد التاريخى الاسلامى الوسيط . ونطاق العمل لا يقل شمولا عن خطط المقريزى ، ومع ان الدقة لا عيب فيها على الاطلاق فانها يحتمل ان تكون أفضل من دقة المقريزى بكثير (٦٧) . اما النقد الباطنى التاريخى فهو مفتقد فى كتابات مبارك ، وهذا هو ما يقوده أحيانا الى تقديم تقارير منافية للعقل ومضحكة . وهو ككتاب العصور الوسطى ينقل ببساطة ودون تعليق أو نقد اخطاء الكتاب السابقين (٦٨) .

لا يمكن اعتبار « الخطط التوفيقية » تاريخا سواء من حيث المحتوى أو من حيث الشكل . يمكن ان تسمى دائرة معارف ، خلاصة وافية لمادة واقعية ، أو مجموعة من المصادر التاريخية ، لكنها فى التحليل النهائى تفتقد هذا المزيج والتوليفة من الدليل evidence والنقد Criticism' الذى لا غنى عنه Sine qua non فى الكتابة التاريخية الحديثة .

لقد كان الطهطاوى بل وحتى الجبرتى محللين ومفسرين أكثر من مبارك ، الذى عامل التاريخ بثبات كسلسلة زمنية من الأحداث . حقيقة ان محاولته دمج منجزات المثقفين الأوروبيين فى عمله ، وانتباهه لعلم النقود ، واهتمامه بالمقاييس الدقيقة كلها اشارة الى التقنيات الجديدة والاتجاهات نحو الكتابة التاريخية وهو ما غفل عنه كلا من الجبرتى والطهطاوى بصفة أساسية . وتخصيصه قرابة مجلد كامل لمصر الفرعونية يكشف عن مدى تأثير علماء المصريات الأوروبيين على الكتابة التاريخية المصرية (٦٩) . ومع وجود هذه الاستثناءات الطفيفة ، فان « الخطط التوفيقية » تبقى مع ذلك عملا تقليديا شاملا . ورغم ان « الخطط »

نفسها ليست تاريخا بالمفهوم الحـديث للكلمة ، فقد وفرت مسحة من المصادر النفيسة التى لا غنى عنها للدراسات التاريخية التالية ٠

ربمـا يكون مبارك قد أحس ـ مع احجامه عن القيـام بأى تعليق شخصى على الحوادث ـ بأن تاريخه قد يأخذ شكل التاريخ الحولى الثابت الموضوعى الذى ساد العصور الوسطى ٠ فقد علمته دراسته ان يحترم الدقة العلمية ، وكان قادرا على تعزيز التأثير الموضـوعى لكتاباته عن طريق تقويتها بجـداول احصائية ورسوم بيانية وحسابات رياضية من أنواع عديدة (٧٠) ٠ لقد كانت هذه الأسـاليب ابتداعات فى وقتهـا وسرعان ما اقتبسها العديد من معاصريه الأحداث أمثال الكاتبين السوريين فيليب جلاد وجرجس حنين والأرمنى يعقوب أرتين (٧١) ٠ وكان هؤلاء هم الأساس للانجازات الموسوعية لأمين سامى الذى تمتد سيرته الى النهاية القصوى للفترة موضوع الدراسة (٧٢) ٠

هناك الكثير من أوجه الشبه فى حياة وكتابات كل من على مبارك وأمين سامى ، فعلى سبيل المثال تلقى كل منهما تعليما تقنيا فى المهندسخانة٠ وفى الحقيقة فان شيئا لا يعلم عن سنوات أمين سامى المبكرة ٠ فهو يبرز من الخمول فى عصر اسماعيل فقط عند ما يتلقى وظيفة تعليمية فى مدرسة المساحة ببنى سويف حيث يبقى هناك لمدة خمس سنوات ٠ وكشأن مبارك فقد أظهر نشاطا فيما بعد فى نظارة المعارف حيث عمل تحت اشراف دوربك Dor Bey ٠ ومع هذا فان وظيفته الأكبر أهمية ودواما جاءت خلال عهد توفيق عندما أصبح مشاركا فى ادارة المدرسة الخديوية بالناصرية التى كانت تقبل ابناء الأسر النبيلة المصرية فقط ، والتى كانت مستوياتها تبعا لذلك أعلى من أى مدرسة عامة أخرى ٠ فى النهاية أصبح امين سامى مديرا للمدرسة وظل فى هذا المنصب لمدة ربع قرن ٠ ولفترة ما كان الرجل مديرا لدار العلوم(٧٣) وهذا مكنه من التحرك داخل الدوائر الاجتماعية والثقافية المصرية العالية ٠

كانت الكثير من اهتمامات امين سامى مماثلة لاهتمامات على مبارك الذى ربما كان ناصحه ومعلمه ٠ كان شغف أمين سامى طوال حياته هو التعليم ٠ وكان فعالا فى جهود نشر واصلاح التعليم الابتدائى والثانوى فى عهد كل من توفيق وعباس حلمى الثانى ، وساعد فى اعادة تنظيـم دار العلوم (٧٤) ٠ وفى اعقاب استقلال عام ١٩٢٢ رحب بمشروع ادخال التعليم المجانى الاجبارى الالزامى فى مصر ودعم فـكرة توسيع نطـاق التعليم للمصريات (٧٥) ٠ ومثل على مبارك فقد تنبه امين سامى الى الأهمية الطاغية للزراعة بالنسبة لمصر وفى « تقويم النيل » واصل جهود مبارك لتسجيل تاريخ محاولات السيطرة على مياه النيل ٠ وحتى فى السياسة فقد حاكى

أمين سامى مبارك ، حيث كان « مواليا » بدرجة كبيرة • فقد فاز بوظيفته كمدير لدار العلوم من مصطفى فهمى – أحد اكثر رؤساء الوزارات بغضا فى عيون الوطنيين المصريين (٧٦) • وظل يمارس نشاطه فى الحياة العامة حتى ١٩٢٨ كعضو فى مجلس الشيوخ (٧٧) • لكن هذه العضوية لم تكن تعنى تمتعه بتعاطف شعبى،فقد كان الدستور يخول الملك حق تعيين خمس أعضاء هذا المجلس •

تساعد وجهات نظر مبارك وأمين سامى السياسية على فهم الرجلين ، لكنها لا تبدو – باستثناء واحد محتمل (٧٨) – ذات تأثير على نحـــو غير ملائم على كتاباتهما التاريخية • فأى من الرجلين لم يعتبر نفسه سياسيا بل رجلا عمليا له مهمة يؤديها • وكلا من الرجلين خدم بلاده طويلا وجيدا فى وظائف ادارية متنوعة • فمبارك حاول ككاتب ان يضع فهرسا يشمل كل شخصية هامة ومكان فى الماضى المصرى • وكان هدف سامى هو أن يضع تاريخا نهائيا لبلاده •

يقول لنا أمين سامى أن تقويم النيل احتاج ربع قرن ليكتب (٧٩) • وقد أنجز العمل من خلال احســاس ثنائى « بالالتزام بالعلم والتاريخ » والرغبة فى « خدمة أرض الأجداد الحبيبة » (٨٠) • وقصــد منه تلبية احتياجات المؤرخين والعلماء والمهندسين (٨١) ، لهذا فقد كان عبارة عن مزيج من المادة المتباينة المتراوحة بين ما هو تقنى وتاريخى وشعرى (٨٢) •

يتألف « تقويم النيل » من مقدمة وثلاثة اجزاء وملحق • ومع هذا فان الجزء الثالث مقسم الى ثلاثة مجلدات كبيرة ، تجعل العمل كله ستة مجلدات بمفهومنا للكلمة (٨٣) • وينظم العمل وفق التقسيم الآتى :

المجلد الأول : تاريخ مصر ٦٢٢ – ١٥١٦

المجلد الثانى : مصر ١٥١٧ – ١٨٤٨

المجلد الثالث ، الجزء الأول : مصر ١٨٤٨ – ١٨٦٣

المجلد الثالث ، الجزء الثانى : مصر ١٨٦٣ – ١٨٧٢

المجلد الثالث ، الجزء الثالث : مصر ١٨٧٣ – ١٨٧٩

الملحق : خلاصة تناقش الكبارى ، القنوات ، القناطر ، والخزانات على النيل « من فجر التاريخ الى الوقت الحالى » •

لكنها فى الواقع لا تحوى أى معلومات عن تطورات ما قبل القــرن التاســـع عشر •

كان أمين سامى يقصد ان يصل براويته التاريخية حتى عام ١٩١٥ ، من أجل أن يقابل آخر قراءة لمقياس النيل كان قد سجلها فى المقدمة • لكن

النطاق الجبار للعمل حال دون ذلك ، وأصبح « أمين سامي » عاجزا عن التقدم فى المجلد الثالث الذى أصبح فى النهاية كبيرا لدرجة انه قسمه الى الأجزاء الثلاثة السابق الاشارة اليها ٠

فى بداية المجلد الأول حدد سامى المنهجية التى انتواها فى تتبع « التفاصيل التاريخية المتصلة بالحالة العامة للخلافه والأمور الخاصة بمصر » ٠ وقال انه سيتجنب تقنيات المؤرخين المبكرين الذين كتبوا مجرد تراجم للشخصيات الهامة ، واعمالهم وتواريخ الميلاد والوفاة دون اشارة الى « عملية التغير التاريخى » (٨٤) ٠ وانه فوق هذا لن يرتكب اخطاء مؤرخين آخرين معينين ، الذين كتبوا فى الواقع عن التغير التاريخى لكن « على سبيل الحكاية والقياس » ، دون الانتباه الى «سلسلة من الحوادث» « يستلزم بعضها بعضا » ٠ وبكلمات أخرى فان « تقويم النيل » سيتعامل مع التاريخ بطريقة الحوليات وكسلسلة من (السبب والغاية) (٨٥) ٠

ولعل انتباه أمين سامى الى المنهج التاريخى الملائم هو انعكاس للتأثيرات الأوروبية المتزايدة المتخللة للتاريخ المصرى ٠ فهو يؤكد أن « تقويم النيل » سوف لن يكون مجرد كتالوج آخر للأسماء والتواريخ ، ولكنه محاولة الى الغوص فيما تحت سطح الظاهرة التاريخية ٠ واشارته للغرض تعد أكثر الاشارات تعقيدا حتى الآن ٠

بعد سماع كل هذه النيات الجادة ، فان ما نقابله لدى قراءة « تقويم النيل » هو انحسار مفاجىء عندما نكتشف ان سامى قد فشل تماما فيما وعد به ٠ يبدو ظاهريا انه لم يكن لديه أى فكرة عن كيفية تنفيذ خططه ، فوضع نفسه فى مشكلة حالة بتقديم ما خلص الى انه نموذج للمنهج « الجديد » : يتساءل أمين سامى : لماذا تدهورت الخلافة العباسية الجبارة الى حد امكانية تدميرها بواسطة أعداء الاسلام ؟ وكانت الاجابة عنده هى ان العباسيين فقدوا روح قتالهم القديمة وتحولوا بدلا عنها الى حياة الدعة والاسترخاء (٨٦) ٠ ويبدو أن أمين سامى قد افترض ان هذا كان كيفية عمل « التاريخ الحديث » ٠

لو كان سامى استمر فيما يسميه بالاسلوب التحليلى ، لكانت النتائج هى الكارثة

فبعد تقديمه بعض التملق للمفهوم (المنهج الجديد) مع هذا المثال الذى عرضه (عن تفسير تدهور الخلافة العباسية) ينقلب الى أشكال مألوفة للكتابة ٠ لقد أصبح « تقويم النيل » كما وضعه أمين سامى آخر الأمثلة المصرية المشهورة لحوليات العصور الوسطى ٠

في المجلد الأول يتتبع أمين سامى تاريخ مصر والعالم الاسلامى حتى عام ١٥١٦ · وكما تذهب الحوليات فان الكتاب سهل فى مناقشته · فالبنية واضحة والطباعة جيدة ، والسنوات تتدفق فى تتابع منتظم وتحتل الرواية التاريخية جانبا من الصفحة ، بينما يغطى مد النيل وجزره فى نفس السنة الجانب الآخر · ولم يعد هناك مكان للسجع ، والنثر يأتى سهلا غير معقد عاكسا اسلوب أفضل كتاب حوليات العصور الوسطى · وكما هو متوقع فان المصادر نادرا ما يشار اليها ـ والأسلوب يفصح عن ان كنلا كبيرة من المعلومات كان يمكن أن تغربل وتنقى دون تعديل من روايات العصور الوسطى · وبعيدا عن كونه تاريخ تام لمصر فان مجلد أمين سامى الأول هو ببساطة تنقيح لمادة قديمة ولذلك فان من النادر استخدامه فى هذه الأيام ·

ويحتوى المجلد الثانى على بعض الأخطاء الأساسية التى يحتويها المجلد الأول ، رغم ان أمين سامى حاول فى هذه المرة أن يدمج مصادر أوروبية قليلة كجوزيف فون هامر Joseph Von Hammer وكلوت بك Clot Bey · ويعترف باعتماده التقيل على نقولا الترك ، جودت باشا ، ابن اياس ومحمد فريد ، وبالنسبة لحوادث ما بعد عام ١٨٠٥ فقد أشار على وجه الخصوص فى الغالب الى الجبرتى والوقائع المصرية (٨٧) ·

وللمجلد قيمة معينة فى الثروة من الوثائق والاحصائيات التى يحتويها : فتاوى رسمية وفرمانات ، تعداد السكان ، تقلب أسعار القطن، وتقديرات للقوة الحربية والبحرية · والترتيب هنا مرة أخرى زمنى بطريقة محددة ولا يمكن النظر الى الموضوعات بطريقة غير ذلك · ويخلو التيار الذى لا ينتهى من الوثائق والاحصائيات من أى تعليق مصاحب · ومع هذا فان المجلد الثانى عمل مرجعى جيد من حيث ان المعلومات التى يحتويها لا يمكن ان توجد بسهولة فى أى مرجع آخر ·

وتتزايد قيمة « تقويم النيل » لدرجة كبيرة بالأجزاء الثلاثة من المجلد الثالث والأخير التى تغطى الفترة القصيرة نسبيا ١٨٤٩ ـ ٧٩ · ففى هذه الأجزاء يضمن سامى عمله الكثير من الوثائق الأساسية التى كان له وحده ـ عندما عمل فى دار المحفوظات منذ عام ١٨٨٠ ـ فرصة الوصول اليها · ترجمت السجلات التركية بصورة ملائمة الى العربية (٨٨) · والمتن مزود بالكثير من الجداول والرسوم البيانية ، بعض منها يتعلق بالنيل ومسائل تتصل به ، لكن هناك البعض مما يتعلق بمجالات أخرى كالتعليم ، طوائف الحرف ، الايرادات ، الخ · وفى بعض الأحيان تأتى التفاصيل خالية من التناسب ، بل وتصل فى عدم تناسبها أحيانا الى حد ذكر أسماء ومدد

الخدمة لكل مديرى المديريات المصرية ، أسماء ورتب ضباط الجيش وأسماء ومدد خدمة مدرسى المدارس . والمعلومات أيضا مقدمة دون أى تعليقات ، وتبدو فى قيمتها ما يماثل قيمة دليل التليفون (٨٩) .

وعلى الرغم من الضعف البنائى « لتقويم النيل » ، فقد كان العمل التاريخى المصرى الوحيد فى القرن التاسع عشر الذى اقترب نطاقه من نطاق « الخطط » الموسوعية . وفى مجال الدقة والعناية البحثية فان أمين سامى ربما كان يستحق ثناءا أكثر من مبارك ، حيث انه ضمن عمله الكثير من المصادر الأوروبية أكثر من مبارك ويعترف هو نفسه ان نشر العمل قد تأخر عدة مرات بسبب الحاجة الى التأكد من مصداقية المصادر العربية والتركية بالمقارنة مع شهادات المراقبين الأوروبيين(٩٠) . ولعدم اكتفائه بالاعتماد على مجموعات السجلات المصرية ، فقد أرسل أمين سامى الى استانبول للحصول على مادة معينة (٩١) . وعلى وجه العموم فقد كان أمين سامى باحثا منهجيا أكثر من على مبارك ، ولولا الشكل المنسوش والغير رشيق « لتقويم النيل » لكان بالقطع محل استخدام حتى الآن من جانب الباحثين .

كتب أمين سامى دراستين قصيرتين أخريين ، وكلاهما عن التعليم . كانت أولاهما «التعليم فى مصر» (٩٢) وهى أكثر تعبئة بالمادة الاحصائية من « تقويم النيل » . ولم تكن تاريخا على الاطلاق ، وانما ماثلت ميزانية تعليمية . احتوت هذه الدراسة على معلومات قليلة الأهمية عن الفترة السابقة على عهد أسماعيل ، لكن التفاصيل تزدحم بعد ذلك موصلة الى تقييم نهائى للتعليم المصرى كما كان عام ١٩١٤ ـ ١٥ . ولقد كان يمكن للكتاب أن يكون أكثر أهمية كمرجع لولا افتقاره لأى تعليق مصاحب ، وتنظيمه الهزيل .

ظهر عمل أمين سامى التاريخى الكبير والأخير (مصر والنيل) عام ١٩٣٨ . وبالحكم على الكتاب من بنيته فانه كان نتاج قومسيون ملكى وبالتالى فهو جزء من جهد الملك لحفظ السمعة الملكية الملطخة . والكتاب يحوى صفحة كاملة لصور كل حكام مصر من محمد على وصولا الى فاروق .

وتنظيم « مصر والنيل » أكثر ارباكا وحيرة من أى من أعمال أمين سامى السابقة : وحتى هذه النقطة من سجله فقد كان أمين سامى لا يزال غير قادر على ترتيب مترابط . فالكتاب يبدأ بدراسة مختصرة لجهود الفراعنة فى ضبط مجرى النيل كبناء الخزانات ، مشروعات الرى ، واجراءات تقليل التغرين Silting . ثم يقفز المؤلف فجأة عبر ألف عام الى استكشافات سير صمويل بيكر Sir Samuel Baker فى السودان ومشروعات محمد على للرى . وهكذا فان المصادر تتراوح من هيرودوت

Herodotus الى تاريخ ماريوت بك Marriott Bey عن مصر القديمة الى الأرشيف الرسمى الحكومى (٩٣) ٠

ويلى ذلك وصف للتعليم المصرى والرفاهية العامة خلال العصور الوسطى ـ وهذه المعلومات مستقاة من ابن خلدون ، ابن دقماق ، والمقريزى (٩٤) ٠ واذا نحن ضممنا الجزئين الأولين معا فانهما يمثلان ثلث الكتاب ٠ ويتكون الثلثين الآخرين من قائمة من الرسوم البيانية والاحصائيات التى توثق تطور التعليم المصرى من عهد محمد على وحتى فاروق ٠ وقد استمدت هذه المادة مباشرة من « تقويم النيل » ورتبت ببساطة فى شكل جدولى (٩٥) ٠ وعلى ذلك ، فالى جانب عدم ترابط الكتاب فانه لا يحوى أى مادة جديدة وليس به أى قيمة كمرجع على الاطلاق ٠

ومثل كل المؤرخين فى عهد ما قبل الاحتراف ، فان الكتابة التاريخية عند على مبارك وأمين سامى كانت عملا اضافيا ٠ فقد كان كلا من الرجلين موظفا حكوميا متفانيا فى المقام الأول ، أمضى حياته كمعلم ، مهندس ، ومنظم حكومى ٠ وقد أعجبا ـ كالطهطاوى قبلهما ـ بالأسرة الحاكمة فى مصر ولم يتورطا فى الاضطرابات التورية فى زمنهما (٩٦) ٠ ولو كانا فعلا ذلك لكان ذلك معادلا لحياة الخمول ، ولكانا غير قادرين على المساعدة فى تنمية وطنهما ٠ وهذا ما كان سيواجه أى ثورى ، وأيا كانت دوافع على مبارك وأمين سامى ، فقد اختارا ان يعملا من خلال النظام بدلا من ان لا يعملا على الاطلاق ٠

بالرغم من واجباتهما الرسمية الكثيرة والضغط القاسى عليهما لقصر جهودهما على الميادين التقنية ، فان كلا من الرجلين كشفا عن مثل هذا الاهتمام المكثف بتاريخ وطنهم الى حد محاولة كل منهما ـ بطريقته الخاصة ـ أن يجمع فى أعماله كل ألوان الطيف Spectrum من المعرفة التاريخية ٠ ومع أنهما فشلا على وجه العموم فى هدفهما ، فانهما نجحا من منظور آخر : لقد جعلت الشمولية الشديدة التى عاملا بها الموضوع من عملهما عملا لا غنى عنه بصرف النظر عن أخطائه ٠

ورغم أن الطهطاوى مثل جيلا أقدم وأكثر « تقليدية » من المصريين ، من على مبارك وأمين سامى ، فانه مع هذا قد أثبت فى النهاية أنه أكثر قدرة منهما على التكيف مع أفكار جديدة ٠ ولقد كانت هذه الخصوصية راجعة فيما يحتمل الى خلفيته الأزهرية جزئيا ، تلك الخلفية التى تجاهلت التاريخ لنفسه لكنها غذت ببطأ فى خريجيها قدرة على التفكير فى مصطلحات غير المصطلحات الكمية وحدها ٠ لقد كان الطهطاوى أكثر اطلاعا وتآلفا مع المفاهيم والأفكار التجريدية العقلية من على مبارك وامين سامى ، الذين كانا قد علما القياس منذ البداية ، وعلى أساس ذلك ، وبرغم ذلك فقد

أرادا أن يجربا التاريخ ـ فأخرجا نتاجا من نتاج العصور الوسطى أساسا، لطمه ففط ذلك الاتقن والدقة الاحصائية التى للعالم • وربما لم يكونا قد تبينا ان أعمالهما لم تضف زيادة فى الفهم التاريخى ، لكن هذه الأعمال كانت على نمط (المسـعودى) تصـنيفا لكميـات ضـخمة من المـادة التاريخية (٩٧) • وحتى فى مجال (الاسلوب) فقد كانا على أكثر تقدير سائرين على الأقدام • وقد استطاع « أمين سامي » فقط ان ينجز عمله دون سجع ، لكن أسلوبه وأسلوب على مبارك كان بعيدا عن المنافسة مع أسلوب « المؤرخين الوطنيين » مثل مصطفى كامل أو محمد فريد • على أن الأهمية الباقية لتاريخهما تبقى فى ابعادهما الموسوعية التى كانت كافية فى حد ذاتها لأن تضمن الخلود لهما • ان « الخطط التوفيقية » و « تقويم النيل » ليسا مشوقين (كتاريخ) فى حد ذاته ، لكن التشويق فيهما يعود الى كونهما (مصدرا) للكتابة التاريخية ، وهذا (المصدر) أكثر متانة من (التاريخ) دائما •

لقد خدم على مبارك وأمين سامى مصر فى وظائف رسمية عديدة ولمدة قرن بينهما • وفوق هذا ، فقد خصصا كل دقيقة من وقتهما لجمع المادة اللازمة لاعادة بناء الارث القومى المصرى • ولقد كان هذا فى ذلك الوقت عملا غير مشكور ، محتاج الى تفان غير أنانى للوطن • وبصرف النظر عن البحث ، فان الكتابة الفعلية لعمل « كالخطط التوفيقية » أو « تقويم النيل » لابد وأن تكون قد استغرقت سنوات كثيرة • كان مبارك وسامى أكفاء للمهمة ، بالرغم من الخدمات الكثيرة التى كلف كل من الرجلين بأدائها •

حواشي الفصــل السادس

(١) آيلون Ayalon
"The Historian al-Jabarti", p. 219 n. 1.

(٢) الشيال
"A History of Egyptian Historiography", p. 48.

(٣) المصدر نفسه ، ومحمود الشرقاوى وعبد الله المشد « على مبارك : حياته ودعوته وآثاره » (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٢) ص ١٤ ٠

فاز هذا الكتاب بالجائزة الأدبية للأكاديمية العربية للغات ٠

(٤) محمد عبد الكريم « على مبارك : حياته ومآثره » (القاهرة : مطبعة الرسالة ، بدون تاريخ) ص ٢٧ ٠

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٦ ٠

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٨ ٠

(٧) عبد الكريم « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » ص ٥١ ٠

(٨) لمزيد من المعلومات عن الفلكى انظر ص ١٣٠ ٠

(٩) الشرقاوى « على مبارك » ، ص ٣٤ ٠

(١٠) المسماه (بعثات الأدجال) ٠ وكان الخديو التالى اسماعيل من بين أعضاء هذه البعثة ، ونجاح مبارك فيما بعد كموظف حكومى كان يرجع بدرجة ليست قليلة الى علاقته الطويلة مع حاكم مصر فى المستقبل ٠

(١١) يزعم الشرقاوى ان مبارك عاد الى مصر بالفعل عام ١٨٤٦ ٠

الشرقاوى « على مبارك » ص ٣٦ ، ٣٩ ٠ ومع هذا فان الشيال والرافعى متفقان على تاريخ ١٨٥٠ ٠

الشيال
'A History of Egyptian Historiography", p. 48.

وعبد الرحمن الرافعى « عصر اسماعيل » (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨) ، الجزء الأول ، ٢٢١ ٠

(١٢) أحيانا تهجى طره Tarrah او طره Tarah

والواقع أن النطق الصحيح للكلمة هو طره Torah

المترجم

(١٣) الشرقاوى « على مبارك » ص ٣٨ ــ ٣٩ ، ٤٢ ــ ٤٤ ٠

(١٤) زايد « على مبارك » ص ٦٠ ٠

(١٥) عن أنشطة مبارك فى عهد سعيد انظر الشرقاوى « على مبارك » ص ٤٤ ــ ٥٠ ٠

(١٦) الرافعى « عصر اسماعيل » الجزء الأول ، ٢٢٨ ــ ٢٩ ٠

(١٧) هيوارث دن Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt", pp. 352-53.

(١٨) الرافعى « عصر اسماعيل » الجزء الأول ، ٢٣١ ٠

(١٩) قارن ص ٩٤ من الفصل الخامس (ص من هذا العمل) ٠

(٢٠) محمد عبد الكريم « على مبارك » ص ٩١ ٠

(٢١) الشرقاوى « على مبارك » ص ٥٤ ــ ٥٧ ٠

(٢٢) هيوارث دن Heyworth-Dunne
"Education in Modern Egypt", pp. 353-54.

(٢٣) محمد عبد الكريم « على مبارك » ص ٨٨ ٠

(٢٤) الرافعى « عصر اسماعيل » الجزء الأول ، ٢٣٥ ــ ٣٦ ٠ قارن الشرقاوى « على مبارك » ص ٥٨ ــ ٥٩ ، ٦٢ ٠

(٢٥) الرافعى « عصر اسماعيل » الجزء الأول ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ــ ٣٦ ٠

(٢٦) المصدر نفسه ، ص ٢٣٦ ــ ٣٧ ٠

(٢٧) يقول محمود الشرقاوى معقبا ، على سبيل المثال على قبول على مبارك لمنصب فى وزارة رياض باشا الأولى أنه « بعيدا عن الاحترام لمشاعر على مبارك الوطنية فاننا يجب أن نذكر انه أطرى عمل هذه الوزارة ، وفى اطلاقها يديه للسيطرة على الادارة التى أدارها ٠ لكن موافقته على الرجال الذين فيها وادماج المراقبين الأوروبيين كانت موافقة الغير قادر على فعل أى شىء سوى التسليم بأمر واقع Fait accompli و (محظور الضرورات) ٠

الشرقاوى « على مبارك » ص ٦٥ ٠ ويعتبر كلا من الشرقاوى ومحمد عبد الكريم اختيار مبارك فى عام ١٨٨٢ كوسيط بين توفيق والعرابيين دليل على ان مبارك كان على علاقات صداقة مع القوى الثورية ٠

الشرقاوى « على مبارك » ص ٧٠ ومحمد عبد الكريم « على مبارك » ص ١١٥ ٠ وهذا لغو بالطبع ٠ فقد اختير مبارك لهذه المهمة لأنه أراد ــ أكثر من أى شخص آخر ــ ان يحفظ السلم بين العرابيين والخديو ٠ والوزراء أمثال نوبار ، رياض ، ومبارك نفسه كانوا فى الحقيقة غير محبوبين عند المصريين ٠ وكان هذا بسبب صلاتهم الأوروبية المتعددة ٠

الكسندر شولش Alexander Schölch

"Agypten den Agyptern Die Politische und geselschaftliche Krise der Jahre 1878-1882 in Agypten (zurich and Freiburg. Atlantis verlag, 1972), pp. 87, 230-33.

وتوجد تبريرات أخرى لأفكار على مبارك السياسية فى مقالة الشرقاوى « على مبارك والثورة العرابية » ، المجلة ، رقم ٤١ (١٩٦٠) ص ٤٥ ــ ٥١ ٠

ومن بين كل مزاعم الشرقاوى فان اكثرها غرابة هو ذلك الرأى الجدلى الذى يقول ان سلوك مبارك كوكيل غرفة التجارة المصرية هو الدليل على انه « مصرى القلب والعاطفة) ، فقد كان اكثر عدالة من المدير السابق الذى كان أرمنيا : الشرقاوى « على مبارك » ، ص ٩٧ ·

(٢٨) الرافعى « عصر اسماعيل » الجزء الأول ، ٢٣٧ ـ ٤١ ·

(٢٩) المصدر نفسه · وحتى هذه يجب ان ينظر اليها « كنظام ترميم » جاء فى اعقاب الاحتلال ·

(٣٠) الشرقاوى « على مبارك » ص ٦٩ ·

(٣١) يقول جابريبل باير Gabriel Baer أن مبارك يمجد دون تحفظ حكام مصر فى القرن التاسع عشر ·

جاربيل باير Gabriel Baer
"Ali Mubarak's Khitat as a source for the History of Modern Egypt," Political and Social Change in Modern Egypt : Historical studies from the ottoman Conquest to the United Arab Republic, ed. P.M. Holt (London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1968), p. 24.

(٣٢) الشرقاوى « على مبارك » ص ١٩٥ ، ١٩٨ ـ ٩٩ ، ٢٠٣ ـ ٥

(٣٣) محمد أحمد خلف الله « على مبارك وآثاره » (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، بدون تاريخ) ص ١٤٧ ·

(٣٤) الشرقاوى « على مبارك » ص ١٢١ ·

(٣٥) على مبارك « الخطط التوفيقة الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والمشهورة » (بولاق : المطبعة الكبرى الأميرية ، ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ ـ٨٩) الجزء الأول ، ٣ ·

(٣٦) عن وطنية مبارك انظر الآتى : ـ

١ ـ شولش Schölch
"Agypten den Agyptern," p. 122.

٢ ـ الشرقاوى « على مبارك » ص ١٣٦ ، ١٤٢ ـ ٤٣ ، ١٥٣ ·

٣ ـ خلف الله « على مبارك » ص ٢١١ ـ ١٣ ·

٤ ـ بدر « تطور الرواية فى مصر » ص ٥٤ ·

ويلاحظ أيضا ان « وطنيا عالى الوطنية » مثل مصطفى كامل كان متأثرا بأمانة مبارك واستقامته ودافع عنه باستمرار خلال حياته · الشرقاوى « على مبارك » ، ص ١٧٧ ـ ٧٩ ·

ونستطيع ان نرى كثيرا من الوقود اللازم لتفنيد اتهامات الشرقاوى بافتقار مبارك للوطنية قد جاء من الشرقاوى نفسه · وهذا غريب ولكنه نتيجة شائعة للرقابة الفقيرة المفروضة على الكتابة التاريخية ·

(٣٧) فعلى سبيل المثال كانت « تذكرة المهندسن » عبارة عن كتيب تعليمى للرياضيات والعلوم الطبيعية ، وتناول « تقريب الهندسة » المبادىء الأساسية للمحاسبة ، العلوم العسكرية ، التحصينات ، الخ ·

عن هذه الكتب انظر خلف الله « على مبارك وآثاره » ·

وقد انقسمت مؤلفات على مبارك الى مؤلفات تاريخية ـ ومؤلفات فى التربية والتعليم ـ ومؤلفات جغرافية وثقافية عامة ـ ومدرسية •

فشملت المؤلفات التاريخية :

ـ الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والمشهورة •

ـ نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر •

ـ الميزان فى الأقيسة والأوزان •

ـ آثار الاسلام فى المدنية والعمران •

وكتب فى التربية والتعليم •

ـ مخطوط التربية وما يترتب عليها من تقدم الشعوب

وألف فى الجغرافية •

ـ حقائق الأخبار فى أوصاف البحار •

وله من المؤلفات الثقافية كتابين هما : :

ـ علم الدين •

ـ الكشف والبيان فى اجتماع مادتى الانسان

أما مؤلفاته المدرسية فشملت الكتب الآتية : ـ

ـ تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين •

ـ تقريب الهندسة •

ـ خواص الأعداد •

ـ طريق الهجاء والتمرين على القراءة فى اللغة العربية •

وكانت الكتب المترجمة هى :

ـ تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام ـ وهو كتاب يناقش التغذية باللغة الفرنسية •

ـ خلاصة تاريخ العرب ـ وهو من تاليف العالم.والمستشرق الفرنسى ايمانويل سيديو Emmanuel Sedillot المولود فى مونتمورنس Montmorency (١٧٧٧ ـ ١٨٣٢) •

راجع دكتور/ سمير محمد طه « على مبارك وآثره فى الحياة الفكرية والسياسية فى مصر فى القرن التاسع عشر » ـ مكتبة سعيد رافت ـ جامعة شمس ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ ـ ص ١٥٣ ـ ١٨٧ •

Larousse Universel — Tom Second Paris — Librairie Larousse — 1923, p. 915.

المترجم

(٣٨) ترجمتى لعنوان كتاب « نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر » •

وقد ترجم المؤلف العنوان كالآتى

Thoughts Most Worthwhile on the Taming of Egypt's Nile.

وتعنى بالعربية « أكثر الأفكار جدارة بالاهتمام فى ترويض نيل مصر » •

ولعل الترجمة الصحيحة بالانجليزية لكتاب على مبارك هذا قد تكون
The best of Thought in the Arrangement of Egypt's Nile.

فجملـــة the best of thought أقـرب كثيرا لجملة نخبـة الفـكر ، وكلمـة arrangement وتعنى تدبير تتفق مع الكلمة العربية تماما وتفضل كلمة Taming التى تعنى تدجين - تذليل - ترويض - تلطيف ٠

المترجم

(٣٩) خلف الله « على مبارك » ص ٢٠٨ - ٩ ٠

(٤٠) بدر « تطور الرواية فى مصر » ص ٣١ ، ٦٣ - ٦٤ ٠

(٤١) « وعلم الدين » فى حد ذاتها يجب ان تعتبر أول عمل أدبى عربى حديث يظهر فى شكل حوار روائى (ديالوج) ٠ وهو تميز أعطى كثيرا على سبيل الخطأ لعمل المويلحى « حديث بن هشام » ٠

الشرقاوى « على مبارك » ص ١١٨ ٠

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ - ٤٧ ٠

(٤٣) الشيال
"A History of Egyptian Historiography", p. 52.

(٤٤) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » الجزء الرابع ، ١٩٢ ٠ ويقول على مبارك ان ســـيديو Sedillot قـــد ولـــد بباريس فى ٢٣ يونيـــو عـــام ١٨٠٨ ٠ لكن Larousse Univlrsel تذكر انه ولد فى مونتمورنسى Montmorency عام ١٧٧٧ وتوفى عام ١٨٣٢ ٠

راجع دكتور/ سمير محمد طه « على مبارك وأثره فى الحياة الفكرية والسياسية فى مصر القرن التاسع عشر » ص ١٨٥ ٠

و "Larousse Univer el," p. 915.

المترجم

(٥٠) الرافعى « عصر اسماعيل » ، الجزء الأول ، ص ٢٤٠ - ٤١ ٠

ويقول الدكتور/ سمير طه عن هذا الكتاب « آثار الاسلام فى المدنية والعمران » ان على مبارك قد ألفه ولم يطبع - وأن محمد بك درى الحكيم ذكر فى كتابه « حياة المغفور على مبارك باشا » - القاهرة ١٣١١ هـ - ١٨٩٤ م ، ص ٦١ ؛ ان على مبارك « أكمل كتابا جليلا سماه آثار الاسلام فى المدنية والعمران) فكان هذا الكتاب آخر عمل له مبرور وخاتمة سعيه المشكور فانه نعم الكتاب شرح فيه كل ما أدخله الاسلام من العمران فى الممالك وما ترتب عليه من المدنية والنظام وما تضمنه من الحكم والعلوم العالية بعبارات تكفل بيان المطلوب على وجه صحيح مقبول الا أن هذا الكتاب لم يطبع الى الآن والذى نعرفه من أمره انه لما أكمله تأليفا وتبييضا أعطاه لأحد أفاضل العلماء الأزهريين ليعيد نظره عليه ويدقق فى مراجعه أصول الأحاديث النبوية التى فيه فكان كذلك وقرأه هذا الأستاذ لآخر حرف فيه وكتب بما رآه من بعض ضبط الروايات فى الحديث عدة أوراق الحقها بذلك الكتاب وها هو باقى فيما نعلم بخزانة مؤلفه رحمه الله ينتظر من أهل العلم والعرفان التفاتة الى طبعه لنعم به الفائدة ويعرف فضل الاسلام فى تقدم البلدان » ٠

راجع د/ سمير محمد طه « على باشا مبارك وأثره فى الحياة الفكرية والسياسية فى مصر فى القرن التاسع عشر » ص ١٦٨ ٠

المترجم

(٤٦) شفيق غربال « رسالة المؤرخ » ــ الهلال ٦٥ (١٩٥٧) : ١٣ ــ ١٤ ٠

(٤٧) ليس معنى هذا أن المصريون هم الوحيدون الذين كتبوا « الخطط » ٠ ففى العصر الحديث على سبيل المثال نجد ان محمد كرد على قد كتب كتاب خطط الشام (٦ مؤلفات ، دمشق ، ١٩٢٥ ــ ٢٨) ٠ وربما كان هذا مجرد مصادفة ، لكن كرد على قضى بعض الوقت فى مصر ٠ جمال الدين الشيال « المؤرخون السوريون فى مصر فى القرن التاسع عشر » ــ المجلة ــ رقم ٢٣ (١٩٥٨) ص ٦٥ ٠

وفن تاليف « الخطط » فن مصرى أصيل كما يقول د٠ سمير طه ٠ فقد نشأ فى مصر الاسلامية وأول من ألف فيه الكندى ، وكان آخر من كتب فيه تقى الدين المقريزى من القرن الخامس عشر الميلادى ٠

راجع د/سمير محمد طه « على باشا مبارك وأثره فى الحياة الفكرية والسياسية فى مصر فى القرن التاسع عشر » ص ١٥٥ ٠

و د/ أحمد طربين « التاريخ والمؤرخون العرب فى العصر الحديث ــ دراسة عن حركة التأليف التاريخى فى أقطار الوطن العربى ٠ مطبعة الانشاء بدمشق ١٩٧٠ ــ ص ٨٣ ٠

المترجم

(٤٨) « الخطط التوفيقية ، الجزء الأول ، ص ١ ، ٣ ٠ ويعنف جابرييل باير Bobriel Baer على مبارك على هذه المبالغة ٠ فوفقا لتقديرات باير Baer فان على مبارك تناول أقل من ١٠٪ من المجموع العام للمدن والبلاد المصرية ٠

باير Baer
"Mubarak's Khitat", p. 25.

بل انه حتى بحساب باير Baer فان مبارك ضمن معلومات عن ١١٥٥ مكان ــ وهو رقم ضئيل ٠

(٤٩) والخطط القديمة هى خطط المقريزى ٠

(٥٠) « الخطط التوفيقية » ــ الجزء الأول ، ص ٢ ٠ ويرى باير Baer أن حجج الأوقاف وسجلات الملكية هى أكثر المصادر أهمية فى معلومات على مبارك ٠

باير Baer
"Mubarak's Khitat", p. 15.

(٥١) الشرقاوى « على مبارك » ص ١١٣ ــ ١٤ ، ووفقا لباير Baer فان "Description de l'Egypte" كانت أكثر ما رجع اليه مبارك ، بينما كان استخدامه لفولنى Volney قليلا ٠

باير Baer
"Mubarak's Khitat", pp. 18-20.

(٥٢) من وجهة نظر باير Baer فان الجبرتى كان أكثر المصادر العربية أهمية ٠

باير Baer
"Mubarak's Khitat", pp. 17-18.

ومع هذا فان بحثى كشف عن اشارات كثيرة جدا للمقريزى أكثر من أى مؤلف آخر ٠

(٥٣) كان لمبارك حرية الوصول الى الكثير من المادة الأرشيفية لدرجة تجعل من الصعب ان لم يكن مستحيلا تتبع كل مصادره ٠ وقد قام باير Baer بأكثر الدراسات شمولا

لمصادر مبارك ويرى أنه أفاد افادة واسعة ـ رغم أنها فى أغلب الأحوال غير معترف بها وغير مقبولة ـ من الكتب الاحصائية السنوية المنشوره لرينى Regny ، أميجى Amici ودورباك Dor Bey

باير Baer
"Mubarak's Khitat", pp. 13-14.

(٥٤) « الخطط التوفيقية » ـ الجزء الأول ، ص ٢ •

(٥٥) استخدم مصطلح Workable (عملى) هنا بحرية حيث ان تنظيم « الخطط التوفيقية » وفق المقاييس الحديثة مشوش Chaotic وباير Baer على صواب فى الأمل فى ان يفهرس العمل يوما ما (Baer, p. 22) بشرط ان يوجد شخص يقبل ان يعذب نفسه بالقيام بهذا العمل (الفهرسة) •

(٦) يرى باير Baer أن ملاحظات مبارك الشخصية قد لعبت دورا رئيسيا فى « الخطط » •

باير Baer
"Mubarak's Khitat", pp. 15-16.

(٥٧) انظر ص ٣٢ ، ٣٦ من الفصل الثانى •

(٥٨) زل باير Baer بقوله ان مبارك لم يرتب مادته أبجديا •

باير Baer
"Mubarak's Khitat", p. 21.

(٥٩) « الخطط التوفيقية » • الجزء الثامن ـ مواضع كثيرة •

(٦٠) اشارة الى احتمال ان يكون « مبارك » قد قرأ « مناهج الألباب » •

(٦١) هناك تداخل كبير بين هذا المجلد من « الخطط التوفيقية » و « نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر » •

(٦٢) المعلومات المقدمة عن المجلدات الثلاثة الأخيرة من « الخطط التوفيقية » قد أخذت من كتاب الشرقاوى « على مبارك » ص ١١٣ ـ ١٦ •

وباير Baer لا يتفق بشأن موضوع السويس ، زاعما ان ما أورده مبارك بشأن استكمال القناة لا يتضمن أى نقد لحكومة اسماعيل •

باير Baer
"Mubarak's Khitat", pp. 24-25.

(٦٣) هذا التقدير لعبد الملك

عبد الملك L'Egypte moderne", p. 426.

(٦٤) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ـ الجزء الرابع ، ص ٢٩١ •

(٦٥) باير Baer
"Mubarak's Khitat", pp. 26-27.

(٦٦) باستثناء الترجمة الشخصية لمبارك نفسه التى تعد واحدة من أفضل الأمثلة الاسلامية فى نوعه •

(٦٧) كان باير Baer أكثر من نزاع للانتقاد فى تأكيده ان الدقة « لم تكن واحدة من حسنات « خطط » مبارك » • ويؤسس رأيه على اخطاء مبارك فى تهجى الأسماء الأوروبية وتقديره الخاطىء للمسافات بين المدن المصرية العديدة •

باير Baer
"Mubarak's Khitat", pp. 22-23.

(٦٨) الشرقاوى « على مبارك » ، ص ١١٣ • قارن باير Baer
"Mubarak's Khitat", p. 21

(٦٩) سيزار فرح Caesar E. Farah
"The Impact of the West on the Conflict of Ideologies in the Arab World," Islamic Culture 35 (196) : 111.

وسنتذكر ان الطهطاوى كان أول من تأثر بالفرعونية ، التى تطرح احتمال ان يكون مبارك قد قرأ « مناهج الألباب » و/ أو « أنوار توفيق » •

(٧٠) هذا هو تصوير عبد الملك لتاريخ على مبارك •

انظر عبد الملك "L'Egypte moderne", p. 426.

(٧١) لم يكن جرجس حنين سوريا ، فهو مصرى ـ ابن حنين عبد السيد من عائلة البغل بالفيوم ، ولد حوالى عام ١٨٥١ • أدخله والده مدرسة المرسلين الأمريكيين بالفيوم • وخدم بالحكومة كاتبا فرئيس كتاب فى عدد من مديريات القطر ثم انتقل فى عام ١٨٩٣ الى المالية فعين رئيس قلم فى مراقبة الأموال غير المقررة ثم رئيس قلم فى مراقبة الأموال المقررة • وفى يناير ١٨٩٧ رقى وكيلا لادارة الأموال المقررة ثم رقى مديرا لهذه الادارة فى يناير ١٩٠١ • وقد انتدب لمدرسة البوليس والادارة لتدريس القوانين المالية ، وقد وضع كتابا لتلك القوانين لتلاميذ هذه المدرسة • وعين عضوا فى لجنة ادارة تلك المدرسة • وانتخب عضوا فى المجلس الملى فى ديسمبر ١٩٠٥ •

فى عام ١٩٠٤ ألف كتابه الشهير « الأطيان والضرائب فى القطر المصرى » • وفى عام ١٩٠٩ وضع كتاب « مجموع قوانين الأموال المقررة ولوائحها » • وله خطبة فى « الضرائب العقارية • حصل على رتبة البكوية • وتوفى عام ١٩١١ •

واجع رمزى تادرس « الأقباط فى القرن العشرين » الجزء الرابع ـ القاهرة ـ طبع فى جريدة مصر ـ ١٩١٠ ص ٤٩ ـ ٦١ •

المترجم

(٧٢) يزعم عبد الملك ان مبارك لم يبدء « مدرسة » حقيقية للكتابة التاريخية يمكن تحديها •

عبد الملك L'Egypte moderne", p. 425.

ولقد كان النموذج التوثيقى الاحصائى من التاريخ هو من صناعة مبارك ، وفيما بعد اقتفى خطواته مؤرخون أمثال جلاد ، حنين ، ارتن ، النقاش ، وأمين سامى • ويحمل عمل اسماعيل سرهنك باشا أيضا آثارا من تأثير مبارك •

(٧٣) المعلومات البيوجرافية مأخوذة من أمين سامى « لما كنت معلما » ــ الهلال ٤٥ (١٩٣٧) : ص ٦١٠ ــ ١٢ •

(٧٤) سامى « المدارس فى ربع قرن » ص ٥٩٨ ــ ٦٠١ •

(٧٥) أمين سامى « تطورنا فى أربعين عاما : التربية والتعليم » ــ الهلال ٤٠ (١٩٣١) ٢٣ ــ ٣٢ •

(٧٦) كان رئيسا للنظار ١٨٩١ ــ ٩٣ و ١٨٩٥ ــ ١٩٠٨ • عن النظرة الوطنية لمصطفى فهمى انظر عبد الرحمن الرافعى « مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال » (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٢) ص ١٩٤ ــ ٩٥ • ووجهة نظر الرافعى مؤيدة فى عمل روبرت تيجنور Robert Tignor

"Modernization in Egypt", p. 346.

(٧٧) بدون مؤلف ، نقد « لتقويم النيل » لأمين سامى ، فى المقتطف ٧٣ (١٩٢٨) • ص ١٠٠ •

(٧٨) انظر ص ١٢٣ من الفصل السادس •

(٧٩) أمين سامى باشا « تقويم النيل » (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩١٩ ــ ٣٦) ، المقدمة ، ص ٥ •

(٨٠) « تقويم النيل » ، مقدمة الملحق • ومثل مبارك ، فان سامى نادرا ما يعرض مشاعره الخاصة بشأن أى موضوع معين ، ومع هذا فقد سمح لنفسه مرة واحدة فى « تقويم النيل » ان يمدح مصر كبلد يستطيع فيها (صاحب المواهب النشيط) ان يصعد قدما •

المصدر نفسه ــ الجزء الأول ــ ص ١١٧ • والصيغة بها بعض الذكريات عن الطهطاوى (انظر ص ٧٦ ، ٨٤ حاشية ٥٠ من الفصل الرابع) •

(٨١) « تقويم النيل » ، المجلد الثالث ــ الجزء الثانى ص ٣٠ •

(٨٢) اتبع سامى تقليد العصور الوسطى باقحام شعر كتب على شرف مناسبة عظيمة فى مواقع وثيقة الصلة بالموضوع •

المصدر نفسه ــ المجلد الثالث ــ الجزء الثانى ــ ومواضع أخرى •

(٨٣) المقدمة والمجلد الأول مرتبطان ببعضهما كوحدة واحدة •

(٨٤) اعتقد ان هذه هى أفضل ترجمة للكلمة دول (مفردها دولة) • فالمعنى المعتاد لكلمة State لا يتماشى مع هذا السياق •

وقد بحثت فى النص عن صلة بين ما ذكره المؤلف فى حاشيته والنص فلم أجد ــ اذ أن النص يقول :

At the start of Volume I Sami outlined the methodology he intended to use in tracing the various "historical particulars relating to the

general state of the Caliphate and the, specific affairs of Egypt." He would eschow, he said the techniques of earlier historians, who had written mere biographies of notables, their accomplishments and birth and death dates, without reference to "the process of his.orical change."

المترجم

(٨٥) « تقويم النيل » ، المجلد الأول ، ص ١١٧ ٠

(٨٦) المصدر نفسه ٠ ومثل الكثيرين من مؤرخي القرن التاسع عشر المسلمين ، فقد كان لدى سامي معرفة ماضية بابن خلدون ٠

(٨٧) المصدر نفسه ٠ المجلد الثاني ، ومواضع أخرى ٠

(٨٨) المصدر نفسه ٠ ص ٢٧ ــ ٢٨ ٠ قارن المجلد الثالث ، الجزء الأول ص ٣١ ٠

(٨٩) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، ومواضع أخرى ٠

(٩٠) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، الجزء الثاني ، ص ٣٢ ٠

(٩١) المصدر نفسه ٠

(٩٢) العنوان الكامل للكتاب هو « التعليم في مصر في سنتي ١٩١٤ و ١٩١٥ وبيان تفصيلي لنشر التعليم الأول بأنحاء الديار المصرية (القاهرة : مطبعة المعارف : ١٩١٧) ٠

(٩٣) أمين سامي باشا « مصر والنيل من فجر التاريخ الى الآن (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٨) ص ٣ ــ ١٣ ٠

(٩٤) المصدر نفسه ، ص ١٤ ــ ١٦ ٠

(٩٥) المصدر نفسه ، ص ١٧ ــ ٥١ ٠

(٩٦) في لغة مبارك المنمقة المزخرفة « بلغت (مصر) قمة السعاده والازدهار في ظل حكم العائلة المجيدة لمليكنا ومولانا الجليل المرحوم الحاج الحديو محمد علي ٠ « الخطط التوفيقية » ، المقدمة ، ص ٢ ٠ وقد عبر سامي عن نفس هذه العواطف بمصطلحات أقل توهجا مشيرا الى محمد علي بأنه هو الذي « سبب رفعة مصر الى قمة قوتها ورفاهيتها ، حتى أنها أصبحت في عهده جزءا من طليعة الدول صاحبة الشأن ٠ وعندما تولى العرش جلس العدل والدين القويم الى جانبه وشاركاه في حكمه » ٠

« تقويم النيل » ، المجلد الثاني ، ص ٢٧ ٠

(٩٧) قارن ص ٣١ من الفصل الثاني ٠



الفصل السابع :

المؤرخون الاخباريون المحدثون : شارو بيم وسرهنك

مع نهاية القرن التاسع عشر كانت الكتابات التاريخية المصرية قد أصبحت اكثر عددا ، أكثر دفة ، وأفضل تنظيما (١) • كانت مصر تنتج لأول مرة ليس فقط مصنفين أمثال على مبارك وأمين سامى ولكن مؤرخين مبدعين وجادين من مؤرخى الفترات القديمة والوسيطة (كمحمود الفلكى) ، (على بهجت) و (أحمد كمال) الى جانب سرب من الكتاب الجدد المشتغلين بالفترة الحديثة من التاريخ المصرى • وقبل الالتفات الى الموضوع الأساسى لهذا الفصل (المؤرخون الاخباريون المحدثون) دعونا نختلس نظرة الى حياة وكتابات كتاب المصريات والعصور الوسطى المصريين فى القرن التاسع عشر • وبينما لا يعنينا هنا محتوى أعمالهم ، الا أن حقيقة ان المصريين كانوا يركزون الاهتمامات والمعرفة بماضيهم قبل الاسلامى ، لدليل طيب على ان المناخ العقلى والفكرى فى القرن التاسع عشر كان يتغير حقيقة •

كان محمود الفلكى (١٨١٥ ـ ١٨٨٥) مؤرخا ، فلكيا ، ومهندسا كتب حوالى خمسة عشر كتابا ومقالة فى موضوعات متنوعة • درس الفلك لتسع سنوات فى باريس ، سافر عبر كل أوروبا ونشر مقالات عن موضوعات علمية وتاريخية فى جرائد أوروبية كبيرة • وقد سمح بنشر أغلب أعماله التى بالفرنسية أصلا وترجمت مؤخرا فقط الى العربية • تضمنت اهتماماته التاريخية الاسكندرية فى العصور البطلمية والرومانية، التقويم العربى قبل الاسلام ، التاريخ الصحيح للهجرة ، وكتابات الغزالى (٢) •

كان على بهجت (المولود فى ١٨٥٩) خريجا من مدرسة الادارة والألسن وأصبح فيما بعد أمينا لمتحف الفن العربى فى القاهرة • تولى مسئوولية الحفريات بالفسطاط عام ١٩١٢ وبالتالى نشر بالاشتراك مع خبراء فرنسيين فى هذا المجال كتبا عديدة عن نتائج أبحاثه ، وقد تضمنت

هذه الكتب وصفا للآنية المصنوعة من السيراميك والبلاط المدهون بالجليز Glaze الذى عثر عليه أثناء الحفريات • وترجم أيضا الى العربية العديد من الدراسات الاثرية القديمة من اللغات الأوربية (٣) •

ربما كان أحمد كمال (المولود فى ١٨٦٠) أول مصرى فى العصور الحديثة يبرع فى الهيروغليفية • كتب تاريخا مفصلا عن مصر القديمة ، مستخدما مصادر أصلية كهيرودوت Herodotus وديودورس Diodorus ، وأعمال علماء المصريات الأوروبيين المعاصرين كبروجس Brugsch (٤) ، ومخطوطات ونتاج صفى انسانى محفوظ فى المتاحف الفرنسية • عمل فى المتحف المصرى للآثار القديمة وكرس حياته لانارة اهتمام بنى وطنه بالفترة الفرعونية • وقد تحوى قائمة كاملة بمنشوراته العشرات من الأعمال (٥) •

أثارت الأبحاث التى قام بها رجال أمثال الفلكى ، على بهجت ، و (الى حد أقل) أحمد كمال اهتماما كبيرا فى أوروبا ونشرت مرارا فى جرائد أوروبية محترمة • عمل الرجال الثلاثة عن قرب مع معاصرين أوروبيين محترفين ومالوا الى التشرب سريعا بالأساليب الاوروبيه لدراسة التاريخ • وكان هذا ترتيبا مفيدا للأوروبيين أيضا ، اذ دون شركائهم المصريين ربما كانوا قد حرموا فى المصادر العربية كالمقريزى ، القلقشندى، ابن دقماق ، الخ • وهكذا فمع اقتراب القرن التاسع عشر من نهايته ، كان بقدرة مصر ان تزعم انتاجها لمتخصصيها المصريين فى الفلك ، الآثار القديمة ، المصريات ، والفترات الرومانية والبطلمية من التاريخ المصرى • ولم تعد بعد ذلك مضطرة للاعتماد على الخبرات الأوروبية دون سواها فى هذه المجالات •

من الصعب اعتبار المصريين الذين كانوا قد دربوا بدقة شديدة فى مجالات المعرفة والدراسة المختصة بواسطة أساتذة أوروبيين ، من الصعب اعتبارهم « شخصيات انتقالية » • لقد انجبت مصر عددا رائعا من الكتاب خلال هذه الفترة ، كان لهم موضع قدم فى كل من المعسكرين المنهجيين• كان على مبارك وأمين سامى أمثلة جيدة لهذا النفر من المصريين • فقد تحقق كل منهما ان المنهجية التاريخية كانت تتغير فعلا ، ومع هذا فانهما فى التحليل النهائى كانا غير قادرين على الكتابة بغير الطريقة التقليدية • ولقد وجد الجيل التالى من المؤرخين ان من الصعب عليهم التقيد بالمدرسة القديمة • صحيح انهم لم يكونوا قد أصبحوا عصريين بعد ــ ليس حتى بمفهوم العصرية التى كان عليها ماكيافيللى Machiavelli ــ لكنهم عمدوا الى ضرب التوازن الدقيق بين القديم والجديد مما دعانى الى تسميتهم بالاخباريين المحدثين Neo-chroniclers

من بين كل الرجـــال الذين يشـــكلون مادة هذا العمـــل ، فان الاخباريون المحدثون اكثرهم انغمارا • فالقليل هو الذى يعرف عن حياة كل منهم ، حيث أنهم سلكوا بصفة عامة فى وجودهم تواضـــعا وتواريا عميقا • وكتاباتهم لاتزال حتى اليوم لازمة لدرجة قصوى لطالب التاريخ المصرى الحديث ، ومع هذا فان أحدا لم يفكر فى تحليل الأساس المفاهيمى الذى نبعوا منه • وهذا سوء حظ كبير ، حيث انه بصرف النظر عن الاهمية الجوهرية لعملهم ، فان مشاركتهم تقدم أفضل تصوير للتأثير الأجنبى (الغربى على سبيل المثال) فى تعديل نسيج انماط تفكير الناس •• ان التأثير الغربى فى كتابات على مبارك وأمين سامى قليل للغـــاية ليسمح لنا ان ندركه بوضوح ، بعكس ضخامة هذا التأثير فى كتابات المؤرخين القوميين • فقط فان التوتر بين التقليدين التاريخيين يبدو واضـــحا بصورة لا مجال للخطأ فيها فى كتابات الاخباريين المحدثين ، وهذا يقدم لنا اجابات هامة عن طبيعة نتاج الاحتكاك الثقافى •

ومع ان هذا الفصل معنى أساســـا بأعمال ميخائيـــل شـــاروبيم واسماعيل سرهنك باشا ، الا اننا مع هذا يجب ان نرقب بايجـــار عمل شخصية تسبقهما وتقل عنهما فى الأهمية • تلك هى شخصية محمـــود فهمى الذى انتج تاريخا حوليا شبه تقليدى • كان الرجـــل يحكم المهنة مهندسا عسكريا عمل عن قرب مع (عرابى) • ونفى فيما بعـــد بسبب نشاطه الثورى الى سيلان ، وبينما كان هناك أنتج تاريخه الممتع • وقد تمكن بفضل استخدام كل المصادر المتوفرة له فى الجزيرة (وأغلبها أعمال عامة بالفرنسية والانجليزية) من ان يكتب تاريخـــا عالميـــا فى أربعة مجلدات • لم يكن فهمى أول أو آخر مصرى يصيغ عملا كهذا ، لكنـــه يبدو الوحيد فيما قبل الحرب العظمى الذى أكمل فعلا دراسة متعددة المجلدات عن تاريخ العالم (٦) •

جعل محمود فهمى عنوان كتابه ــ فى ولاء صادق للتقليد الاسلامى ــ مسجوعا ، وكذلك بدأ روايته التاريخية نفسها (٧) • لكن الســـجع لم يستمر لأكثر من صفحة واحدة أصبح بعدها الاسلوب العادى فى الكتابة يسير قدما غير مزخرف ومحددا فى أغلب الأحوال بالأخبار • وقد ألمح محمود فهمى مثل أمين سامى والكثيرين الآخرين الى نظرية ابن خلدون عن دورة الحضارات Cyclical theory of Civilizations ، وذلك ليعطى تاريخه مذاقا تحليليا (٨) • لكن القصة نفسها لاتضـــم الا أثرا قليلا من هذا المذاق وكذلك تنقصها الوسيلة التفسيرية ولم تزد عن كونها أثرا منقحا للمراجع الأوروبية المتيسر الحصول عليها • ولا توجد أى قيمة حقيقية للقارىء العصرى اللهم الا فى الفقرات الخاصة بتاريخ مصر الحديث

وخاصة وصف أحداث الثورة العرابية (٩) • ففى هذا القســـم يعالج محمود فهمى موضوعه من منظور نقدى بصورة أكثر ، مفسرا الحوادث كصاحب ذكريات أكثر منه مؤرخا • وروايته عن « ثـورة عرابى » هى رواية شاهد عيان جديرة بالاعتبار أكثر من كونها تاريخا •لكنها أيضا ــ وهنا تكمن أهميتها ــ محاولة بدائية لكسر حاجز التعامل الغير نقـــدى الموضوعى للتاريخ الحولى •

ولأن عمل محمود فهمى لم يكن عمل عالم أو مبتكر ، فانه لم يصمد لاختبار الزمن • فهو يصور كيف يستطيع مؤرخ مصرى ان يكتب تاريخا حوليا تقليديا عن حوادث لم يشـــارك فيها ، ومع هذا فانه كالجبرتى وجد انه من المستحيل متابعة نفس الطريقة عندما وصل الى مجموعة من الظروف ذات المعنى • يمكن اعتبار فهمى واحدا من قمم المدرسة القومية فيما يتعلق بفصوله عن مصر الحديثة • لكن لما كان القسم الحديث من العمل غير قياسى بالنسبة للعمل كله بصفة عامة ــ الذى لا يعدو أن يكون نسخة عصرية للتاريخ الحولى ، فان من المناسب ان نضم (محمود فهمى) هنـــا (١٠) •

كان العمل التاريخى لميخائيل شاروبيم (١٨٦١ ــ ١٩٢٠) أكثر أهمية من عمل محمود فهمى • كان شاروبيم قبطيا ، ولد فى حى السقايين بالقاهرة حيث التحق بالمدرسة الأولية والمدرسة الثانوية • وفضلا عن براعته فى اللغة القبطية والعربية ، فقد تضلع أيضـــا فى الانجليزية والفرنسية ، وكان عمره أربعـــة عشر عاما فقط عنـــدما عين فى قلم التحريرات الأفرنجية بنظارة المالية • تقلب شاروبيم فى مناصب عديدة خلال فترة حياته ، فأصبح قاضيا بمحكمة المنصورة الأهلية عام ١٨٨٤ ورئيسا للنيابة بها فيما بعد • فى عام ١٨٩٩ عادا الى نظارة المالية ناظرا فى ادارة أملاك الميرى الحرة (الدومين) (١١) • وبعد تقاعده عام ١٩٠٣ كرس كل اهتمامه للتاريخ ، ولقد كان لفترة ما رئيسا (لجمعية التوفيق القبطية) وكان زعيما معترفا به للمجتمع القبطى المصرى (١٢) •

ومع ان شاروبيم كان مسئولا أيضـــا عن تحقيق ونشر مخطوطة قديمة وقيمة (١٣) ، فان ذكراه الطيبة تعود بالدرجة الأولى الى تاريخه عن مصر • سمى العمـــل « بالكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » "A definitive History of Ancient and Modern Egypt" وظهر عام ١٨٩٨ ــ ١٩٠٠ فى أربعة مجلدات ضخمة (١٤) • خلا كلا من العنوان والنص من السجع ، وقد جعل هذا شـــاروبيم أول مؤرخ مصرى بارز يتخلص تماما من الأنماط الاسلوبية القديمة (١٥) •

تم تنظيم المجلدات الأربعة على الوجه التالى •

المجلد الأولى : مصر القديمة من نوح الى الفتح العربى •

المجلد الثانى : الجزيرة العربيـــة فيما قبل الاســلام ، الخلافة ، الفاطميين ، الايوبيين والمماليك حتى الفتح العثمانى •

المجلد الثالث : مصر العثمانيـــة حتى عام ١٨٠٥ وتأسيس دولة محمد على •

المجلد الرابع : مصر والامبراطورية العثمانية حتى نهاية عهد توفيق •

وسنركز تحليلنا على الجزء الأخير من المجلد الثـالث وكامل المجلد الرابع وهما الأقسام التى تعالج الفترة الحديثة •

مع ابتعاده عن نماذج السجع الخاصـــة بالأزمنـــة السابقة ، فان شاروبيم لم يجد بديلا أبيفا ليلجا اليه • ويبدو انه كان يبحث عن أداة تعبير محكمة واقتصادية (الأسلوب المباشر ؟) ، وهى تلك التى أخذت فى النهاية شكل الجمل القصيرة ذات البنـــاء الاســـنادى الموضـــوعى Subject-predicate Construction • وقد اجرى شاروبيم ربط هذه الجمل واحدة بعد أخرى بصورة متصلة ، مع بعض الضم العربى المألوف للزمن باعتباره رابطة العقد الوحيدة • كان شاروبيم يتبع قاعدة الممارسة الحولية ، كمـــا ان تاريخـــه يحمل على الأقل تماثلا مع التاريخ الزمنى العربى الخاص بالعصور الوسطى • وهناك مقاطع ، يبلغ طولهـــا فى بعض الأحيان دستات dozens من الصفحات مما يعطى الاحساس بأن لا شيء ذو أهمية قد حدث فيما عدا مرور الزمن (١٦) •

ومع هذا ، فان الانطباع الابتدائى مضلل ، والأمر لايحتاج الى كثير من الفحص لنرى ان التاريخ الزمنى الذى كتبه شاروبيم أكثـــر تثقيفا بدرجة كبيرة من معظم كتابات الآخرين • ذلك أنه ، الى جانب مناقشـــة الحوادث التاريخية نفسها ، فان شاروبيم يذهب مرارا وراء الأســـباب التى وراء هذه الحوادث ، فهو يحاول ، على سبيل المثـــال ، ان يثبت دوافع نابليون لغزو مصر : « قال البعض أنها كانت من أجـــل مضايقة البريطانيين وتدمير قوتهم • وقال البعض انها كانت لفتح المدن والأمصار • وقال البعض أشياء أخرى » (١٧) • وبصورة مماثلة فان شـــــاروبيم لايكتفى فى روايته عن غزو محمد على لسوريا الا بعد ان يحدد ســـببين محتملين على الأقل لشن هذا الهجوم : (١) العدد الضـــخم من المصريين الذين هربوا الى عكا ليتجنبوا التجنيد (٢) وقاحة الجزار السابقة التى لم ينسها محمد على (١٨) •

في مجال اهتمامه بالتقييم النقدى للرجـــال والحوادث ، افترق ميخائيل شاروبيم عن مؤرخ العصـــور الوسطى النموذجى • فتقييمه لعهد محمد على على سبيل المثال تضمن ملامح ايجابيـــه كاصلاح برعة الأشرفية واصلاح الجيش وانشاء المدارس الحديثـــة والمصـــانع وفتح السودان • لكنه فى نفس الوقت لفت الانتبـــاه الى الطبيعه المصادرة لضرائب محمد على وللعبء الذى وضعته على المصريين(١٩)•ودون التصحية بموضوعيته فقد نجح شاروبيم فى رسم صورة تاريخية أكثر كمالا ومعلوماتية عما احتوته الكتابات التاريخية الوسيطة • فقد كان تحليليا بوعى وثبات أكثر من أفضل قرنائه العصور وسطويين •

كان مثل هذا التناول للتاريخ يعد تجديدا بمقاييس زمانه ، لكن شاروبيم كان حريصا ان لايذهب بالأمر أبعد مما يلزم • فقد فضل ، كلما كان ممكنا ، ان يتجنب النقد الشخصى بالاحتماء وراء معان اخرى من التفسير التاريخى ذات السوابق المتمتعة بعداسة القدم ــ بمعنى مزاولة تبطين روايات مختلفة لنفس الحادث • كان لهذا التكنيك ميزة أن يرى المؤرخ باسلوب الطبرى والمسعودى ان التاريخ قد يعنى أشـــياء مختلفة لأناس مختلفين ، وفى نفس الوقت فانه يحرس دعواه الشخصيه بالحياد المطلق دون ان يتعرض للأذى • كان هذا اسلوبا للتفسير التاريخى أكثر أمانا وأكثر اغراءا لشاروبيم من فكرة المغامرة على وضع غير مستقر • وقد أعطى هذا الأسلوب مع ذلك مجالا كبيرا للتحليل والنقد ، وكان شاروبيم سريعا فى الاحساس بالامكانيـــات التى وفرها هذا الأسلوب للكفاءة البارعة للدعاوى التاريخية • فعلى سبيل المثال ، عندما كتب شاروبيم عن اعتقال الحاكم العثمانى خسرو باشا فى ١٨٠٣ قال ان الاعتقال نتج فى رأى « كتاب معينين » عن صراع خسرو مع أقارب طاهر باشـــا (٢٠) • وصدرت أسباب الثورة اليونانيـــة فى ١٨٢١ بكلمات (قال أصـــحاب التاريخ) (٢١) ، وظهر تعبير (قال بعض الكتاب) مرارا (٢٢) • كان التكنيك مستعيدا لأفضـــل ما فى التاريخ الزمنى الراقى Hochchronik فى العصور الوسطى ، لكن شاروبيم نجح بواسطة التكرار الذى لجأ اليه فى اعطاء عمله مسحة حديثة طفيفة (٢٣) • وفى كل مناسبة كان يعطى تقاريره صفة عدم القطعية كخط رجعة وكان فى كل الأوقات مدركا لما لموضوعه من اثارة للنزاع •

كانت السمة المميزة لتاريخ شاروبيم هى عدالته المدققة • وكلما زادت القضـــية خلافيـــة كلمـــا زادت قدرته على معالجتها بأناقة • فمن المستحيل على سبيل المثال ان تقول عند قراءة بحثه عن الهجوم البريطانى على مصر بقيادة الجنرال فريزر Frazer (١٨٠٧) ان مؤرخا مصريا قد كتب هذه القصـــة (٢٤) • وكذلك فى وصفه للنزاع الذى بدر بين

شريف باشا والعرابيين (فبراير ١٨٨٢) فانه يظل غير متحيز تماما • فهو يقول أولا ان نواب المجلس تحولوا ضد شريف عندما رفض ان يسمح لهم بأن يصوتوا على ميزانية الحكومة • لكنه يعود فينقذ الباشا بالتلميح الى اعتقاده بأن القوى الأوروبيــة ببســاطة لن تسمح له بذلك (٢٥) • ثم هو يترك للقارىء بعد ذلك ان يقرر ما اذا كان شريف أقل من وطنى حقيقى كما يزعم كثير من المؤرخين القوميين ، أم أنه ضحية الظروف •

لم يكن « الكافى فى التاريخ » مجرد تاريخ زمنى آخر • فالتاريخ كما عامله شاروبيم كان له مذاق تحليلى مميز ، ومع هذا فقد احتفظ له بالبناء الأساسى للتاريخ الزمنى • لقد حقق شاروبيم توازنا ملحوظا فى تغطيته لموضوعات شديدة الخلافية كالاحتلال الفرنسى ، وعصر محمد على ، وثورة عرابى دون الحاجة الى تجنب أى من الموضوعات نفسها • وفوق هذا ، فان حقيقة انه لم يقصر دراسته على المسائل السياسية البحته هو علامة أخرى على حداثة كتاباته • فقد كتب عن كارثة الجراد عام ١٨٤٢ ، ثورة البدو فى عهد سعيد وجفاف ١٨٨٩ ــ ٩٠ (٢٦) ، وكلهــا قراءات مفيدة للمؤرخ الاجتماعى أو الاقتصادى أيضا • وهناك أيضا قصص مطولة عن جهود اسماعيل للحصول على الاعتراف القانونى بمبدأ حق البكر فى الارث (فرمان الوراثة فى ٢٧ مايو ١٨٦٦) والتطورات فى السودان فى أواخر القرن التاسع عشر (٢٧) • وليس من السهل دائمــا اكتشاف مصدر معلومات شاروبيم ، لكن من المؤكد انه كان له فرصة الوصول الى كثير من الوثائق الهامة كنتيجة لسجل خدمته الطويل فى الحكومة (٢٨)•

يمثل عمل شاروبيم خطوة حقيقية نحو التأريخ الحديث • فبينما دافع كثيرا عن المنهجية والمزاج العام للتاريخ الزمنى ، فانه مع ذلك ركز الانتباه على الدوافع ، الأسباب ، ونتائج الأفعال التاريخية • وككتاب العصور الوســطى يحــاول شــاروبيم ان يتجنب (النقد الباطنى Internal Criticism) لكنه يعوض ذلك بتقــديم جوانب أخــرى للقصــة • وهو حريص للغاية على أن يجسر على مقارنة محمــد على بلويس الرابع عشر (كما فعل الطهطاوى) ، لكن هذا الحرص هو الذى يجعل من شاروبيم مصدرا للمعلومات أكثر اعتمادا عليه من سلفه الأزهرى •

ومثل أهمية دور شاروبيم كان اسماعيل سرهنك باشا الذى ترك له كمعاصر لشاروبيم ان يقيم الدليل على المدى البعيد الذى يمكن ان يدفع اليه التاريخ الزمنى العربى الوسيط • لم يكن سرهنك الأخير فقط ولكنه كان أيضا وبلاشك أحد أرفع المهنيين فى فن الكتابة التاريخية الوسيطة •

ولا يعرف الكثير عن حياة سرهنك ، رغم أنه يقدم لنــا بعض الحقائق القليلة عن والده ، الذى أخذه ابراهيم باشــا من كريت ، وفى

عام ١٨٢٥ التحق بالمدرسة الحربية (بقصر العينى) • فى عام ١٨٣٠ نقل الى المدرسة البحرية حيث أكمل دراساته • وفيما بعد تقلد مناصب عليا فى البحرية المصرية وشارك فى عمليــــات بحــرية هامة خلال حرب القرم على سبيل المثال • وتقاعد فى عهد سعيد لكن عهد اسماعيل شهد نشاطا متجددا له • وكان تقاعده النهائى فى عام ١٨٨٧ ، وتــوفى فى ١٨٩٥ (٢٩) •

ولا توجد ترجمة لسيرة سرهنك نفســـه (٣٠) • لكن المرحــوم جمال الدين الشيال ، لحسن الحظ ، أخذ على عاتقه مهمة البحث الشاقة فى تاريخ سرهنك واستخراج كل دقيقة من المعلومات ذات الصلة بحياة المؤلف • وانتهى الى الصورة الغير كاملة الآتية •

اختير اسماعيل سرهنك كأحد الطلبـــة القليلين الممتازين للقبول بالمدرسة البحريه التى أعيد احيائها من جديد فى عهد اســـماعيل • ولما كانت هذه المدرسة قد أعيد انشائها فى ١٨٦٧ ، فان سرهنك قد دخلها فى سن ما بين ١٢ ـ ١٥ ، وينتهى الشيال الى انه ربما كان قد ولد عام ١٨٥٤ • عند تخرجه بدأ سرهنك كوالده فى تسنم الرتب ، وفى النهاية وصل الى رتبة الادميرال (ميرالاى) ويعرف عنه انه شــارك فى العمليات البحرية فى البحر الأحمر وبعيدا عن ساحل أثيوبيا والعرب • وعندما أرسلت السفينة البخارية « المحروســـة » الى لندن للاصـــلاح عام ١٨٧٢ ، وعادت الى مصر عبر اســـتانبول كان سرهنك واحــدا من قادتها • وانتهى وضعه الفعال فجأة مع الاحتلال البريطانى عندما حلت البحرية المصرية ، ويبدو أنه علم بعد ذلك العلوم العسكرية والمدفعيـــة البحرية للوحدات التى أعيد تنظيمها من البحرية المصرية • وتوفى عام ١٩٢٤ (٣١) •

وكما قصـــد سرهنك أصـــلا فقد جـاء (حقائق الأخبار فى دول البحار) (٣٢) فى ثلاثة مجلدات ضخمة • وقد ظهرت كل هذه المجلدات بالفعل ـ فى ١٨٩٥ ، ١٨٩٨ و ١٩٢٣ ـ لكن المجلد الأول فقط هو الذى كان كما خطط له سرهنك ، فقد غطى الفترات القديمة والوسيطة ، مع تركيز ضخم على البلاد العربية (ما عدا مصر) والامبراطوريه العثمانية أكثر من الحضارة الغربية (٣٣) • وكان المجلد الثانى مخصصا أصـــلا لتغطية مصر ، فرنسا ، وبريطانيـــا العظمى (٣٤) ، لكن الأمر انتهى بتخصيص المجلد كله لمصر وحدها • غطت الصفحات المائتان والعشرون الأولى التاريخ المصرى حتى نهاية عهد محمد على ، وتنـــاول باقى المجلد (٣٦٤ صفحة) الحوادث حتى أوائل القرن العشرين • كان سرهنك قد انحرف بعيدا كثيرا فى المجلد الثانى عن هدفه الأصلى • ولم يستطع

التقدم أكثر فى المجلد الثالث والنهائى الذى كان قد أمل ان يعالج فيه البلاد المتبقية من غرب أوروبا الى جانب روسيا (٣٥) • وأخيرا ظهر المجلد بعد مرور ثمانية وعشرون عاما من نشر المجلد الثانى وأعطى عنوانا جانبيا هو « المجلد الثالث ، الجزء الأول » • كان المجلد أقصر كثيرا من أى من سابقيه واحتوى (استدراك واعتذار) ، قرر فيه سرهنك « أن الموقف السياسى العام قد تغير ، متضمنا أمرا ثابتا بينى وبين قوة نياتى » (٣٦)• كان هذا ــ وفقا للشيال ــ اشارة الى الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ الى جانب التعديلات التى أجريت على نظام الحروف فى (مطبعة) بولاق ، والتى أخرت طبع كتاب سرهنك (٣٧) • على أى حال فان المجلد الثالث تناول تاريخ فرنسا من كلوفيس Clovis الى شارل السابع Charles VII فقط •

وفرت مناصب سرهنك المتنوعة فى نظارة البحرية له الفرصة ليطلع على الكثير من الوثائق الرسمية • وزوده أصدقائه فى ادارات الحكومة الأخرى بمعلومات أكثر ، ونتيجة لذلك ، فان تاريخه مزدان بالسجلات الرسمية التى قد لا يتوفر البعض منها فى أى مكان آخر • فهو يعدد على سبيل المثال أسماء وسعات السفن المصرية خلال عهد محمد على فضلا عن كميات وأنماط التحصينات الساحلية ، الذخيرة والمدفعية المستخدمة فى ذلك الوقت (٣٨) • ويترجم سرهنك الاوراق القنصلية الفرنسية ووثائق الخارجية البريطانية الى العربية ، وفى مناقشته للاحتلال الفرنسى للصومال يذهب الى حد فحص المراسلات الدبلوماسية الايطالية ذات الصلة بالموضوع (٣٩) •

ولا يقتصر اهتمام سرهنك بالمصادر الأصلية ، لكنه يهتم أيضا بالمصادر الثانوية ، ومن المدهش ان يلاحظ المرء كيف بحث كل جوانب القضية بتمكن • والقائمه التالية تعطى فكرة ما عن تنوع المادة التى يستخدمها : تاريخ مانجان Mengin عن مصر فى عصر محمد على ، أعمال كلوت بك Clot Bey ، الجبرتى ، مذكرات أحمد عرابى ، « تاريخ الحرب السودانية » لجابرييل حداد Gabriel Haddad ، ترجمة هانز ريسنر Hans Riesner لأحمد عرابى ، « تاريخ محمد على باشا » للشيخ خليل بن أحمد الرجبى الشافعى ، الجرائد الأوروبية والمحلية ، الخ (٤٠) • وحيثما كان ممكنا فان سرهنك يسعى الى المعاصرة فى المصادر •

ويكشف شغف سرهنك بالوثائق الأصلية ، وفوق كل شيء ، بالتحليلات الاحصائية ، عن التأثير المستمر « لمدرسة » مبارك للتاريخ المصرى (٤١) • وابتداءا بمبارك فصاعدا أصبح المؤرخون المصريون مدركين

بصورة زائدة لأهمية الأصالة فى الدراسات التاريخية ــ وذلك فى شكل مادة مصدرية جديدة ــ او ميدان جديد للبحث أو نظرة جديدة للاشياء • ولم يكن كل ممارسى هذا المنهج متساوين فى النجاح ككتاب مبدعين ، لكن سرهنك يقف على الأقل كواحد من القليلين الذين كانوا أهلا للأشكال الثلاثة التى تتضمنها الأصالة فى الدراسات التاريخية • فقد استخدم مادة مصدرية جديدة وأصلية ، وكان تاريخه أول محاولة مصرية حديثة لدراسة موضوعاتية topical حقيقية لمنطقة ضيقة محددة (تاريخ القوى البحرية) • وفى مجال التفسير • حيث جعلت (طبيعة التاريخ الزمنى) امكانية اختراقه صعبة للغاية ، فإن سرهنك بذل محاولة أفضل من أى من سابقيه لكتابة تاريخ مفاهيمى Conceptual أكثر من مجرد تاريخ ميكانيكى صرف •

وفقا لسرهنك فان الغرض من « حقائق الأخبار » كان سد بعض من الفجوات الموجودة فى المعرفة التاريخية ، وخاصة فيما يتعلق بتاريخ القوى البحرية (٤٢) • وقد فعل هذا جزئيا عن طريق استخدام مادة جديدة ومفيدة ، لكن ما كان أكثر أهمية فى هذا الصدد هو معالجته الشاملة والنادرة للموضوع وأحكامه الجريئة والرفيعة عن الرجال والحوادث • وهو لم يشارك شاروبيم فى موانعه المنهجية ، وهذا على وجه التحديد ما جعل لعمله هذه القيمة •

لتصوير هذه النقاط ، دعونا نختبر عن قرب تكنيك سرهنك التاريخى • فى دراسته للاحتلال الفرنسى يعطى سرهنك للقارىء المصرى ادراكا أعظم للدوافع الفرنسية عن كتاب مبكرين • ولا يغلف الحدث كمسألة مصرية بحتة ، أو كما أصبح مجاراه للحديث فيما بعد بأن يتخلص منه كمؤامرة امبريالية • ولكنه بدلا من ذلك يضع فى الاعتبار المنافسة الفرنسية ــ الروسية فى أوروبا وما جرى فى تيلست Tilsit من محاولة تقسيم باقى العالم بين القوتين العظميين • ويذكر أيضا أهمية وضع مصر الجغرافى والدور الذى لعبته كحلقة وصل بين أوروبا ، الهند والشرق الأقصى (٤٣) •

وعندما ينتقل سرهنك الى عصر محمد على ، فانه يرسم له صورة عامة محببة مدعومة بثروة من المعلومات الاحصائية ، وبالطبع فانه يلمح الى اصلاحات الباشا فى التعليم والزراعة والى فتوحاته فى السودان ، المورة وسوريا (٤٤) • وفى معالجته للسياسة الخارجية ، فانه يحاول ان يصل الى الباعث الرئيسى لمغامرات محمد على العسكرية • ويؤكد أن فتح السودان كان لا يتجاوز الهدف التقليدى لمصر قوية ، ويلاحظ ان المنطقة كانت تابعة لمصر منذ أيام الأسرة الثانية عشرة الفرعونية (٤٥) •

ويزعم ان محمد على أمل من خلال فتحه للسودان أن يكتشف المعادن الثمينه ، وان يضع نهاية للمقاومه المملوكيه لحكمه ، وان يتخلص من التمزيق القبلى لطرق التجارة للجنوب (٤٦) .

كانت المسألة السورية على الجانب الآخر ــ وفقا لسرهنك ــ نتيجة لتشكيلة من العناصر المختلفه . فهو يلمح مثل شاروبيم الى وجود اللاجئين المصريين فى عكا والحقد الذى حمله محمد على للمرحوم الجزار باشا . لكنه يذهب أيضا الى اعتبار المحيط الأعرض ، كحقيقة ان محمد على قد وعد بحكم المورة ثم أجبر أن يشهد اسطوله يدمر بأكمله دون أى مقابل . وسرهنك واع دائما للنفوذ الأوروبى وتأثيره على الحوادث وفى هذا السياق فانه يقدم فرضية تشجيع فرنسا عمليا للغزو السورى بهدف صرف الانتباه عن محاولتها استعمار الجزائر (٤٧) .

لم يكن عند سرهنك الكثير ليقوله عن عباس الأول سوى التأسف على اغلاقه الكثير من مدارس محمد على (٤٨) . ثم يتحول الى اسماعيل فيعنفه لافتتاحه الكثير من المشروعات المكلفة وقليلة الفائدة التى لم تحقق أى نفع للمصريين . وكانت نتيجة تبذير اسماعيل ــ فى نظر سرهنك ــ وقوع مصر تحت مديونية أوروبا ، وهذا ما أدى فى النهاية الى السيطرة الأوروبية على البلاد (٤٩) .

ويقول سرهنك ان التدخل الأوروبى أصبح فى أواخر السبعينيات غير محتمل وكان مزاج الناس يقترب من الثورة . وفى مناقشته لأحداث الثورة نفسها يعبر سرهنك عن فكرة مؤداها عدم امكانية تحميل جماعة معينة المسئووليه الكاملة للكارثة . فقد كان عرابى قد أصبح فى ذلك الوقت بطلا فى أعين الناس ، ولا شك أنه بذل جهدا مخلصا من البداية ليحصل على سيطرة شعبية أعظم على الجهاز الحكومى . ومع ذلك فان العصبه العرابية خرجت عن السيطرة فيما بعد ، وتجاوزت الحدود الملائمة لسلطتها خلال حادثة الاسكندرية وكذلك خلال دعوتها لخلع توفيق . ويفحص سرهنك حادثة (مذبحة الاسكندرية) فى الحادى عشر من يونيو ١٨٨٢ من وجهتى النظر الأوروبية والمصرية ، ومرة أخرى يتجنب تحميل اللوم كله لفريق دون آخر . فيقول ان الأوروبيين كان لديهم أسباب وجيهة للخوف من سيطرة الغوغاء على الشوارع ، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا محقين فى تسليح أنفسهم واطلاق النار على أى مار مشكوك فيه أو مشبوه (٥٠) .

والقسم الأخير من مجلد سرهنك الثانى مخصص للعقدين الأولين من الاحتلال . وهذا القسم مصدر احصائى قيم الى جانب انه خال نسبيا

من الغل الوطني ــ وفق المقاييس المصرية • ان سرهنك لا يعتذر بالضبط للوجود البريطاني في مصر ، ولكنه يشرح جذوره التاريخية ونتائجه • فيبدأ بتعقب الاهتمام المطول لبريطانيا في مصر منذ أيام نابليون وحتى بداية الاحتلال عام ١٨٨٨ • ويعتمد في توثيقه على المراسلات الدبلوماسية البريطانية ذات الصلة ، كخطابات لورد بالمرستون Palmerstone ولورد دالهاوسي Dalhousi • وينسج طريقه برشاقة خلال تعقيدات الدبلوماسية الأوروبية ، مشيرا الى الأهداف المتصارعة للقوى المختلفة وتأثيرها في تطورات العالم الاسلامي • وفي مجال دراسته للاحتلال ، يعدد انجازات البريطانيين في الصحة ، الري ، المالية ، النقل الداخلي ، تخفيف الضرائب على الفلاح المصري ، اضاءة الشوارع ، الخ (٥١) • ومعالجة الموضوعات التي تغطيها الدراسة مناسب ، لكن سرهنك يتوقف معاقا للأسف عند مناقشة أحداث السودان في أواخر القرن التاسع عشر (٥٢) ، وكنتيجة لذلك فانه يحذف كلية موضوعات أخرى هامة كتطور المقاومة الوطنية لبريطانيا في عهد عباس حلمي • ولقد كان سرهنك معنيا بشكل واضح ــ بصفته ضابطا بحريا ــ بانهيار الحكم المصري في السودان أكثر من اعتنائه بسياسات الأحزاب •

يتفوق عمل اسماعيل سرهنك باشا على أعمال كل سابقيه لعمق ادراكه الحسي ونفاذ بصيرته التاريخية • ولقد أشار الى هذا حديثا أحد عظام مؤرخي مصر في القرن العشرين (محمد صبري) عندما سئل عن أي من أعضاء مهنته الذي فعل أقصى امكانه لنشر المعرفة الدقيقة بماضي مصر • فحدد صبري ، من بين آخرين ، أربعة هم ــ الجبرتي ، عبد الرحمن الرافعي ، شفيق غربال ، واسماعيل سرهنك (٥٣) • وقليل من المراقبين الغربيين الذين كانوا يستطيعون تقديم قائمة كهذه ، ورغم ان الأمر أعقد من أن يناقش هنا ، فانه علامة على عظمة صبري كمؤرخ وكرجل لاختياره هؤلاء الأربعة (٥٤) •

وكما نحقق صبري غريزيا ، فان اسم سرهنك يجب أن يبرز في قائمة كهذه لأسباب جيدة كثيرة • أولا ، لأن توثيقة أصلي وشامل (٥٥)• ثانيا ، ولأن مجال الموضوعات التي غطاها عريض بصورة استثنائية ، حيث انه على الرغم من عنوان العمل فانه يحتوى أكثر من مجرد مسائل بحرية أو عسكرية : فيقدم ثروة من المعلومات عن أغلب الميادين • بل ان سرهنك كان مدركا ، أكثر من شاروبيم ــ ان التاريخ لايدور بصفة خصوصية حول السياسة وتعاقب الحكومات • وعلى ذلك فقد عالج موضوعات كالتعليم والاقتصاد المصري بعمق ، وهو لا غنى عنه كمصدر في كل من المجالين • بل ان التاريخ الاجتماعي لقى اهتماما منه ، حيث نجد موضوعات مثل « حالة الفلاحين المصريين في عهد اسماعيل » (٥٦)•

وفى كل حالة كانت المناقشة مفاهيمية ـ مع تركيز مغاير تماما للتركيز الذى يتضمنه « التاريخ الزمنى البحت » ٠

لا تترتب أهمية مشاركة سرهنك التاريخية فيما كتب فقط ، ولكن فى كيفية كتابته أيضا ٠ لقد أخذ الجبرتى وعلى وجــه الخصــوص الطهطاوى الخطوات التجريبية الأولى فى اتجـاه التاريخ التحليلى ، لكن أحدا منهما لم يكن يماثل سرهنك تناغما وحرصا فى تحليله ٠ وفوق هذا فان تعليقـات الجبرتى والطهطاوى كانت فى الأغلب تعليقـات مراقب ٠ بينما كانت أحكام سرهنك أحكام مؤرخ ٠ لقد رأى الأحداث بعين ناقدة وأكثر ثباتا من الجبرتى ٠ وفى مجال التنظيم ، الاسلوب ، التوازن والحنكة المفاهيمية تقدم على الطهطاوى ٠ وبذل جهدا واعيا لاستخراج المعنى من السجل التاريخى ، حتى ولو كان نطـاق عمله لايستطيع ان يضـاهى دراسات على مبارك أو أمين سامى ٠

وبالرغم من ابداعات سرهنك ، فان تاريخه يجب أن يظل معتبرا جزءا من التقليد الحولى التقليدى ، وليس هذا بسبب العنـوان والتوسـل الافتتاحى اللذان كتبا بأسلوب السجع (٥٧) ٠ والحق انه باسـتثناء هذه الفقرات فان اسلوب سرهنك مختصر ، مباشر وأكثر اناقة من النثر المبسط الذى نجده عند مبارك ، سامى ، أو حتى شاروبيم ٠ والى حد ما فان الصفات التحليلية ، التشخيصية لتاريخه ، والتى أشير اليها مرارا فى الصفحات السابقة ليست نموذجا للعمل بصفة عامة مع ذلك ٠ فهى (الصفات التحليلية والتشخيصية) موجودة ، اذا ما فتش المرء عنها ٠

لاحظنا من قبل ان الخط الفاصــل بين التاريخ والتاريخ الزمنى Chronicle خط دقيــق فى بعض الأحيــان ، وأن نوعيــة وجــودة التواريخ الزمنية يمكن ان تتفاوت وتتراوح بين الدراسات العميقة التفكير لرجال كالمسعودى ، مسكويه وابن خلدون ، وبين الانتاج الميكانيكى الذى ساد الفترتين المملوكية والعثمانية (٥٨) ٠ وفى التحليل الذى قمت به أكدت عامدا على مظاهر تاريخ سرهنك التى تفصله عن الكتاب السابقين ـ الطبيعة الخاصة للغاية لمحتوى موضـوعه ، توثيقه الشــامل ، عمقه التفسيرى ، ادراكه لقيمة المعلومات الغير سياسية فى كتاباته ، وهكذا دواليك ٠ هذه هى البقع الأشد اشراقا لعمله اذا جاز التعبير ، والتى تغلف فى قالب شديد التقليدية ، فعلى سبيل المثال قد نجد فقرات ممتدة تتعلق بتعاقب زمنى صرف للأحـداث ٠ وسرهنك هنـا يضمنها عمله دون حاجة ، فاذا رأى أى دلالة لها فانه بالقطع لا يشـير اليها (٥٩) ٠ ويتشابه ، فان الاحصائيات الكثيرة والجداول البيانية فى (حقائق) ، التى يتجاوز المؤلف أغلبيها كلية دون تعليق ـ تبدو وكأنها وردت فى

العمل لمجرد أنها موجودة • وهذا تكنيك ربما يكون مبارك أو سامى قد استخدمه ويطابق الى حد بعيد فلسفة التاريخ باعتباره تصنيفا أو تلك الفلسفة الخاصة بالخطط الموسوعية •

يقترب عمل سرهنك من عتبات التأريخ الحديث ، ولكنه لا يعبره • فهو يوهم بأنه يكتب تاريخا عن القوى البحرية ، لكنه مثل كتاب العصور الوسطى ينتهى بخليط من المعلومات فى كل المجالات • وتنظيم الكتاب غير تصنيفى وصعب الاستخدام للغاية ، لكن العنصر التفسيرى فى زمنه رائع ، رغم ان الكاتب ينحرف مرارا نحو التاريخ الزمنى القديم • وربما كان افضل وصف « لحقائق الأخبار » أنه تاريخ زمنى على وشك ان ينفجر من داخله • لكنه فى هذا لم ينجح فى النهاية ، تاركا للجيل التالى من المؤرخين المصريين مهمة توجيه الضربة القاضية النهائية للتقليد الاسلامى •

حواشى الفصـــل السابع

(١) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، الجزء الرابع ، ص ٢٨١ ٠

(٢) توجد ترجمة وافية عن الفلكى فى الطبعة الحالية من دراسته عن الاسكندرية القديمة ٠ انظر للفلكى « رسالة عن الاسكندرية القديمة » ، منقحة بمعرفة محمد عوض حسين (الاسكندرية : دار نشر الثقافة ، ١٩٦٦) ٠

(٣) يبدو من المقدمات لأعمال بهجت :

Fouilles d'al-Fustat (Paris, 1921).
La Ceramique musulmane de l'Egypte (Cairo, 1930).

انه رغم انه تكنيكيا هو مؤلف الكتابين ، الا أنه كان يعمل بالفعل كمساعد بحث للخبراء الفرنسيين فى هذا المجال ٠

(٤) قارن ص ١١٢ من الفصل السادس ٠

(٥) لمزيد من المعلومات عن حيـــاة وكتابات الفلكى ، على بهجت ، واحمد كمال انظر الشيال ٠

"A History of Egyptian Historiography", pp. 54-65.

(٦) الشـيال

"A History of Egyptian Historiography", p. 70.

قارن حداد

Haddad

"Modern Arab Historians", p. 39

(٧) محمود فهمى المهندس « البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر » (القاهرة : المطبعة الأميرية) ببولاق ٣١٢ هـ (١٨٩٤) الجزء الأول والثانى ٠ ويمكن ان يترجم العنوان الى الانجليزية كالآتى

"The Bottomless sea on the Events of World History".

وترجمة العنوان على هذه الصورة لا يطابق العنوان العربى ، فقد ترجم المؤلف كلمة (البحر الزاخر) The Bottomless sea وتعنى البحر العميق الذى ليس له قرار ـ والكلمة الصحيحة هنا قد تكون The Replete sea البحر الزاخر ٠

كذلك فان المؤلف لم يترجم سوى الشق الأول من العنوان وهو « البحر الزاخر فى تاريـــخ العـــالم » ـ ولم يترجم (وأخبار الأوائـــل والأواخـــر) التى قـــد تكون and the events of the previous and latters لتكون الترجمة الكاملة للعنوان "The Replete sea on the Events of world History, the Events of the previous and latters".

المترجم

(٨) زعم ان كل الأمم تمر بثلاث مراحل :

١ ـ النمو ـ الذى يتميز بالاهتمام بالشئون العسكرية وايماءات الشهامة ٠

٢ ـ النضوج ـ عندما يتحول الانتباه الى النشاط القانونى ، العلمى ، والفنى ٠

٣ ـ الانحدار ـ عندما يستنزف حب المادة قوة الأمة وتسبب النزاعات الداخلية تمزقها ٠

« البحر الزاخر » ـ الجزء الأول ، ص ٣ ٠

(٩) الشيال "A History of Egyptian Historiography"

(١٠) (محدث) هنا فيما يتعلق بتنظيم فهمى الموضوعاتى topical لمادة الموضوع ٠ فى جدول المحتويات يذهب فهمى بعيدا عن الطريق فيقولب المناقشة فى مصطلحات عرفية ٠ لكنه ما ان يبدأ الكتابة حتى يفقد فى الحال ادراك هدفه ٠

(١١) Domain كلمة انجليزية تعنى الملكية التامة للأرض ـ ملك ـ مقاطعة خاضعة لسلطان الحكومة أو الحكم ٠ وفى مصر كان الدومين هو أراضى الخديو اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ٠ فى عام ١٨٧٨ ونتيجة للارتباك المالى الذى أصاب البلاد تنازل اسماعيل عن أملاك أسرته وقدرها ٤٢٥ر٧٢٩ فدانا للحكومة على أن تقوم الأخيرة بعمل قرض بضمان هذه الأطيان لسداد الديون السائرة ٠ وتشكل لادارة أراضى الدومين قومسيون من مصرى وانجليزى وفرنسى لتحصيل ايرادات الأراضى المذكورة لسداد الأقساط ٠ وهكذا تشكلت مصلحة الأراضى الأميرية لتدير (أراضى الدومين) راجع د٠ على بركات « تطور الملكية الزراعية فى مصر (١٨١٣ ـ ١٩١٤) وأثره على الحركة السياسية » ـ دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ ٠ ص ١١٥ ٠

المترجم

(١٢) أخذت المادة التراجمية عن جمال الدين الشيال « التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر » ـ المكتبة التاريخية ، رقم ٣ (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨) ص ٢١٢ ٠ وهذا هو النسخة العربية الأصلية لكتاب الشيال "A History of Egyptian Historiography in the Nineteenth Century" ٠ وبالنسخة تفصيلات أكثر من النسخة الانجليزية ٠ (وربما توجد مصادر قبطية من حياة شاروبيم ، لكننى لم أستطع أن أحددها) ٠

(١٣) « التوليد فى مذهب أهل التوحيد » لحمزة بن على ، وزير الخليفة الفاطمى ، الحكيم ٠ المصدر نفسه ٠

(١٤) يبدو أن مجلدا خامسا كان مخططا له لكنه ظل فى شكل مسودة ٠ المصدر نفسه ٠

(١٥) يوحى التجنب التام للسجع الى جانب التماثل فى العنوان بين شاروبيم وابن الأثير ، ان شاروبيم قد صاغ عمله على نسق (الكامل فى التاريخ) ٠

(١٦) انظر على سبيل المثال دراسته بين محمد على ومحمد بك الألفى ٠

ميخائيل شاروبيم « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » (بولاق : المطبعة الكبرى الأميرية ، ١٨٩٨) الجزء الثالث ، ص ٣٠٤ ـ ٩ ٠

والمعالجة تذكر بالجبرتى وربما تكون قد استعيرت منه ٠

(١٧) المصدر نفسه ، ص ٢١٣ ·

(١٨) المصدر نفسه ، الجزء الرابع ، ص ٤٩

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٥ ، ٣٨ ـ ٤٨ ·

(٢٠) المصدر نفسه ، الجزء الثالث ، ص ٣٠٣ ·

(٢١) المصدر نفسه ، الجزء الرابع ، ص ٤١ ·

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٤٩ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٩٣ ، ١١١ ، ١٩٦ ومواضع أخرى ·

(٢٣) الاجراء منطقى تماما حتى بمقاييس هذه الأيام ·

(٢٤) دون عاطفة ظاهرة يحكى شاروبيم أنه فى أعقاب انتهاء الانذار الذى كان مداه أربعة وعشرون ساعة ، قصف الأسطول البريطانى الاسكندرية ، مدمرا ركنا من (البرج الكبير) والكثير من التحصينات الأخرى · ثم أعطى سكان المدينة أمانا ، ودخل البريطانيون (المدينة) · ناقش حاكم المدينة العثمانى أمين أغا اتفاقية مع البريطانيين مؤسسة على الشروط الآتية :

١ ـ ايواء القوات البريطانية فى مساكن الأهالى بشرط رضاء الأخيرين وتعويض المالك ·

٢ ـ احترام الشريعة وممتلكات المساجد ، مع عدم التداخل فى العبادة ·

٣ ـ سفر المسافرين المحليين على السفن البريطانية الى أى مكان عدا الامبراطورية العثمانية ·

٤ ـ عدم تقرير ضرائب جديدة باستثناء ٢٪ كضريبة جمارك على البضائع المارة عبر الميناء ·

« الكافى فى التاريخ » ، الجزء الرابع ، ص ١٦ ـ ١٧ · قارن عبد الرحمن الرافعى « عصر محمد على » (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١) ، ص ٥١ ـ ٥٢ ، حيث توصف أعمال أمين أغا بأنها « جالبة للعار وجبانة » ·

(٢٥) « الكافى فى التاريخ » ، الجزء الرابع ، ص ٧٣ ـ ٧٤ ·

(٢٦) المصدر نفسه ، ص ٩٣ ـ ٩٤ ، ص ١١١ ـ ١٢ ، ٤٥٨ ·

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ وما بعدها ، ٣٧٨ ـ ٤٢٣ ·

(٢٨) يستشهد حرفيا أحيانا بالمصادر الرسمية ، كخطاب من القنصل ـ جنرال الفرنسى الى ابراهيم باشا (غير المؤرخ) أو فرمان عثمانى · المصدر نفسه ، ص ٥٣ ، ٨٧ · ومع هذا ففى أحوال كثيرة تكون مصادره غير معلومة · وحكايته عن الاحتلال الفرنسى (الجزء الثالث ، ص ٢١٣ وما بعدها) تبدو وقد أخذت مباشرة من الجبرتى ، الذى ذكر فى صفحات ٢٥٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ و ٣١٠ ·

ويستخدم شاروبيم سجلات المحكمة الشرعية فى رشيد للتفاصيل الخاصة بزواج جاك مينو Jacques Menou · المصدر نفسه ، الجزء الثالث ، ص ٢٦٦ · ووفقا لفردرى Verdery فان شاروبيم يعتمد بثقل على الجبرتى فيما يتعلق بعصر محمد على أيضا · فردرى Verdery
"Al-Jabarti,", p. 132.

ومع هذا فان ذلك يمكن ان يكون صحيحا فيما يتعلق بالسنوات المبكرة من حكم محمد علي . وحتى في ذلك الوقت فان شاروبيم أكثر تحليلا وتفسيرا من الجبرتي .

(٢٩) الشيال « التاريخ والمؤرخون » ص ١٢٤ ـ ٢٥ .

(٣٠) هكذا تكون مساوىء التأثير الفكرى الأجنبى . فمع بداية القرن العشرين كان التقليد التاريخى الوسيط قد أصبح ميتا عمليا ، ونتيجة لذلك ، لم يكن هناك « أدب طبقات » عن رجال أمثال سرهنك ووالده .

(٣١) الشيال « التاريخ والمؤرخون » ، ص ١٢٥ ـ ٢٩ . وكلمة Marines (الأسطول) هى أفضل ترجمة هنا فيما اعتقد .

وتقرر (المصادر) العربية ان سرهنك قد عين (مأمورا للبطارية) فى (قرويت الصاعقة) ، حيث علم الموضوعات المشار اليها .

ويفترض ان (قرويت) هى التحريف العربى للكلمة الفرنسية Corvette

(٣٢) ترجمتى « لحقائق الأخبار عن دول البحار » . وهذه آخر مرة سيظهر فيها السجع فى عنوان عمل تاريخى مصرى .

(٣٣) تلقت البلاد العربية والامبراطورية العثمانية ثلاثمائة صفحة لكل ، بينما كان للغرب نصف ذلك العدد .

(٣٤) اسماعيل سرهنك باشا « حقائق الأخبار عن دول البحار » (القاهرة : المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣١٢ هـ) المجلد الأول ، ص ٣ .

(٣٥) المصدر نفسه .

(٣٦) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، دون صفحة .

(٣٧) الشيال « التاريخ والمؤرخون » ، ص ١٣٨ . وقصة تعديل حروف مطبعة بولاق واهية ، لكنى لم أستطع اكتشاف الطبيعة الحقيقية لمتاعب سرهنك التى ربما كانت سياسية أساسا ، حيث ان المجلد الثالث طبع فى النهاية بصورة شخصية .

(٣٨) « حقائق الأخبار » ، المجلد الثانى ، ص ٢٥٣ ـ ٥٥ . قارن الشيال « التاريخ والمؤرخون » ص ١٣٥ ـ ٣٧ .

(٣٩) « حقائق الأخبار » المجلد الثانى ، ص ٢٠٩ ، ٤٩٩ ـ ٥٥ ومواضع أخرى .

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ٣٧٤ ـ ٧٥ ، والشيال « التاريخ والمؤرخون » ص ١٣٢ ـ ٣٤ .

(٤١) يعلق الشيال باتزان هنا فى هذا الخصوص ، بأن شكل الكتابة التاريخية الذى قدمه مبارك وسرهنك كان نتيجة لتعليمهما التقنى والعسكرى .

الشيال ، « التاريخ والمؤرخون » ، ص ١٣٩ .

(٤٢) « حقائق الأخبار » ، المجلد الأول ، ص ٢ .

(٤٣) المصدر نفسه ، المجلد الثانى ، ص ٢٠٩ .

(٤٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ ـ ٥٧ .

(٤٥) تؤيد الكثير من الروايات المصرية ـ السودانية الحالية فكرة « الحدود الطبيعية » لمصر وما يسمى « بوحدة وادى النيل » . وحتى عقدين مضيا ، كان أغلب المصريين يجدون صعوبة فى تخيل سودان مستقل ، وحتى الآن فان « مشروعات اعادة التوحيد » ذائعة باستمرار

(٤٦) « حقائق الأخبار » ، المجلد الثانى ، ص ٢٣٢ ٠

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٢٤٤ ٠

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٢٦٢

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٣٥٤ ــ ٥٥ ٠

(٥٠) المصدر نفسه ، ص ٣٧٤ ــ ٩٠ ٠

(٥١) المصدر نفسه ، ص ٣٨٢ ــ ٨٨ ، ٤١٨ ــ ٢٦ ، ٤٣٨ ٠

(٥٢) المصدر نفسه ، ص ٥٣٧ ــ ٥٥ ٠

(٥٣) دون مؤلف « البحث عن تراثنا : حديث مع الدكتور محمد صبرى » ، الكاتب ، رقم ٩ (١٩٦١) ، ص ٨٤ ٠

(٥٤) فمثلا ، يضمن صبرى اسم غربال رغم أن الاثنين كانا فى وقت ما متنافسين بمرارة ولم يتفقا على شىء ٠

(٥٥) كان سرهنك يتحدث العربية ، التركية ، الانجليزية ، الفرنسية بطلاقة ٠
الشيال « التاريخ والمؤرخون » ، ص ١٣١ ٠

(٥٦) « حقائق الأخبار » ، المجلد الثانى ، ص ٣٥٥ ــ ٥٦ ٠ تتضمن نماذج اخرى مناقشته لثورة البدو فى الفيوم (١٨٥٤) وثورة أحمد الطياب فى بداية عهد اسماعيل ٠ المصدر نفسه ، ص ٢٦٧ ، ٢٨١ ٠

(٥٧) المصدر نفسه ، الجزء الأول ، ص ٢ ٠

(٥٨) انظر ص ١٤ من الفصل الأول ، ٣١ من الفصل الثانى ٠

(٥٩) انظر على سبيل المثال مناقشته للتاريخ السودانى ، التى هى خليط مدهش من التاريخ والتاريخ الزمنى Chronicle
« حقائق الأخبار » ، المجلد الثانى ، ص ٤٦٢ ــ ٩٨ ٠



الفصـل الثـامن :

المؤرخون القوميون : ١ ـ مصطفى كامل

حتى هذه النقطة كان تأثير القومية على التأريخ المصرى قد ظهر بالكاد الى دائرة الضوء • وتواجد نوع من الزهو الوطنى الغامض الغير محدد فى كتابات أغلب المؤرخين الذين درسناهم ، وربما كان الطهطاوى أقربهم الى اعطاء هذا الشعور تعبيرا صلبا • لكن الشعور القومى المصرى لم يتطور الى حد بداية شعور الكتاب غريزيا بولاء نحو وطنهم المصرى الا فى أواخر القرن التاسع عشر • ثم تنافس هذا الولاء الجديد للهيمنة مع الأحاسيس بالتضامن الاسلامى الأقدم ، مثلما تصادم فيما بعد ـ من موقف القوة هذه المرة وليس الضعف ـ مع فكرة الوحدة العربية • ولم يكن انتصار القومية سريعا أو سهلا ، وحتى الوقت الذى انتصرت فيه على الولاء الدينى واجه المؤرخ المصرى كباقى بنى وطنه الورطة النفسية المتمثلة فى محاولة تقرير ما اذا كانت نفسه المسلمة أم نفسه المصرية هى المكون الأساسى لشخصيته• كانت أزمة للشخصية سنراها مجسدة بوضوح فى كتابات رجال أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد •

كان الحد الفاصل فى تقدم القومية المصرية هو « ثورة عرابى » التى عملت كملهم للكتاب القوميين من وقت عرابى وحتى وقتنا هذا • وأفرخت الثورة نفسها عددا من الكتاب الوطنيين المتحمسين ، بما فى ذلك عرابى نفسه • ومع هذا فان روايته الخاصة عن الفترة فقدت ولم تسترد الا فى العقد الثانى من هذا القرن عندما عثر على النسخة الوحيدة الموجودة فى المكتبة الخاصة بمحمد آصف (١) •

كان عبد الله النديم أكثر أهمية من عرابى كمتحدث وكاتب • كان النديم متحدثا بارزا باسم الحزب العرابى خلال الثورة ، وفيما بعد كان له تأثير رئيسى على أفكار مصطفى كامل ، طبقا لرواية جورجى زيدان (٢) • لذلك فان له بعض الأهمية فيما يتعلق بدراستنا لمصطفى كامل علاوة على كونه شخصية قيادية من حيث حقه فى تكوين التأريخ القومى •

ولد النديم عام ١٨٤٥ فى أسرة متوسطة ، واشتغل لفترة من الوقت كنجار سفن وخباز قبل أن يرسله والده الى مسجد ابراهيم باشا لدراسة العلوم الدينية . وأورى شغفا قويا بالأدب أكثر من الدين لكنه تعلم التلغراف ليضمن عيشه . وخلال سبعينيات القرن التاسع عشر سافر بين القاهرة وبدواى (فى محافظة الدقهلية) والمنصورة واشتهر عنه الصراحة فى نقده للأوضاع القائمة . وكنتيجة لذلك فانه فصل مرتين من مناصب مؤثرة . فى ١٨٧٩ قرر أن يذهب الى الاسكندرية حيث بدأت حياته كثائر (٣)

فى الاسكندرية انضم النديم الى (مصر الفتاة) ، وهى منظمة سرية شجعت الاصلاحات من كل نوع . وأصبح نشطا أيضا كصحفى يكتب مقالات (لأديب اسحق) فى جريدتيه (مصر) و (التجارة) . وفجأة ترك مصر الفتاة مفضلا أن يقيم تنظيمه الخاص (الجمعية الخيرية الاسلامية) (٤) . وبدأ النديم يكتسب شهرة ككاتب ومعلم وخطيب .

فى ١٨٨١ هجر النديم الجمعية الخيرية الاسلامية لينشىء (التنكيت والتبكيت) التى ظهر العدد الأول منها فى السادس من نوفمبر . وكانت نغمة الصحيفة خليطا من القومية الملتهبة والهجاء والتحريض ، وسرعان ما أجبرت على التوقف . عند هذه النقطة قرر النديم أن ينضم كلية الى القوى العرابية . فاتجه الى القاهرة ليبدأ فى نشر صحيفة جديدة (الطائف) الاسلامية المتحمسة المناصرة للعرابيين ، التى سرعان ما اكتسبت توزيعا كبيرا فى البلاد . فى ذلك الوقت كان عرابى قد وصل الى ذروة شعبيته السياسية (فى أعقاب استقالة شريف باشا وتشكيل الحكومة الجديدة برئاسة البارودى) ، وأصبح النديم زعيم « حزب » مصر السياسى الأول الذى سمى بحق (الحزب الوطنى) (٥) .

كان النديم مخلصا بشدة لعرابى وظل الى جانبه خلال معركة كفر الدوار ، مستمرا فى نشر (الطائف) كل الوقت منذ الحلول العسكرى ، وتشير الأدلة الحالية الى انه استمر مع عرابى حتى النهاية المريرة وشارك فى جهود خندق خط الدفاع الأخيرة بعد كارثة التل الكبير (٦) ، ومع ذلك ، فعندما استسلم عرابى شرع النديم فى الهرب . جعلت حكومة الاحتلال مبلغ ألف جنيه مكافأة لمن يأتى به حيا أو ميتا ، واضطر النديم الى أن يقضى السنوات التسع التالية متنكرا ، ومسافرا من قرية الى أخرى ، وخلال هذه الفترة كتب النديم (كان ويكون) التى وصفها بأنها خلاصة دينية ، لغوية ، قومية ، سياسية ، جنسية ، أدبية ، وتاريخية . ورغم أن الخديو وجد من الأنسب أن يعفو عنه لدى القبض عليه فى نوفمبر ١٨٩١ الا أنه نفى الى يافا . وبعد فترة قصيرة سمح له عباس

حلمى بالعودة الى مصر ، وهنا التقى بالشاب مصطفى كامل وأصبح ناصحا له لفترة · وفى ١٨٩٢ عاد النديم مرة أخرى لاستعراض نزعته الأدبية بصحيفته « الأستاذ » التى فاق توزيعها كل توزيع الصحف اليومية والأسبوعية المعاصرة · ومع هذا فنظرا لنقده الحاد للحكومة فقد نفى للمرة الثانية · وعاد الى يافا لكنه استقر فيما بعد فى استانبول حيث أصبح مفتش المطبوعات عند السلطان عبد الحميد الثانى براتب قدره ٤٥ جنيها فى الشهر · وتوفى عام ١٨٩٦ (٧) ·

أن يكون عبد الله النديم واحدا من أكثر القوميين الذين أنجبتهم مصر غيره (٨) فهذا واضح فى كل شىء كتب ، سواء أكان ذا طبيعة تاريخية أم لا (٩) · فهو لم يقدم تاريخا حقيقيا لمصر لكنه كتب مقالات عديدة عن الموضوع وكان له تأثير قوى على الأجيال التالية · كما كان رائدا من الأوائل فى مجال اصلاح اللغة ، مجربا فى مواضع عديدة من مجال سيرته الأدبية ما لا يقل عن ثلاثة أساليب :

١ ـ العربية الأدبية « البحتة » مع أسلوب « البديع » التقليدى ·

٢ ـ أسلوب بسيط لين استخدمه فى مقالات صحيفته ووجهه لجمهوره المتعلم ·

٣ ـ ضرب من شبه العامية ملائم للقارىء العام لصحيفة (التنكيت والتبكيت) (١٠) ·

وسواء فى الأسلوب أو الأفكار فقد ترك النديم بصماته على الكتاب التاليين وخاصة أولئك الذين ينتمون للمدرسة القومية (١١) ·

من الصعب المبالغة فى تأثير « الفترة » العرابية على الدوائر الفكرية المصرية · فحتى الرجال الذين لم يشاركوا فى الثورة كانوا مع هذا متأثرين بعمق بأحداث هذه السنوات الأربعة ، ويمكن للثورة أن تعد محمود فهمى وسليم النقاش من بين نتاجها المباشر ، وليس فقط عرابى والنديم (١٢) · ومع هذا فان نشاط كل هؤلاء الرجال قد أوقف سريعا بحلول الاحتلال ، وأجبرت الحركة القومية الجنينية على أن تنكمش لفترة عقد بعد ذلك · وتوزع زعماء مصر القوميون بين سجين ومنفى · وتعلم الخديو توفيق من التجربة أن يخشى الحركات الشعبية أكثر من الانتهاكات البريطانية لسلطته · وصمم اللورد كرومر على مقاومة أى عودة الى الأوضاع التى استلزمت التدخل البريطانى فى المقام الأول · وهكذا فان الحركة القومية المصرية لم تبدأ فى الحصول على قوة الدفع من جديد الا بعد تولى الحاكم الجديد عباس حلمى الثانى السلطة فى عام ١٨٩٢ · وجد كرومر

عباسا أكثر صلابة من توفيق ، وسرعان ما فسدت العلاقات بين الرجلين • لكن ما كان أكثر تهديدا من عباس هو الانطلاق الشهابى لمصطفى كامل الذى زود شعلة القومية بهواء الحماس وهز دعائم الحكم البريطانى فى مصر •

ولد مصطفى كامل فى القاهرة عام ١٨٤٧ ، وكان والده على محمد مهندسا ضابطا ، ومنحته هذه الوظيفة وضعا اجتماعيا مكنه من الحاق ابنه بالمدرسة الخديوية الثانوية (١٨٨٧) • وهناك التقى مصطفى كامل بعلى مبارك لأول مرة ، وانبهر الأخير بفصاحة الأول وتنبأ له بشهرة قومية يوما ما •

أكمل مصطفى دراسته الثانوية عام ١٨٩١ وأعقبها بدراسة القانون• وتعرف ببعض قادة الفكر المصريين أمثال الشاعر على الليثى واسماعيل صبرى ، وفى عام ١٨٩٢ قدمه خليل مطران الى بشارة تكلا محرر «الأهرام» الشهيرة ، الذى فتح له أبواب أعمدة صحيفته ، وبدأ مصطفى كامل يكتب مقالات عن المطامح القومية المصرية • خلال النهار كان مصطفى كامل يتلقى دروسه فى مدرسة الحقوق المصرية ، لكن أهمية اللغة الرفنسية وحدها فى ذلك الوقت للمحامى المصرى دفعته الى الالتحاق بمدرسة الحقوق الفرنسية فى المساء • وجاء لقائه الأول بعباس حلمى الثانى فى نوفمبر ١٨٩٢ عندما زار الحاكم الجديد مدرسة الحقوق • فقد أختير مصطفى ليلقى قصيدة كتبها فى مدح الخديو (١٣) •

كان كرومر وعباس قد اصطدما فى ذلك الوقت حول عدد من الموضوعات ، وأدت « اهانة » كرومر له الى قيام طلبة مدرسة الحقوق المصرية بمظاهرة فى يناير ١٨٩٣ كان مصطفى كامل أحد المشاركين فيها ، وظهرت فى ذلك الوقت مجلته الشهرية (المدرسة) حاملة مقالات عن عدد وافر من الموضوعات تحت شعار (حبك مدرستك ، حبك أهلك ووطنك) (١٤) • فى ذلك الوقت كان لمصطفى أصدقاء من المشاهير أصحاب النفوذ بما فى ذلك عبد الله النديم الذى كان الخديو قد عفا عنه مؤخرا واستقر فى مصر • خلال الفترة من أغسطس ١٨٩٢ – يونيو ١٨٩٣ كان النديم ينشر (الأستاذ) التى كانت تزخر بالهجاء اللاذع ضد البريطانيين • وكان مصطفى كامل يجلس مرارا عند قدمى الرجل الكبير يتعلم منه كل ما يستطيع عن الماضى ونشاطاته القومية • ويحتمل أن يكون النديم قد نصحه ألا يرتكب نفس الأخطاء التى ارتكبها هو ، كالاعتماد على وجه القصر على الجيش بدلا من الرأى العام ، ومعارضة الحاكم ودوائر البلاط (١٥) • اذا كان النديم قد نصحه بذلك فعلا ، فان النصيحة لم تذهب سدى ، ففى السنوات التالية أسس الحزب الوطنى استراتيجيته على مثل هذه السياسة •

في يونيو ١٨٩٤ بدأ مصطفى أول ما أصبح سلسلة رحلاته المتكررة الى أوروبا (١٦) • كانت هذه الرحلات لأغراض الدراسة في البداية (١٧)• لكن مع انغماسه في السياسة شيئا فشيئا تطورت الرحلات الى أوروبا (وخاصة الى فرنسا) الى مجهودات لاقناع القوى الاوروبيه بحق مصر في الاستقلال • ففي يونيو ١٨٩٥ على سبيل المثال سمح له بأن يلقى كلمة في مجلس النواب Chambre des députés وفي نفس العام كتب رسالة قصيرة بالفرنسية عن (أخطار الاحتلال البريطاني) • ونشر مقالة في الصحافة النمساوية عن نفس الموضوع ، وحاضر في الجمعية الجغرافية الفرنسية • في ١٨٩٦ كتب ثلاث خطابات مفتوحة الى جلادستون Gladstone ، حاثا اياه على منح مصر الاستقلال • واتصل بأى شخص وبكل شخص كان مستعدا للاستماع اليه ، وحتى موته عام ١٩٠٨ استمر في محاولة ايقاظ الحماس في أوروبا لصالح القضية المصرية • ومع هذا ، فمع مرور السنين وجد مصطفى كامل انه كان يقابل بانخفاض مضطرد في الاهتمام بهذه القضية أينما ذهب (١٨) •

بدأ مصطفى كامل تاريخه السياسى بمزايا هامة عديدة ليس أقلها رعاية الخديو عباس حلمى الثانى • ولقد كانت طبيعة العلاقة بين الرجلين غير واضحة لفترة طويلة ، ولم يفعل كاتب سيرة مصطفى كامل ، عبد الرحمن الرافعى خلال تلهفه على حفظ ذكرى زعيم حزبه من أى انكشافات تعرضها للشبهة ــ لم يفعل شيئا لتبديد هذا الغموض • ولقد تشكك رشيد رضا وأحمد شفيق فى وقت مبكر فى حقيقة العلاقة بين مصطفى كامل وعباس وذكرا انها كانت غامضة بعمق (١٩) ، واعتبر العقاد الذى لم يكن مراقبا محايدا بالضبط ، مصطفى كامل واحدا (من سماسرة الرتب والنياشين) (٢٠) • وأكدت دراسات أخرى حديثة هذه الشكوك المبكرة ، وجعلت من مسألة تمويل نشاطات مصطفى كامل من جانب البلاط الخديوى محتملة لدرجة كبيرة ان لم تكن مؤكدة (٢١) •

عمل مصطفى كامل متحدا مع عباس لمدة عقد بعد لقائهما الأول ، ثم بدأت العلاقة تفتر بعد ذلك لأسباب متعددة ، ويحتمل أن يكون توقيع الوفاق الودى الأنجلو ــ فرنسى عام ١٩٠٤ واحدا من عناصر تغير العلاقة بين الرجلين ، حيث أصبح من غير المجدى لعباس أن يحاول استخدام مصطفى كامل كاسفين بين بريطانيا العظمى وفرنسا (٢٢) • كذلك فان الخديو قرر فى ذلك الوقت أن يقترب أكثر من الشيخ على يوسف محرر صحيفة (المؤيد) المنافسة لصحيفة (اللواء) • ففى ١٩٠٤ عقد الشيخ قرانه على كريمة الشيخ السادات مما أوجد قدرا كبيرا من السخط عند الشعب المصرى • ودافع عباس علنا عن هذه الزيجة الأمر الذى استفز مصطفى كامل فنشر خطابا غاضبا كرد فعل فى الأهرام (٢٣) • وباتخاذه

جانب علي يوسف في القضية ، فان الخديوى كان يبلغ رسالة فى الواقع تفيد استعداده للابتعاد عن محسوبه ، كذلك فان خيلاء مصطفى كامل حثته على أن يكون هو وليس عباس ، البادىء بالضربة · فى نفس الوقت كان عباسا ينقل فيما يبدو دعايته فى الخارج من مصطفى كامل الى الصحفى المعروف وعضو الزمرة الامبريالية فى البرلمان الفرنسى ديلونكل deloncle وأصبح هو بدلا من مصطفى كامل مسئولا عن تمثيل المصالح المصرية فى فرنسا (٢٤) ·

وجد مصطفى كامل نفسه الآن — ولكل هذه الأسباب معزولا بعض الشىء · كان البئر الخديوى ينضب ، ولم يعد يعتمد على الفرنسيين فى معارضة الوجود البريطـــانى فى مصر · وكان على الرجل أن يبحث عن المساندة فى مكان آخر ، وتبعا لذلك فانه حول اهتمامه خــلال سنواته الأخيرة الى ألمانيا وروسيا (٢٥) · وأصبح أكثر نشاطا فى الجبهة الداخلية أيضا ، وافتتح نادى المدارس العليا عام ١٩٠٥ ودعم مشروع انشاء جامعة أهلية (٢٦) · ومع اختفاء كفيليه الآن (الخديو وفرنسا) فان مصطفى كامل لجأ الى توسيع قاعدته الشعبية عن طريق حث الناس على ابداء مقاومة أعظم للحكم البريطاني وبالتحرك بفعالية لصالح الحركة الدستورية(٢٧) · وقاد مصــطفى كامل المقـــاومة المصرية لاجراءات (دوجلاس دنلوب) Douglas Dunlop الخشنة فى مجال التعليم (كان مستشارا لنظارة المعارف) وعبر عن العار والغضب الذى أنتجته حادثة دنشواى (١٣ يونيو ١٩٠٦) (٢٨) · فى ١٩٠٧ بدأت الطبعــات الفرنســية والانجليزية من جريدة اللواء فى الظهور ، وتشكل الحزب الوطنى تحت ادارته · وجعلت الخطبة المهيجة التى ألقاها فى الاسكندرية فى الثانى والعشرين من أكتوبر ١٩٠٧ من اسمه نموذجا للباشا والفلاح على السواء ، لكن وفاته فى فبراير ١٩٠٨ قطعت نشاطه المتألق وهو فى أوج مجده (٢٩) ·

أكد عبد الرحمن الرافعى تابع مصطفى كامل وكاتب سيرته فى تاريخه عن مصر الحديثة ان البند الرئيسى من سياسة الحزب الوطنى من عهــد مصطفى كامل وحتى ثورة ١٩٥٢ كان الجلاء الناجز وغير المشروط للقوات البريطانية والموظفين البريطانيين فى الحكومة المصرية · وكانت محاولات كامل وخليفته المتكررة والمتصلة فى هذا المقام — على الأقل فى البداية — هى السبب الرئيسى للشعبية الهائلة التى حازها الحزب · كان مبدأ الجلاء مبدءا بسيطا ، سهل الفهم وسهل القبول · ولكنه كهدف كان سلبيا ، مصمم للتخلص من شىء ما بدلا من بنائه ، وعادة ما تكون الأهداف السلبية هى أسهل الأهداف التى يتفق عليها · كانت مشكلة مصطفى كامل تكمن فى محاولته تشكيل ما قصد أن يستبدل البريطانيين به · حوالى ١٩٠٦ كان الكثير من المصريين البارزين قد بدأوا يشعرون بان مصطفى كامل

والحزب الوطنى يبدون نوعا من التساهل تجاه أتوقراطية الخديوى الى جانب تلهفهما على اقامة صلة اسلامية عامة دينية سياسية مع الامبراطورية العثمانية • وفى مواجهة هذه المخاوف قام حزب الأمة على يد أحمد لطفى السيد • تبع (لطفى) • مثل (كامل) الحركة الدستورية ، مركزا أكثر من مصطفى كامل على الحاجة الماسة الى الاصلاح السياسى والاجتماعى الداخلى، واختلف لطفى السيد جذريا مع مصطفى كامل عندما عارض أى شكل من أشكال الارتباط العاطفى أو غيره مع الامبراطورية العثمانية • وخلال الحرب الايطالية التركية عام ١٩١١ حث لطفى السيد المصريين على ألا يعيروا دعوة الحزب الوطنى للتبرع للقضية التركية أى اهتمام • كما كان مستغربا صريحا أكثر من مصطفى كامل فجذب الى حزبه وأعمدة جريدته (الجريدة) رجالا من نفس اتجاهه مثل طه حسين وقاسم أمين • وبينما كانت (اللواء) و (المؤيد) تهاجمان أفكار قاسم أمين ، فان (الجريدة) كانت تدافع عنها (٣٠) •

وقف مصطفى كامل وحزبه من تحرير المرأة وارتداء النقاب ، الخ موقفا محافظا ، يقارب الى حد ما الخط الدينى السائد من معارضة (البدع) الغربية من هذا النوع • وربما كان موقف كامل لا يخرج عن كونه موقفا سياسيا نفعيا ، حيث ان مناصرة أفكار أمين القائلة بالمساواة بين الجنسين كانت تؤدى الى فقدان شعبيته عند الجماهير (٣١) • وربما كانت المعارضة التى تلت للحزب الوطنى لكتاب الشيخ على عبد الرازق (الاسلام وأصول الحكم) ، ربما كانت أيضا خدعة (٣٢) ، تماثل جهود مصطفى كامل ومحمد فريد الدؤوبة لتعزيز العلاقات الودية بين مصر والامبراطورية العثمانية التى ربما كانت لمجرد اقامة جبهة متحدة ضد البريطانيين • اننا هنا أمام مشكلة معقدة ، يمكن التأكيد فى كل مرحلة منها ان ما قاله مصطفى كامل مرارا — سواء فى السر أو فى اللعن — لم يكن يؤمن به حقيقة وانما كان تكتيكا سياسيا ويؤمل أن تلقى كتاباته السياسية بعض الضوء على هذا الموضوع ، لكن بعض الملاحظات الأولية على اتجاهه العام تجاه « الجامعة الاسلامية » والامبراطورية العثمانية قد تكون مساعدة قبل الخوض فى كتاباته •

لقد نوقش هذا الموضوع مرارا ومرارا دون الوصول الى نتيجة حقيقية • ولعل أكثر التحليلات تفصيلا لفكر مصطفى كامل الدينى والسياسى هى مقالة شتيبات Steppat
"Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil."

فى هذه المقالة يقدم شتيبات Steppat كما وافرا من الأدلة على أن مصطفى كامل كان يحبذ بالفعل شكلا من التعاون السياسى بين مصر والامبراطورية العثمانية • فقد كان أولا وقبل كل شىء ، عدوا لدودا

للمهاجرين السوريين الى مصر (مثل فارس نمر ، يعقوب صروف وشاهين مكاريوس الذين أنشأوا صحيفة المقطم عام ١٨٨٩) ، واشار اليهم (كدخلاء) • وكان هؤلاء بالطبع أكثر الرجال الذين كانوا يدعون الى قطع كل الروابط مع تركيا ، كذلك فقد تكلم مصطفى كامل مرارا عن « التعصب المسيحى » وحمل ، خاصة بعد ١٩٠٤ ، الاحساس بأن الأوروبيين ينظرون الى الشرقيين باعتبارهم أدنى مرتبة منهم (٣٣) • وخلال رحلاته الكثيرة الى أوروبا لاحظ أنه رغم « الوضع التقدمى » والعالمى الذى أحب الأوروبيون أن يقيموه ، فان الدين كان ما يزال أساسيا فى مناهج مدارسيهم مثلما كان فى مصر وفى العالم الاسلامى (٣٤) • ولابد أن روح التسامح التى كان يقال انها سائدة هناك قد بدت لمصطفى كامل وهما بعدما شاهد بنفسه بعض المظاهر القبيحة لقضية دريفوس Dreyfus (٣٥) ، وأخيرا فان مصطفى كامل كان يعرف نفسه (كمصرى عثمانى) وهو ما شرحه على أنه لم يكن جنسية مزدوجة ولكن ولاء وحيد ، حيث ان مصر عمليا كانت تابعة للامبراطورية العثمانية (٣٦) •

ورغم هذه الأدلة المؤثرة ، فان شتيبات Steppat لا يخلص الى أن كامل قد استحسن شكلا من الفدرالية بين مصر والباب العالى • وبدلا من ذلك ، فانه يقرر أن اصرار كامل على وضع مصر كجزء من الأملاك العثمانية كان نقطة ارتكاز Point d'appui قانونية أمام القوى الأوروبية • فقد كان يرى انه اذا نفذت أحكام معاهدة لندن (١٨٤٠) وفرمانى (١٨٤١) ومعاهدة باريس (١٨٥٦) ومعاهدة برلين (١٨٧٨) فانها ستوفر الحكم الذاتى لمصر فى اطار الامبراطورية ــ وهى فكرة مقبولة الى حد ما من حيث أنها تعنى نهاية الاحتلال البريطانى • بل ان وضع مصر القانونى لم يتغير بعد ١٨٨٢ ، ولذلك فان كامل شعر بأن لديه أسبابا جيدة للتمسك بأن البريطانيين كانوا مرتكبين لجريمة Flagrante delicto انتهاك أحكام القانون الدولى • ووفقا لشتيبات Steppat فان كامل كان يرى ان للخليفة نفوذ (معنوى) لا أكثر ، ساعد على ربط المسلمين الى بعضهم البعض فى النضال المشترك ضد الامبريالية الغربية • كذلك فقد فهم كامل أن المسيحية والاسلام قد استغلتا من جانب السياسيين عديمى الضمير لأغراض غير دينية ، ومع هذا فان شتيبات Steppat لم يعتبر كامل ساخر دينى من السلوك البشرى الذى تهيمن عليه المصالح الذاتية Cynic . لقد كان الاسلام عند كامل نفوذا ثقافيا أساسيا وهاما يؤكد المعارضة الشرقية ــ الغربية مع الانقسام المسلم ــ المسيحى • وبينما كان أتباع محمد عبده على سبيل المثال معنيون بالاصلاح الدينى فى حد ذاته ، فان أتباع كامل ربطوا الاسلام دائما بالنضال الوطنى ، الذى كان عندهم هو الاهتمام الأعظم • وينتهى شتيبات Steppat بقوله ان مصطفى كامل كان « قوميا مسلما » أكثر من كونه « مسلم قومى » • فهو لم يكن معنى

باقامة حكومة دينية برئاسة الخليفة ولكنه كان يرى « الأمة » هى الهدف النهائى للانسانية • ومن خلال خدمة الأمة فقط يحصل المرء على الحق فى الوجود (٣٧) •

وعلى ذلك ففى وجهة نظر شتيبات Steppat كان موقف التجمع الاسلامى المدعى به عند مصطفى كامل نتيجة لزواج لأسباب عملية Marriage de Covenance • فكل من مصر والامبراطورية العثمانية كانتا فى حرب فى وقت واحد ضد الانتهاكات الأوروبية لسيادتهما ، ومن ثم فقد كان منطقيا أن تكون دعواهما مشتركة • كانت مساندة مصطفى كامل للعثمانيين لا تخرج عن كونها ذريعة ضرورية ، تماما مثلما كان التعاون الأنجلو ـ أمريكى مع الاتحاد السوفيتى خلال الحرب العالمية الثانية عملا مكروها وفاترا تعوزه الحماسة ، ناشىء بسبب الهدف المشترك لمقاومة قوى المحور فحسب (٣٨) •

تجمع تحليلات شتيبات Steppat بين كونها مقنعة وكونها جديرة بعالم ، ومع هذا فانها اذا لم تكن ترضى تماما ، فان هذا بسبب ما يستوجبه الأمر من طرحنا جانبا للكثير من الذى قاله مصطفى كامل وفعله كمجرد استراتيجية • واذا كان مصطفى كامل لم يعن دائما ما قال حقا ، فانه لا يقل حقيقة عن هذا ان كثيرا من المراقبين ذوى العقول قد أخذوا بما قال • فسلامة موسى على سبيل المثال يقرر صراحة أن مصطفى كامل نادى بالاستقلال عن بريطانيا فقط وليس عن الامبراطورية العثمانية ـ وهو خطأ بالاغفال قد يغفره له البعض بالقول بأن الأمر لم يكن أكثر من « تكتيك وقتى » (٣٩) •

ويلفت العقاد الانتباه الى حقيقة ان مصطفى كامل لم يفرق بين جنسية مصرية وجنسية عثمانية • وعلق أهمية كبرى على الرتبة العثمانية الى حد أنه فى اليوم الذى منح فيه لقب باشا رفض أن يطبع (اللواء) حتى يتم تصفيف حروف المطبعة لتحوى الجريدة لقبه الجديد (٤٠) • وعنف مصطفى كامل العرابيين فى كتاباته لاعتبارهم الأتراك والجراكسة « أجانب » ، وطبقا له فانهم كانوا مصريين كعرابى نفسه (٤١) • وأقام احتفالات سنوية على شرف (المتبوع الأعظم) عبد الحميد الثانى ، مؤكدا هكذا الولاء المصرى للامبراطورية العثمانية • كان البند الأول من برنامج الحزب الوطنى هو استقلال مصر وفقا لشروط معاهدة لندن (١٨٤٠) ، أى السيادة الداخلية فى مواجهة تركيا على وجه التحديد ، واقترح البند العاشر « تقوية الروابط بين مصر والامبراطورية العثمانية » • ولقد حارب مصطفى كامل معارك مطولة ضد لطفى السيد الذى استحسن استقلالا كاملا عن كل من بريطانيا والامبراطورية العثمانية • وشنت أعمدة (اللواء) هجمات مريرة ضد الحركة الدستورية التركية ، التى كانت فى ذلك الوقت

تتلاعب بفكرة العلمانية المتزايدة فى الحياة واللامركزية السياسية لعناصر الامبراطورية وأجزائها المختلفة (٤٢) ٠

وقد يبدو كل هذا متناقضا مع فرضية شتيبات Steppat ، ويبين أن مصطفى كامل والحزب الوطنى فضـــلا نوعا من الرابطـة بين مصر والامبراطورية العثمانية ٠ ويحتمل أن يكون شتيبات Steppat مصيبا فيما انتهى اليه من أن هذه الرابطة لم تكن لتأخذ عند مصطفى كامل شكل الدولة الدينية برئاسة السلطان ـ الخليفة ، لكن هناك بدائل لم يخصص لها شتيبات اهتماما كافيا ٠ فعلى سبيل المثال ، يجب أن يؤخذ ولاء مصطفى كامل الثابت والصريح للامبراطورية بجدية أكثر ، ولقد كان هذا أكثر من تكتيك بالقطع ، لكن مصطفى كامل لم يستنبط أبدا (وفى الواقع لم يكن بحاجة الى ذلك) ما هو الشكل الذى يجب أن تأخذه الرابطة العثمانية ـ المصرية على وجه التحـديد ٠ ربما يكون قد تصـور نوعا من الكومنولث الاسلامى ، معطيا قدرا عاليا من الاستقلال الذاتى لكل جزء اقليمى مع وجود جهاز رسمى استشارى يربط الولايات بلطف بمركز الخلافة ٠ وعلى أى حال فان مصطفى كامل لم يكن متعاطفا على الاطلاق مع فكرة القومية العربية أو التحالفات المتبادلة العربية inter-Arab alliances ـ وهى فكرة كانت فى طريقها لكسب القبول فى الأراضى العربية (٤٣) ٠ بدأت قومية مصطفى كامل تأخذ بعد عـــام ١٩٠٤ وبعد خيبة الأمل فى السياسة الخارجية الفرنسية شكلا اسلاميا معلنا بصورة كبيرة ، وفى ١٩٠٥ أسس مجلته الشهرية (العالم الاسلامى) ٠ فى عام ١٩٠٦ ساند السلطان ضد البريطـانيين فى أزمة طابا التى كانت فى محصلتها انكار لسيادة مصر الاقليمية على هذه المنطقة (٤٤) ٠ وركزت صفحات (اللواء) و (المؤيد) بالمقابلة لسياسة (الجريدة) فى افتتاحياتها على أهمية دور مصر كعضو فى الجماعة الاسلامية وحصن لسلطة السلطان (٤٥) ٠

وعلى ذلك ، فاننا نجد دليلا متينا يبين ان مصطفى كامل قد حبذ فعلا شكلا من الاتحاد التعاونى العثمانى ـ المصرى ٠ ويبدو من غير المعقول الحاجة من ثم الى طرح كل تقريرات مصطفى كامل جانبا وافتراض ان كل خصومه السياسيين من أحمد لطفى السيد الى العقاد الى سلامة موسى قد أخطأوا فهم مجرى تفكيره ٠ ومع هذا فاننا نملك لحسن الحظ أداة أخرى قد تساعد على حل هذه المعضلة ٠ فكتابات مصطفى كامل (ومحمد فريد فيما بعد) التاريخية ، التى أهملها الدارسون لدرجة كبيرة تعطينا ادراكا عظيما لقيمة نظام حزبه ، وهى فوق ذلك انجاز أدبى عادى ٠

نشأ اهتمام مصطفى بالتاريخ منذ أيام دراسته الابتدائية ـ طبقا لما يرويه عبد الرحمن الرافعى ٠ وبدء كشاب فى تقديم مقالات وأحاديث للأهرام والمؤيد عن أمور تاريخية وشبة تاريخية ٠ وفى العشرينات من عمره

كان قد كتب بحثا قصيرا عن تاريخ الرقيق فى روما القديمة (عجائب ما كان فى الرق عند الرومان) أشار فيه الى الاختلافات بين الممارسة الغربية والاسلامية ، وأعد أيضا تاريخا للفتح العربى لاسبانيا (فتح الأندلس) صور فيه بطريقة أكثر رومانتيكية هــذه الحقبـــة الهامة من التــاريخ الاسلامى • وبدأ من ١٨٩٣ فصاعدا اخراج مجلته الشهرية (المدرسة) ، وفى ١٩٠٥ نشر مجمـوعة من خطبه والمراســلات بينه وبين الشخصيات الرفيعـــة المســـتوى من الأوروبيـــين تحــت (مصريون وانجليز) Egyptiens et Anglais (٤٦) •

وكان أكثر أعماله التاريخية أهمية ، والوحيد الذى تناول التاريخ الحديث المصرى بتفصيل هو (المســألة الشرقية) الذى ظهر فى ابريل ١٨٩٨ (٤٧) • وسنحاول من خلال دراسة هذا العمل ان نقيم ما قدمه مصطفى كامل للتاريخ المصرى الحديث •

عندما عاد مصطفى كامل من رحلة الى اوروبا عام ١٨٩٤ أحضر معه صندوقين كبيرين يحتويان على ذكريات العديد من رجال الدولة الأوروبيين وأعمالا عامة كثيرة عن السياسات العالمية (٤٨) • ولابد أن هذه المادة كانت ذات قيمة كمصادر لكتابه (المسألة الشرقية) ، رغم أن المناسبة الحالة للكتاب كانت الانتصار العثمانى « السعيد » على اليونان عام ١٨٩٨ (٤٩) •

على عكس الأمثلة الأخرى من التاريخ المصرى فى القرن التاسع عشر والتى ناقشناها ، فان كتاب « المسألة الشرقية » هو بالضبط ما يوحى به ـ دراســة للتاريخ الدبلوماسى الأوروبى فيمــا يتعلق بالامبراطورية العثمانية ومصر • وتلعب مصر فى كتاب مصطفى كامل دورا يفوق دور أغلب الدراسات الغربية ، وذات التوجه العثمانى فى الموضوع ، ومع هذا فان مصطفى كامل لا يجعل الشئوون العثمانية أو البلقانية فى مرتبة ثانية بعد شئوون بلده • فهو يبدأ ، على سبيل المثال ، بملاحظة أن المســألة الشرقية يمــكن ترى بواحد من منظورين • أولهمــا كصراع بين أوروبا والامبراطورية العثمانية حول ممتلكات الامبراطورية (الاوروبية) ـ وهو أمر يمس وجود جزء من الامبراطورية • أما ثانيهما فهو منظور الصراع الأقدم بين الاسلام والمسيحية ، الذى يعود الى ايام الصليبيين • ويحتوى المنظور الثانى من وجهة نظر مصطفى كامل أكثر من حبة من الصدق لكنه برغم ذلك لا يتطابق تماما مع أحوال اليوم • فأوروبا لم تعد تشن حربا ضد الباب العالى « باسم الدين وحده » ولكنها تفعل ذلك أساسا لأنها ترغب فى التوسع الاقليمى • ويستخدم الأوروبيون الدين أحيانا لاثارة الحماس العــام لفتوحاتهم ، لكن هــذا مجرد « نقاب تختبىء خلفه نوايا النشال وزغبــاته » (٥٠) •

ووفقا لمصطفى كامل فان المسألة الشرقية ولدت مع قيام الامبراطورية العثمانية • فما ان بدأت الامبراطورية فى اختراق أوروبا حتى بدأت جهود القرون الطوال لصد المواجهة التركية(٥١)•ويحصص مصفى كامل مساحة قليلة لحوادث ما قبل القرن التاسع عشر بصفة عامة ، لكنه يقدم تحليلا مطولا للحرب الروسية ـ التركية (١٧٦٨ ـ ٧٤) ، ويضع فى الاعتبار الخطط الروسية ـ البروسية بشأن بولندا بالاضافة الى الدعم العثمانى للبولنديين • ويحلل مصطفى كامل دوافع ودبلوماسية القوى العديدة بعمق ، كما يعلق على السيطرة الروسية القوية على الشئوون العثمانية فى معاهدة كوجك قينارجى Kücük Kaynarca (١٧٧٤) (٥٢) • ويقول أنها كانت الأولى فى سلسلة طويلة من الجهود الروسية لتدمير أساس الامبراطورية ، وليؤكد رأيه فانه يستعرض فيما بعد الحرب الروسية التركية (١٧٨٦ ـ ٩٢) ، والجهود الروسية لتعويق اصلاحات (التنظيمات) ، وتشجيع روسيا لثورة الجبل الأسود والاتجاهات الانفصالية الصربية (٥٣) •

تبدأ التفاصيل الحقيقية بمناقشة مصطفى كامل لحوادث القرن التاسع عشر • فيناقش كل الأزمات الهامة على التعاقب : الثورة اليونانية ، الحرب السورية ، حرب القرم ، الاحتلال البريطانى لمصر ، الاتحاد البلغارى ، تحرير اليونان ، وما يسمى (بالفظائع البلغارية) • ومن بين هذه الأزمات فان الحرب السورية والاحتلال البريطانى لمصر هما الموضوعين وثيقى الصلة بنا ، لكننا سنفحص ببعض الايجاز مجالات أخرى لنرى كيف عالج هذه الموضوعات •

فى روايته عن الثورة اليونانية يشير مصطفى كامل الى أن اسكندر وديمترى يبسلانتى Alexander and Dmitri Yepsilanti (قائد حركة فيليكا هيتريا (Philike Hetairia) كانا فى الواقع عملاء للقيصر ، وظفا لاثارة المتاعب فى اليونان العثمانية (٥٤) • ولا يشارك المعجبين بالاغريق تعاطفهم معهم الذى استيقظ بالتبعية فى أوروبا ، ولكنه يرى الأمر بدلا من ذلك نوعا من التحامل الدينى ضد المسلمين • ويدعى أن الاوروبيين الملحدين أنفسهم كانوا يطالبون علنا بالدعم الحكومى الاوروبى « لاخوتهم اليونانيين المسيحيين » ـ مع التركيز على المسيحى بدلا من اليونانى • وبقتبس من الروايات «الأوروبية» عن الثورة ما يثبت ان مذبحة اليونانيين ضد المسلمين ونهب ممتلكاتهم كانا يمدحان «باسم الحرية والدين»، ويستبعد تماما التقارير عن فظائع المسلمين ضد اليونانيين • ويثنى مصطفى كامل على بطولة الجيش المصرى بقيادة ابراهيم باشا ويشير الى موقعة نافارينو Navarino على أنها « مذبحة » وليس معركة • ولبدعم هذا التأكيد فانه يعدد التعنيفات الرسمية عن أفعال كودرينجتون

Codrington فى نافارينو من جانب شخصيات كجورج الرابع George IV ملك انجلترا ، وفرانسيس الأول Francis I ملك النمسا ، والسياسيين البريطانيين الليبراليين ، الخ (٥٥) • ورغم أنه من الواضح اين يقع تعاطف مصطفى كامل ، الا أنه يدعم أغلب رواياته بأدلة مقنعة •

يدخل فى اطار التاريخ الدبلوماسى المباشر دراسة مصطفى كامل لحرب القرم ، مؤتمر برلين ، وأزمة شبه جزيرة البلقان فى نهايات القرن التاسع عشر • ومن الجدير بالملاحظة فى هذا المقام مهارته فى نسج خيوط حبال روايته وجدلها فى قصة متماسكة حسنة الكتابة ، كما يمثل الأسلوب تقدما جبارا على أى شىء تعرضنا له حتى الآن • فى بداية كتاب « المسألة الشرقية » يضمن كامل جملة تتعلق بالنبى عليه الصـلاة والسـلام والقرآن الكريم يتبعها صفحتان كاملتان من المديح المسجوع فى ذكرى النصر العثمانى على اليونان عام ١٨٩٨ (٥٦) • لكن الأسلوب بعد ذلك وعلى مدى صفحات الكتاب يتسم بالأناقة والصفاء ، متجنبا سوء الصنعة والسطحية التى وصمت أعمال الكتاب السابقين • وفى سبيل التوكيد فان مصطفى كامل يرتد أحيانا الى السجع (٥٧) لكن هذا السجع لا يفسد الرواية بفضل معالجته له بمهارة ، بل ان سجعه هذا كان يعزز التدفق الرقيق لنثره •

كان من المتوقع أن تصنف بريطانيا « كوغد المسألة الشرقية » ، اذا وضعنا فى الاعتبار الأحوال السياسية فى ذلك الوقت وثقافة مصطفى كامل ذات التوجه الفرنسى بصفة أساسية • ولا يترك الرجل مناسبة تمر دون أن يصب جام غضبه وعدم ثقته بالبريطانيين • فهو يلومهم لاشعال نار الفتنة بين المسيحيين والمسلمين داخـل الامبراطورية (٥٨) • ويزعم ان بريطانيا كانت مصممة على « اضعاف قوة المسلمين » فى كل مرحلة من مراحل المسـألة الشرقية (٥٩) • وأنها كانت العدو الأسـاسى لكل من الامبراطورية العثمانية ومصر خلال الحرب السورية (٦٠) • ففى عام ١٨٧٦ شجعت ـ بقصد الغدر ـ الباب العالى على مقاومة مطالب القوى الأوروبية فى مؤتمر القسطنطينية ، لتخذل الامبراطورية تماما فى مؤتمر برلين حيث فقدت (الامبراطورية) فى الحقيقة أكثر مما كانت ستخسره فى مؤتمر القسطنطينية (٦١) • وتتنكر بريطانيا فى ثوب حاملة شعلة الانسانية والمدنية ، ومـع هذا فهى لا تتـردد فى قصـف مدينة الاسـكندرية (الآمنة) (٦٢) • وتتنكر لوعودها بكل حرية كلما ناسبها ذلك ، واذا ما فهمت سياساتها فهما صحيحا فهى لا شىء غير « علم الأكاذيب ، والنفاق والذرائع » (٦٣) •

كان من المتوقع عقلا أن يكون المقابل لعداوة مصطفى كامل المريرة لبريطانيا العظمى هو مساندته المطلقة لأعمال بلده • لكن على الرغم من

ان « المسألة الشرقية » لا يحتوى نقدا مباشرا للسياسة المصرية ، فان التناء البغيض المملوء بالرياء محفوظ للامبراطورية العثمانية التى يدافع عنها مصطفى كامل فى أى وكل الظروف • فمرارا وتكرارا يشير الى المعاملة الحقيرة التى عومل بها لعثمانيون من قبل أوروبا زاعما ان الامبراطورية كانت القوة « الأوروبية » الوحيدة التى منحت لكل رعاياها الحرية التامة للعبادة دون أى اعتبار للعقيدة • ولم تتسامح الامبراطورية العثمانية فقط تجاه الأقليات المسيحية الكبيرة داخل حدودها لكنها اعطت لمسيحيين مناصب عليا فى الدولة • وعلى الجانب المقابل فان اسبانيا شنت حملة ابادة جماعية ضد المسلمين ودمرت منازلهم وأماكن العبادة الخاصة بهم (٦٤) • ويعترف مصطفى أن السياسات العثمانية كانت « مضللة » فى بعض الأوقات لكنها لم تكن أبدا « مغرضة » • ويحاول بهذه الطريقة أن يحل السلطان من اللوم لقراره باعلان عصيان عرابى بالاشارة الى أن العثمانيون كانوا يساندون عرابى فى المرحلة المبكرة للثورة (٦٥) • وكل أسفه هو أن العثمانيين أخذوا وقتا طويلا ليكتشفوا ان بريطانيا لم تكن متعاطفة ، بل كانت عدوانية دون تغيير نحو كل المصالح العثمانية (٦٦) •

ان قراءة أوراق مصطفى كامل تعنى الانتقال من محيط التاريخ المصرى المبكر فجأة • فتاريخه نتاج غربى شامل مفعم بكل زخارف الكتابات الأكثر حداثة • اختفت الأساليب الشعرية • وانتهى السجع دون فقد للبراعة فى الاسلوب ولم يعد هناك مجال للحشـــو واللا علاقية • والكتاب جيد التنظيم وقراءته ممتعة • والحقائق العديدة والحجج التى يقدمها مصطفى كامل فيه مرتبة على وجه صحيح ليكون لها قوة اقناع ضخمة • وأخيرا فان عمق مصطفى كامل فى التحليل التاريخى يفوق قدرات الكتاب السابقين •

لكن ما يزعج هو اتخاذ مصـــطفى كامل لجانب واحـــد فى تفسيره للحوادث • فما يكتبه يتضمن انحيازا قوميا (بل اسلاميا) واضحا وصريحا، وهناك الخشونة التى لم تعالج بأى تدريب على مناهج البحث التاريخى • صحيح انه قد هجر بنجاح التاريخ الزمنى الى محاولة كتابة التاريخ الخطيرة للغاية ، وفى قيامه بهذا العمل فقد خاطر وحقق ما لم يحققه سابقوه من كتاب القرن التاسع عشر • لكن تعامله النقدى والتحليلى الثابت للموضوع كان بسبب اصطدامه بشكل متكرر بمشكلة الانحياز التاريخى بصـــورة لم تكن موضع تفكير كتاب عهد اسبق (٦٧) •

كان لمصطفى كامل كل الحق فى أن يأخذ موقفا مؤيدا للعثمانيين ، مؤيدا لمصر ومعاديا لبريطانيا ، فقد كان يعمل فى اطار عالم حقيقى حيث الوجه المقابل لهذه الأحاسيس غير متصور • ولم تكن هناك مسألة تقاعسه عن تقديم الدليل لدعم وجهات نظـــره ، فمواقفه كما رأينا ثابتة بالحجج وموثقة • لكن المشكلة عند مصطفى كامل كانت فى ثباته على تقديم جانب

واحد من القصة ثم حذف ما لا يتفق مع رؤيته الخاصة ، أو السخرية منها . فهو — كما نتوقع منه — ناقد للوجود البريطاني في مصر الى حد بعيد ، وهذا في حد ذاته لا يوهن من طريقته لمعالجة الموضوع . لكن هناك التزاما عليه في ان يسجل للاحتلال أي تقدم حقيقي تحقق في ظله ، وفي مجالات كهذه فقد فشل مصطفى كامل على وجه قطعي . فهو لا يجد شيئا ذا قيمة للاحتلال أيا كان ، ويسمى حرية القول التى أتاحها البريطانيون « عديمة القيمة » ، ويتجاهل الغاء «السخرة» وتخفيض الضرائب التى كانت قائمة في عهد اسماعيل ، ويرفض بازدراء المزايا المادية العديدة للاحتلال(٦٨) . ان هذه حقـــائق تاريخية أيضـــا ، لكن مصطفى كامل وفي غمرة حماسه لمهاجمة البريطانيين يتجاهل هذه الحقائق ، أو يفقد القدرة على التعامل معها وهو في ثورة هياجه (٦٩) .

من بين المظاهر المثيرة للاهتمام في « المسألة الشرقية » معالجته للقضايا المتميزة بالتصادم المباشر بين الدولة العثمانية ومصر . فتقييم مصطفى كامل لعهد محمد على على سبيل المثال مرض بصفة عامة ، لكنه عندما يأتي الى احداث سوريا في ثلاثينيات القرن فان نغمة المناقشة كلها تتغير بشكل مفـــاجيء :

« عندما يتذكر العثمانيون والمسلمون هذه الأزمة ، فأنهم يشعرون بالأسى والأسف أكثر من أى أزمة أخرى . لقد كانت أخطر شقاق وقع بين التابع (مصر) والسيد (الامبراطورية العثمانية) أى بين قلب الخلافة الاسلامية والخلافة نفسها ، بين روح الامبراطورية العثمانية والامبراطورية نفســـها (٧٠) .

ومن العجيب أن يعود مصطفى كامل الى الحياد في الروايات اللاحقة، فيمدح البسالة المصرية في معركة ما ، لكنه يشير في نفس الوقت الى أن تدمير الانكشارية قبل ذلك بوقت قصير جعل العثمانيين غـــير مستعدين بشكل موجع (٧١) . فاذا كان لأحد أن يعترض على روايته عن الحرب فانه يكون القاريء المصرى وليس العثمانى . ويقرر على سبيل المثال أن رفض (الجزار) المبكر اعادة اللاجئين المصريين كان ذريعة انتهزها محمد على لاعلان الحرب . ويضيف ان بعض المؤرخين كانوا يرون ان محمد على كان يريد الخلافة لنفسه (٧٢) . وفي النهاية فان محمد على — والقول لمصطفى كامل — ما كان ليقدم على مغـــامرة كهذه لو كان قد تنبأ بالعواقب الخطيرة التى تسببها . وفيما بعد فقد اعتذر (محمد على) عن الحادث بأكمله ، وهو تحذير واضح — يختتم به مصطفى كامل دراسته هذه — للأجيال المقبلة من المسلمين (٧٣) .

ومرة أخرى فان السؤال المطروح للنقاش هو ما اذا كنا سنحذف

كل هذه الاعلانات الورعة للصداقة لتركيا العثمانية بحسبانها مجرد تكتيك، أم لا • اذا كان الرد بالايجاب ، فانني أرى أننا نقترب من قرار فحواه أن الصورة التاريخية لمصطفى كامل هي صورة رجل مخادع لم يقل مرة واحدة ما يعنيه حقيقة • لماذا ؟ هل قلل على سبيل المثال من قيمة الانقسام العربي ــ التركي داخل الامبراطورية وهو ما كان متنبها له تماما ؟ وأصر بدلا من ذلك على الاشارة الى العرب كمسلمين ؟ لقد سمى «المسألة المصرية» موضوعا اسلاميا (٧٤) ، واذا كان هذا أيضا مجرد تكتيك ، فانه قد استخدمه بصورة مقنعة للغاية الى حد انخداع معاصريه به • لقد آمن على سبيل المثال بأن السبب الحقيقي لفشل عرابي هو الانقسام الكلي للجماعات العديدة المتورطة ــ الجراكسة ضد المصريين ، العرابيين ضد توفيق ، المصريون ضد العثمانيين ، الخ(٧٥) • والمرء ليس بحاجة الى الاستنتاج هنا بانه أراد طمس الجنسية المصرية كلية عن طريق غمر مصر فى اطار الامبراطورية العثمانية ، ربما كان قد وجد حل المسألة الشرقية فى نفس الشروط التى قررها الأفغانى أساسا ، وهى شروط لم تكن تستلزم ضما Anschluss عثمانيا لمصر بل شكلا من أشكال الكومنولث الاسلامى •

أما نقطة الاهتمام الأخيرة لنا فى كتاب « المسألة الشرقية » فهى معالجة مصطفى كامل للثورة العرابية • كان هذا الموضوع بالنسبة له أسهل كثيرا فى التعامل معه عن الوضع المعقد فى الأزمة السورية ، حيث أن دور الوغد جاهز الآن • يبدأ القصة بتحميل الخديو مسئولية الحالة الخربة لشئون البلاد والتى أدت الى التدخل الأجنبى • بعد ذلك يتتبع النفوذ المتزايد باضطراد لبريطانيا فى الادارة المصرية ــ شراء دزرائيلى Disraeli لأسهم مصر فى قناة السويس ــ تعيين انجليز فى وظائف بالحكومة المصرية ــ الاتفاقية الأنجلو ــ مصرية لمنع الرقيق (١٨٧٧) التى سمحت للسفن الحربية البريطانية بحراسة البحر الأحمر وايقاف وتفتيش السفن المصرية عند الضرورة ، وفى النهاية الرقابة الأنجلو ــ فرنسية على المصروفات الحكومية المصرية (٧٦) • ويتوجع كما رأينا ، للصراع المصرى ــ الجركسى فى الجيش ، زاعما أن هذا وكل مظاهر الانقسام الأخرى قد استغلت من جانب « أصحاب الدسائس » (٧٧) • ويؤكد أن عرابى كان عنيدا ومتصلبا ــ ولم يكن ينبغى عليه أن يصر على مناقشة الميزانية • ويصور عرابى على أنه رجل صادق وأمين أساسا ، ومن الناحية السياسية فانه كان أسذج من أن يتوقع العواقب المأساوية لأفعاله • وبالمثل فان الخديو توفيق عند مصطفى كامل غير « متآمر » ، حيث انه بدأ بالعمل مع البريطانيين بتعاون وثيق عندما أصبح واضحا له ان كلا من العرابيين والعثمانيين كانوا يحاولون الاطاحة به (٧٨) • وفى النهاية فانه يلوم البريطانيين فيما يتعلق « بمذبحة الاسكندرية » برمتها •

ويبرهن مصطفى كامل ـ مقتبسا أساسا من الخطب التى ألقيت فى مجلس العموم (البريطـــانى) ومجلس النــواب الفرنسى ـ أن مستر كوكسن Cookson (القنصل البريطانى فى الاسكندرية) قد زود ثلاثة أو أربعة آلاف أوروبى بالأسلحة ، فاتحا بذلك الطريق للمذبحة اللاحقة (٧٩) ٠

أيا كان ما يراه المرء فى تفسير مصطفى كامل للحوادث ، فانه قد نجح فى كتابة ذلك النوع من التاريخ الذى نسميه اليوم « حديثا » ٠ ان « المسألة الشرقية » كدراسة تاريخية ، بعيدة كل البعد عن التاريخ الزمنى Chronicle الذى جاءت نهايته على يد من يسمون «بالمؤرخون القوميين» مثل مصطفى كامل ٠ وبمقارنته بالسابقين اللامعين كعلى مبارك ، أمين سامى واسماعيل سرهنك ، فان نقطة الضعف عنده هى « التوثيق « ، لكنه لم يكن حائزا لامتياز الوصول للمادة الأرشيفية الذى كان لهم ٠ ومع هذا فقد نجح فى مناقشة تشــكيلة واسعة من المصـــادر ، تتراوح بين جــريدة التايمز Times اللندنية ونسخا طبق الأصل لمحاكمات الانفصاليين الأرمن عام ١٨٩٣ (٨٠) ٠ لقد كان تاريخه مقيما ومفاهيميا ، ولكن غير متوازن الى حد ما ٠ لقد لخص السياسة الاحتلالية البريطانية على سبيل المثال ، بطريقة غريبة تماما عن التقليد القديم واعتبرها مؤسسة على خمسة مبادىء :

١ ـ التخلص من النفــوذ الأجنبى الغــير بريطـــانى فى الشئون المصرية ٠

٢ ـ اضـــعاف ســـلطان الخـــديو واضـــعاف الصـــلات بين مصر والامبراطورية العثمانية ٠

٣ ـ الاشراف على المصالح الحكومية المصرية الهامة بواسطة رجال انجليز ٠

٤ ـ خلق اضطرابات مصممة لاطالة أمد وجود الحكومة الاحتلالية ٠

٥ ـ نشر المعـــلومات المضللة فى أوروبا عن حقيقـــة الأحـــوال فى مصر (٨١) ٠

ومن المعترف به أن مثل هذا المفهوم يحتوى على بعض الحقيقة ، لكنه يحتوى أيضا على الكثير من مصطفى كامل نفسه ، بكلمات أخرى ، لقد كان هناك « توازن شخصى » يتضمن على الدوام عنصرا من المخاطرة ٠ ومع هذا فان النقطة الهامة هى أن المعالجة التحليلية نفسها كانت جديدة بالنسبة للتأريخ المصرى ، ومن هــذا المنظور فان مصطفى كامل والكتاب القوميين الآخرين أسدوا للكتابة التاريخية المصرية خدمة عظيمة ٠

حواشى الفصـــل الثامن

(١) دون مؤلف "A Valuable library in Cairo," The Moslem World, 7 (1917) : 202.

(٢) جمال الدين الشيال « عبد الله نديم ، ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦ » ، الكتاب ، رقم ١ (١٩٤٩) ٩ (يشار الى النديم مرارا باسم نديم مع استبعاد أداة التعريف) •

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٨ ـ ٧٩ •

(٤) شولش Schölch
Agypten den Agyptern, pp. 108, 198.

طبقا لمحمد عبده فان عضوية مصر الفتـــاة تكونت أساسا من المسيحيين الشرقيين Levantine والعائلات التجارية اليهودية عن المصريين • المصدر نفسه •

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٨ ـ ١٩ ، ٦١ ، وسعد زهران « التعاليم الليبرالية فى الثورة العرابية » ، المجلة ، رقم ١٠٨ (١٩٦٥) ، ص ٨٤ •

(٦) محمد أنيس « وثائق الثورة العربية » ، الكاتب ، رقم ١٠٣ (١٩٦٩) ، ص ١٦٢ ، وشولش Schölch
Agypten den Agyptern," pp 256.

(٧) ما لم يذكر العكس ؛ فان المعلومات التراجمية عن النديم قد أخذت من الشيال « عبد الله نديم » ، ص ٨٠ ـ ٨٥ ، ٨٨ ـ ٩١ •

(٨) حتى محمد صبرى ، الذى ليس بأية حال كاره لمزاعم القوميين المصريين يطلق على النديم وصف (المتطرف) •

صبرى l'esprit national egyptien, p. 106.

(٩) لدراسة عن الأفكار الموجودة فى (الأستاذ) انظر على سبيل المثال أحمد حسين الصاوى « تاريخ حركة صحيفة مصرية : الأستاذ » ـ الهلال ، رقم ١٠ (١٩٦٦) ، ص ٧٤ ـ ٨٩ •

(١٠) بدر « تطور الرواية فى مصر » ص ٣١ ـ ٣٢ •

(١١) للحصول على قوائم مكثفة لكتابات النديم انظر شولش Schölch
"Agypten den Agyptern", p. 329 n. 194.

(١٢) نوقش عمل فهمى فى الفصل السابق انظر ص ١٣٢ ـ ٣٣ من الفصل السابع • أما النقاش فكان من أصل سورى وسيناقش عمله فى الفصل العاشر ـ انظر ص ١٨٨ ـ ٩١ •

(١٣) عبد الرحمن الرافعى « مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢) ، ص ١٩ ، ٢٣ ـ ٢٤ ، ٣٤ ـ ٣٦ •

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٣٦ •

(١٥) أرثر جولد شميت الأصغر Arthur Goldschmidt, Jr.

"The Egyptian Nationalist Party : 1892-1919 ; Political and Social Change in Modern Egypt, pp. 311-12.

(١٦) ذهب مصطفى كامل الى أوروبا فى ثلاثة مناسبات منفصلة عام ١٨٩٤ واستمر فى القيام برحلة أو أكثر سنويا حتى عام ١٨٩٧ . ثم ذهب أيضا عام ١٨٩٩ ومرة أخرى عام ١٩٠١ .

الرافعى « مصطفى كامل » فى مواضع متفرقة .

(١٧) كانت الرحلات الثلاث فى ١٨٩٤ من أجل امتحانات القانون ، الذى أدى مصطفى كامل السلسلة الأولى والثانية منه فى الصيف ، وادى امتحانات السنة النهائية الثالثة فى أكتوبر . ونظرا للسرعة الغير عادية لهذا الجدول فقد اقتنعت جامعة باريس برفض طلب مصطفى كامل لأداء الامتحانات النهائيـــة ، وتخرج نتيجة لذلك من جامعة تولوز Toulouse فى سن العشرين .

الرافعى « مصطفى كامل » ص ٣٨ ـ ٤١ .

(١٨) عن نشاطات مصطفى كامل فى الخارج انظر الرافعى « مصطفى كامل » ، ص ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٤ ـ ٥٧ ، ٦٣ ـ ١١٤ ومواضع متفرقة .

(١٩) زعم شفيق على سبيل المثال ان مصطفى كامل ذهب الى أوروبا « بتشجيع الخديوى » ، وأنه لدى عودته فى عام ١٨٩٥ أصبح تحت جناح عباس ومنح دعما ماليا . ثم نظم الخديو مجموعة من الرجال ليعارضوا البريطانيين فى مصر ، برئاسة مصطفى كامل . انظر لأحمد شفيق « يقظة الشعور القومى منذ أوائل القرن التاسع عشر الى الآن » ، الهلال ٤٨ (١٩٤٠) : ٦٩٠ ـ ٩١ . وهناك معلومات اضافية عن علاقة مصطفى كامل بعباس فى عمل شفيق « مذكراتى فى نصف قرن » وفى عمل رشيد رضا « تاريخ الامام الشيخ محمد عبده » .

(٢٠) عباس محمود العقاد « مصطفى كامل كما عرفته » المجلة ، رقم ٦٩ (١٩٦٢) ، ص ٧ ـ ٨ .

(٢١) فى دراسة وثائقية تحتوى ، من بين أشياء أخرى ، على ثلاثة عشر خطابا لم يسبق نشرها من مصطفى كامل الى عبد الرحيم أحمد (وكيل القلم العربى فى بلاط عباس) يؤكد محمد أنيس ان الدليل على ما اذا كان عباس قد دفع مصاريف دراسة مصطفى كامل فى جامعة تولوز لا يزال غير حاسم . انظر لأنيس « صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل » (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٢) ص ٩ ـ ١١ . ومن ناحية أخرى فان جولد شمبت Gold Schmit اقل ترددا فى هذا الشأن ويزعم ان مصطفى كامل ذهب الى باريس فى مايو ١٨٩٥ مدعم بأموال القصر الوفيرة » .

جولد شميت Goldschmidt
"The Egyptian Nationalist Party", p. 313.

(٢٢) أحمد "Egyptian Nationalism", p. 80.

(٢٣) جولد شميت Goldschmidt
"The Egyptian Nationalist Party", p. 319.

(٢٤) أنيس « صفحات مطوية » .

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ١٦ .

(٢٦) نوقش موضوع الجامعة فى الصفحات السابقة . ولمزيد من المعلومات عن نشاطات النادى ، انظر ص ٢٠٤ من الفصل الحادى عشر .

(٢٧) يرجع تاريخ وقفة مصطفى كامل القوية الأولى فى سبيل الدستور الى عام ١٩٠٢ ، مكذبا بذلك الاتهامات المتعددة بأنه استحسن الأتوقراطية الخديوية وبدأ الدعوة للدستور متأخرا وبانتهازية ٠

فريتز شتيبات Fritz Steppat
"Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil :

Ein Beitrag zur Ideengeschichte der ägyptischen National bewegung", Die Welt des Islams 4 (1955) : 330-32.

ومع حلول عام ١٩١٤ كانت أغلب الصحف تطالب بدستور وبرلمان ، لكن (اللواء) تفوقت كأكثرهم ثباتا فى الدعاية لمثل هذه الاجراءات ٠ شفيق « يقظة الشعور القومى » ص ٦٩٣ ٠

(٢٨) الرافعى « مصطفى كامل » ص ١٩٥ ــ ٩٧ ، وشفيق « يقظة الشعور القومى » ، ص ٦٩٠ ٠

(٢٩) الرافعى « مصطفى كامل » ص ٢٤٣ ، ٢٦٠ وما بعدها ٠ وهذه هى الفترة من حياة مصطفى كامل التى يفكر فيها باحثون مثل ناداف سافران Nadav Safran عندما يصفونه بأنه « مهيج » بدلا من مفكر ٠

سافران Safran
"Egypt in search for political community", pp. 85 90.

لكن مصطفى كامل يمكنه ان يفكر أيضا كما سيحاول هذا الفصل ان يثبت ٠ ونشاطه كمهيج لا يمكن انكاره ، وطبقا لأحمد شفيق على الأقل فان (اللواء) أقرت فى بعض الأحيان الجرائم السياسية ٠ شفيق « يقظة الشعور القومى » ص ٦٩٢ ٠ لمزيد من التفاصيل انظر ص ١٧٠ من الفصل التاسع ٠

(٣٠) سلامة موسى « تاريخ الوطنية المصرية : نشوئها وتطورها » ، الهلال رقم ٣٦ (١٩٢٨) : ٢٦٩ ــ ٧١ ٠ وقد انتقد لطفى السيد مصطفى كامل لاثارته المستمرة للعواطف الشعبية الى حد الهياج المحموم ــ وهو تكتيك شعر انه قد يؤدى الى الخيبة أو ما هو أسوء ، كالرد المقابل البريطانى ضد الشعب ٠ وفى المقابل فان اتباع مصطفى كامل اتهموا حزب الأمة بالتغاضى عن الوجود البريطانى فى مصر ٠ وقد أقام كثير من أعضاء الحزب علاقات صداقة مع كبار الموظفين البريطانيين ، وذهب اللورد كرومر الى حد تسميتهم « بالحلفاء الطبيعيين للمصلحين الأوروبيين » ٠

أحمد "Egyptian Nationalism", pp. 70, 72, 96.

(٣١) شتيبات Steppat
"Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil." pp. 279-91.

(٣٢) من ناحية أخرى ، فلا يجب ان ننسى الصدمة والرعب الذى استقبل به المسلمون الغاء أتاتورك للخلافة ٠ واذا كان علينا أن نصدق نجيب محفوظ والصورة التى رسمها للمجتمع المصرى بعد الحرب العالمية الأولى ، فان العامة من الناس فى مصر كانوا لا يزالون مرتبطين بشدة بمؤسسة الخلافة ٠ انظر فوزى العنتيل « المجتمع المصرى كما تصوره رواية بين القصرين » ــ المجلة ، رقم ١٥ (١٩٥٨) ، ص ١٠٣ ٠

(٣٣) على هذا الشكل كتب تاريخه عن اليابان فى ١٩٠٤ باستمتاع خاص ٠ كانت اليابان قد هزمت لتوها روسيا فى الحرب ، وفسر مصطفى كامل هذا الحدث بما يعنى ان

« الحضارة الشرقية » لم تكن ميتة · وأكد أن « الحالة اليابانية » يمكن ان تصبح نموذجا لكل الشرقيين · مصطفى كامل « الشمس المشرقة » (القاهرة : مطبعة اللواء ، ١٩٠٤) الجزء الأول ، ص ٣ — ٥ · وبالمصادفة فان مصطفى كامل لم يكن الوحيد الذى وجد فى الانتصار اليابانى مصدرا للالهام · فقد اعتبر الشعراء المصريون وعلى رأسهم حافظ ابراهيم هذا النصر موضوعا فاتنا · أحمد
"Egyptian Nationalism", p. 65.

(٣٤) ربما كان محمد عبده هو الذى استرعى انتباه مصطفى كامل لهذه الحقيقة · ووفقا لشارلز وندل Charles Wendell فان فكر محمد عبده كان لا يزال مناصرا للجامعة الاسلامية بشدة حتى ١٨٨٦ ·

شارلز وندل Charles Wendell
"The Evolution of the Egyptian National Image : From Its Origins to Ahmed lutfi al-Sayyid (Berkeley and los Angeles : University of California Press, 1972), pp. 186, 192-94.

(٣٥) بدأت قضية دريفوس Dreyfus عام ١٨٩٤ عندما اتهم الكابتن الفرد دريفوس Alfred Dreyfus الضابط الألزاسى اليهودى فى هيئة الأركان العامة الفرنسية باعطاء معلومات للملحق العسكرى الألمانى فى باريس · ثم أدت المحاولات التالية لتبرئته الى أزمة سياسية مطولة ، وربما كانت أهم الأزمات فى تاريخ الجمهورية الثالثة · وأكدت القضية الصراع بين الجمهوريين واليمينيين الذين كانوا يريدون اعادة الملكية ، وقادت الى عداء متجدد وصراع بين الكنيسة الرومانية والجمهورية · كما أوضحت هذه القضية قوة العداء للسامية فى فرنسا ·

كان الدليل المقدم ضد دريفوس أمام المحكمة العسكرية فى أكتوبر ١٨٩٤ غير كاف · ومع هذا فقد أدين وأرسل الى جزيرة الشيطان حيث سجن · ومع هذا فقد ظلت الأسرار تنقل وتورط فيها ضابط فرنسى آخر هو الماجور فرديناند استرازى Ferdinand Esterhazy وعندما حاول مدير المخابرات الجديد الكولونيل جورج بيكار George Picquart (١٨٥٤ — ١٩١٤) أن يعيد فتح القضية فى عام ١٨٩٦ فانه فصل ، لكن شقيق دريفوس نجح فى تقديم استرازى الى المحاكمة عام ١٨٩٧ · ومع هذا فقد برئت ساحة الرجل برغم كل الأدلة ·

أدى هذا الى قيام الروائى اميل زولا Emile Zola بنشر خطاب مفتوح بعنوان « انى أتهم "J'accuse" » هاجم فيه الجيش ، وقدم القضية الى الرأى العام · تبنى قضية دريفوس كل من الراديكاليون الفرنسيون ، الاشتراكيون والمثقفون · فى ١٨٩٨ ثبت ان الوثيقة الرئيسية المستخدمة ضد دريفوس كانت مزورة · وحوكم دريفوس مرة أخرى وثبتت ادانته للمرة الثانية · ومع هذا فقد عفا عنه الرئيس اميل لوبيه Emile Loubet وفى عام ١٩٠٦ برئته محكمة مدنية وأعيد الى الجيش · فضحت القضية الجيش معقل الملكيين والكنيسة الكاثوليكية التى دعمت المشاعر المعادية لدريفوس · ونتيجة لذلك فقد تولى الراديكاليون السلطة واستطاعت فرنسا ان تقيم دولة علمانية ومجتمعا بورجوازيا وجيشا جمهوريا ·
"Lexicon Universal Encyclopedia". Vol. 6. pp. 271-73.

المترجم

(٣٦) ما لم يشر الى غير ذلك فان المعلومات التى تحتويها الفقرة الأخيرة قد أخذت عن شتيبات Steppat
"Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil", pp. 258-59, 287-88, 306-7. 309.

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ٢٧١ ــ ٧٨ ، ٢٨٤ ــ ٨٥ ، ٢٨٨ ــ ٨٩ ، ٣٣٣ ــ ٣٥ ٠
ويبدو هذا البيان الأخير مفرطا ٠ ومع هذا فهو ليس دعوة لاقامة دولة هيجلية Hegelian state لكنه دعوة لحمل السلاح ضد البريطانيين ٠

(٣٨) يقبل المؤرخون للفترة وجهة نظر شتيبات Steppat تقريبا ٠ فأنيس على سبيل المثال يؤكد أن مصطفى كامل كان عازما على التعاون مع أي وكل شخص يقف ضد الاحلال البريطاني ٠ أنيس « صفحات مطوية » ص ١٣ ــ ١٥ ٠

ويرى جولد شمت Gold Schmidt أيضا ان النداء الاسلامي للحزب الوطني كان « تكتيكيا » وللاستهلاك المحلي المحض ٠ جولد شميت Goldschmidt
"The Egyptian Nationalist party", pp. 311-12.

(٣٩) موسى « تاريخ الوطنية المصرية » ، ص ٢٦٩ ٠

(٤٠) العقاد « مصطفى كامل » ، ص ٧ ٠

(٤١) شتيبات Steppat
"Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil," p. 257.

ويرى شتيبات Steppat أن تأسد مصطفى كامل للتسامح الديني قد جذب كثيرين من الأقباط الى صفه ٠ المصدر نفسه ص ٢٦٧ ــ ٦٩ ٠ وأميل الى الشك في وجود أي نمو تلقائي سريع لتأييد قبطي لحزب مصطفى كامل ، برغم صواب مقولة انه كان يسعى لتشكيل جبهة متحدة ضد البريطانيين ٠ لقد أدان مصطفى كامل « التباغض الجنسي » الذي كان هناك شيء منه في الفترة العرابية ، مدركا انه قد يمزق حركته أو قد يستخدم ضده وبعض أتباعه (التركو ــ جراكسة) وليس (الأقباط) ٠

(٤٢) عباس محمود العقاد « كتاب مصطفى كامل » ، الرسالة ، رقم ٢٩٤ (١٩٣٩) ، ص ٣٣٧ ــ ٣٨ ٠

(٤٣) فيما يتعلق بحركة مصطفى كامل بصفة عامة كتب أحد المؤلفين ما يلي « ان حقيقة ان مصر كانت منذ زمن طويل وحدة سياسية منفصلة انما يرجع الى ظهور قومية مصرية محدودة ، منفصلة عن مسالة البعث العربي التجمعي » ٠

حازم زكي نسيبه
"The Idea of Arab Nationalism (Ithaca, N.Y. : Cornell University press, 1956), pp. 145-46.

وقد لاحظنا هذه الظاهرة منذ أيام المماليك ٠

(٤٤) جولد شميت
Gold Schmidt
"The Egyptian Nationalist Party," p. 319.

قارن برونو اجليتي
Bruno Aglietti
'Mustafa Kamil (1874-1908) : Fondatore del partito Nazionalista Egiziano", Oriente Moderno 22 (1942), 308-10.

(٤٥) أحمد
"Egyptian Nationalism", p. 61.

(٤٦) الرافعي « مصطفى كامل » ص ٢٢ ، ٣٦ ، ١٨٧ ٠

قارن شتيبات
Steppat
"Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil," pp. 252-53.

(٤٧) الرافعى « مصطفى كامل » ، ص ١١٩ • والطبعة التى استخدمتها هى طبعة ١٩٠٩ الثانية دون تعديل Reprint

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٤٥ •

(٤٩) مصطفى كامل باشا « المسألة الشرقية » (القاهرة : مطبعة اللواء ، ١٩٠٩) ، الجزء الأول ، ص ١ ــ ٢ • ويظهر كتاب « المسألة الشرقية » فى هذه الطبعة كالأجزاء ٧ ــ ٨ من كتاب على فهمى كامل « مصطفى كامل باشا فى ٣٤ ربيعا » •

(٥٠) المصدر نفسه ، ص ٣ ــ ٤ •

(٥١) المصدر نفسه ، ص ٤ ــ ٥ •

(٥٢) المصدر نفسه ، ص ٣١ ــ ٦٥ •

وتعود المنازعات الروسية ــ التركية الى منتصف القرن السادس عشر • لكن السياسة المعادية لتركيا لم تأخذ شكل الثبات فى العلاقات الروسية الخارجية الا فى نهايات القرن السابع عشر • كانت الامبراطورية العثمانية فى حالة تدهور مع بدايات القرن الثامن عشر بينما كانت روسيا ترتكز على برنامج طموح من التوسع الاقليمى • وعلى مدى القرنين التاليين كان الزعماء الروس مدفوعين بايديولوجيات (المسيحية الاورثوذوكسية) و (الجامعة السلافية) الى جانب عوامل استراتيجية واقتصادية يسعون الى مد نفوذهم فى جنوب شرقى أوروبا والاستيلاء على اوكرانيا Ukraine ، والقرم Crimea ، ومنطقة القوقاز • وقد هددت هذه الأهداف والطموح للسيطرة على البحر الأسود والدردنيل المصالح والأراضى التركية بصورة مباشرة ، وأنتجت الحروب المتكررة • وهكذا فان الحروب تعاقبت بين البلدين لتنهيها معاهدات كارلوفيتز Karlowitz عام (١٦٩٩) ، وبروث Pruth عام (١٧١١) ونيسا Nissa عام (١٧٣٩) • ثم جاءت الحرب الروسية التركية (١٧٦٨ ــ ١٧٧٤) فى عهد كاترين الثانية ، وفيها انتصرت روسيا على الدولة العثمانية وانتهت بتوقيع معاهدة كوجك قينارجى Kücük Kainarji عام (١٧٧٤) التى أصبحت مصدرا للخلاف فى العلاقات الروسية ــ التركية • كسبت روسيا مواقع استراتيجية محاطة ببلاد لا تتبعها enclaves على ساحل البحر الأسود الشمالى ، وامتيازات تجارية وبحرية فى الامبراطورية العثمانية والبحر الأسود ــ وحقا غامض التعريف للتدخل والتحدث بالنيابة عن الشعوب المسيحية فى الامبراطورية العثمانية • ولم تنه هذه المعاهدة الصراع بين البلدين فاستمرت الحروب (١٧٨٧ ــ ٩١) والتى انتهت بمعاهدة ياسى Jassy (١٧٩٢) التى أعادت تأكيد سيطرة روسيا على القرم (الحقتها بممتلكاتها عام ١٧٨٣) وأعطت لها أراضى بين نهرى بج Bug ودينستر Dnesier وبذلك حلت روسيا محل الامبراطورية العثمانية كقوة متسيدة فى منطقة البحر الأسود ، واستمرت الحروب بعد ذلك خلال القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩١٧ من القرن الحالى

Lexicon Universal Encyclopedia, Vol. 16.

المترجم

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٦٦ ــ ٧٠ ، ١٦١ ــ ٦٢ ، ٢١٤ •

وقد بدأت مرحلة تدهور الامبراطورية العثمانية فى عصر السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ ــ ١٥٧٤) ، فهزمت جيوشها فى أعوام ١٥٧١ ، ١٦٦٤ ، ١٦٩٧ ، وبمقتضى معاهدات كارلوفنز Karlowitz (١٦٩٩) وباساروفيتز Passarowitz (١٧١٨) خرجت بلاد كثيرة من حوزة الدولة لصالح أعدائها •

مع شعور العثمانيين بوجود خلل فى نظمهم فانهم شرعوا مع النصف الأول من القرن

السابع عشر فى محاولة التجديد عن طريق الاتصال بالغرب • ويعتبر السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ ـ ١٧٧٤) مفجر حركة الاصلاح على الأسس الغربية • وبدأ بالجيش فأنشأ وحدات المدفعية على الطراز الغربى • وأنشأ بمساعدة البارون دى توت De Tot الذى استدعى من فرنسا لهذا الغرض تشكيلات سميت بالمدفعية السريعة • وانضم السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤ ـ ٨٩) الى حركة الاصلاح فطور فرق المدفعية وافتتح قسما للهندسة الحربية وأنشأ مدرسة (هندسة أوده سى) • وأنشأ السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) جيش « نظام جديد » على النظم الأوروبية وزوده بالمشاة والفرسان • لكن الانكشارية ما لبثت ان قاومت حركة الاصلاح وأجبرت السلطان على التنازل عن عرشه عام ١٨٠٧ • وعندما تولى السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) وجد أن ارساء الجديد يستلزم ازالة القديم • لذلك فقد عزم على التخلص من معوقات الاصلاح • وبدء فى عام ١٨٢٦ بتدبير هجوم على معسكرات الانكشارية فى ساحة ميدان السباق (آت ميدانى) وقصفها بالمدافع وقتل حوالى ٨٠ الفا من هذه القوات فيما سمى بـ « واقعة خيرية » • وأحل محمود الثانى جيشا جديدا أسماه « عساكر منصورية محمدية » محل الانكشارية ـ ثم شرع فى ادخال مشروعات مستغربة فى ميادين الصحة والطب والمعارف والادارة وافتتح المدارس الثانوية الرشدية • لكن المصائب توالت على الدولة فهزمت أمام روسيا فى عام ١٨٢٨ وفجعت فى مصر عندما أعلن واليها محمد على العصيان عليها (١٨٣٢ ـ ١٨٤٠) ، وتصاعدت الثورات فى مناطق أخرى •

تحقق الأمل فى انقاذ الدولة عندما ظهر « مصطفى رشيد باشا » الذى ظهر على مسرح الأحداث فى عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ ـ ٦١) ـ كان رشيد وزيرا للخارجية (١٨٣٧ ـ ١٨٤١) وسفيرا للدولة فى باريس (١٨٤٠ ـ ١٨٤٥) وصدرا أعظم (١٨٤٦ ـ ١٨٤٨) و (١٨٥٢) ثم وزيرا للخارجية (١٨٥٣ ـ ١٨٥٤) ثم صدرا أعظم (١٨٥٤ ـ ١٨٥٥) و (١٨٥٦ ـ ٥٧) و (١٨٥٧ ـ ٥٨) • وكان له احتكاك بالغرب نتيجة رحلاته العديدة ودراسته للغة الفرنسية وأساليب الحياة الغربية وسفارته للدولة فى باريس وصداقته للمستشرق الفرنسى دى ساسى De sacy • سعى رشيد لدى السلطان صغير السن عبد المجيد لاستصدار الاعلان المعروف بمرسوم التنظيمات « كلخانه خط همايونى » عام ١٨٣٩ • كان فحوى هذا « الخط » هو أن لكل فرد حقوقه الطبيعية التى تضمن له أمنه فى ماله وعرضه وشرفه ـ وأن المصادرة للأموال والمظالم سترفع عن الشعب ، وأن لا فرق بين رعايا الدولة من أهل الكتب السماوية •

حد مرسوم التنظيمات من سلطة السلطان وأخرج الحكم من نوعية الحكم الشخصى الى حكم طبقة عالية من الموظفين • وأظهر الاهتمام بحقوق الانسان • وكان أول تصريح وتعهد يخرج من فم حاكم مسلم فى تاريخ الشرق الاسلامى يدعو فيه الى المساواة فى الحقوق بين المسلمين وأهل الذمة • كما كان أبلغ دليل على وصول أفكار الثورة الفرنسية الى الدولة العثمانية •

وسارت حركة « التنظيمات » بعد عبد المجيد وبعد عزل رشيد باشا ، فلم تعد فكرة التجديد ملكا للسلاطين أو وزرائهم ، بل تلقاها نفر من الشعب وهم طبقة المثقفين وأخرجوها فى صورة أدبية ، فأصبح هناك ما يسمى بأدب التنظيمات ، وأصبح هناك سياسيو التنظيمات فيما بعد أمثال ضيا باشا ونامق كمال أفندى اللذين كانا أيضا من أدباء الدور الثانى فى عهد التنظيمات • وظلت روح التنظيمات فى عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦) ، فأخذ بنموذج المؤسسات الغربية فى بعض الميادين كالقضاء عندما استبدل (ديوان أحكام عدلية) (بعدلية نظارتى) ، وشكل محاكم النقض والاستئناف (تمييز محكمة لرى) ، وسن التعليم الاجبارى وأدخل أسلحة الجيش البروسى فى جيشه •

ويتحدد عهد التنظيمات بالفترة ١٨٣٩ ــ ١٨٧٦ ٠

انظر مجدى بكر ، « ابراهيم شناسى افندى ، حياته وآثاره » رسالة ماجستير غير منشورة ــ كلية الآداب ــ جامعة عين شمس ــ القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٢ ــ ٩ ٠

المترجم

(٥٤) مصطفى كامل باشا « المسالة الشرقية » ٠ ص-٧٤ ، قارن ل ٠ س ٠ ستافرايانوس L. S. Stavrianos الذى يزعم ان الكسندر يبسلانتى Alexander Yepsilanti كان ماجور ــ جنرال فى الجيش الروسى وذو صلات روسية عديدة هامة وفى مقامات عليا وأنه لم يكن يتلقى (والقول لازال لستافرايانوس) أى مساعدات سرية من الحكومة الروسية ٠

ل ٠ س ٠ ستافرايانوس Stavrianos
"The Balkan since 1453 (New York : Holt, Rinehart and Winston, 1966), pp. 282-83.

(٥٥) « المسالة الشرقية » الجزء الأول ، ص ٧٧ ــ ١١٨ ٠ وقضية الفظائع المدعى بارتكاب المسلمين لها ضد المسيحيين ، موضوع يعود اليه مصطفى كامل بين حين وآخر ٠ فهو يلاحظ ، على سبيل المثال ان العثمانيين كانوا متساهلين مع السكان اليونانيين عندما استردوا (العثمانيون) أثينا فى يونيو ١٨٢٧ ، بالرغم من الحرب المريرة والطويلة التى مروا بها ٠ المصدر نفسه ، ص ١٠٧ ٠ وأينما كان ممكنا فان مصطفى كامل يحاول أن يوثق الوجه الآخر من العملة ويضيف معلومات مفصلة كثيرة عن الفظائع المسيحية المرتكبة ضد المسلمين ٠ المصدر نفسه ، الجزء الأول ، ص ٢١٥ ، ٢٤٢ ــ ٥٥ ؛ الجزء الثانى ، ص ١٨٦ وما بعدها ٠

(٥٦) المصدر نفسه ، الجزء الأول ، ص ١ ــ ٢ ٠

(٥٧) فجمل (المناصب السامية والوظائف العالية) و (دليل ساطع وبرهان قاطع) على سبيل المثال تتكرر فى مواضع عديدة على مدى صفحات الكتاب « المسالة الشرقية » ، الجزء الأول ، ص ٦ ٠

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ٩ ــ ١٠ ٠

(٥٩) المصدر نفسه ، ص ١٣٥ ٠

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ١٥١ ٠

(٦١) المصدر نفسه الجزء الثانى ، ص ٢ ــ ٣ ٠

(٦٢) المصدر نفسه ، ص ٩٢ ــ ٩٣ ٠

(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٥٦ ، ١٠٢ ، ١١١ ــ ١٢ ، ١٧٧ ٠

(٦٤) المصدر نفسه ، الجزء الأول ، ص ٥ ــ ٦ ٠

(٦٥) المصدر نفسه ، الجزء الثانى ، ص ١٠٨ ٠

(٦٦) المصدر نفسه ، الجزء الأول ، ص ١٤ ــ ١٥ ، ٢٢ ــ ٢٣ ، الجزء الثانى ٠ ص ١٧٦ ٠

(٦٧) قارن ص ١٥ ــ ١٨ من الفصل الأول ٠

(٦٨) شتيبات Steppat
"Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil", pp. 298-300.

(٦٩) يبدو ان مصطفى كامل آمن بان لا يوجه التعليم على وجه القصر للحصول على المعرفه ولكن أيضا لغرس الشعور الوطنى فى الطلبة ٠

المصدر نفسه ٠ ولكن مخافة ان يبدو هذا الوضع منطرفا مرة أخرى أكثر مما كان بالفعل ، دعنا لا ننسى أن (١) الأجانب فى ذلك الوقت كانوا يسيطرون على التعليم المصرى (٢) وانه حتى الآن لا تزال هنال بعض الأنظمة التعليمية القليلة التى لا تخدم فى اغلب الأحوال نفس الأهداف ، وفوق هذا فان ظهور كتاب « المسالة الشرقية » يمكن ان يكون ذا خدمة أفضل للضامن الاسلامى وليس القومية المصرية ٠

(٧٠) « المسالة الشرقية » ، الجزء الأول ، ص ١٢٦ ٠

(٧١) المصدر نفسه ، ص ١٢٧ ــ ٢٨ ٠

(٧٢) ومع هذا ، فانه ينقذ الباشا بالاستشهاد بمراسلته مع لويس فيليب التى تثبت ان مطامع محمد على لم تصل الى هذا الحد تماما ٠ المصدر نفسه ، ص ١٤٨ ــ ٥٠ ، ١٥٤ ــ ٦٠ ٠

(٧٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٩ ــ ٥٠ ٠

(٧٤) المصدر نفسه ، الجزء الثانى ، ص ١٤٣ ٠

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ١١٤ ــ ١٥ ٠

(٧٦) **المصدر نفسه ، ص ٤٧ ــ ٥٠ ٠**

(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٥٠ ــ ٥٣ ، ٦٧ ٠

(٧٨) المصدر نفسه ، ص ٦٦ ــ ٧٢ ، ١١٢ ــ ١٣ ٠

(٧٩) المصدر نفسه ، ص ٧٧ ــ ٧٩ ٠

(٨٠) المصدر نفسه ، ص ٥٨ وما بعدها ، ١٨٤ وما بعدها ٠

(٨١) المصدر نفسه ، ص ١١٩ ٠

المؤرخون القوميون : ٢ ـ محمد فريد

ناقشنا فى الفصل السابق امكانية عدم أخذ المشتغلين بالثقـافة مظاهر الجامعة الاسلامية عند مصطفى كامل بجدية كافية ٠

ومع هذا فان القضية لم تحسم حتى الآن نظرا لأن بعض عناصر اللغز لا تزال غائبة ٠ من ذلك على وجه الخصوص ضرورة الأخذ فى الاعتبـار بقصة حياة ومثل صديق مصطفى كامل ، تابعه وخليفته فى رآسة الحـزب الوطنى ـ محمد فريد (١٨٦٨ ـ ١٩١٩) ٠ فقد حاول محمد فريد أن يدير أمور الحزب كما كان منتظرا من مصطفى كامل أن يفعل فيما لو عاش ٠ وهناك استمرارية فى الفكر بين الرجلين ، لذلك فان أفكار محمـد فريد ستساعدنا على فك رموز وضع مصطفى كامل السياسى ٠

كان أسلاف محمد فريد أتراكا ، ووفقا للرافعى فان أحد اجداده جاء الى مصر (ككاتب للعملة) مع جيش الفتح العثمانى الأصلى ٠ وتعلم أحمد والد فـريد المولود عام ١٨٣٦ فى نظام المدارس الحـكومية وعلى وجه الخصوص فى المدارس الحـربية ٠ والتحق فيما بعـد بمصلحة السكة الحديدية ، متوليا مناصب الادارة ، لكنه فصل منها عام ١٨٧٧ عنـدما وضعت المصلحة تحت الاشراف البريطانى المباشر (١) ٠ ثم شغل بعد ذلك مناصب حكومية محلية عديدة وفى ١٨٨٦ بلغ أعلى المناصب مقاما فى سجل حياته عنـدما أصبح مديرا للدائرة السنية ٠ وفى نفس الوقت حصل على لقب الباشوية ولقب بكلر بيكى (٢) ٠ فى ١٨٩٢ منح النيشان المجيدى ٠ وظل مديرا للدائرة السنية حتى ١٨٩٤ عندما فصله نوبار لمعارضته نقـل ممتلكات خديوية معينة الى شركة أجنبية (٣) ٠

ولا يعرف الا القليل عن الحياة المبكرة للابن محمد فريد ٠ ففى ١٨٨٧ حصل على درجة فى القانون من مدرسة الادارة (الألسن سابقا) ٠ وفـاز بمنصب جيد فى الادارة القانونية للدائرة السنية كنتيجة محتملة لصـلات والده ، واستمر بهذا العمل حتى ١٨٩٦ ٠ ومع هذا ففى ذلك العـام اتصل

محمد فريد « بقضية التلغراف » التى اتهم فيها الشيخ على يوسف من جانب الحكومة بالكشف عن أسرار معينة · وجاء اتصال محمد فريد بالقضية عندما دافع وهو وكيل نيابة بالاستئناف عن الشيخ ، فكان ان عوقب بالنقل الى (مغاغة) · وبدلا من أن يتقبل هذا التنزيل المهين ، فقد قرر أن ينتقل الى العمل الحر (٤) · ورغم أن هذه الفترة من حياة محمد فريد لا تزال غامضة ، الا أنه من المعتقد أنه مارس المحاماة على مدى السبع ـ عشر سنوات التالية ·

كان أول لقاء بين محمد فريد ومصطفى كامل فى عام ١٨٩٣ ، لكن الصداقة بين الرجلين لم تتوطد الا فى صيف ١٨٩٥ عندما التقيا فى باريس (٥) · كانت هذه أول رحلة لفريد الى أوروبا ، ومثل مصطفى كامل، فانه سرعان ما أصبح لديه « شوق حقيقى للسفر » (٦) · فزار النرويج ، وأسبانيا ومراكش والجزائر وتونس، وتردد جيئة وذهابا بين أوروبا ومصر على مدى الخمس عشر سنة التالية ، ومن عام ١٩١٠ وحتى موته بعد عشر سنوات كان يسافر باستمرار ما بين أوروبا والامبراطورية العثمانية (٧) ·

ظلت ترجمة عبد الرحمن الرافعى لمحمد فريد هى مصدرنا الوحيد للمعلومات عنه لفترة طويلة · ومع هذا فان نشر مذكراته فى الوقت الحالى قد زودنا بقدر كبير من التبصر بسيرته وفلسفته السياسية ، ويبدو أن ما ظل المثقفون يشكون فيه لزمن طويل ـ ان دراسة الرافعى لا يمكن الوثوق بها كلية ـ كان هو الحقيقة (٨) · فعلى عكس ما ذكره الرافعى ـ على سبيل المثال ـ فان محمد فريد سلك الطريق الى التطرف السياسى ببطء نسبى · حاز هو ووالده مراكز متميزة فى الحكومة المصرية· كانا جزءا من الصفوة السياسية والاجتماعية وفقدا الكثير بانضمامهما الى الحركات الشعبية المضادة للخديوية · وتبعا لذلك ، فقد سمع أن فريد كان يثنى على الاصلاحات المالية التى تحققت فى ظل البريطانيين ، وكان ذلك فى عام ١٨٩١ · وقدم التقييم التالى لسياسة الاحتلال بصفة عامة :

« لم يفعل الانجليز حتى الآن شيئا يستوجب كرها · فهم يعاملون الناس بعطف ورقة · ان حب أرض الآباء يلزمنا بالطبع أن نأمل أنهم سوف يتركون مصرنا المحبوبة ، بشرط أن لا نعود الى الامبراطورية العثمانية · وفى الحقيقة (مع ذلك) ، فاننى يجب أن أعترف كلية بدون مبالاة اننا نحتاج الى المساعدة من الانجليز لمدة لا تقل عن خمسة عشر عاما · من أجل أن نزيد معارفنا ومدنيتنا الى الحد الذى نستطيع معه ادارة شؤوننا بأنفسنا » (٩) ·

فيما بعد وفى نفس العام بدأ موقف محمد فريد يتصلب · فانتقد توفيق

لخشيته المتزايدة على عرشه ، ووزرائه لمحاولتهم ارضاء البريطانيين من أجل الاحتفاظ بمناصبهم العالية (١٠) · فى عام ١٨٩٢ أعلن عن تأييده لسياسة « المقاومة السلبية » التى قادها الحاكم الجديد ضد الاحتلال من ناحية وتقوية الروابط العثمانية ـ المصرية من ناحية أخرى · فى عام ١٨٩٤ ظهر تاريخه عن الامبراطورية العثمانية ، وفيه ركز على أهمية دور الباب العالى كمدافع عن « دار الاسلام » · ومع هذا ففى نفس العام أضاف بتناقض تأييده لقانون ١٧ نوفمبر الذى دعا الى ابعاد الحكام الاقليميين الأتراك ـ الجراكسة الأرستقراطيين عن مناصبهم · وكان مناصرا قويا لجهود الحرب التركية ضد اليونان فى ١٨٩٧ ووزن الوطنية المصرية باستمرار بميزان الولاء فقط للامبراطورية العثمانية · والسؤال الحاسم هنا هو ما اذا كانت هذه البيانات تعكس اعتقادات راسخة أم أنها مجرد اجراءات تكتيكية الهائية استهدفت أساسا ازعاج البريطانيين (١١) ·

تبقى جهود محمد فريد خلال السنوات ١٨٩٧ ـ ١٩٠٤ غامضة · اذ لم يعثر على أى من مذكراته عن هذه السنوات (١٢) · ولا يقول الرافعى عن هذه الفترة سوى أنه انشغل بالأعمال الحرة · ومن خطاب بعث به الى (اللواء) فى مايو ١٩٠٥ يمكن القول بأنه لم يكن ناجحا تماما كمحام وانه ترك المهنة بقدر كبير من المرارة (١٣) · وبالاضافة الى اشتغاله بالمحاماة ، فقد بدأ فى عام ١٨٩٨ فى نشر مجلة علمية تصدر كل شهرين (الموسوعات) ، لكن نجاحه فى هذا المجال كان محدودا أيضا على مايبدو · وقد كتب هو نفسه العديد من المقالات للمجلة ، وكان أغلبها فى موضوعات تاريخية · وشملت هذه الموضوعات انجلترا وفرنسا فى افريقيا ، انجلترا فى غرب افريقيا ، كيف فقدت جزر هاواى استقلالها ، انجلترا فى الترنسفال ، انجلترا فى جنوب افريقيا ، روسيا فى آسيا ، وسكك حديد سيبيريا · وقد ظهر أغلب هذه المقالات بين عامى ١٨٩٩ و ١٩٠١ · وفى ١٩٠٢ أنتج محمد فريد تاريخا قصيرا عن روما حتى نهاية الحروب البونية (١٤) ·

من ١٩٠٤ الى ١٩٠٨ عمل محمد فريد بتعاون وثيق مع الحزب الوطنى · فصحب مصطفى كامل فى رحلات عديدة الى أوروبا ، وموّل الكثير من نشاطات الحزب السياسية من ماله الخاص ، وانغمس فى نشر (اللواء) فى طبعاته العربية والفرنسية والانجليزية (١٥) · وعندما توفى مصطفى كامل فجأة فى ١٩٠٨ انتخب محمد فريد ليخلفه كزعيم للحزب الوطنى · لكن دوره الزعامى بدأ وسط جو من الشك والنزاع الداخلى بسبب « افتقاده للذكاء ، والحسم والشخصية الآسرة التى كانت لسلفه » · فمن البداية أحس محمد فريد أن على فهمى كامل شقيق مصطفى

كامل كان يتآمر بمعونة الخديو لينتزع الزعامة من بين يديه (١٦) ٠

كانت السنوات الثلاث التالية مليئة بالمتاعب لمحمد فريد ٠ فقد عين بوصفه زعيما للحزب الشيخ عبد العزيز جاويش محررا (للواء) ٠ وكان جاويش فى ذلك الوقت مفتشا للتعليم الدينى بنظارة المعارف وكان ينظر اليه من جانب الكثيرين كداعية للجامعة الاسلامية أكثر منه قومى مصرى (١٧) ٠ عزز (جاويش) و (فريد) قوة الحزب العامة ، لكنهما أيضا زجا (باللواء) فى مياه عميقة عندما أبعدا مؤيدى الحزب الهامين مثل عمر سلطان وطلعت حرب ٠ وأدت المخاوف المتزايدة من العنف برئيس النظار بطرس غالى الى اعادة فرض قانون المطبوعات المتشدد الصادر عام ١٨٨١ ، ثم جعل اغتيال غالى اللاحق بمعرفة أحد أعضاء الحزب من فريد وعصبته موضع شك متزايد من جانب البريطانيين (١٨) ٠ وحث نزاع حول ملكية (اللواء) فى مارس ١٩١٠ فريدا على الانسحاب من ادارة الجريدة وتأسيس جريدته المنافسة (العلم) ٠ ورغم أن الجريدة سرعان ما منعت من جانب الحكومة ، الا أن محمد فريد استمر فى نشرها تحت مسميات اخرى « كالاعتدال ، الشعب ، والعدل » ٠ ومع هذا ففى ١٩١٠ أصبحت تهمة القذف الصحفى جريمة ، وخشية التعرض لحريته فان محمد فريد ذهب الى أوروبا فورا (١٩) ٠

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا أمضى محمد فريد أغلب وقته بالخارج ، كاتبا ومتحدثا عن قضية الجلاء البريطانى ٠ وحضر مؤتمرات دولية عديدة: مؤتمر السلام فى ستوكهولم (أغسطس ١٩١٠) ، مؤتمر بروكسل (سبتمبر من نفس العام) ، مؤتمر السلام فى جنيف (سبتمبر ١٩١٢) ، مؤتمر السلام فى لاهاى (أغسطس ١٩١٣) ٠ وفى كل مؤتمر كان هدفه تنظيم الدعم الأوربى لقضية مصر الوطنية (٢٠) ٠ وما أن عاد الى مصر فى ديسمبر ١٩١٠ حتى قبض عليه وسجن لمدة ستة أشهر ٠ ثم نفى فى مارس ١٩١٢ ، وفى أغسطس ونوفمبر من نفس العام تم اغلاق (اللواء) و (العلم) نهائيا (٢١) ٠ وهكذا تم تدمير قواعد دعم محمد فريد واحدة تلو الأخرى٠

ثم جاءت نهاية مصائب الحزب الوطنى سريعة ونهائية ، عندما سعى محمد فريد المحروم من الدعم الداخلى الى استئناف نشاطه الحزبى بالخارج ٠ حيث طور علاقاته مع الطلبة المسلمين فى أوروبا وحاول مساعدتهم على تنظيم جمعيات سرية سياسية (٢٢) ٠ وتزخر مذكراته عن هذه السنوات بالمرارة واللوم (٢٣) ، وبدأ منذ ذلك الوقت شأنه شأن (لينين) وغيره من الكثير من الثوار المزقين فى تصور الأعداء فى كل جانب واليأس فى العثور على أى شخص يأخذ قضيته بجدية ٠ ومع هذا

فان اهتمامه بالتعاون المصرى ـ العثمانى لم يفتر ، وكان عاملا فعالا عام ١٩١٣ فى انشاء (جمعية ترقى الاسلام) التى كان هدفها تنمية الروابط الوثيقة بين بلاد العالم الاسلامى (٢٤) • وفى استانبول اجرى تسوية مع الخديو المخلوع (عباس حلمى ، ونجح فى الحصول على مساندة شكلية من حزب (الاتحاد والترقى) لكفاحه ضد الاحتلال • وقد فشلت محاولة لضم سعد زغلول الى صفوف الحزب الوطنى ، وتكشف مذكرات محمد فريد عن نوع من الحسد لشعبية سعد المتزايدة فى مصر (٢٥) • على أى حال كانت فعالية محمد فريد كسياسى تقترب من نهايتها • ثم لقى وجه ربه الكريم مغمورا فى برلين فى نوفمبر ١٩١٩ • وكسفت شمس ذكراه بالصعود الشهابى لسعد زغلول والوفد ، ولعل اسهامه فى كل من السياسة والتأريخ لم يكن ليعرف لولا الترجمة المؤثرة التى صاغها عنه عبد الرحمن الرافعى •

كان محمد فريد من أصول تركية ، وتبدو نزعات الجامعة الاسلامية واضحة فى نشاطاته السياسية والأدلة التى يمكن اكتشافها من خلال تاريخه السياسى وحده محدودة بالمقارنة بمصطفى كامل ، ومن حسن الحظ أن محمد فريد لم يكن سياسيا فقط ولكنه ولكنه كان مؤرخا أيضا مثل معلمه قبله •

بالاضافة الى الدراسات القصيرة السابق الاشارة اليها ، فقد كتب محمد فريد عملين تاريخيين كبيرين ، كان أحدهما عن مصر فى عهد محمد على ، أما الآخر فكان عن الامبراطورية العثمانية • وقد ملء كلا من الكتابين ما كان يعد فى ذلك الوقت فراغا كبيرا ، حيث لم يكن متوافرا حتى ذلك الوقت عمل مخصص لأى من الموضوعين • كان اسهاما محمد فريد فى التاريخ المصرى اسهاما ذا دلالة ، برغم مواطن الضعف التى كانت فى كتبه مثل ما كان ايضا فى كتب مصطفى كامل •

ظهرت دراسة محمد فريد لعهد محمد على (كتاب البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية) فى عام ١٨٩١ (٢٦) ، ويقرر محمد فريد أن هدف الكتاب هو تنوير المصريين بماضى بلادهم الحالى وخاصة بانجازات مؤسس الأسرة العلوية • وكان الكتاب أيضا نتيجة لحب الرجل لأرض الآباء ودين العرفان بالجميل الذى كان يشعر به لنجاحه ورفاهيته • وكان القول المأثور « حب الوطن من الايمان » مقحما بطريقة ميكانيكية فى بداية الكتاب مبررا وجوده فى أعين القارىء المصرى المخلص (٢٧) •

باستبعاد غلالة الوطنية الرومانتيكية التى يحتويها الاعلان

الافتتاحى للكتاب ، فان القارىء سيكتشف فى الحال أن (البهجة التوفيقية) مجرد تاريخ عسكرى لعهد محمد على · وعناوين الفصول وحدها – «حرب الحجاز» ، «فتح الدرعية» ، «استسلام عبد الله بن سعود» ، «فتح السودان» ، « الحرب اليونانية » · « الحرب السورية » ، « فتح عكا » – تكشف عن رجحان كفة الشئون الحربية · ولم ينتقل محمد فريد الى مجالات أخرى الا فى الفصل النهائى ، مبينا لقرائه اجراءات محمد على الاصلاحية الكثيرة · ورغم أن الفصل مختصر الا أن محمد فريد عالج اجراءات محمد على بشمول مذهل وضمن المعالجة مجالا واسعا من الموضوعات كالمدارس ، المستشفيات ، البعثات التعليمية فى الخارج ، أحواض بناء السفن والاصلاح البحرى ، تحصينات الحدود ، مصانع النسيج ، الرى ، خطوط البرق ، الخ · ثم ختم محمد فريد الفصل بقوله أن قبول المصريين لهذه الاجراءات كان غير وثيق الصلة بالموضوع حيث أن هذه الاجراءات كانت ضرورية ونافعة (٢٨) ·

وكما قلنا فان بقية الكتاب كانت عن فتوحات محمد على فى السودان ، الجزيرة العربية ، المورة ، سوريا · أما النمط العام لرواية هذه الحوادث فكان وصف الحملات بتفاصيل دقيقة مع الحاقها بكيل المديح للبسالة المصرية · وفى بعض الأحيان فقط كان محمد فريد يناقش الدوافع · فقد زعم على سبيل المثال أن السودان قد غزى لأسباب عديدة :

١ – حماية التجارة على امتداد النيل ·

٢ – لتجنيد الجنود النوبيين المشهورين فى جيش محمد على ·

٣ – للتخلص من الجنود الألبان النظاميين ·

٤ – لانهاء المقاومة المملوكية لحكم محمد على ·

٥ – للبحث عن الذهب · وقد أشار محمد فريد الى السودانيين « بالبرابرة » لكنه على العكس من ذلك مدح النوبيين « لمقاومتهم الشجاعة للجيوش المصرية الزاحفة » (٢٩) ·

بدأ محمد فريد روايته عن الحرب الوهابية بشرح عقيدة الوهابيين بنزاهة مطلقة · (والكثير من معلوماته مستمد من مقالة منشورة فى (Journal Asiatique) (٣٠) · ثم استكمل بتناقض مؤكدا أن الله هو الذى أرسل محمد على لمحاربتهم · وانهى القصة بوصف متوهج لعودة ابراهيم باشا من الحملة الوهابية فى ٩ ديسمبر ١٨١٩ ·

« ملئت سمعته وشهرته كل مكان ، الى جانب شهرة الجيوش المصرية التى أظهرت تحت قيادته القدرة على الدفاع عن الوطن كالأسود فى الغاب

وهزيمة البلاد التى مروا بها • (ولقد كان هذا ممكنا) ما دام قادتهم رجال مسؤولين نبلاء ، (فى الغرض) ، محبين لوطنهم العزيز وواضعين المصلحة العامة قبل المصالح الشخصية (٣١) •

ولا شيء مما فات يعطى تنويرا ثقافيا • وربما تزود التواريخ الزمنية التفصيلية للمعارك فى الجزيرة العربية بعض الطلاب بقليل من الحقائق الممتعة ، ما عدا ذلك فان وصف محمد فريد للحوادث فى الجزيرة العربية والسودان قليل القيمة • وعلى العكس من ذلك فان المناقشات حول الحملات الى اليونان وسوريا قد عولجت بمهارة أكثر ـ برغم احتوائها على بعض العيوب السابق الاشارة اليها قبلا • فى كل من الحملتين يعرض محمد فريد بوضوح متقن لتعقيدات الدبلوماسية الأوروبية • وروايته عن المصالح المتعارضة للقوى الأوروبية وبواعث سياستهم الخارجية فيما يتعلق بمصر والشرق الأدنى تكشف عن ادراك عظيم ، وبنائها فى اغلب الأحوال معتدل (٣٢) • ورغم أنه يحذف أغلب الروايات عن الفظائع التى ارتكبها المصريون ضد اليونانيين ، فانه راغب عن اعطاء حكم نهائى فى التقارير الكثيرة المتعارضة (٣٣) •

وفى معالجته للارتباك المصرى فى سوريا ، فان محمد فريد ينضم بصلابة الى الجانب المصرى ، فيمدح بسالة الجنود المصريين الذين حاربو « كالأسود الضارية بقوة لا يمكن لرجل أو وحش أن يقاومها » (٣٤) • ويدافع عن السياسات الاحتلالية القاسية التى طبقها ابراهيم باشا ، زاعما أنها كانت ضرورية من أجل ايقاف (نشر الفساد) (٣٥) • وفى النهاية فانه يصف انسحاب القوات المصرية من سوريا بأسلوب رثائى كئيب ، ملاحظا فى الختام أن الانسحاب أدى الى عودة البلاد الى أحوالها المضطربة السابقة من الحرب الأهلية بين الدروز ـ المسيحيين فى ظل حكم عثمانى عقيم (٣٦) •

ولا يجد محمد فريد شيئا يستلفت الانتباه بعد الجلاء المصرى عن سوريا • وفى نهاية الفصل الذى خصصه لسوريا فانه يقحم مذكرة مختصرة عن قرار محمد على بارسال مجموعة من الطلبة الى باريس رغم أن الموضوع غير ذى صلة هنا (٣٧) • وباقى الكتاب (باستثناء الصفحات الخمسة عشرة الأخيرة عن اصلاحات محمد على) مخصص بشكل غير متوقع لزيارة الدوق دى مونتبنسير Duc de Montpensier لمصر ورحلات ابراهيم باشا فى أوروبا (٣٨) • ولا يوجد أى تبرير تنظيمى لهذه الفقرات، ولعل السبب الوحيد المحتمل لهذا الضم هو أن محمد فريد كان يحوز المعلومات المتصلة بها •

من الواضح أن « البهجة التوفيقية » ليس تاريخا لعهد محمد على في الكثير بقدر ما هو اعتذار عن طريقة حكمه • والمعيار الوحيد عند محمد فريد للحكم على محمد على هو القوة الخام التى سيطرت عليها مصر فى عهده والتى نتج عنها حصول مصر على نصر بعد نصر فى ميادين المعارك• فهو يقر بأن الشعب المصرى قاوم نظام محمد على الضرائبى وسياساته التجنيدية لكنه يضيف أن ما بذروه كانت ستجنيه الأجيال المقبلة ، وان السنوات الطويلة من القهر جعلتهم ينسون ان لهم وطنا يدافعون عنه (٣٩) وفيما يتعلق بالثورة السورية ضد الحكم المصرى عام ١٨٣٤ فان محمد فريد يدعى أنها لم تكن لتحدث لو كان السوريون قد أدركوا أن الأرواح والممتلكات فى أمان الى حد عدم الحاجة الى حمل السلاح (٤٠) •

تنتشر عبر صفحات « البهجة التوفيقية » فكرة أن محمد على لايمكن أن يرتكب الخطأ • ويشير فريد الى ابراهيم باشا « ببطل مصر » ، وحتى أعضاء الأسرة المالكة الأقل شأنا كالأمير طوسون ينالون مديحا فصيحا (٤١) • ويصل تفسير محمد فريد للحوادث فى بعض الأوقات حد السخف الباعث على السخرية ، فهو يرفض أن يصدق على سبيل المثال التقارير عن الخلاف الذى وقع بين الكولونيل سيف Seves وابراهيم باشا • ويزعم أن الرجلين كانا « أعظم » من ان يتورطا فى منافسة شخصية ، وانه اذا كان هناك بالفعل شىء من سوء الفهم بينهما فلابد انه كان نتيجة (لحسد الحاسدين ووشى الواشين) (٤٢) •

حيث أن « البهجة التوفيقية » قد ظهر فى ١٨٩١ فلابد أن يكون قد كتب خلال فترة الولاء من حياة محمد فريد عندما كان لا يزال يشغل مناصب عالية نسبيا فى الدائرة السنية • وربما يكون الكتاب قد كتب بناء على توجيهات من توفيق ، واذا كان الأمر غير ذلك ، فلابد أن محمد فريد كان مدركا على الأقل بمقدار الدعم الذى سيضيفه هذا الكتاب الى وضعه الوظيفى • وأيا كان الأمر ، فان الولاء للعائلة الحاكمة فى مصر أصبح الدافع المرشد Leitmotif لما كان فى التحليل النهائى نوعا من الملاحم وقصص البطولة أكثر منه تاريخا • وفوق هذا ، فقد افتقر الكتاب الى تقييم مصطفى كامل النقدى لدوافع الشخصيات التاريخية المختلفة أو قوة الحجة فى المناقشات التاريخية العديدة (٤٣) • ومصطفى كامل لم يسمح أبدا للوطنية أن تنال من تاريخه الى حد الغاء قيمته ، لكن الوطنية فى حالة محمد فريد دمرت فى النهاية كل الاعتبارات الأخرى • •

وبصرف النظر عن المذاق الانحيازى القوى فى تاريخ محمد فريد عن محمد على ، فان الكتاب يحتوى على جوانب أخرى من الخلل • فمن حيث

الأسلوب ، كان الكتاب أعظم بكثير من عمل الموسوعيين (على مبارك وامين سامى) والمؤرخون الأخباريون المحدثون (شاروبيم وسرهنك) ، ولكنه فشل فى احراز ما يقابل الأناقة الرقيقة التى وضعها مصطفى كامل فى « المسألة الشرقية » • كانت اللغة فى « البهجة » متخلفة عن العصر ، واستخدام الكاتب مصطلحات قديمة بدلا من استخدام مرادفاتها المقابلة الحديثة (ككلمة اضمحل بدلا من درس ، وأسطول بدلا من دوننمه) • ومن الغرابة بمكان انه لم يكن هناك مؤرخ من مؤرخى القرن التاسع عشر يستطيع أن يوازى محمد فريد فى قدرته على استخدام السجع ، الذى كان فى يده طيعا ومنسوجا كالشعر (٤٤) • ومع هذا ، فقد كان نثره يمثل ردة الى الطريقة المادية المستخدمة فى الكتابة التاريخية الزمنية التى سادت فى زمن مبكر • فاذا أضفنا هذا الى مذكراته المقال بأنها مليئة بالأخطاء النحوية (٤٥) ، فاننا نجد التأكيد على صحة ما افترضناه مسبقا من أن الأخطاء اللغوية قد تؤدى الى معالجة ضحلة ، متنافرة للاحداث على غرار التاريخ الزمنى Chronicle •

وفيما يتعلق بتجربة محمد فريد مع التوثيق فقد كانت فوق المتوسط وربما كان هذا دلالة على الامتياز الذى منحه له وضعه الوظيفى العالى فى الوصول الى مجموعات السجلات الهامة • فى المعلومات المتعلقة بالسنوات الأولى من عهد محمد على يقر محمد فريد باعتماده على تاريخ الجبرتى ، لكن غياب التحشية الملائمة footnoting يجعل من الصعب القول متى كف الجبرتى ومتى بدأ محمد فريد مرة أخرى (٤٦) • وبالاضافة الى « العجائب » فقد استخدم محمد فريد أعمال كلوت بك Clot Bey ، هامون Hamont ، مبارك ومانجان Mengin ، الى جانب مجموعات عديدة منشورة من الوثائق الأوروبية (٤٧) • ومن المظاهر المثيرة للاهتمام فى « البهجة » ذلك العدد الضخم من التراجم عن الشخصيات الأوروبية القيادية كالأميرال نلسون Admiral Nelson ، والد الكولونيل سيف Colonel de Seves ، سيف نفسه Seves ، دوق ويلينجتون Duke of Wellington ، شامبليون Chambpillion ، لورد بايرون Lord Byron ، جيزو Guizot ، بالمرستون Palmerston ، مترنيخ Metternich ، تيير Thiers ، وليدى ستانهوب Lady Stanhope • ولا يكشف محمد فريد عن مصدر هذه المعلومات ، لكنه كان يستطيع أن يحصل على موسوعة أو من هو من Who is who أوروبى معاصر بسهولة خلال واحدة من زياراته الكثيرة الى أوروبا (٤٨)

وعلى خلاف باقى « البهجة » فان هذه الأجزاء لا تحتوى على أى تعليق شخصى من أى نوع عن الأشخاص المترجم لهم ، والذين يفترض

أن محمد فريد كان يرى بعضهم شخصيات مكروهة · ولعل هذا الشذوذ الظاهر يؤكد لنا أن محمد فريد قد ترجم ببساطة هذه المعلومات على علاتها من مرجع أوروبى متوفر لديه (٤٩) ·

كان العمل التاريخى الكبير الآخر لمحمد فريد هو « تاريخ الدولة العلية العثمانية » الذى ظهر عام ١٨٩٤ · ولابد أن محمد فريد كان قد قرر خلال السنوات الثلاث التالية لنشر « البهجة » أنه لم يعد هناك ضرورة لكتابة العنوان مسجوعا · ويبدو أن « تاريخ الدوله العلية العثمانية » قد حاز شعبية أكبر من الدراسة التى كتبها محمد فريد عن محمد على ، حيث ان الكتاب طبع ثلاث مرات حتى عام ١٩١٢ · ولما كان العمل لا يتصـــل بتاريخ مصر الا بصورة هامشية فقط ، فانه يخـــرج عن نطاق تحقيقنا الحالى ، اذا تكلمنا بدقة · وأهمية العمل لنا هى أنه يزودنا بتبصر داخل التكنيك التاريخى لمحمد فريد وفلسفته السياسية ·

يغطى « تاريخ الدولة العلية العثمانية » الفترة من عهد عثمان ـ مؤسس الأسرة ـ حتى ١٨٧٨ وتوقيع معاهدة برلين (٥٠) · ومن بين الأربعمائة وخمسة عشر صحيفة التى يحتويها الكتاب فان القرن التاسع عشر يستحوذ على أكثر من النصف منها · وقد أضاف فريد فى الطبعـة الثالثة ـ وهى التى استخدمتها ـ مقدمة قصيرة (٣٨ صفحة) عن التاريخ الاسلامى من الخلفاء الراشدين حتى عهد عثمان وفصل نهائى متعجل مخترع (١٠ صفحات) عن الأحداث من ١٨٧٨ الى ١٩٠٩ (٥١) ·

يقول محمد فريد ان الغرض من الكتاب ذو شقين · فهدفه العـــام هو مثل أى عمل تاريخى ـ تنمية فهم أكبر للامم ، الناس ، القوانين ، أسباب الرفاهية والتدهور ، الخ · أما الهدف المحدد والأكثر دلالة فهـــو تسجيل قسم من التاريخ المجيد « للامة الاسلامية » ـ وهو تاريخ شارك العرب فيه مع المسلمين (٥٢) · ويقرر محمد فريد أن الأمة الاسلامية كان لها فرعان ، العرب والترك · وأن العرب تلقوا اهتماما كثيرا من المؤرخين لكن الأتراك جرى تجاهلهم بدرجة كبيرة ، برغم حقيقة أنهم ـ والقول له ـ هم الذين « لموا شعث » هـــذه الأمة وحفظوا ســـيطرة الأمة الاسلامية القديمة (٥٣) · لذلك فان « تاريخ الدولة العلية » قد يخدم اعادة تأكيد (روابط التبعية) بين مصر والامبراطورية العثمانية ، (لتعزيز الجامعـة الملية) ولتظهر لكل (شرقى) سواء أكان مسلما أملا انه يجب أن يجاهد من أجل الحفاظ على تكامل الامبراطورية (٥٤) ·

وهذه مادة جيدة تماما ، اذا كانت ستؤخذ بجدية · لكنه لا ينـافى العقل كثيرا القول بأن محمد فريد لم يكن يقصد حقيقة أى شىء من هـــذا

وانه قام بهذا العمل الضخم كذريعة مؤقتة ؟ شيء أن تدافع عن الوحدة العثمانية ـ المصرية فى خطب قليلة معدة على وجه السرعة ، ولكنه شيء آخر تماما أن تخصص سنوات لكتابة دراسة متخصصة عن موضوع التضامن العربى ـ التركى · لذلك فانه يكون أقرب الى الاقناع أن ينظر الى « تاريخ الدولة العلية » كتقرير ايديولوجى جاد ذا أهمية متقدمة · والكتاب يؤكد اعادة تفكيره فى الأفكار التى كان قد عبر عنها فى « البهجة » بالاضافة الى اعادة الانحياز الأساسى للسياسة الخارجية المصرية خلال هذه السنوات ·

ولقد تحالفت عدة قوى مختلفة ـ أجنبية ومحلية ، لاحداث هذا التغير · فعلى المعترك العالمى على سبيل المثال ، كانت انظمة جديدة للتحالف تبدأ · كانت تركيا العثمانية خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر تتحرك بعيدا عن صداقتها التقليدية لبريطانيا العظمى وتتحول نحو روابط أوثق بألمانيا ، قاضية بذلك على العقبة الوحيدة ذات الأهمية القصوى فى طريق تحسين العلاقات العثمانية ـ المصرية (٥٥)· وبتوقيع الوفاق الفرنسى ـ الروسى عام ١٨٩٤ كان يجب اعتبار فرنسا أيضا عدوة للامبراطورية ، التى أصبح واجبها حينئذ هو اقناع الدوائر الحاكمة المصرية أن اعلانات حسن النوايا نحوهم من جانب الفرنسيين لا يقل خداعا عن اعلانات البريطانيين تجاه الأتراك · لم تكن بريطانيا وفرنسا قد أصبحتا حليفتين بعد فى ذلك الوقت ، رغم أنهما كانتا قد توصلتا فى ١٨٩٠ الى حل أغلب منازعاتهما الاستعمارية القائمة · وعلى ذلك فان آمال مصر فى استخدام فرنسا كمعادل للنفوذ البريطانى كانت قد بدأت فى الذبول ، ولم يكن هنالك سبب ملح يدفعها (مصر) الى الارتياب فى معقولية الآراء العثمانية · كان الطريق فى الحقيقة ممهدا لنوع جديد من التفاهم العثمانى ـ المصرى ، المؤسس على الروابط الدينية القديمة والاحساس القوى بالولاء الذى كان لا يزال كل المسلمين يحسونه تجاه الخلافة · ولقد كان هذا هو ما يدور بخلد السلطان عبد الحميد الثانى عندما شرع فى انتهاج السياسة الخارجية العثمانية ذات الصفة الاسلامية الجامعة ·

ولم تكن التغييرات التى ظهرت داخل مصر نفسها خلال الفترة نفسها اقل درامية من تلك التى جرت على الصعيد الخارجى · فقد كان توفيق يدبر أمره على أساس أن رغبات بريطانيا يجب أن تحترم ، وكان محمد فريد يقتفى آثار اقدام سيده عندما اصدر رأيه عام ١٨٩١ بشأن المظاهر الايجابية للاحتلال البريطانى (٥٦) · لكن كل الافتراضات القديمة كان ينبغى طرحها مع تولى عباس فى العام التالى ، ولم يستغرق الأمر وقتا

طويلا ليدرك المصريون أن عباس هو بطل حقيقى للقضية الوطنية • فقد تصادم الخديو وكرومر فى الحال ، ولابد أن محمد فريد قد عرف بصفته موظف كبير في الحكومة المصرية بخطط عباس لتنظيم نواة من المقاومة الوطنية للبريطانيين • ولقد كان الحذر ضروريا بطبيعة الحال ، حيث أن كرومر والبريطانيين كانوا لا يثقون بعباس وقد يفسرون أى تعاون على بينه وبين الحزب الوطنى (أو بينه وبين العثمانيين ، فيما بعد) كعمل تآمرى يعطيهم الأسباب الكافية لعزله (٥٧) • كان كل شىء يجب أن يعمل بكتمان ومن خلال وسطاء ان أمكن ، لتجنب شك البريطانيين فى أن شبكة مركبة من العلاقات العثمانية ـ المصرية يجرى بنائها •

كان أول تحركات عباس هو العفو عن عبد الله النديم ، الذى عاد عندئذ الى القاهرة ليبدأ نشر الجريدة ذات الاتجاهات القومية العالية (الأستاذ) • وسرعان ما احتضن النديم مصطفى كامل ، لكنه نفى مرة أخرى لتطرفه الصحفى • ثم تحول عندئذ ، وبصورة مذهلة كموظف مأجور لحكومة السلطان فى استانبول (٥٨) • كان الداعية الاسلامى جمال الدين الأفغانى فى ذلك الوقت ضيفا على السلطان عبد الحميد أيضا ، وتمتع «تابع» الأفغانى ، محمد عبده بوضع مشابه فى البلاط المصرى • وقيل أن الأفغانى كان مهتما باخطار التوسع الروسى فى وسط آسيا التركية ، وهو ما كان نفس موضوع مقالات كثيرة ينشرها محمد فريد ـ بتزامن ـ فى الصحافة المصرية (٥٩) • وكان محمد فريد قد تقابل مع مصطفى كامل فى عام ١٨٩٣ ، بينما كان لا يزال موظفا كبيرا فى حكومة عباس ، وفى ١٨٩٥ ، ان لم يكن قبل ذلك ، كان الرجلان قد أصبحا صديقان حميمان • وكان « تاريخ الدولة العلية » قد نشر فى نفس الوقت ، معلنا فضائل التضامن العربى ـ التركى تحت حماية السلطان •

يساعد النمو الواضح لمحور القاهرة ـ استانبول خلال هذه السنوات على شرح كيفية اتخاذ مصطفى كامل موقف الدفاع عن السلطان فى انكار الحقوق الاقليمية المصرية عام ١٩٠٦ (٦٠) • ومع ذلك فان الدليل غير كامل بصورة مضنية ، وهناك الكثير من الأسئلة الهامة دون اجابة • لكن، على سبيل المثال ، كان على محمد فريد ان يختفى مغمورا فى عام ١٨٩٧، ليظهر فى عام ١٩٠٤ عندما كان مصطفى كامل وعباس يحلان رباط صلاتهما الوثيقة السابقة ؟ هل استبقى عباس الشيخ على يوسف فى رعايته كاختيار بديل اضافى فى حالة فقدان السيطرة على الزئبقى مصطفى كامل ؟ هل كانت مخاوف محمد فريد من أن الخديوى وشقيق مصطفى كامل كانا يتآمران ضده فى محلها ، واذا كان الأمر كذلك ، لماذا كانا هما ؟ هل كان تعيين فريد للشيخ عبد العزيز جاويش محررا (للواء) اشارة

الى تعاون مستمر بين الحزب الوطنى ودوائر القصر ؟ وأخيرا هل قرر عباس فعلا قطع علاقته بمصطفى كامل فى عام ١٩٠٤ ، واذا كان الأمر كذلك ، فلمـــاذا ؟ ٠

ان الاجابة على مثل هذه الأسئلة مدفونة فى مكان ما فى الأرشيف العثمانى ، المصرى و / أو البريطانى ٠ ولا نستطيع فى الوقت الحـــالى الا أن نحزر أن فريدا كان منغمسا بعمق فى جهد المقاومة (أيا كان شكلها الحقيقى) وأن تاريخه العثمانى كان مرحلة من الهجوم العام ٠ بداءة فانه من المحتمل على الأقل أن يكون قد أحس بأنه كان فى صف حاكم مصر لدرجة كبيرة وليس مع سياسى غير معروف كمصطفى كامل ٠ لكن ما اذا كان أم لم يكن عنده خيار فيما بعد فى الأمر أو ما اذا كان قد أصبح تحت سيطرة مصطفى كامل الكاريزمى فمن الصعب البت بقول قاطع ٠ أيا كان الأمر ، فقد كان عليه فى النهاية أن يشارك مصطفى كامل مصيره ٠

ومع أن محمد فريد قد بدأ اشتراكه مع مصطفى كامل قبل أن يكون قناعاته السياسية ، فانه لم يكن بالضرورة مخدوعا مستعدا لتغيير أفكاره السياسية متى تطلبت الظـــروف ذلك ٠ وربما كان تغـــاضيه المبكر عن الاحتلال البريطانى على مضض ، ولهذا فانه وجد فى تولى عباس فرصة مواتية لينفس عن عواطفه الحقيقية ٠ لقد كانت جهود محمد فريد فيما بعد من أجل حزبه متواصلة كما رأينا ، ولقد خصص قدرا كبيرا من ثروته الخاصة لصالح القضية الوطنية المصرية ٠ واذا كان تاريخه العثمـــانى تعبيرا عن مشاعره فانه فى الواقع قد اختار بكل قلبه لون مصطفى كامل الموالى للعثمانيين ٠

ان مشاعر كامل نحو الأوروبيين بأنهم هم المسئولين عن متـــاعب الاسلام تجد صدى واضحا فى « تاريخ الدولة العلية » ٠ وفى دراســته لمعاهدة تيلست Tilsit (١٨٠٧) (٦١) على سبيل المثال يكشف محمد فريد عن المدى الحقيقى لمرارته تجاه الأوروبيين :

« وعلى ذلك فانه يبدو واضحا للقارىء أن أى وعد من الأجنبى هو سراب خادع ومضلل يحسبه الظمآن ماء (٦٢) ٠ ان وعودهم بالنوايا الحسنة والصداقة هى من أجل الوصول الى أهدافهم ولانجاح خططهم ٠ ان الشخص الذكى لا يتعلق أبدا بوعودهم ولا يخدع بفكرة أن دولة أوروبية تعنى أبدا الخير أو ترغب فى الاصـــلاح لأى دولة أو أمة شرقية ٠ ان الحوادث التاريخية التى يتضمنها هذا الكتاب هى أبلغ دليل على ذلك ٠ ولعلها كتحذير لهؤلاء الذين يعتبرون » (٦٣) ٠

وفى موضع آخر من تاريخه العثمانى يزعم محمد فريد أن « لا دولة أوروبية ترفض استخدام الغش والخديعة فى السياسة ، حتى أن مصطلح

« سياسة » عندهم أصبح مرادفا للكذب والغش » · ومع هذا ، فالشرقيون لا يعرفون هذا السلوك (٦٤) · ويقرر أن الامبراطورية العثمانية كانت واحدة فقط من بين الكثير من القوى الاسلامية التى اغتيلت بيد (التعصب) الدينى المسيحى (٦٥) ، الذى يقارنه محمد فريد كخبث شرس بالتقليد الاسلامى المتسامح مع المذاهب الأخرى (٦٦) · ويزعم بأن العالم يسمع كل يوم عن مذابح جديدة ترتكب من جانب المسيحيين الأوروبيين بينما عرفت الامبراطورية العثمانية تاريخيا بأنها ملجأ المقهورين (٦٧) ·

ان عاطفة محمد فريد تجاه الامبراطورية العثمانية عميقة للغاية، لكن هل يعنى هذا بالضرورة أنه استحسن علاقة نامية بين القاهرة واستانبول ؟ انه يجيب علينا بنفسه فى روايته عن الحرب السورية · ففى تناقض حاد لمعالجته المتعصبة لمصر لنفس الموضوع فى « البهجة التوفيقية » يناقش محمد فريد من « تاريخ الدولة العلية » أحداث الحرب فى نغمة محايدة مطلقة· ومع هذا فهو يقدم الدراسة بالبيان الجلى التالى: « ان مصر باقية وستبقى بارادة الله جزءا من الامبراطورية العثمانية » (٦٨) ·

اذا كنت فيما أبدو أهاجم هذه النقاط ، فذلك لأن استنتاجاتى حول مفاهيم مصطفى كامل ومحمد فريد وكل الحزب الوطنى بشأن الرابطة العثمانية ـ المصرية تختلف لدرجة كبيرة عن استنتاجات باحثين أمثال شتيبات Steppat وجولد شميت Goldschmidt · ولا يبدو عندى بعيد الاحتمال أن يكون مصطفى كامل ومحمد فريد قد تصورا نوعا من الاتحاد الاسلامى بزعامة الخليفة · ولقد كان هذا دليلا على تطرفها فى أعين المصريين ـ وليس دليلا على رجعيتهما كما اتهمهما المراقبون الخارجيون ـ حيث أنهما وعلى خلاف أحمد لطفى السيد وقاسم أمين رفضا كلية كل الروابط مع الغرب وركزا بدلا من ذلك على النوع الوحيد من التكيف السياسى الذى لو أعمل فانه كان يشكل متاعب للغرب · ويغفل الدارسون كثيرا حقيقة أنه حتى أثناء الحرب العالمية الأولى حارب الكثير من العرب (مع) الأتراك وليس ضدهم ـ وفعلوا ذلك بالرغم من السياسات المضللة للاتحاد والترقى الخاصة بالتتريك ، والوعود المعسولة الصادرة من الحلفاء عن الدولة العربية المستقلة بعد الحرب (٦٩) · أيضا فان من السهل نسيان كيف كان البريطانيون قلقين للغاية بشأن الهجمات العثمانية على قاعدتهم فى السويس ، والتى كان يمكن بقليل من الحظ أن تؤخر تاريخ ثورة ١٩١٩ عدة سنوات للامام · لقد كان محمد فريد يحاول فى هذه اللحظة أن يشكل تحالفا عثمانيا ـ مصريا حول عباس حلمى المخلوع

والمحبوب أيضا ، وربما تصور نفسه مع الخديو على رأس «جيش التحرير» العثمانى • وبوضع ميزة ادراك طبيعة الحادث بعد وقوعه ، فان هـــذه النذرة تبدو خيالية • لكن من المأمون القول ان قوة كهذه فى ذلك الوقت كان يمكن أن تستقبل بصيحات الفرح من جانب الشعب المصرى •

كانت نهاية الحرب فى الحقيقة نهاية لكل هذه الأحلام • فقد تنكرت تركيا الكماليه لصلاتها الاسلامية ، ودمرت الامبراطورية ، ونظرت البلاد العربية الجديدة الليفانتية للاشياء بنظرة مختلفه تماما عن نظرة الحزب الوطنى لها • واضطر الحزب الوطنى بالتبعية الى التحول خلال فترة ما بعد الحرب الى التركيز على هدفه الأمين (الجلاء) ، الذى وان كان لا يمكن الطعن فيه سياسيا ، الا أنه أصبح الآن مجردا من النظريه المثالية الاعرض من التضامن الاسلامى تحت الحمايه العثمانية • كان الجلاء هدفا سلبيا بحتا ، اذ لم يكن فى حـــد ذاته كافيا لكسب اتباع جديرين للحزب • كان النداء الاقدم البناء للحزب من أجل الوحدة العثمانيه ـ المصرية ضد أوروبا أكثر حجية واقناعا ايام محمد فريد ومصطفى كامل ، لكنه لم يعد صالحا لأحوال ما بعد الحرب • كان يتآكل ببطء بفعل الفكر الجديد للقومية العربية ، التى أصبح لها عند المصريين فى النهاية نفس النظرة الرومانسية التى كانت لنداء الجامعة الاسلامية الذى نادى بـه الحزب الوطنى فيما قبل الحرب • لقد أثبت الحزب الوطنى نفسه عـدم قدرته على التكيف مع تغير الوقت • فعبد الرحمن الرافعى نفسه الـذى كان احد أواخر المتحدثين باسم الحزب تجاهل على مدى حياته كلها هدف القومية العربية • وبالطبع فان الرافعى ، شأنه شأن كل واحد ، توقف عن الحديث عن التضامن الاسلامى ، الذى كان قد أصبح وقتئذ هدفا غيـر واقعى • لكن من الأمور ذات الدلالة أن الحزب الوطنى ظل يجذب أكثـر المصريين المسلمين تقوى الى صـــفوفه حتى تأسيس جماعة الاخـــوان المســـلمين (٧٠) •

حتى الآن كان استخدامنا « لتاريخ الدولة العلية » فى المقام الأول كمصدر للتبصر فى اتجاهاته السياسية ، لكن للكتاب ـ اذا نظر اليه كعمل تاريخى ـ وضع أعظم بكثير من « البهجة التوفيقية » • لقد انتحل فريد مرة أخرى تراجم عديدة من بعض المراجع الأوروبية المتـــداولة ، لكن توثيقه للتاريخ العثمانى عامة فاق كثيرا كتابه السابق • كل المعاهدات والمراسيم ذات الصلة بالموضوع اقتبست بالكامل ، وهو مجهود لابد أنه اســـتلزم ترجمة مكثفة من المصادر التركية (٧١) • وبالنسبة للمصادر الثـــانوية فقد رجع محمد فريد الى الخطط التوفيقية ، تاريخى ـ جودت ، الجبرتى ، دراسة فيليب جلاد عن الملكية (٧٢) • وكنز الرغائب فى منتخبات الجوائب،

الى جـانب أعمـال أخرى • وكمـا فى « البهجـة » فقـد أظهر محمـد فريد معرفة كاملة بتاريخ أوروبا الحديث وارتكانه على التطورات داخل الامبراطورية العثمانية • ومثـل القسم الذى خص ما قبـل القرن التاسع عشر من الكتاب تاريخا زمنيا Chronicle انيقا ، وربما كان مستمدا فى الحقيقة من مصدر من هذا النوع • أما فيما يتعلق بالفترة التالية فقد أصبحت معالجة محمد فريد أكثر تحليلية ، ورغم تخلف الأسلوب عن رشاقة ولمعان أسلوب مصطفى كامل فقد كان له مع هذا سمات الرقة والوضـوح التى افتقرت اليها أعمال الموسـوعيين (على مبـارك وأمين سامى) و (المؤرخون الاخباريون المحدثون شاروبيم وسرهنك) •

أيا كانت مواطن ضعفهما ، فقد أدخل مصطفى كامل ومحمد فريد التاريخ المصرى بحسم الى العهد الحديث • وحاز التاريخ مباشرة فورية واتصالا بالموضوع فى يديهما ، حتى ولو كان المنظور الذى قدماه عن الموضوع ذا جانب واحد • ولكونهما وطنيين متحمسين فانهما لم يعتبرا الكتابة التاريخية أحد أهداف المرء الأساسية لكنهما رأياها عنصرا فى النضال من أجل الاستقلال • ولقد كرس الرجلان حياتهما بأكملها لهـذه القضية • لقد شعرا بوطنهما بقوة واستنكرا بعمق معـاملته من جانب الغرب • وكان التاريخ كما فهماه وسيلة للدفاع عن مصر والعالم الاسلامى ضد الظلم والجور ــ ولم يترددا فى استخدامه •

حواشي الفصـــل التاسـع

(١) مع سوء أحوال المالية المصرية في بواكير سبعينيات القرن التاسع عشر ، عرض الخديو اسماعيل على انجلترا ايفاد موظف مالى كفء لدراسة الحالة المالية للبلاد ومعاونة المسئولين على اصلاح الخلل • أوفدت انجلترا فى ديسمبر ١٨٧٥ لجنة برئاسة ستيفن كيف Stepuen Cave • وفى تقريرها عن أحوال مصر نددت اللجنة باسلوب ادارة البلاد من الناحية المالية وتحدثت عن الفساد المستشرى فى الجهاز الادارى المصرى • وأشارت اللجنة باستعمال محصلات (قانون المقابلة) لوفاء الديون قصيره الأجل (التى اقترضت سنوات ١٨٦٤ ، ١٨٦٥ ، ١٨٦٧) وتحويل الديون الأخرى الى دين موحد قدره ٧٥ مليون جنيه يسدد فى ٥٠ سنة بفائدة ٧٪ • واقترحت اللجنة أيضا أن تخضع المالية المصرية لرقابة أوروبية • فى ٢ مايو ١٨٧٦ وبعد توقف مصر عن سداد الديون (أبريل ١٨٧٦) أنشأ اسماعيل بناء على مشورة الماليين الفرنسيين صندوق الدين ليكون خزانة فرعية للخزانة العامة تتسلم فيه المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية • وخصص لهذا الصندوق ايرادات بعض بلاد القطر الى جانب ايراد جمارك الاسكندرية والسويس وبورسعيد ورشيد ودمياط والعريش والسكك الحديدية وغيرها •

لكن انجلترا رفضت تعيين مندوب لها فى الصندوق ـ ثم اتفقت بعد ذلك مع فرنسا على ايفاد لجنة (جوشن ـ جوبير) فى أكتوبر ١٨٧٦ لعرض مطالب الدائنين على الخديو •

طلبت اللجنة فرض الرقابة الأوروبية على المالية المصرية ووضع ميناء الاسكندرية والسكك الحديدية تحت ادارة لجنة مختلطة ، فوافق الخديو وأصدر مرسوم ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ الذى وافق فيه على تعيين مراقبين احدهما انجليزى لمراقبة ايرادات الحكومة والآخر فرنسى لمراقبة المصروفات ـ واسناد ادارة السكك الحديدية وميناء اسكندرية الى لجنة مختلطة مؤلفة من خمسة مديرين (بريطانيان ومصريان وفرنسى) على ان تكون الرئاسة لبريطانى وذلك وفق نص المادة ٢٣ من المرسوم • كانت اللجنة تتولى تسليم جميع ايرادات السكك الحديد الى صـــندوق الدين • ووفقا لما سبق فقد عين الجنرال ماريوت رئيسا لقومسيون السكة الحديد وميناء الاسكندرية وظل كذلك الى أن توفى ، وفى ٢٥ ديسمبر ١٨٧٩ صدر مرسوم بتشكيل لجنة ادارة المرفق من ثلاثة مديرين أحدهم بريطانى وله الرئاسة ، والآخر فرنسى والثالث مصرى ـ ثم انفرد الانجليز بادارة المرافق فى عهد الاحتلال •

عبد الرحمن الرافعى « عصر اسماعيل » الجزء الثانى ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ، مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٥٦ ـ ٦٨ •

المترجم

(٢) بكلربكى Beyler-bey لقب قديم للحاكم العام لمقاطعة عثمانية تحول بمضى الوقت الى لقب شرفى يمنح للشخصيات العامة •

جيمس ردهاوس James Redhouse « توركجه ـ انكليزجه لغت كتابى

A. H. Boyajian - Constantinople, pp. 371-75.

المترجم

(٣) يقدم الرافعي بسذاجة هذه المعلومة السهائية كدليل على مشاعر أحمد فريد الوطنية التي اذا ما نحن حكمنا عليها من واقع تاريخه الوظيفي الطويل في المناصب العالية فانها لا يمكن ان تكون مساعر صريحه اطلاقا • ويكشف الرافعي أيضا في موضع آخر ان محمد فريد كان يكتب مقالات لمجلة علي يوسف (الآداب) عام ١٨٨٧ ــ ٨٨ دون ان يذكر اسمه • ويبدو أن أحمد فريد منع ابنه من الاشتغال بالسياسه خوفا عليه (ويحتمل خوفا على نفسه أيضا) •

الرافعي « محمد فريد » ص ١٦ ــ ١٨ ، ٢٠ ، ٢٧ •

(٤) المصدر نفسه ، ص ٩ ــ ١٠ ، ٢٢ •

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٩ • ولا يقول الرافعي ان مصطفى كامل ومحمد فريد كانا صديقين حميمين عام ١٨٩٣ ، كما ادعى كتاب مقالة حديثة في « الكاتب » • انظر لرؤوف عباس ، سيد مصطفى سالم ، محمد أنيس ، ومحمود اسماعيل « محمد فريد ومذكراته » ، الكاتب ، رقم ١٠٤ (١٩٦٩) ، ص ٢٩ ــ ٣٠ • ويقول الرافعي ببساطة انهما التقيا في ١٨٩٣ •

(٦) وكان له ولع كبير بالسياحة ــ الرافعي « محمد فريد » ، ص ٣١ •

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣١ ، ٢٠٨ وما بعدها •

(٨) ولد نشر مذكرات محمد فريد في البداية حرارة عظيمة أكثر من ضوء • وقد ظهرت هذه المذكرات أصلا في جريدة الأخبار التي أعطى محررها حق الاطلاع عليها من جانب ابن محمد فريد (عبد الخالق فريد) • وقد شن البروفيسور محمد أنيس من جامعة القاهرة هجوما مريرا على الأخبار قائلا أن الدولة تصادر أوراق محمد فريد وتعتبرهـــا « ملكية الأمة » • ومن هذا المنطلق يقول أنيس « أن المثقفين الحقيقيين وليس مجرد الصحفيين الهواة هم الذين يجب ان يطلعوا على هذه المذكرات •

انظر لأنيس « دعوة للوطنية ، لا دعوة للاحتكار » ، الجمهورية ، ٣٠ يوليو ١٩٦٤ •

والظاهر أن عبد الخالق فريد كان قد سمح في الماضي لأى مهتم بأن يرى أوراق والده ، وقد استفاد تلاميذ أنيس من هذه الفرصة • انظر لموسى صبري « هاتولي حبيبي » ، الأخبار ٥ أغسطس ١٩٦٤ • ومع ذلك فان هذا لم يؤثر في ناتج النزاع • وقد كسب أنيس دعواه في نفس العام وأصبحت مذكرات محمد فريد ملكية مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر الذى كان أنيس نفسه يرأسه •

انظر رؤوف عباس وآخرين « محمد فريد ومذكراته » ، ص ٢٠ •

لكن تحذير أنيس السابق « لا دعوة للاحتكار » أصبح مثارا للسخرية ، حيث انه كمدير للمركز المذكور كان يستطيع ان يمنع اطلاع من لا يرغب في اطلاعه على هذه المذكرات •

وفيما يتعلق بعدم التعويل على ترجمة الرافعي لمحمد فريد ، فان رؤوف عباس ، وسالم وأنيس واسماعيل يزعمون ان الرافعي قد عدل بعض أجزاء من مراسلات محمد فريد وحذف بعضا منها ، وخاصة فيما يتعلق بسنواته المبكرة (١٨٩١ ــ ٩٧) • ويفترض ان الرافعي قد أضاف كلمات الى النص في بعض الخطابات ، وأصلح أخطاء محمد فريد النحوية ووضع خطوطا أفقية تحت بعض الأجزاء ، الخ • ويزعم رؤوف عباس أن عبد الخالق

فريد قد أبلغه فى مقابلة فى صيف ١٩٦٤ أن التاشيرات الموجودة فى أوراق محمد فريد كانت من فعل الرافعى وليس محمد فريد ، وهذا ان صح فانه يعنى ان عبد الخالق كان عازما على تشويه سمعة والده •

رؤوف عباس وآخرين « محمد فريد ومذكراته » ، ص ١٩ ـ ٢٠ ، ٣١ •

ومن الصعب ان يعرف كم من هذه الادعاءات صحيح ، حيث ان الاطلاع على أوراق محمد فريد مقصور على « الأشخاص المخولين » فقط • وتبدو سلسلة المقالات عن مذكرات محمد فريد المنشورة فى (الكتاب) (والتى اعتبرت سبقا صحفيا حقيقيا) علمية وعادلة. واضافة قيمة لمعلوماتنا عن حياة محمد فريد • وقد نشرت ترجمة قديمة عن محمد فريد بقلم أحمد شوقى المحامى بواسطة مطبعة « اللواء » عام ١٩٤٩ • وهى دراسة شديدة. الرومانسية وقليلة الأهمية للمؤرخ •

(٩) رؤوف عباس وآخرين « محمد فريد ومذكراته » ، ص ٢٧ •

(١٠) كان هذا خلال واحدة من نظارات مصطفى فهمى الخانعة (١٨٩١ ـ ٩٣) ، قارن. ص ١٢٠ من **الفصل السادس** •

(١١) المعلومات الخاصـــة بنشـــاطات محمد فريد بين ١٨٩٢ و ١٨٩٤ مأخوذة من. « محمد فريد ومذكراته » لرؤوف عباس وآخرين ، ص ٢٨ ـ ٢٩ •

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٢١ ـ ٢٢ • قام مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر بنشر أوراق محمد فريد ـ المذكرات ـ المجلد الأول بعنوان « أوراق محمد فريد » ١٩٠٤ ـ ١٩١٩ مذكراتى بعد الهجرة ـ تحقيق عاصم الدسوقى ، نشر الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨ ، ثم نشر المراسلات ـ المجلد الثانى ـ الجزء الأول بعنوان « مراسلات بين الزعيم محمد فريد وبين **الشخصيات المصرية فى مصر** ١٨٩٦ ـ ١٩١٩ » ، تحقيق مصطفى النحاس جبر ـ نشر الهيئة العامة للكتاب •

المترجم

(١٣) الرافعى « محمد فريد » ، ص ٣٨ •

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٣٠ ـ ٣٣ •

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٤٤ ـ ٤٨ وجولد شميت Gold Schmidt
"The Egyptian Natioanlist Party," p. 320

(١٦) جولد شميت Gold Schmidt
"The Egyptian Nationalist Party", pp. 322-23.

(١٧) كان هذا على وجه التحديد ـ وأنا أسلم بهذا ـ السبب الذى من أجله عينه محمد فريد ، وليس كما يزعم جولد شميت Gold Schmidt من أجل تكوين قاعدة جماهيرية للحزب • وكما سنرى حالا ، فان اتجاهات محمد فريد نحو الجامعة الاسلامية. ناسبت تماما اتجاهات عبد العزيز جاويش حول هذا الموضوع •

(١٨) جولد شميت
"The Egyptian Nationalist Party", pp. 323-26.

وكما يتبين فان هذه الشكوك لم تكن فى غير موضعها • فمذكرات محمد فريد المنشورة. أخيرا تشير الى انه اعتبر الاغتيال والعنف تكتيكات مشروعة • ويحتمل ان الحزب الوطنى. كان له نصيب فى محاولات الاعتداء على حياة الخديو (١٩١١) ولورد كتشنر (١٩١٣) •

انظر لمحمود اسماعيل عبد الرازق « محمد فريد ومذكراته » ، ٢٧ أغسطس ١٩٠٤ ـ ٢٧ أغسطس ١٩١٤ ، « الكاتب » رقم ١٠٧ (١٩٧٠) ص ١٥٦ • قارن مقالة عبد الرازق المتابعة عن مذكرات محمد فريد في « الكاتب » رقم ١٠٨ (١٩٧٠) ، ص ١٦٨ •

(١٩) **الرافعي « محمد فريد »** ، ص ١٨٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ • ويرى محمد أنيس أن محمد فريد لم يغادر البلاد بسبب الخوف ولكن كجزء من خطة مصورة مسبقا • وطبقا لأنيس فإن عداوة البلاط ، الاحتلال ، بعض الدوائر المعينة من غير الحزب الوطني بل وأعضاء من حزبه ، **كل هذا أقنعه بأن أي تقدم في مصر مستحيل** •

محمد أنيس « كفاح في المنفى : محمد فريد » ، الجمهورية ، ١٦ ، أكتوبر ١٩٦٩ • ولا حاجة الى القول ان نفس هذه الأسباب جعلت محمد فريد يخشى على نفسه ـ فيرحل •

(٢٠) الرافعى « محمد فريد » ، ص ٢٣٠ وما بعدها ، ٣٣١ ـ ٣٣ ، ٣٦٦ ـ ٦٧ •

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٢٥٧ ، ٢٧٣ ـ ٨١ ، ٣٤٤ ـ ٤٥ •

(٢٢) أنيس « كفاح فى المنفى » •

(٢٣) عبد الرازق « محمد فريد ومذكراته » ، ٢٧ أغسطس ١٩٠٤ ـ ٢٧ أغسطس ١٩١٤ ، ص ١٥٦ ـ ٥٧ •

(٢٤) الرافعى « محمد فريد » ، ص ٣٦٤ ـ ٦٥ •

(٢٥) محمود اسماعيل عبد الرازق « محمد فريد ومذكراته ـ ٥ : ٢٤ يوليو ١٩١٣ الى بداية مارس ١٩١٤ » ـ الكاتب ، رقم ١٠٨ (١٩٧٠) ، ص ١٦٨ ـ ٧٠ •

(٢٦) قد تكون الترجمة الانجليزية الخشنة للعنوان هي

"The Grandeur Most Divine in the Account of the founder of the Knedivial line"

ولا نتفق مع المؤلف في اعتبار جملة البهجة التوفيقية مقابلة لجملة The Grandeur Most Divine ، فمعنى هذه الجملة هو « العظمة المقدسة » • بينما المقصود من البهجة التوفيقية الاشـــارة الى الخديو توفيق ١٨٧٩ ـ ١٨٩٢ • والترجمة الأصح هنا تكون The Splendor of Tewfiq بحيث يكون العنوان كله بالانجليزية

"The Splendor of Tawfiq in the account of the founder of the Khedivial Family".

المترجم

(٢٧) محمد فريد « كتاب البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية » (بولاق : المطبعة الأميرية ، ١٣٠٨ هـ) ، ص ٢ ـ ٣ •

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ١٨٣ ـ ٩٥ •

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٦٣ ـ ٦٤ •

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ١٨ ـ ٢٠ •

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٥٧٨ ـ ٧٩ •

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ٧٠ ـ ٩٠ ، ١٠٣ ـ ٤ ، ١١٨ ـ ٢٢ ، ١٤١ وما بعدها • ويصدر فريد في بعض المناسبات ادعاءات مضحكة ومنافية للعقل • فعن سلوك القوى الأوروبية تجاه الحكم المصرى فى سوريا ، مثلا ، يشير الى ان فرنسا فقط هى التى كانت معنية بمساعدة البلاد الأخرى للحصول على حريتها ! المصدر نفسه ، ص ١١٩ • لقد كانت فرنسا بالفعل هى المساند الأوروبى الوحيد لمصر فى هذا المشروع ، لكن من الصعب رؤية

كيف ان الفتح المصرى لسوريا كان له صلة بالحرية المصرية أو السورية ، ما لم يكن الأمر يتعلق بالفتح وليس الحرية .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٧٨ ، ٨٥ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ١١٢ .

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ١٥٠ ـ ٥٢ ، ١٥٦ .

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ١٥٩ ـ ٦٠ .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ ـ ٨٢ .

(٣٩) المصدر نفسه ، ص ٦٨ ، ٩٢ ـ ٩٣ .

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ١٠٥ ـ ٦ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٢ ـ ٣ ، ٤٢ ، ٥٦ ، ١٩٥ ـ ٢٠١ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(٤٣) كان تحليل محمد فريد بصفة عامة سطحيا ، بينما كان تحليل مصطفى كامل مخربا تماما . فى « المسالة الشرقية » على سبيل المثال يبين مصطفى كامل رد الفعل لعدم المستحسن الذى قوبلت به الثورة اليونانية (الموحى بها من روسيا) فى انجلترا وحجته انها كانت تعتبر نضالا من أجل الحرية ضد القهر العثمانى . ثم يضع الحذاء على القدم الأخرى ويسأل عن سلوك بريطانيا لو أن فريقا من رعاياها (الايرلنديين ، الاسكتلنديين ، واهل ويلز) قد بدأوا ثورة بمساعدة فرنسا أو ألمانيا . « المسالة الشرقية » ، الجزء الأول ، ص ١١ .

(٤٤) انظر على سبيل المثال مديحه المطول لمحمد على . « البهجة التوفيقية » ، ص ١٩ ـ ٢٠١ .

(٤٥) انظر حاشية ٨ من هذا الفصل .

(٤٦) انظر على سبيل المثال « البهجة التوفيقية » ، ص ٩ ، ١٣ ـ ١٤ ، ٢٠ ـ ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٢ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٣٦ ، ١٥٣ ، ١٨٣ ـ ٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٣ .

(٤٨) Who is who هو نوع من المصادر الخاصة بالسير والتراجم Biographies التى تتضمن بيانات تراجمية لشخصيات بارزة فى كافة مجالات النشاط الانسانى (سياسة ـ اقتصاد ـ دين ـ ثقافة ـ أدب ـ علوم ـ طب ـ هندسة ـ فلك ـ صيدلة ـ مسرح الخ) ، وقد تتخصص هذه الكتب فى الترجمة لفرع معين من النشاط ، قد يكون السياسة فى الغالب .

وتتوفر هذه المراجع فى المكتبات العالمية على شكل مراجع رف Shelf reference فى متناول الباحث مباشرة دون الحاجة لمعاونة الموظف المختص Librarian أو التقدم بطلب استعارة . ولا تعار هذه المراجع خارجيا للباحثين ويقتصر استخدامها على الدار فقط .

المترجم

(٤٩) فى هذا الخصوص فان محمد فريد يزل سهوا . فخلال السياق العادى للقصة يشير دائما الى استانبول باسم « اسلامبول » « البهجة التوفيقية » ، ص ٩ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ١٤٤ ، ١٨١ . ومع هذا فان الكلمة تبرز بالمصادفة على نحو غير متوقع فى ترجمته لليدى ستانهوب Lady Stanhope ويكتبها هنا « استانبول » . المصدر نفسه ، ص ١٣٣ .

(٥٠) انعقد مؤتمر برلين Congress of Berlin فى ١٣ يونيو ١٨٧٨ تحت رئاسة المستشار الألمانى أوتوفون بسمارك Otto Von Bismark للمحافظة على التوازن الدبلوماسى للقوة فى اعقاب الحرب الروسية ـ التركية ١٨٧٧ ـ ٧٨ ٠ كانت معاهدة سان ستيفانو San Stefano فى ٣ مارس ١٨٧٨ التى أنهت هذه الحرب قد زادت من النفوذ الروسى فى البلقان واثارت بذلك معارضة قوى اوروبية أخرى ٠ وقد مثلت النمســا والمجر ، بريطانيا ، فرنسا ، ايطاليا ، روسيا ، تركيا الى جانب المانيا فى هذا المؤتمر ٠ فى معاهدة برلين (١٣ يوليو ١٨٧٨) استبدل خلق بلغاريا الكبرى الذى حققته معاهدة سان ستيفانو على شكل دولة مستقلة مدعومة من جانب روسيا ، ببلغاريا صغرى تحت سيادة السلطان العثمانى ٠ وحصلت روسيا على بسارابيا الجنوبية Southern Besslarabia من رومانيا ، وقارس Kars ، أردهان Ardahan ، وباطوم Batum من تركيا ٠ وحصلت كل من صربيا والجبل الأسود Montenegro ورومانيا على أقاليم اضافية الى جانب استقلال كامل عن الامبراطورية العثمانية ٠ وحصلت النمسا على حق « احتلال وادارة » البوسنة والهرسك دون السلطة لضمهما ٠

Lexicon Universal Encyclopedia, Vol. 3.

المترجم

(٥١) محمد فريد « تاريخ الدولة العلية العثمانية » (القاهرة : مطبعة التقدم بمصر ، ١٩١٢) ص ٥ ٠ واذا وضع فى الاعتبار ان محمد فريد كان نشطا سياسيا فى أسطانبول فى هذا الوقت بالتحديد ، فان الأمر يبدو أكثر من مصادفة ان اسم هذه المطبعة قريب من (الاتحاد والترقى) ٠ فهل يمكن ان يكون هذا (الحزب الحاكم) قد مول طبع هذا الكتاب ؟ ٠

ارى أن هـــذا الاستنتاج فيه بعض المبالغة ، فليس شرطا أن يكون اسم المطبعة (التقدم) قريب من اسم الحزب الحاكم فى استانبول (الاتحاد والترقى) للجزم بأن هذا الأخير قد مول طبع الكتاب ٠ ثم أن الكتاب مطبوع فى مصر وليس فى استانبـــول (مطبعة التقدم بمصر) ٠ وطالما انه لا توجد وثيقة تؤكد ما ذهب اليه المؤلف فان الكتاب يبقى مطبوعا على نفقة مؤلفه ، خاصة وأنه لا يوجد من لغة الكتاب وعناصره ـ حسبما أورد المؤلف ـ ما يشتم منه ان المؤلف كان ضالعا مع النظام الجديد الذى تولى السلطة فى الامبراطورية العثمانية بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد ٠

المترجم

(٥٢) المصدر نفسه ، ص ٣ ـ ٤ ٠

(٥٣) يجب ان نلاحظ أن محمد فريد لم يذكر الفرس هنا ٠ فهل هذا راجع الى أنهم لم يكونوا من أهل « السنة » ؟ أم لانهم لم يكونوا من المنظر « تكنيكيا » أن يؤيدوا مصر فى نضالها المحلى ؟ ٠ أن الفرضية « التكنيكية » ليس لها وزن كبير ٠ ويجب ان نتذكر أيضا أن أصول محمد فريد تركية ٠ وفى تاريخه العثمانى يكشف محمد فريد بوضوح ان فكرة التبعية المصرية للامبراطورية هى مؤسسة على الحيازة العثمانية « للخلافة » وليس « السلطنة » ٠ وتحوى الصورة المواجهة لصفحة العنوان فى الكتاب صورة السلطان محمد الخامس (١٩٠٩ ـ ١٨) مع تعليق يقول « خليفة مسلم وسلطان عثمانى » ٠ وعلى ذلك فان الفرس يستبعدون على أساس أنهم لم يعترفوا بالخلافة ٠

(٥٤) « تاريخ الدولة العثمانية » ، ص ٥ ، ٧ ٠

(٥٥) سنتذكر ان مصطفى كامل كان يشكو من أن الأمر قد استغرق وقتا طويلا عند

العثمانيين ليتحققوا من أن بريطانيا كانت هى العدو الحقيقى • انظر ص ١٥٩ من الفصل الثامن •

(٥٦) انظر ص ١٦٨ من الفصل التاسع •

(٥٧) عزل عباس عام ١٩١٤ عندما لم يستطع البريطانيون تحمل الشك فى ولاءاته • ثم ذهب بعد ذلك الى استانبول ووافق كما ذكرنا على اعادة التوافق (وربما اعادة الوحدة) مع محمد فريد •

والواقع ان عباسا كان فى استانبول عند قيام الحرب بين تركيا والحلفاء ، فمنع من دخول مصر من جانب الاحتلال البريطانى وتم عزله وهو هناك •

راجع شو وشو

Shaw & shaw
History of the Ottoman Empire and Modern Turkey. II Reform, Revolution, and Republic : 1808-1975. Cambridge University Press, 1978, p. 312.

المترجم

(٥٨) انظر ص ١٤٨ من الفصل الثامن •

(٥٩) عن « الأفغانى » انظر حورانى •

Hourani
"Arabic Thought," p. 111.

وعن مقالات محمد فريد انظر ص ١٦٩ من الفصل التاسع •

(٦٠) انظر ص ١٥٥ من الفصل الثامن •

(٦١) خلال الحروب النابليونية أنهت معاهدات تيلسيت Tilsit حروب الحلف الثالث ــ الذى تحالفت فيه روسيا ، بروسيا ، والنمسا ضد فرنسا النابليونية ــ وأعطت نابليون الأول سيطرة كاملة على أوروبا • بانتصاره على الروس فى فريدلاند Friedland فى يونيو ١٨٠٧ ، فتح نابليون باب المباحثات مع الامبراطور الكسندر الأول Alexander I فى ٢٥ يونية فوق رمث على مياه نهر نيمان Neman قرب المدينة البروسية الشرقية تيلسيت Tilsit (سوفتسك الآن Sovetsk فى روسيا) ، وفيما بعد شارك الملك فريدريك ويليام الثالث Frederick William III ملك بروسيا ، فى هذه المباحثات •

وفق المعاهدة الموقعة فى ٧ يوليو أصبحت فرنسا فى سلام مع روسيا التى وعدت بدورها (سرا) بالتوسط بين فرنسا وبريطانيا ، وبالتحالف مع فرنسا اذا رفض البريطانيون الوساطة • وفقا لمعاهدة ٩ يوليو أصبحت أغلب اقاليم بروسيا غربى نهر الالب Elbe جزءا من مملكة وستفاليا Westphalia الخاضعة للسيطرة الفرنسية ، وتم التنازل عن اقاليمها البولندية الى الدوقية الجديدة وارسو Warsaw • كذلك فقد اضطرت بروسيا الى تقليل حجم جيشها وان تتسامح فى أمر اقامة حاميات فرنسية فى بعض قلاعها ، وأن تنضم الى النظام القارى ضد بريطانيا • وقد تحطم السلام الذى وفرته تيلسيت Tilsit فجأة عندما غزا نابليون روسيا فى ١٨١٢

Lexicon Univer al Encyclopedia, vol. 19.

المترجم

(٦٢) قارن القرآن ١٨ : ٣٩ •

يقصد المؤلف سورة النور الجزء الثامن عشر • الآية رقم ٣٨ « والذين كفروا أعمالهم

كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءا حتى اذا جاء لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » •

المترجم

(٦٣) « تاريخ الدولة العثمانية » ، ص ١٩٦ • وفى الواقع فان الكلمات النبوئية Prophetic تشير الى الثورة العربية خلال الحرب العالمية الأولى •

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠٠ •

(٦٥) المصدر نفسه ، ص ٤ •

(٦٦) « البهجة التوفيقية » ، ص ٦٩ — ٧٠ •

(٦٧) « تاريخ الدولة العثمانية » ، ص ٧ •

(٦٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ • أما الحرب فقد نوقشت فى ص ٢٣٣ — ٣٧ •

(٦٩) طبقا لبرنارد لويس Bernard Lewis فان « الأغلبية الساحقة من العرب ظلوا مخلصين للامبراطورية العثمانية حتى تدميرها ••••• بل ان الثورة العربية — المدعومة بريطانيا لم تكن ناجحة فى ندائها ولم تكن مخلصة فى أغراضها كما قالت التفسيرات الرسمية » •

برنارد لويس

Bernard Lewis
"The Middle East and the West"
(New York : Harper & Row, Publishers, Harper Torchbooks, 1964), p. 87.

(٧٠) كان الرافعى ورعا لدرجة كبيرة • وكتب مقالات لا تحصى للصحف عن مثل هذه الموضوعات كالرسول ، الاسلام ، معنى رمضان ، الخ •

(٧١) كانت طلاقة محمد فريد فى اللغة التركية مصدر قوة كبيرة له • شفيق غربال « منهاج مفصل لدروس فى العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية على ما هى عليه اليوم » (القاهرة : مدرسة الدراسات العربية بالجامعة العربية ، ١٩٦١) ، ص ١١٩ •

ويرى غربال ، عرضا ، ان تاريخ محمد فريد عن الدولة العثمانية جدير بالثناء فى وقته • المصدر نفسه •

(٧٢) لم يكتب فيليب جلاد أى دراسة عن ملكية الاراضى ، وكان كل ما نشر له هو « قاموس الادارة والقضاء » ، ولعل المؤلف يقصد « جرجس حنين » صاحب كتاب « الأطيان والضرائب فى القطر المصرى » — راجع حاشية ٧١ من حواشى الفصل السادس •

المترجم

الفصل العاشر :

المؤرخون السوريون المصريون

لم يكن من السهل استكمال هذه الدراسة دون اشارة لمجموعة هامة من الرجال ، السوريون بالمولد والمصريون بالتبنى ، الذين اسهموا بلا حدود فى النمو الثقافى والفكرى لوطنهم الجديد (١) • كان اغلب هؤلاء السوريين ـ المصريين مسيحيون ذوى تعليم عال ، ساعدتهم ظروفهم الجغرافية والعرقية على المحافظة على قنوات الاتصال مع الغرب • لذلك فقد كانوا اسرع من نظرائهم المصريين فى تقبل واستخدام المفاهيم الغربية ، ونظرا لميلهم كمجموعة الى العمل فى ميدان الصحافة ، فان أهميتهم كناشرين للافكار الجديدة لم تتناسب اطلاقا مع أعدادهم • لقد كانوا جزءا من طليعة النهضة الأدبية والفكرية (٢) •

رغم أن نصف القرن الذى يبدأ من سبعينيات القرن التاسع عشر وحتى عشرينيات القرن العشرين كان ذروة الحركة السورية الفكرية فى مصر ، الا أن تأثير هؤلاء الرجال على الحكومة المصرية والمجتمع تعود جذوره الى أيام محمد على • فقد هرب الكثير منهم الى أوروبا فى أعقاب الجلاء الفرنسى عام ١٨٠١ ، لكنهم بدأوا فى التقاطر الى البلاد بمجرد أن حقق نظام محمد على بعض الثبات • ولقد كانوا مفيدين على وجه الخصوص فى النظام التعليمى الجديد ، نظرا لتمكنهم ، على خلاف المعلمين الفرنسيين والايطاليين ، فى اللغة العربية واللغات الأوروبية اللازمة • كان الأب أنطون رافائيل زاخور Anton Rafael Zakhur أحد هذه النماذج • فقد كان الشرقى الوحيد فى أكاديمية نابليون وعضوا فى المجلس الحاكم الذى أسسه جاك مينو Jacques Menu • عاش فى فرنسا من عام ١٨٠٣ وحتى عام ١٨١٦ ، وعندما عاد الى مصر تولى منصبا تعليميا فى مدرسة الهندسة • ولعل أول كتاب طبع بمعرفة مطبعة بولاق كان قاموس زاخور الايطالى ـ العربى (٣) •

مع نهاية عهد اسماعيل وخلال فترة الاحتلال البريطانى ارتفع معدل الهجرة السورية الى مصر بشكل حاد وكان أغلب القادمين الجدد مطعمين

بدماء التغريب ، وسرعان ما بدأ تأثيرهم القوى على مناخ الرأى فى مصر فقد دافع « يعقوب صروف » (١٨٥٢ ــ ١٩٢٧) كمحرر « للمقتطف » على سبيل المثال عن العقلانية (Rationalism) ، وحاول مع « شبلى شميل » أن يعرف المصريين بأفكار داروين Darwin • وعرف « فرح أنطون » (١٨٦١ ــ ١٩٢٢) محرر « الجامعة » قراءه بالأدب الفرنسى ، وعلى وجه الخصوص باعمال جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau وارنست رينان Ernest Rénan • وبشر أيضا بالحرية المطلقة للاستعلام والسؤال وضمن كتاباته ما كان وقتئذ أفكارا جديدة للغاية كالاشتراكية بل وحتى الشيوعية • وشجع جورجى زيدان (١٨٦١ ــ ١٩١٤) المقاييس الغربية فى النقد الأدبى والتاريخى الى جانب النماذج الغربية فى التعبير• وأسهم هو وسوريون آخرون كثيرا فى تنمية أسلوب أدبى جديد مجرد من الزخارف المصطنعة والسجع المنمق الذى ساد العهود المبكرة (٤) •

ليس من الأمور الغير معتادة حتى فى وقتنا هذا أن يسمح الصحفى الموهوب لبعض من مواهبه الأدبية بأن تنسكب فى مجال الكتابة التاريخية، ولم يكن الكتاب السوريون فى القرن التاسع عشر استثناءا من ذلك • لقد أسهموا بقدر هام فى التأريخ « المصرى » ، رغم أن كتاباتهم تنفست على العموم روحا مختلفة الى حد قليل عن تلك التى لكتابات المصريين الأصلاء • وربما كانت محاولتهم صب نغمة أكثر حيادا فى كتاباتهم راجعة الى أنهم كانوا واعين بقضية دينهم ووضعهم « كضيوف تحت التجربة » (٥) ، ولقد كان هذا ملائما ، شريطة أن يتقيدوا بالمناهج شبه التحليلية المتضمنة المعالجة الاحصائية الوثائقية الجديدة لكتاب أمثال على مبارك وأمين سامى • وقد وجد الكثير من السوريين فى هذا الوضع تسوية مغرية : فقد كان وضعا باعثا على الاحترام وآمنا أيضا •

رغم أن هذا الفصل معنى أساسا بالسوريين المصريين واسهاماتهم، فان سيرة يعقوب أرتين ومنهجيته التاريخية تجعل ضمه الى هذا الفصل أمرا ملحا • كان أرتين أرمنيا مصريا تعلم فى أوروبا وتولى فيما بعد مناصب هامة عديدة فى الحكومة المصرية • فقد عين فى عام ١٨٧٣ معلما لأطفال اسماعيل ، وفى ١٨٧٩ أصبح سكرتير الخديوى للامور الأوروبية وفى ١٨٨٤ أصبح وكيل نظارة المعارف • كان التعليم هو شغف يعقوب ارتين فى الحقيقة ، وقد اعتبره اللورد كرومر « أعلى مرجع مصرى فى الشؤون التعليمية على الاطلاق "by far the highest Egyptian authority on educational matters" » (٦) •

كان يعقوب أرتين غارقا حتى أذنيه فى الثقافة الفرنسية الى حد أنه لم يستطيع أن يكتب تاريخا بالعربية ، كانت كل أعماله التاريخية بالفرنسية ، وبصرف النظر عن دراستين كبيرتين ، فقد تضمنت أعماله عددا من المقالات القصيرة التى كتبت فى الغالب للجريدة الثقافية فرنسية اللغة المسماة Bulletin de l'Institut Egyptien (٧) · أما عملاه الرئيسيان فكانا L'instruction publique en Egypte (باريس ١٨٩٠) ، والمترجم الى العربية بمعرفة على بهجت باسم «القول التام فى التعليم العام»، La propriéte Foncière en Egypte, (القاهرة ١٩٠٨) والمترجم الى العربية بمعرفة سعيد عمون باسم « الأحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية » · وكلا الكتابين دراسات أصلية علمية مؤسسة على محتويات الأرشيف الحكومى (٨) ·

كان يعقوب ارتين حالة غير عادية على نحو لا يمكن انكاره بسبب كتابته بالفرنسية فقط · وكان راغبا عن تقديم أى تفسير للحوادث مثل على مبارك وأمين سامى مفضلا بدلا من ذلك أن يدع الجداول والاحصائيات تروى القصة · وقد وجد الكتاب السوريون أمثال فيليب جلاد وجرجس حنين هذا المنهج ملائما (٩) ·

ولد فيليب جلاد فى يافا لكنه استقر فى مصر وهو ما يزال صغيرا ونعم بخدمة طويلة فى المناصب القضائية المختلفة فى الحكومة المصرية · كان عمله الوحيد المنشور هو (قاموس الادارة والقضاء) وهو دراسة من خمس مجلدات عن ملكية الأراضى والضرائب على الملكية فى مصر ، وظهر فى ١٨٩١ · ويحتوى الكتاب أساسا على وثائق واحصائيات ، مرتبة وفقا للتسلسل الزمنى مع بعض التحليل البسيط (١٠) ·

وعلى نفس نسق جلاد وبنفس أهميته لطلاب التاريخ الاجتماعى والاقتصادى المصرى كان كتاب جرجس حنين « الاطيان والضرائب فى القطر المصرى » المنشور عام ١٩٠٤ · كان جرجس حنين مشرفا على الخزينة المصرية وكتب الكتاب خصيصا للدفاع عن الحكومة ضد اتهامات ناقديها (١١) · وينبغى أن يستخدم كتاب جرجس حنين بحذر نظرا لاتجاهاته الدعائية خاصة وأنه يحمل على الظن بأنه « موضوعى » تماما وان دراسته الاحصائية مستمدة من الأرشيف الحكومى · ومصادر جرجس حنين هى القوانين والدكريتات وسجلات الحكومة من كل الأنواع ، وتقرير بطرس غالى الى قومسيون الاصلاح الضريبى فى عام ١٨٨٠ الذى يلعب دورا هاما كأهمية الدور الذى لعبه فى عمل جلاد ·

وعلى خلاف جلاد ، مع هذا ، فان جرجس حنين يستخدم أحيانا

أعمالا عامة كدراسة يعقوب أرتين عن ملكية الأراضى وتاريخ الحضـــارة الاسلامية لجورجى زيدان (١٢) • لكن ترتيب المادة فقير ولا يمكن ان يدل إن الكتاب قد حقق أغراضه • فعلى سبيل المثال يقرر جرجس حنين فى المقدمة أنه سوف يفحص كل أنواع الضرائب فى مصر (١٣) ، لكن الكتاب يخصص ٧٠٤ صفحة لضرائب الأراضى ثم يكتفى بخمسة عشر صفحة لباقى أنواع الضرائب • ويعنون جرجس حنين فصله الأول بعنوان «تمهيد عمومى جغـــرافى تاريخى» ، ولكن باستثناء ملاحظـات قليلة عن بعض الموضوعات المتفاوتة كعمرو بن العاص ومحمد على ، فان القارىء يبحث عبثا عن أى معلومات أو حوادث سابقة على عام ١٨٨٠ (١٤) •

ومع أوجه القصور هذه ، فان كتاب حنين رغم ذلك يؤدى دور المرجع المفيد للتاريخ الاقتصادى فى الفترة القريبة من بداية القرن العشرين • ومع هذا فلا يمكن اعتبار جلاد أو حنين مؤرخين ، فقد كانا على الاصح مصنفان للمعـــلومات الاحصائية • لقد فهـــم كل من الرجلين الاصرار « الحديث » على التوثيق الشامل ، وفى هذا المقام فان عمليهما لم يخطىء لكنهمـــا لم يكونا قادرين أو راغبين فى تزويد المادة الاحصـــائية بأى معنى (١٥) •

كان سليم النقاش أكثر أهمية ومن نوعية مختلفة عن فيليب جـلاد وجرجس حنين ، انحدر النقاش المتوفى عام ١٨٨٤ من أسرة « النقـــاش » التجارية الشهيرة فى بيروت • وفى سن مبكرة هاجر الى مصر مدفوعا بمشروع اسماعيل لاقامة « أوبرا » ومسارح على النمط الاوروبى خـــلال فترة النهضة • وقد قام بالتمثيل بالفعل على مسرح الاسكندرية بدءا من عام ١٨٧٦ ، وبالاضافة الى ذلك فقد تعاون مع صديقه الســـورى أديب اسحاق فى نشر العديد من الجرائد ــ العصر الجديد ، المحـــروسة ، والتجارة (١٦) • وبافتراض أنه كان واحدا من أقوى المعاضدين لعرابى، فقد كتب وصفا عظيما عن الفترة الثورية ، سماه « مصر للمصريين » • كان الكتاب يضم كما كان مخططا له أصلا ، تسعة مجلدات ثقيلة : ثلاثة منها عن مصر من عهد محمد على الى نهاية عهد اسماعيل ، ثلاثة مجلدات عن عهد توفيق وأحداث الثورة ، وثلاثة أخيرة عن محاكمة قواد الثورة •

ورغم أن هذه كانت نية ضخمة ، وجديرة بالتقليد المباركى (نسبة الى على مبارك وخططه الضخمة) فان النقاش لم يكمل أبدا المجـــلدات الثلاثة الأولى (ما لم تكن قد فقدت أو صودرت أو اتلفت) • ومع هذا ، فانه كتب بالفعل الستة الآخرين والتى نشرت عام ١٨٨٤ قبل وفاته بوقت قصير • وطبقا لجورجى زيدان فان هذه المجلدات تضم حوالى ثلاثة آلاف

صفحة (١٧) ، وتوفر ثروة غير معقولة من المعلومات عن كل موضوع • وتتسع المجلدات ٤ ــ ٦ للأقسام التاريخية من العمل وهى مرتبة على الوجه الآتى : ــ

المجلد الرابع : من تولى توفيق فى عام ١٨٧٩ الى ضرب الاسكندرية فى ١١ يونيو ١٨٨٢ •

المجلد الخامس : من ضرب الاسكندرية الى سقوط القاهرة واستسلام عرابى فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ •

المجلد السادس : من سقوط القاهرة الى نهاية عام ١٨٨٤ •

المجلدات ٧ ــ ٩ : محاكمات زعماء الثــورة •

ربما كان « مصر للمصريين » أكثر الأعمال التاريخية المصرية التى لم تلق تقديرا او استخداما من بين كل الأعمال التاريخية « لمصر القرن التاسع عشر » • فالتوثيق فى حد ذاته شامل ومتقن بصورة لا تصدق ويستطيع أن يصمد للمقارنة مع أى عمل آخر كتب خلال هذه الفترة • ولقد أفاد النقاش تماما من المادة الارشيفية ــ الفرمانات العثمانية ، الدكريتات الخديوية ، تقارير الميزانية ، تنظيمات الجيش ، المراسلات الدبلوماسية البريطانية والفرنسية ، ترتيبات القروض ، عقد تسوية الديون ، الخ • وقد أعيد طبع خطب عرابى العامة وكلمات أعضاء مجلس شورى النواب بالكامل فى الكتاب • ولا يروى النقاش الأحداث المحيطة بضرب الاسكندرية من جانب العرابيين وحدهم ، ولكن أيضا من منظــور المراقبين الألمان ، اليونانيين ، الانجليز والروس أيضا • ويقــدم تفاصيل كميات وأنواع التسليح المستخدم بمعرفة البريطانيين ويحصر خسائر كل طرف خلال الصراع • وفى بعض الأحيان تقدم مراسلات دبلوماسية كثيرة تطغى على رواية النقاش ذاتها (١٨) •

كانت رؤية النقاش للثورة باردة ومنعزلة رغم ما يقال من أنه كان مشايعا لقضية عرابى • وتحكى الأعداد الهائلة من الوثائق التى ضمنها كتابه القصة بنفسها ، لكن النقاش لا يلتمس الحفاظ على غفليته Anonymity بالاختفاء وراء هذه الوثائق • فيزعم أن شعبية عرابى الأولى كانت الأقوى بين ضباط وطنيين معينين فى الجيش من الذين كان الموضوع الملح عندهم هو زيادة المرتبات ومزايا الاجازات (١٩) • ويلقى تبعة حريق الاسكندرية على رجال عرابى الذين اعتقدوا أن سياسة احراق الأرض امام العدو قد تكون فعالة أمام البريطانيين كما كانت فعالة أمام نابليون فى روسيا فى بواكير القرن • وطبقــا للنقاش فان المذابح فى

المدينة ظهرت بسبب اشعال العرابيين عمدا لنيران التعصب الدينى عند «الرعاع والسفلة» ضد المسيحيين بصفة عامة • ويشير الى هذه الحوادث بتبلد على أنها « جرائم » (٢٠) •

فهل كان النقاش فى الحقيقة عرابيا ؟ انه يوجه فى بعض الاحيان لوما لطيفا للبريطانيين كزعمه أن « الوعود العديدة للوزراء البريطانيين بالبقاء عدة شهور بعد توقف الاعمال العدوانية كانت مجرد « ضرب من المواربات » (٢١) • وبيان كهذا لا يمكن قياسه بالخطب التى دبجها ضد عرابى • يحتمل أن يكون النقاش قد بدا كعرابى لكنه تحرر من هذا الوهم فيما بعد ، وعاد كما فعل الجبرتى فى «العجائب» الى التأييد المطلق لبعض المظاهر على الأقل من الاحتلال البريطانى • وعلى اى حال ، فان الكثير من الجرائد أغلقت فى المرحلة النهائية للثورة العرابية (١٨٨١ ـ ١٨٨٢) ، وجرى تنوير للمصريين عن التضخم الخطير للملكية الأوروبيين والليفانتيين (أهل شرقى البحر المتوسط) للأراضى فى بلادهم ، وتحول صحفيون سوريون من أصدقاء النقاش كآل تكلا ، اديب اسحاق ، وحمزة فتح الله ضد عرابى ، وذبح الليفانتيون فى العديد من مدن الدلتا ، وكانت النغمة العامة للثورة قد أصبحت اسلامية حادة (٢٢) • ربما كان هذا كله اكثر من الكفاية ليسبب تغيرا عند النقاش • وتبعا لذلك فان « مصر للمصريين » لا يمكن أن تقرأ ككراسة دعاية سياسية عرابية وانما الأحرى أن تكون الانتاج الطبيعى لكاتب مسيحى سورى مهاجر ، معزول عن التيارات الوطنية للوقت بسبب مسحاتها الاسلامية الثابتة •

وبصرف النظر عن قيمة « مصر للمصريين » للمؤرخ السياسى ، فان العمل كاشف وملهم لطالب التاريخ الاجتماعى والاقتصادى المصرى • ويحوى المجلد السادس على وجه الخصوص منجما من المعلومات عن قضايا كالأوضاع المالية للبلاد وبعثه اللورد دوفرين Dufferin ، نشاطات القبائل البدوية ، تجارة الرقيق ، طاعون عام ١٨٨٣ ، وقطع الطرق فى الريف (٢٣) • ويجب أن نذكر أن النقاش نفسه كان شاهد عيان لكثير من أحداث هذه الفترة وكان قادرا بناء على ذلك على تقديم جوانب مسلية منها كالتهديد بالعقاب للمصريين الذين ثابروا بعد الثورة على بيع مشروبات روحية للجنود البريطانيين فى مقابل اسلحتهم او حتى مجرد ملابسهم (٢٤) •

ومع هذا فان اجراءات المحاكمات كما احتواها المجلدان السابع والثامن يجب أن تفحص بدقة • فالنقاش يقدم ثروة من المعلومات عن دوافع وتحركات اشخاص الثورة العديدين والذين كانوا صرحاء فى اجاباتهم لمستجوبيهم بصورة مذهلة • وتبدو السجلات للوهلة الأولى

كاملة ودقيقة بما فيه الكفاية ، رغم أن غياب الأسلوب العامى فى شهادات المتهمين واضح بصورة لافتة للنظر · فاذا كانت هذه العامية قد حذفت بالفعل فان الاجراءات كلها قد يكون مشكوكا فيها · ذلك انه بالنسبة للقارىء الحديث ، البعيد عن الأحداث نفسها يبدو ولع المدعين العموميين باثبات توقيتات تحركات الثوار الذين اعترفوا بفخر بكل « جرائمهم » أدل من أن يكون مدعاة للسخرية ·

وأسلوب النقاش فى الكتابة لا يقل امتاعا عن المحتوى الذى يحدد عمله ، حيث أنه يوفر تبصرا قيما لمشاكل الأدب الانتقالى · وبالنظر الى هذا الأسلوب بشمول ، فانه يبدو بسيطا ومباشرا الى حد الملل والرتابة · ولعل تدريبه كصحفى هو المسؤول عن ذلك ، فهو يستخدم مرارا مصطلحات (سابق الذكر ، آنف الذكر ، المنوه اليه ، المومىء اليه) ، ويستخدم الاستطلاع الموضوعى لصيغة المجهول · كما أنه لم ينجح فى التخلص من التقليد السجعى واضفاء بعض الأناقة اللفظية لأجزاء معينة فى المقدمة باللجوء الى أسلوب التكرير الحرفى فى لفظتين متجاورتين مثل (سير الأحوال الماضية على نمطها المعروف ونسقها المعهود) أو (بالايضاح الوافى والبيان الشافى) (٢٥) ·

لقد تبلورت جهود النقاش لتشكيل مجموعة جديدة من الأنماط الأسلوبية للأسف الى خليط ضئيل الجودة من العناصر الغير متناسقة ·

يبقى النقاش ، كرجل ، لغزا غامضا · ماذا كانت صلته التعتيية بعرابى ؟ (٢٦) · ولماذا لم يلق اسهامه الضخم فى التاريخ المصرى التقدير المناسب ؟ هل لأن كتاباته ــ مثل كتابات يعقوب أرتين ، ميخائيل شاروبيم ، والمسيحيين السوريين بصفة عامة ــ خلت من نفس المنظور الوطنى الذى احتوته كتابات الكتاب المسلمين المصريين ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فان نفس الشىء يمكن أن يقال عن عمل جورجى زيدان (١٨٦١ ــ ١٩١٤) ، رغم أن نقص الوعى القومى فى حالته لم يسلمه الى خمول الشهرة التاريخى ، بل العكس هو الأصح ، لأن جورجى زيدان كان واحدا من أنبل الشخصيات المعروفة فى مصر نهايات القرن التاسع عشر ، واستحق بكل جدارة أن يسمى « كبير المؤرخين السوريين ــ المصريين » (٢٧) ·

ولد جورجى زيدان فى بيروت حيث التحق وهو شاب بالجامعة الأمريكية لدراسة الطب · لكنه لم يكمل دراسته وأتى بدلا من ذلك الى مصر ، على أمل أن يستكمل تعليمه الطبى فى مدرسة القصر العينى · ومع هذا ، فانه عند هذا الحد كان قد أظهر ميلا شديدا للأدب وعلى وجه الخصوص للأدب العربى الكلاسيكى · وبعد اشتغاله بالاشراف على نشر

جريدة « الزمان » لمدة عام ، صاحب فى عام ١٨٨٤ الحملة المصرية الى أعالى النيل كمترجم فى (المخابرات) • ومع عودة قصيرة الى بيروت لدراسة العبرية والسريانية ، زار لندن عام ١٨٨٦ ثم عاد الى مصر حيث بقى بها طيلة حياته • شارك لفترة فى نشر (المقتطف) لكنه تركها ليؤسس مجلته الناجحة « الهلال » عام ١٨٩٢ (٢٨) • فى عام ١٩٨٧ كانت شهرته قد تجاوزت مصر وعين عضوا فى الجمعية الملكية الأسيوية (٢٩)•

كان انتاج جورجى زيدان مذهلا • ولم يمنعه عمله كمحرر «للهلال» من أن يكتب فى أكثر من عقد بقليل الأعمال التاريخية الآتية :

١ ــ أنساب العرب القدماء (القاهرة ، بدون تاريخ) •

٢ ــ تاريخ انجلترا (القاهرة ، ١٨٩٩) •

٣ ــ التاريخ العام منذ الخليقة الى الآن (المجلد الأول ، بيروت ١٨٩٠) (٣٠) •

٤ ــ تاريخ الماسونية العام (القاهرة ، ١٨٨٩) •

٥ ــ العرب قبل الاسلام (القاهرة ، ١٩٠٨) •

٦ ــ تاريخ التمدن الاسملاى (٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٠٢ ــ ٦) •

٧ ــ تاريخ آداب اللغة العربية (٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩١١) •

٨ ــ تاريخ مصر الجديد من الفتح الاسلامى الى الآن (مجلدين ، القاهرة ١٩١١) (٣١) •

٩ ــ تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر (مجلدين ، القاهرة ، ١٩٠٧) •

١٠ ــ تاريخ اللغة العربية •

١١ ــ طبقات الأمم (٣٢) •

ومع أن هذه القائمة وحدها تمثل انتاجا هائلا ، فان جورجى زيدان كتب أيضا ثمانية عشر رواية فى سلسلة أعماله عن التاريخ الاسلامى وأربعة روايات تاريخية ذات طابع رومانسى (٣٣) • ولابد أن جهده ككاتب قد استمر حتى أيامه الأخيرة •

وحتى مع افتراض أن طاقم العمل فى « الهلال » قد عاونه فى بعض هذه الأعمال ، فان خصوبته الانتاجية الجبارة تثير شكوكا خطيرة بشأن أصالة عمله • ان معاصرة المواضيع فى عمله (تراجم مشاهير الشرق)،

والتى فى المجلد الرابع من عمله (تاريخ آداب اللغة العربية) لا تفيد احتمال اخذها من مراجع جاهــزة ، ولا يوجد فيها ما يفيد أنها ليست اصلية • لكننا أقل ثقة فيما يتعلق بقدر معلوماته عن التاريخ البريطانى أو الماسونية رغم أنه كتب عنهما بتفصيل كبير •

لا جدال فى وفرة معلومات جورجى زيدان عن التاريخ العربى والاسلامى • فرواياته التاريخية وحدها ، والتى حاول فيها أن يستعيد حوادث الماضى لعهود قديمة ، تشهد بقدراته العميقة بالسجلات التاريخية المتصلة بالموضوع ، ونستطيع بيسر أن نفترض أنه كان يملك ناصية كل عصور الماضى الاسلامى • ومع هذا فخلال نفس هذه السنوات كان المستشرقون الأوروبيون ينتجون دراسات عالية المستوى فى التاريخ العربى سبقت أعمال جورجى زيدان زمنيا لكنها ماثلتها تماما فى المحتوى والمنهج • ولقد كان جورجى زيدان حسن الاطلاع اكثر من غيره على هذه الكتابات وأشار اليها بوفرة فى الجزء الذى خصصه للمستشرقين الأوروبيين فى « تاريخ آداب اللغة العربية » (٣٤) • ويزعم كل من لويس شيخو وعمر الدسوقى أن هذا العمل مقتبس الى درجة كبيرة من Geschichte der arabischen literatur لبروكلمان Brockelmann (٣٥) ، وفوق هذا فانه بالنسبة لـ « تاريخ التمدن الاسلامى » فيبدو أن جورجى زيدان قد اقتبس بغزارة من L'histoire de la civilisation arabe لجوستاف لوبون Gustav le Bon وربما اكثر من عمل فون كريمر Vonkremer (Kulturgeschichte des Orients) (٣٦) • وربما كان من بين الأعمال المتيسرة لجورجى زيدان أيضا تاريخ سيديلوت Sedillot عن الأدب العربى (باريس ١٨٧٧) وعمل هوارت Huart عن الأدب العربى والتاريخ •

ودون تجميع كل المراجع الأوروبية المحتملة ثم مقارنتها بكتب جورجى زيدان فاننا لن نكون واثقين بشأن الأعمال التى رجع اليها ، لكن قراءة تاريخه يعطى انطباعا قويا بأنه قد « استوحى » مباشرة من أعمال أوروبية فى نفس الميادين • وفيما يتعلق بالتحشية واجراءات الاستشهاد بالمصادر Source-citation فانها تعرضت أيضا للاستعمال غير المنتظم ، وفوق هذا فان كل المؤرخين المصريين بعد الطهطاوى كانوا أكثر استيقاظا فى الضمير فيما يتعلق بالاشارة الى مصدر معلوماتهم • وهكذا فان عمل جورجى زيدان يصبح مشكوكا فيه كثيرا ، حيث انه كان ينبغى عليه ــ اكثر من أى من سابقيه ــ أن يكون مدركا لالتزامه فى الاستشهاد بالمصادر •

واذا كنا نستطيع أن نتجاوز مواطن القصور هذه فان تاريخ جورجى

زيدان به ميزات موازنة معينة • فقد كان الغرض الأساسى من الكتـابة هو تبسيط موضوع التاريخ • ولم يكن الرجل ليحقق هذا الهدف لو انه تقيد بمناهج بروكلمان التاريخية • وبالتبعية فان جورجى زيدان كتب روايات رومانسية مؤسسة على حوادث تاريخية واقعية ، محاولا أثناء الكتابة أن يعطى تاريخه شكلا أكثر استساغة للقارىء العادى • واستخدامه للمقاييس الاوروبية للنقد ، حتى لو استعيرت مباشرة ، كان أكثر تماسكا عن استخدام الكتاب السابقين لهذه المقاييس ، ونتيجة لذلك فان الكثير من كتبه لا تزال تحمل طابعا حديثا حتى اليـــوم (٣٧) • وقد تبدو أعمـــاله (المبسطه) سطحية الى حد ما عند المحتـــرف ، لكن جـــورجى زيدان لم يكن يكتب للمحترفين (٣٨) •

ان نظرة قريبة لواحد من كتب جورجى زيدان ستعطينا فهما أوضح لكيفية تعامله مع التاريخ • ومن بين دراساته التاريخية العديدة فـان « تاريخ مصر الحديث » فقط هو المرتبط مباشرة بالفترة موضوع الدراسة• ومن الملائم تماما أن يكون هذا الكتاب آخر عمل كبير نناقشه ، حيث انه ــ فى بحثنا هذا كله ــ هو الكتـــاب الوحيد الذى كتب خصيصا وعن عمد عن « مصر الحديثة » • ولقد كان عملاً كهذا يحتاج لرجل له امكانيات جورجى زيدان من حيث معرفته بمنهج التاريخ الحديث ليتفكر فيها ويقوم بمشروع كهـــذا •

على خلاف الكثير من الكتاب الســابقين ، فان جورجى زيدان لا يبدأ بتقديم الثناء لحاكم أو الى « أرض آبائه المحبوبة » لكنه يقول بدلا من ذلك أنه كتب الكتاب ليرضى حاجة معينة : فتاريخ مصر الحديث ، كما يأمل ، سيكون ذا فائدة لكل من المثقف والشخص العادى على السواء بل وقد يكون مناسبا أيضا ككتاب دراسى (٣٩) • وكما يشير جورجى زيدان فان أحدا لم يسبقه الى اصدار كتاب من هذا النوع (٤٠) •

وتحت مسمى « تاريخ حديث » يصنف جورجى زيدان فترة كبيرة من الوقت أكثر مما يمكن أن يحدث فى أيامنا هذه • فالمجلد الأول يناقش التاريخ المصرى من العصور الفرعونية الى الفتح العثمانى ، مع نصيب الأسد بالطبع للفترة الاسلامية (٦٤٠ ــ ١٥١٧ م) (٤١) • ويحتوى المجلد الثانى على ٧٠ صفحة عن مصر العثمانية ، حيث يخصص جـــورجى زيدان جهده بعدها للكتابة عن الفترة الحديثة (١٧٩٨ ــ ١٩٠٥ تقريبا) وذلك فى قسم يغطى ٢٧٠ صفحة •

ويحرص جورجى زيدان على تقديم قسم بيبليوجرافى عند موضع معين ، مشيرا من طرف خفى الى أهم مصادر المادة التى استقى منهـــا

معلوماته عن التاريخ المصرى باللغات العربية والغربية • وتتضمن المصادر العربية : المقريزى ، ابن الاثير ، ابن خلدون ، الاسحاقى ، المسعودى ، الجبرتى ، ابن اياس ، على مبارك ، سليم النقاش ، ونعوم شقير • وفى قائمة المصادر الأوروبية يضمن جورجى زيدان عددا قليلا من المصادر الثانوية ـ أهمها دراسة كلوت بك ـ بل ويزكى لقرائه دائرة المعارف البريطانيه Encyclopaehi Britannica (٤٢) • ومن الواضح ان هذه المادة ليست كافية تماما للمشروع الذى كان فى ذهن جورجى زيدان ، لكن حيث أنه لم يلمح أبدا لمصادره ولم يقدم حواشى لمتونه ، فاننا نبقى متروكين للحيرة حول المراجع التى استخدمها •

ويبدو أن جورجى زيدان قد عاش حياة حذرة وخاصة فيما يتعلق بالسياسه • ذلك انه لم يأخذ جانبا معينا فى المنازعات السياسية ، ولم ينخرط فى أى نشاط سياسى ، بل وأحجم عن كل ذكر للسياسة أو رجال الدولة الاحياء فى مجلته « الهلال » (٤٣) • كان « تاريخ مصر الحديث » قد كتب اثناء ذروة « التاريخ العلمى » فى أوروبا ، وربما يكون قد عزز ميل جورجى زيدان الطبيعى نحو الحياد المطلق فى المسائل السياسية • ان العلامه المميزة لتاريخ جورجى زيدان على أى حال ، هى التزامه المطرد « بالموضوعية » الى جانب تجنب لكل القضايا الخلافية • ولا يمكن اتهام جورجى زيدان بعدم العدالة أو التحيز ، لكنه ليس عميق التفكير او ناقد • فعلى سبيل المثال يصف فى روايته عن الحرب السورية خلال عهد محمد على ، كل حملة بالتفصيل لكنه يتجاهل تماما الأسباب والنتائج والدوافع • ولعل المرة الوحيدة التى مارس فيها التحليل التاريخى كانت تلك التى أكد فيها أن محمد على قد اندفع الى الحرب « برغبة فى مد ملكه وتأسيس دولة مستقلة (مطامع فى توسيع مملكته وانشاء دولة مستقلة) (٤٤) •

وفى تعامله مع عهد عباس الأول ، الذى كان يفترض انه كان شخصية كريهة عند من فى ميول جورجى زيدان ، فانه يسعى الى المحافظة على توازن كامل بقصر الرواية على حوادث معزولة وتوافه كشغف عباس برياضات الفروسية ، وصلة السكك الحديدية بين القاهرة والاسكندرية، ارساء حجر الأساس لمسجد السيدة زينب ، خطوط التلغراف ، وارسال أورطة عسكرية لمساعدة العثمانيين أثناء حرب القرم (٤٥) • ويعامل جورجى زيدان الثورة العرابية بنفس الطريقة مع وقوفه جانبا وبدقة بين الأحزاب العديدة وعدم لوم أحد • أما القسم الأخير من الكتاب فيخصصه جورجى زيدان لوصف مختصر للاحتلال البريطانى • ومرة أخرى يتجنب كل ما يثير النزاع ، ولا يفعل أكثر من تقديم قائمة بالنظارات المصرية من عام ١٨٩١ وحتى عام ١٩١٠ ، ملحقا بها قائمة رائعة التقنية باصلاحات الاحتلال فى مجالات الادارة الزراعية ، والمالية (٤٦) •

رغم أن «تاريخ مصر الحديث» يحتوى عيوبا أساسية ، فانه مع هذا قد غطى ما كان فى ذلك الوقت حاجة حقيقية · كواحد من الكتب الغير متميزة القليلة المتوفرة ، فلابد أنه كان فى الحقيقة مناسبا للاستعمال فى نظام المدارس المصرية · وككتاب متفوق ، مقروء ، فانه يمتاز بتخطيط جذاب ويوجه القارىء الى أغلب الميادين الرئيسية من الاهتمام التاريخى · وعلى خلاف توقعات جوجى زيدان فان طبيعته المفرطة فى الحذر ، قد حرمت الكتاب من الكثير من اللون والجوهر ، ولهذا السبب فانه يحتمل أن يكون قد فقد اهتمام القارىء العادى ·

ان قائمة مآثر السوريين الى التأريخ المصرى طويلة ، وحتى الآن لم ننته منها بعد · فالياس زاخورا يستحق الذكر : فهو معاصر لجورجى زيدان ، وأنتج « مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال » · ويبدو أن نية زاخورا كانت انتاج نسخه حديثه من « الطبقات » (٤٧) · وربما ليتملق دوائر البلاط أيضا · وأسلوب زاخورا منمق الى حد ما ،وخاصة بالنسبة لتراجم أعضاء الأسرة المالكة أو نبلاء مصر ، التى فى أغلبها مديح خاو وغير مفيد ·ومن الشاذ بما فيه الكفاية أن يتحول الأسلوب فى الفقرة المخصصة لأحمد عرابى فجأة الى قصة غزيرة التفاصيل ودراسة مليئة بالمعلومات عن الرجل وأعماله (٤٨) ·

أما نعوم شقير فهو كاتب سورى قدير آخر لم نناقشه نظرا لأنه عاش فى مصر لكنه كتب عن تاريخ السودان · وقد اعتبر بيتر هولت Peter Holt كتابه (تاريخ السودان) المنشور فى القاهرة ١٩٠٣ « عملا جيدا جدا فى الواقع » (٤٩) ·

ولشقير عمل آخر عن الصين وآخر رائع عن الأمثال العربية (٥٠) ·

وفى الجملة فان مساهمة السوريين المصريين فى اثراء الحياة الثقافية المصرية هى مساهمة قيمة · وعلى وجه العموم فانهم كانوا أكثر تفهما وتعاطفا مع الغرب من نظرائهم المصريين الوطنيين ، وقاموا بدور الطليعة لحركة التمدن · كانوا نشطين على وجه الخصوص فى الميدان الصحفى ، وساعدوا على نشر خطوط جديدة للتفكير بين قرائهم · وكان اسهامهم فى التاريخ المصرى هاما واستمر هذا الاسهام بعد الحرب العالمية الأولى بالدراسات التاريخية المفصلة لرجال مثل الياس الأيوبى · ومع هذا ، فانه مع هذا الوقت لحق المصرى القح بجاره السورى المتقدم فى المجال التعليمى ، وبذلك انتهت ذروة تألق السوريين المصريين ·

حواشي الفصل العاشر

(١) تستخدم كلمة (سورى) هنا من المنظور التاريخى والجغرافى ٠

(٢) سنركز فى هذا الفصل على الكتابات التاريخية لهؤلاء الرجال ٠ انظر الفصل الحادى عشر لمزيد من التفاصيل عن نشاطاتهم الصحفية ٠

(٣) الشيال « تاريخ الترجمة » ، ص ٧٣ ــ ٧٧ ٠ لمعلومات عن سوريين آخرين ممن شغلوا مناصب هامة فى عهد محمد على ، انظر نفس العمل ، ص ٨٣ ــ ٩٢ ٠

(٤) المعلومات مأخوذه من مقالة سلامة موسى "Intellectual Currents in Egypt" ص ٢٦٨ وعبد المحسن طه بدر « تطور الرواية فى مصر » ص ٣٧ ٠

(٥) تبدو ظاهرة مماثلة فى عمل شاروبيم القبطى ٠ انظر ص ١٣٤ ــ ٣٥ من الفصل السابع ٠

(٦) اللورد كرومر Earl of Cromer
"Modern Egypt" (New York : The Macmillan Company, 1909) II, 529.

ولقد كان اعجاب كرومر بارتين راجع جزئيا الى مصادقة أرتين على المشروع الحائز على مساندة البريطانيين باستبعاد اللغة العربية لصالح مزيد من اللغة الأجنبية فى نظام المدارس المصرية ٠ عبد الملك "L'Egypte moderne", pp. 360, 365.

(٧) كان يعقوب أرتين باحثا متفانيا وكتب بعض الدراسات العميقة التخصص ، ككتابة « السياق » الخاصة بالكتبة الأقباط المصريين ، انظر ن ٠ أ N.A.
Le Siyak en Egypte et en Turquie", Revue du Monde Musulman 30 (1915), 33.

وخط السياقت هو نوع من الكتابة التى كانت تستعمل بواسطة « المباشرين » فى الادارات المالية فى مصر العثمانية كديوان الروزنامة ٠ ولما كانت سجلات الايرادات والمصروفات من الوثائق التى لا يسمح بخروجها من الخزينة أو حتى اطلاع الآخرين عليها دون اذن خاص من الروزنامجى والوالى فان هذه السجلات كتبت بخط السياقت الذى طور من أجل الأغراض المالية ٠ اخترع هذا الخط من اللغة العربية وأدخل الى نظام العمل بالخزينة فى القرن السادس عشر الملادى بواسطة الناسخين الذين ارسلوا الى الخزينة من الباب العالى ، وقد جعل ايجاز والطبيعة العادية لهذه الكتابة ، جعل منها نموذجا للاستخدام فى المساحات المحدوده المتوفرة فى السجلات ، كذلك فان خلو هذا الخط من علامات التمييز العربية العادية ومخالفته للقواعد المعتادة فى تشكيل وربط الحروف العربة جعله مبهما للجميع باستثناء هذا النفر من الأشخاص الذين لقنوا أسرار تشكيله واستعماله ٠ هكذا أصبح هــذا الخط « السياقت » هو اسلوب الكتابة الشفرى فى السجلات المالية التى كان « المباشرون » الأقباط يستأثرون بالعمل فيها ، وبمضى الوقت أصبح هذا النوع من الكتابة يورث لأبناء هؤلاء المباشرين بحيث أصبحت وظيفة « المباشرين » هذه حكرا عليهم ٠

ردهاوس

Redhouse

Redhouse Turkish and English lexicon, p. 1099.

ستانفورد شو

S. Shaw

"The Financial and Adminis'rative Organization and Deve'opment of Ottoman Egypt, 1517-1798', Princeton University Press, 1962. p. 341.

المترجم

(٨) لم يكتب الا القليل عن حياة وأعمال يعقوب ارتن · انظر على سبيل المثال الشيال
"A History of Egyptian Historiography", pp. 64, 100.

قارن أحمد أحمد الحتة « مراجع تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على ١٨٠٥ ــ ١٨٤٨ » ، المجلة التاريخية المصرية ــ العدد الأول (١٩٤٨) : ٢٤٤ ــ ٤٥ ·

(٩) عن جرجس حنين راجع حاشية ٧١ من الفصل السادس وفيها أثبتنا أن الرجل لم يكن سوريا بل مصرى من الفيوم ·

المترجم

(١٠) عن حياة جلاد انظر الشيال « التاريخ والمؤرخون » ، ص ٢٢٨ · وعن أهمية كتاباته انظر الحتة « مراجع تاريخ الزراعة » ، ص ٢٤١ ·

(١١) جرجس حنين بك « الأطيان والضرائب فى القطر المصرى » (بولاق : المطبعة الكبرى الأميرية ، ١٩٠٤) ·

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٤ ·

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٢ ·

(١٤) المصدر نفسه ، ص ١ ــ ٩٧ ·

(١٥) يلقى جرجس حنين دون انتباه بعض الضوء على الطريقة التى كانت التقنيات الأوروبية تبدأ فى التأثير بها على شكل الكتابات التاريخية المصرية ، فهو يعلن بفخر واضح انه لكى يجعل الكتاب مقبولا للقراءة فقد ضمنه « فهرسين » : (١) ليحدد المواضيع المتعددة التى تحتويها الرواية و (٢) ليعدد عناوين الفصول المختلفة · المصدر نفسه ، ص ٥ · وفهرس حنين الثانى هو بالطبع ما نسميه الآن « قائمة المحتويات »
Tab'e of Contents

(١٦) شولش

Schölch

"Agypten den Agyptern", p. 304 n. 294.

(١٧) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ٢٨٧ ·

(١٨) سليم خليل النقاش « مصر للمصريين » (الاسكندرية : مطبعة المحروسة ، ١٨٨٤) المجلد الرابع ، مواضع متفرقة ، المجلد الخامس ص ٦٧ ــ ٩١ ·

(١٩) المصدر نفسه ، المجلد الرابع ، ص ٨٢ ــ ٨٨ وقد واكب هذه المطالب استنكار الوضع المتميز لقادة الجيش الأتراك ــ الجراكسة ·

شولش

Schölch

"Agypten den Agyptern", pp. 11, 161, 200 ff., 265.

(٢٠) النقاش « مصر للمصريين » ، المجلد الخامس ، ص ٧٣ ·

(٢١) المصدر نفسه ، المجلد السادس ، ص ٢٢

(٢٢) شيولش Schölch
"Agypten den Agyptern", pp. 160-61, 223, 242, 244, 246, 268.

(٢٣) النقاش « مصر للمصريين » ، المجلد السـادس ، ص ٩٧ ـ ١٠٥ ، ١٥٤ وما بعدها ، ٢٢٥ ـ ٢٧ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ١١ ـ ١٢ .

(٢٥) المصدر نفسه ، تمهيد ، تنبيه ، هذه الكلمات تقابل الى حد ما فى الانجليزية
(full Clarification), Course of events)

(٢٦) حتى عمل شولش Schölch "Agypten den Agyptern" والذى يعد أكمل دراسة عن الثورة العرابية في الوقت الحالي ، لا ينجح اطلاقا فى الحاق النقاش بأى حزب معين .

(٢٧) « كبير المؤرخين السوريين فى مصر » . الشيال « التاريخ والمؤرخون » ، ص ١٨٥ .

(٢٨) المصدر نفسه .

(٢٩) توماس فيليب Thomas Philipp
"The Role of Jurji Zaydan in the Intellectual Development of the Arab Nahda from the beginning of the British Occupation of Egypt to the outbreak of World War I" (Ph.D. dissertation, University of California at Los Angeles, 1971), p. 57.

وتعد دراسة توماس فيليب أحدث ما كتب عن جورجي زيدان . لمزيد من المعلومات عن حياة جورجي زيدان انظر رسالته المشار اليها ، ص ١٣ ـ ٧٦ .

قارن توماس فيليب Thomas Philipp

"Language, History, and Arab National Consciousness in the thought of Jurji Zaydan (1861-1914)", International Journal of Middle Eastern Studies 4 (1973) : 3-22;

أيضا انظر تعديل توماس فيليب لبحثه السابق الى مونوجراف monograph بعنوان

Gurgi Zaidan : His life and thought (Beirut : Orient — Institut der deutschen morgenlädischaft, 1979).

وفي هذه الدراسة يذكر المؤلف ان معاصرى جورجي زيدان المسلمين رفضوا اعتباره « مثقفا scholar" وانه ، كنتيجة لذلك ، فقد هجر دراسة التاريخ . المصدر نفسه ، ص ١١٨ .

(٣٠) كانت هذه هى الحالة الوحيدة للسجع في أى من عناوين جورجي زيدان ، والمبينة مرة أخرى أن مسالة السجع قد هجرت تماما مع بداية القرن العشرين .

(٣١) عنوان هذا العمل هو « كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامي الى الآن مع فذلكة في تاريخ مصر القديم » ـ الجزء الأول من الفتح الاسلامى الى آخر دولة المماليك الثانية وفى أوله فذلكه التاريخ القديم ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩١١ . أما الجزء الثانى فقد جاء فى عنوانه الجانبى (الجزء الثانى وهو يشتمل على تاريخ مصر من الفتح العثماني الى الآن أى فى عهد الدولة العثمانية وحملة بونابرت والدولة المحمدية العلوية أو الأسرة الخديوية ولا يزال) .

ولم أجد فى عنوان الكتاب أى اشارة الى كلمة « الجديد » . قارن الشيال « التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر » مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٥٨ ، ص ١٨٦ .

المترجم

(٣٢) هذه القائمة مأخوذة عن كتاب الشيال (التاريخ والمؤرخون) ، ص ١٨٥ ـ ٨٦ ، ومع هذا فان الشيال فاته أن يذكر عمل جورجى زيدان (تاريخ اللغة العربية » ، رقم ١٠ فى قائمتنا ، و (طبقات الأمم » رقم ١١ الذى لم أجد له تواريخ نشر ، عن الكتاب الأول انظر جورجى زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ٣٢٥ . أما العمل الثانى فقد ذكره توماس فيليب Thomas Philipp فى عمله "Gurgi zaidan", p. 229 ولقد كانت الأعمال الكاملة لجورجى زيدان كبيرة الى حد انه لا يوجد اتفاق على العدد الكلى لها .

(٣٣) أو طبقا لتوماس فيليب فقد صدرت بمعدل عمل واحد كل عام من ١٨٩١ فصاعدا .

انظر فيليب Philipp
"The Role of Jurji Zaydan", p. 56.

(٣٤) جورجى زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ١٥٧ ـ ٨٣ .

(٣٥) الدسوقى « فى الأدب الحديث » ، الجزء الأول ، ص ٣٨٥ ، ويستشهد فيليب Philipp بفكرة شيخو Cheikho والتى يرى أنها غير عادلة . فيليب Philipp
"The Role of Jurji Zaydan", p. 62.

ومع هذا ففى كتابه الحالى لا يذكر توماس فيليب شيئا عن « عدم العدالة » ويعترف بانه ، فيما عدا المجلد الرابع فان الكثير من « تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجى زيدان مأخوذ مباشرة من بروكلمان Brockelmann

فيليب philipp
"Gurgi Zaidan," p. 227-29.

(٣٦) فيليب . Philipp
"The Role of Jurji Zaydan", p. 127.

وفى فرضيته المبكرة فقد حاول فيليب بوهن ان ينقد شيئا من أصالة جورجى زيدان وذلك بالاشارة الى أنه رفض :

١ ـ رأى فون كريمر Von Kremer عن نهائية التدهور العربى .

٢ ـ ونظريات لوبون Le Bon العرقية . المصدر نفسه . لكن فيليب عاد مرة أخرى فى كتابه الأخير وأوقف محاولة انتقاد جورجى زيدان ، حيث اعترف بانه « قد يكون من الصعب القول بأن لعمل جورجى زيدان أى جدارة ثقافية » . ومضى يقول ان دراسات جورجى زيدان فى التاريخ العربى والأدب تكيفت بأعمال المستشرقين الغربيين ، وحدد « طبقات الأمم » كأحد الأعمال المشابهة كثيرا لعمل كين Keane
"The World's People"
فيليب Philipp
"Gurgi Zaidan", p. 229.

(٣٧) غربال « مصادر الالهام عند بعض المؤرخين » ، ص ٤٤ .

(٣٨) جب
Gibb
"Contemporary Arabic literature", p. 759.

(٣٩) جورجى زيدان « كتاب تاريخ مصر الحديث » (القاهرة : مطبعة الهلال ، ١٩٢٥) ، المجلد الأول ، ص ٤ • ولابد أن هذه هي الطبعة الثالثة ، وهو ما يدل على الشعبية التى تمتع بها الكتاب • ووفقا لفيليب فان الطبعة الأولى ظهرت عام ١٨٨٩ ، وظهرت الطبعة الثانية عام ١٩١١ • وقد نطمب الطبعة السابقة طبقا للحكام والأسر الحاكمة ، لكن جورجى زيدان أضاف فى طبعة ١٩١١ فصولا عن الاصلاحات التعليمية الاقتصـــادية والنهضة •

فيليب
Pilipp
"The Role of Jurji Zaydan," p. 127.

ربما كان فيليب يقصد بالاصلاحات التعليمية والاقتصادية ذلك الفصل الذى خصصه جورجى زيدان عن الاحتلال البريطانى ، والذى رسمه وخططه بتعجل • وقد اخذت كلمات فيليب على علاتها من حيث ان الكتاب ظهر أولا عام ١٨٨٩ ، رغم أن الشيال يقول أن عام ١٩١١ هو تاريخ أول طبعة • انظر ص ١٩٢ من الفصل العاشر •

وقد ذكر جورجى زيدان فى مقدمة الطبعة الثانية من كتابه « تاريخ مصر الحديث » أن الطبعة الأولى منه قد ظهرت عام ١٨٨٩ • كما أن تاريخ الطبعة الثانية هو عام ١٩١١ •

وقد ذكر الشيال فى ص ١٨٦ من كتابه « التاريخ والمؤرخون فى مصر القرن التاسع عشر » ان اسم الكتاب هو « تاريخ مصر الجديد من الفتح الاسلامى الى الآن » ، وذكر ان تاريخ طبعه هو ١٩١١ • قارن الحاشية ٣١ من هذا الفصل ، وص ٧ من الجزء الأول من الطبعة الثانية من كتاب تاريخ مصر الحديث الصادرة عام ١٩١١ •

المترجم

(٤٠) يقرر فيليب أن آمال جورجى زيدان تحققت فيما بعد عندما قرر الكتاب للتدريس فى المدارس المصرية • ومع هذا فانه لا يقدم مع الأسف أى تفاصيل عن ذلك •

فيليب
Philipp
"The Role of Jurji Zaydan", p. 51.

(٤١) لابد أن الأجزاء الفرعونية قد الحقت بطبعة ١٩٢٥ حيث ان عنوان طبعة ١٩١١ (١٨٨٩ ؟) يقرأ (من الفتح الاسلامى الى الآن) ، كما ان كلمة (الجديد) قد غيرت الى (الحديث) فى طبعة ١٩٢٥ • انظر ص ١٩٢ من الفصل العاشر •

والواقع ان عنوان طبعة ١٩١١ يقرأ (من الفتح الاسلامى الى الآن مع فذلكة فى تاريخ مصر القديم) • فى هذه الطبعة خصص جورجى زيدان الصفحات ٩ ـ ٦٦ لتاريخ مصر القديم ، فكتب عن مصادر تاريخ مصر القديم ، جغرافية مصر القديمة ، ديانة المصريين القدماء ، الدولة الملكية القديمة ، الدولة الملكية الوسطى ، الدولة الملكية الأخيرة ، الدولة الرومانية • أما كلمة (الحديث) فهى واردة فى عنوان الطبعة الصادرة عام ١٩١١ • ويبدو أن جورجى زيدان لم يذكر كلمة « الجديد » فى عنوان طبعة ١٨٨٩ أيضا • ذلك انه ذكر فى « فاتحة الكتاب للطبعة الأولى » والمنشورة فى طبعة ١٩١١ أن عنوان الطبعة الأولى هو « تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامى الى هذه الأيام » • وعلى ذلك فانه

لا يوجد أى ذكر لعنوان « تاريخ مصر الجديد من الفتح الاسلامى الى الآن » في أى من طبعات هذا الكتاب •

انظر جورجى زيدان « كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامى الى الآن مع فذلكة فى تاريخ مصر القديم » ، الجزء الأول من الفتح الاسلامى الى آخر دولة المماليك الثانية وفى أوله فذلكة التاريخ القديم ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩١١ ـ ص ٥ •

المترجم

(٤٢) « تاريخ مصر الحديث » ـ الجزء الأول ، ص ٧٧ ـ ٧٩ •

(٤٣) فيليب

Philipp
"The Role of Jurji Zaydan," pp. 341, 367.

قارن فيليب

Philipp
'Gurgi Zaidan", p. 119.

ولأن كل الأبطال فى روايات جورجى زيدان لم يكونوا عربا أو سنيين فان عبد المحسن طه بدر ينتهى الى أن جورجى زيدان كان ضد العرب • لقد كان جورجى زيدان فى الواقع مدافعا مخلصا لسمنه المميزة من « العروبة الغير اسلامية » ، وكان غير مستريح لميل المصريين الى النظر الى (العروبة) كشىء مرتبط بالاسلام بدلا من ان يكون منفصلا عنه •

Ibid., 94-95, 100, 102, et passim.

(٤٤) « تاريخ مصر الحديث » ، الجزء الثانى ، ص ١٦٧ ـ ٧٢ •

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ٢٠١ ـ ٢ •

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣٧ ، ٣٤٥ ـ ٥٢ •

(٤٧) وهذا الهدف واضح من المقدمة ، انظر لزاخورا « مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال » (القاهرة ، ١٨٩٧) ص ٦ ـ ٧ •

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٩٩ ـ ١٢٤ •

(٤٩) ب • م • هولت

"The Coming of the Funj", Studies in the History of the Near East (London : Frank Cass and Co. Ltd., 1973), p. 81.

(٥٠) الشيال « المؤرخون السوريون فى مصر » ، ص ٦٤ •

الفصـــل الحادى عشر :

مصر فى مستهل الاحتراف

لم يكن الجبرتى هو المؤرخ المصرى الوحيد من مؤرخى القرن التاسع عشر الجدير بالاعتبار • لم يقف وحده فى الميدان بل كان له الكثير من المكملين النبهاء ، الذين اسهموا فى تقدم افضل لعلم التاريخ • ولم يكن على مبارك ، ومصطفى كامل والشخصيات الأخرى التى ناقشناها فى الفصول السابقة موضع اهتمام لكونها كتاب تاريخ فقط ـ وهو دور كان فى اغلب الاحــوال ملحقا لكثير من نشــاطاتهم الاخــرى ـ ولكن لانهم كانوا ممثلين لحقبتهم ومرايا لمجتمع سريع التغير أيضا • ولقد كشفت لنا حياتهم وكتاباتهم عن كيفية تطور التأريخ المصرى خلال القرن التاسع عشر ، لكن ما هو أكثر أهمية من هذا كان جعلهم استرداد بعضا من نكهة عصر بأكمله ممكنا •

وفى هذا الفصل سنحاول رسم خيوط التاريخ المصرى فى القــرن التاسع عشر ومن ثم تقييم طبيعة ومدى التحــول الوطنى الذى وقــع بين ١٧٩٨ ـ ١٩٢٢ • وسنحتاج الى مراجعة العديد من العناصر ذات الصلة ـ كنظام التعليم الرســمى ـ التى لعبت دورا حيــويا فى بــث المعــرفة التاريخية وتوصيلها للشعب • فتطور الصحافة ، وتكاثر جمعيات المتعلمين والجهود الرائدة البحثية للدوائر الأوروبية الاستشراقية على سبيل المثال، كان لها جميعا أثر ضخم على الكتابة التاريخية والجهود الفكرية بصــفة عامة ، وسيناقش كل من هذه العناصر فى دوره • وسننهى دراستنا بالقاء نظرة أشمل على المجتمع المصرى ورؤية كيف ان التغيرات العميقة التى تعقبناها فى التقنيات التأريخية خلال القرن التاسع عشر لم تكن ســوى اعراضا لما كان يحدث للبلاد بصفة عامة • كان مد التغريب قد أصــبح صعب الايقاف ، وكان التأريخ ، مثل أى مظهر آخر للحياة الفكرية ، قــد انجذب هو أيضا مع التيـــار •

ورغم العقبات الكثيرة التى واجهت الدراسات التاريخية فى القرن

التاسع عشر ، فان مصر أنجبت مجموعة مدهشة من الكتاب الذين كانت قدراتهم تتحسن مع كل جيل • ولم يتلق أيا منهم راتبا أو حتى تشجيعا لكتابة التاريخ ، وحتى أولئك الذين حصلوا على شيء من ذلك ، فعلوا ذلك في ظل متاعب ومصاعب لا يمكن للمارسين الغربيين المعاصرين أن يحتملوها • فالأرشيفات – اذا اخذناها كمجرد مثال – كانت اما غير موجودة أصلا واما في حالة من الفوضى والاضطراب الكامل في وقت كانت مهمة تجميع المادة المصدرية التاريخية تجرى في أوروبا منذ وقت طويل لدرجة أن مجموعات هائلة من الوثائق كانت متوفرة في خمسينيات القرن التاسع عشر (١) • في ١٩١٢ نشر فريدريش دالمان Friedrich Dahlman كتالوجا كاملا لكل كتاب ظهر في التاريخ الألماني الحديث باللغة الألمانية ، وكان دالمان يتقدم في ذلك الوقت بمسافة قليلة جهودا بحثية مماثلة في فرنسا وبريطانيا العظمى (٢) • ولا حاجة الى القول ان مثل هذه الانجازات كانت تبدو عند المؤرخ المصرى فوق التصور •

لقد فاقت المعوقات الأساسية للكتابة في مصر القرن التاسع عشر أهواء الحكام ، الافتقار الى نظام تعليمي حديث والحاجه الى مكتبات جيدة الترتيب مساعدة على الاطلاع ، مؤسسات أرشيفية منتظمة، وتوافر التمويل للبحث • وكان التحسن في كل هذه المجالات أمرا لا غنى عنه لمستقبل التاريخ ، وكما رأينا قد كان تقدم مصر في هذه الاتجاهات عظيما • لكنه كان من الضرورى أيضا خلق مناخ جديد للرأى في البلاد وايقاظ الوعي بالتاريخ في الأوساط المتعلمة • لقد كان فوز التاريخ في النهاية بموضع محترم في مناهج المدارس المصرية تقدما كبيرا في حد ذاته ، رغم أن النجاح العام في المعرفة التاريخية كان أشمل من ذلك ولا يمكن قياسه على مستوى المنهج المدرسي فقط •

من الصعب التفكير في عائق أساسي للكتابة التاريخية (ولأى كتابة) أكثر من عدم توافر المطبعة ، ولقد كان هذا على وجه التحديد هو نوع العائق الذى واجهه التاريخ في مصر خلال القسم الأكبر من القرن التاسع عشر • ولم تحصل مصر على أول مطبعة حتى عام ١٨٢١ – مطبعة بولاق، التى أصبحت أكبر مطبعة عربية في العالم (٣) • ولقد كان مصنع الورق شيئا لازما لطبع الكتب ، ومع هذا فان مصنع الورق المصرى لم يصبح جاهزا قبل ١٨٣٤ – ١٩٣٥ (٤) • ولم تحصل مصر القبطية على مطبعتها الأولى قبل ١٨٦٠ ، ويعود تاريخ المطبعة الاسلامية الخاصة – التى استخدمت لطبع جريدة « وادى النيل » وجريدة الطهطاوى « روضة المدارس » الى عام ١٨٦٦ • ولم تتحسن الأمور الا في نهايات القرن التاسع عشر عندما تكاثرت المطابع الى حد صعوبة اجراء حصر لها (٥) •

لم يفد الانشاء النسبى المبكر لمطبعة بولاق الكتابة التاريخية لدرجة كبيرة ، حيث أنها ظلت منشغلة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بأكمله باخراج الكتب التكنيكية والعلمية (٦) • ولم تتراخى هذه السياسة الا خلال عهد اسماعيل ، وبدأت بولاق منــذ ذلك الوقت فى طبــع كتب التاريخ ، اللغة ، الأدب ، والدين ، الى جانب الأعمال التكنيكية • ويرجع تاريخ أغلب طبعات بولاق فى اللغة العربية الكلاسيكية الى الثلاثين عاما الأخيرة من القرن التاسع عشر (٧) •

وما أن حصلت الطباعة على دفعتها الضئيلة حتى كان الدور الذى لعبته فى نشر المعرفة التاريخية أكثر حيوية من نظـــام التعليم الرسمى نفسه • تعرفت مصر على (الصحف) لأول مرة خلال الاحتلال الفرنسى عندما نشرت Ia decade égyptienne و Le courrier de l'Egypte, ضمت الأولى نتائج أعمال المجمع العلمى الفرنسى بينما كانت الجريدة الثانية المتحدث الرسمى للنظام الاحتلالى • ومع هذا ، فقد كانت كلتاهما باللغة الفرنسية ولم تحصلا على اهتمام يذكر من جانب القارىء المصرى • ولا يوجد أى ذكر لأى من الصحيفتين فى تاريخ الجبرتى (٨) •

كانت أول صحيفة مصرية باللغة العربية هى الجريدة الرســـمية (الوقائع المصرية) التى تأسست عام ١٨٢٨ بأمر من محمد على (٩) • وقد صدرت أصلا بالتركية ، ثم أخذت فيما بعد شكلا تركيا ـ عربيا فى لغتها وفى النهاية تقلصت التركية تماما • وقد ظلت هذه الصحيفة تعمـل حتى فترة قريبة للغاية ، ولا توجد أى صحيفة عربية تستطيع أن تنـافس الوقائع المصرية فى طول عمرها • وحيث أنها كانت على مدى عمرها شيئا يتبع البلاط الملكى فان فائدتها وجاذبيتها الشعبية كانت ضعيفة منــذ البداية • وقد أرسى محمد على نفسه القاعدة فى هذا المقام ، حيث لـم يسمح لأى موضوع بأن ينشر دون رقابة حكومية صارمة مسبقة (١٠) •

حتى عام ١٨٦٣ لم يكن لمصر سوى صحيفة واحدة ، وحتى خلال عهدى عبـــاس الأول وســـعيد كانت « الوقائع المصرية » تضـــطر الى الاحتجاب (١١) • ومن مثل هذه البدايات انطلقت الصحافة المصرية الى أوج ازدهارها فى عهد اسماعيل وعهد الاحتلال البريطانى •

ظهرت صحف كثيرة فى عهد اسماعيل ، رغم أن أغلبها كان قصير العمر اما بسبب المصاعب المالية أو بسبب استجلابها سخط الخديو • كانت أولى هذه الصحف « اليعسوب » ، وهى صحيفة شهرية طبية يعود تاريخها الى عام ١٨٦٥ • وكانت أول جريدة سياسية هى « وادى النيل » لأبو السعود ، والتى فازت بما كان يعتبر فى زمانها أطـــول فترة ظهور

نسبية وهى ثلاثة عشر عاما (١٨٦٦ ـ ١٨٧٨) (١٢) • وخلال عهد اسماعيل والسنوات المبكرة للاحتلال كانت أكثر دور النشر أهميه هى تلك المملوكة للمهاجرين السوريين الذين اندفعوا الى مصر فى اعداد كبيرة وسعوا الى الحصول على الاحتكار الفعلى للصحافه المصرية • كان اسماعيل يريد جذب المفكرين العرب الى بلاده ، وشجع السوريين فى هذه الجهود • كانت أول صحيفة سورية ـ مصرية هى (الكوكب الشرقى) التى تأسست عام ١٨٧٣ فى الاسكندرية ، لكنها لم تعمر طويلا • وتأسست الصحيفة الأكثر شهرة (الأهرام) عام ١٨٧٦ على يد سليم وبشارة تقلا، وكلاهما تلميذ لبطرس البستانى، وأصبحت الجريدة فىالنهايه تعرف بتايمز الشرق الأوسط Times (١٣) • شارك أديب اسحاق وسليم النقاش فى اقامة (المحروسة) فى الاسكندرية عام ١٨٨٠ ، ثم ظهرت فيما بعد فى القاهرة أيضا كجريدة يومية• وكانت (المقتطف) جريده سوريه اخرى طويلة العمر نسبيا ، ظهرت أصلا فى بيروت عام ١٨٧٦ ، ونقلت الى القاهرة بعد عشر سنوات تحت رآسة يعقوب صروف وفارس نمر • وبدأ شبلى شميل فى نشر (الشفاء) عام ١٨٨٦ ، وأصدر أخاه أمين (الحقوق) خلال نفس العام • وحققت مجلة (الهلال) الناشئة عام ١٨٩٢ على يد جورجى زيدان نجاحا ساحقا (١٤) •

اذا استخدمنا الأعداد فقط بصورة محضة فان تقدم الصحافة المصرية فى عهد اسماعيل وخلال سنوات الاحتلال خاصة كان مذهلا • أزدهرت الصحافة فى عهد اسماعيل رغم أنفه ، حيث أنه سعى مثل جده الشهير الى استخدام يده الثقيلة ضد أى صحفى يحيد عن الخط المرسوم (١٥) • ومع هذا ، فان البريطانيين أيا كانت أخطائهم الأخرى اعطوا مصر أكبر قدر من حرية الصحافة عرفته فى تاريخها (١٦) • فعندما جاء اللورد كرومر الى مصر عام ١٨٨٢ ، كانت هناك حفنة من الصحف لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، وفى عام ١٩٠٤ (قبل اعتزاله بثلاث سنوات) كان بالقاهرة وحدها ١٧٦ صحيفة (١٧) • كان لكل حزب سياسى جريدته الخاصة ، وكان قد مضى وقت طويل على سبق صحافة القاهرة لأى مدينة أخرى فى الشرق الأوسط •

وخلال الفترة ١٨٩٢ ـ ١٩٠٠ وحدها ، كانت حوالى ١٥٠ جريدة ودورية تصدر وهو ما يوازى القدر الذى صدر على مدى الأعوام الثلاثة والستون السابقة (١٨) • كانت اغلب الصحف فى ذلك الوقت قد أصبحت فى أيد مصرية وكان قد تم كسر الاحتكار السورى للصحافة •

استمرت الصحافة المصرية فى الازدهار حتى عام ١٩١٠ ، عندما أقنعت « تجاوزات » بعض الصحف (كاللواء) الى جانب اغتيال (بطرس غالى)، اقنعت سير الدون جورست Eldon Gorst بضرورة تقليص بعض الحرية الممنوحة للصحافة (١٩) • ظلت الرقابة فعالة خلال سنوات الحرب ، لكن الصحافة استأنفت سيرها المتقدم فى أعقاب استقلال عام ١٩٢٢ • فى عام ١٩٢٦ بلغ تعداد سكان مصر حوالى ١٤ مليونا كان المتعلمون منهم أقل من مليون • وربما كانت الصحافة قد توسعت أكثر من اللازم لمثل هذا العدد القليل من الجمهور الذى يقرأ : فقد كان بالبـعد ما لا يقل عن أربعمائة صحيفة ومجلة نقدية من مختلف الأنواع (٢٠) •

كان النمو الظاهرى للصحافة يمثل مضمونين هامين للدراسات التاريخية : أولا ، مع نهاية القرن التاسع عر كانت الصحافة قد أصبحت طليعة حركة ضخمة من الاختمار الفكرى التى مست كل مظاهر الحضارة المصرية :

« تميزت الثلاثون عاما التى أعقبت الاحتلال البريطانى بتطور سريع مذهل فى الأسس المادية للآداب • فقد تناقض ازدهارها وتوسعها الاقتصادى والحرية النسبية للتعبير التى تمتعت بها مصر ، تناقض هذا مع النظام المتزايد القمع فى سوريا ، وهذا أعطى مصر أولية لا تبارى فى العالم العربى • وتدفق عليها المثقفون ، الأدباء والصحفيون من سوريا، وباتحاد القطبين المكملين لبعضهما لم يعد هناك سبب للعجب من ظهور نتاج وفير من الجرائد ، الجمعيات والمطابع فى كل مكان ، يتوفر لها من المادة ما يجعلها فى نشاط دائم » (٢١) •

وهكذا فان الصحافة كانت تنشر بذور المعرفة فى كل المجالات ، ولم يستثنى التاريخ منها • فقد حمل جورنال (كروضة المدارس) مقالات ذات اهتمام تاريخى ، وظهرت فيه ترجمة الطهطاوى للرسول عليه الصلاة والسلام فى شكل حلقات متتابعة أصلا (٢٢) • ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت المقالات التاريخية فى الصحف والجرائد قد أصبحت أمرا معتادا ، وأصبح الكثير من المؤرخين مثل جورجى زيدان ومصطفى كامل صحفيين نشطين أيضا • نشر جورجى زيدان فى جريدة (جنان) القاهرية تاريخا للحرب الفرنسية ــ البروسية ، وفى عام ١٩١١ صدرت هذه الدراسة كمجلد منفصل (٢٣) ، ونشرت صفحات (الهلال) ، (اللواء) ،(الأهرام) مقالات عديدة ذات طابع تاريخى •

وهناك خدمة أخرى قدمتها الصحافة المصرية للتاريخ (وفى الحقيقة للمهن الأدبية بصفة عامة) ، وهى تطور الأسلوب المؤدى الى الكتابة التاريخية الحديثة• لقد ناقشنا هذا الموضوع بالفعل وبالتفصيل ورأينا كيف

ان المؤرخين المصريين ناضلوا على مدى القرن التاسع عشر لايجاد أسلوب مقبول · وقد ذكر مصطفى كامل وقاسم أمين فى فترة مبكرة باعتبارهما نصراء لما يسمى بالأسلوب المباشر فى الكتابة (٢٤) ، لكنهما لم يكونا الوحيدين المهتمين بالاصلاح اللغوى · فقد كان الطهطاوى مبتدعا أسلوبا هاما أيضا (٢٥)، كما كان محمد عبده الذى أصر كمحرر (للوقائع المصرية) على ضرورة الاهتمام بالأسلوب (٢٦) · ومع نهايات القرن التاسع عشر نشأ أسلوب هادىء واكثر واقعية يمكن ملاحظته فى كتابات رجال امثال بشارة تقلا وجورجى زيدان (٢٧) ·

رغم انه يحتمل أن تكون الصحافة قد قدمت أعظم اسهام فى تقديم التاريخ لجمهور أعرض ، الا أن الأعداد الكبيرة من المؤسسات السياسية التعليمية ، والخيرية التى ظهرت فى أواخر ثمانينيات القرن التاسع تستحق الذكر · وقد عمل وجود جمال الدين الأفغانى فى مصر من ١٨٧١ الى ١٨٧٩ كحافز لمثل هذه التنظيمات ، وتكاثرت بسرعة خلال وبعد الفترة العرابية (٢٨) ·

ورغم أن الكثير من هذه الجمعيات لم تكن مكرسة كلية للتاريخ ، فانها كانت مع ذلك مهتمة بالبحث التاريخى الى جانب الهدف العام بزيادة الوعى التاريخى بين الناس على الأقل · ربما كانت أكثر الجمعيات ذات التوجه البحثى أهمية هى (الجمعية الجغرافية الخديوية) المؤسسة عام ١٨٧٥ · وكما يستدل من اسمها فقد كان عملها الأساسى هو الجغرافيا ، لكنها قدمت أيضا دراسات قيمة فى التاريخ المصرى · وقد مولت (جمعية المعارف) المؤسسة عام ١٨٦٨ تحت ادارة ابراهيم المويلحى طباعة كتب هامة فى التاريخ، الجغرافيا والشريعة الاسلامية مثل كتاب (أسد الغابة) · وقد نظمت (الجمعية الخيرية الاسلامية) المؤسسة فى الاسكندرية عام ١٨٧٨ والتى رأسها عبد الله النديم لقاءات مسائية دارت فيها مناقشات حول موضوعات تاريخية وعلمية · وتأسست (شركة طبع الكتب العربية) عام ١٨٩٨ وشارك فى عضويتها أعضاء مشهورين كأحمد تيمور وعلى بهجت · طبعت هذه الشركة من بين ما طبعت كلاسيكيات تاريخية (كفتوح البلدان) للبلاذرى ، وترجمة لصلاح الدين · وأخيرا ، فان هناك (نادى المدارس العليا) الذى فتح أبوابه عام ١٩٠٥ على يد مصطفى كامل لترقية الصلات (وعرضيا ، المقاومة الوطنية للبريطانيين) بين خريجى المعاهد المصرية العليا · وقد رعى هذا النادى محاضرات وخطب فى كل الميادين لكن التاريخ والأدب فازا بنصيب كبير · وطبقا للرافعى الذى كان فى ذلك الوقت تابعا شابا لمصطفى كامل ، فان الكثير كان يمكن تحصيله عن التاريخ المصرى من هذا النادى وليس من أى دراسة رسمية للموضوع (٢٩) ·

كانت الصحافة ، نظام المدارس ، والأعداد المتزايدة من الاتحادات المشتركة من كل الأنواع ـ كانت كلها تساعد على حفز الاهتمام بالتاريخ وبسط الموضوع لجمهور أعرض • وكانت الفرص للدارس المتقدم أكبر بكثير مماكان قبل ذلك ، ولم يعد هناك ضرورة لتحمل رحلة شاقة مرهقة ومكلفة الى أوروبا ، كما فعل الطهطاوى من أجل التعرف على الدراسات الأوروبية الأكثر حداثة • ومع نهاية فترتنا ، كان كافيا أن يتصفح المرء الكتب فى سوقها بالقاهرة ، والتى حوت أكثر الأعمال الأوروبية المعروفة فى التاريخ الاسلامى الى جانب النصوص العربية المحققة بواسطة أوروبيين أمثال كاترمير Quatremère ، ويستنفلد Wüstenfeld ، بيكر Becker ، لوبون le Bon ، سيديلوت Sedilot ، ديجوج de Goeje ومارجوليوث Margoliouth (٣٠) • وكان مستشرقون أوربيون مشهورون أمثال اجنازيو جويدى Ignazio Guidi وكارلو الفونسو نللينو Carlo Alfonso Nallino يدرسون فى ذلك الوقت فى الجامعة المصرية • (جويدى Guidi ، من عام ١٩٠٦ الى عام ١٩١٤ و نللينو Nallino من عام ١٩٠٩ الى عام ١٩١٢) (٣١) • وعلم انجيلو ساماركو Angelo Sammarco التاريخ الاسلامى فى الليسيه الايطالية من عام ١٩٢٢ فصاعدا كما كان جزءا من جهد التجميع ـ الوثائقى الذى نظمه الملك فؤاد (٣٢) • وكان علماء ألمان أمثال ليتمان littmann ، برجشتراسر Bergstrasser ، شاخت Schacht • فنكلر Finkler وجراومان Graumann أعضاء فى أوقات مختلفة فى كلية الآداب بالجامعة المصرية ، ولم يجلس فى فصول ليتمان littmann أحد غير طه حسين (٣٣) •

اذا ما تمعنا فى الصورة الكلية ، فلن يكون هناك ما يدهش اذا علمنا أن التاريخ المصرى قد انطلق حقيقة بعد عام ١٩٢٢ • فقد كانت البلاد مزودة وبشدد بما كان يعتبر وفرة وتخمة من المطابع ، دون أن تعانى نقصا • وكان نظام التعليم يطور الى أقصى حد ، وكان التاريخ قد منح مكانه الملائم فى اطار هذا النظام • وحملت وفرة من الصحف ، المجلات ، والجرائد مقالات ذات أهمية تاريخية على أسس يومية ، وكانت الاتحادات المشتركة نشطة أيضا فى ترقية الوعى التاريخى • ونضج التاريخ المصرى نفسه الى درجة كبيرة وتطور الى حد خروجه من يد الهواة • أصبح التاريخ الزمنى الاسلامى ميتا فيما يتعلق بكل الأغراض العملية ، وتحول المصريون بدلا عنه الى نوع جيد التوثيق وتحليلى من التاريخ كان يعتبر فى هذه المرحلة المبكرة « غربيا » • وهذا بدوره وضع المصريين فى مواجهة مشكلة الانحياز فى الكتابة التاريخية ـ وهى مشكلة لم يكن الغرب نفسه قد وجد حلا حقيقيا لها ، رغم أنه كان قد صارعها طويلا وكان بالتالى أفضل قدرة

على فهم طبيعة الصعوبة • ومع ١٩٢٢ كان الغرض من الكتابات المصرية التاريخية قد أصبح متجها على الاكتشاف حسب الاحوال كما يبدو فى عمل ميخائيل شاروبيم ، سرهنك ، جورجى زيدان بل وحتى مصطفى كامل ، الذى كان مع ذلك ينقب – بطريقته المسلم بافتقارها الى الاتقان – خلال السجل التاريخى عن الدليل الذى يدعم المطالب الوطنية لمصر والامبراطورية العثمانية • أخيرا ، وفى المجال الأسلوبى ، فان المصريين كانوا قد هجروا المحتوى غريب المنشأ ، والقصة المبسطة ، والازدهار الشعرى المستخدم فى الازمنة السابقة – كانوا قد هجروا هذا كله تماما ، واختاروا بدلا منه شكلا مفاهيميا مصقولا مما كانت الدوائر الصحفية تشير اليه « بالأسلوب المباشر » • وعلى ذلك فان التأريخ المصرى كان يتحول الى تاريخ « حديث » بكل ما تحمله الكلمة من معنى • فقط فان (الاحتراف) كان لا يزال مفقودا ، ولم يأت الا بعد الاستقلال فى عام ١٩٢٢ •

لم تكن التغيرات التى مر بها التأريخ خلال القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين أكثر من جزء مكمل لحركة التطور التى اصابت المجتمع المصرى بصفة عامة • فمع نهاية الفترة موضوع الدراسة لم تعد المعرفة والاعجاب بالأساليب الغربية مقصورة على صفوة البلاط الحاكم، أو محل سخرية واحتقار من جانب الشعب فى مجموعه • ولم يعد ما هو طهطاوى معتبرا تحولا خطيرا ، بل الأصح هو مصطفى المنفلوطى (١٨٧٦ – ١٩٢٤) – الذى برفضه طول حياته استخدام اللباس الغربى واعادة توجيه المصريين نحو التقاليد الثقافية المحلية ، اعتبر شيئا شاذا (٣٤) • كان « المستغربون » قد أصبحوا هم القاعدة والتقليديون traditionalists هم الاستثناء •

ارتفع عدد الأوروبيين المقيمين فى مصر بانتظام على مدى القرن التاسع عشر • وفى المجالات التقنية كان على مصر أن تعتمد على رجال مثل هؤلاء منذ عهد محمد على (٣٥) ، لكن خلال عهد اسماعيل كان تقنيون أكثر يجندون من الغرب ، وانفتحت البلاد على مصراعيها للتأثير الغربى فى مجالات غير تقنية أيضا (٣٦) • فى عام ١٨٧٨ كان ٦٨٫٦٥٣ أوروبيا يعيشون فى مصر • فى عام ١٨٨٢ ارتفع هذا الرقم الى ٩٠٫٨٨٦ وارتفع الى ١١٢٫٥٢٦ فى عام ١٨٩٧ • ولما كان هؤلاء الأجانب يتركزون فى المدن الكبرى وكانوا فى أغلب الأحوال يتولون مناصب عالية فان تأثيرهم تجاوز عددهم (٣٧) •

مع نهاية القرن كانت معرفة لغة أوروبية أو أكثر قد أصبحت أساسية لكل مصرى « متعلم » • ومنذ عهد محمد على كانت مصر تستمد أغلب

وحيها الثقافى من فرنسا ـ وهو حالة من الأمور تغيرت تدريجيا فى ظل قنصلية كرومر وخلفائه فى نهايات القرن التاسع عشر (٣٨) • سعى الاحتلال عن عمد للارتقاء بوضع اللغة الانجليزية من خلال سلسلة من الاجراءات كان أولها قرار على مبارك عام ١٨٨٨ بأن يكون تعليم العلوم الطبيعية ، التاريخ والجغرافيا بالفرنسية أو الانجليزية بدلا من العربية • فى عام ١٨٩١ اشترط على مبارك أن تعلم الرياضيات فقط بالعربية ، وفى عام ١٨٩٧ استبعدت هذه المادة أيضا من الجزء العربى من المنهج • وفى الواقع فان كل مادة كانت تدرس بالفرنسية أو الانجليزية من ١٨٩٧ وحتى ١٩٠٧ عندما حول سعد زغلول متزعما « برنامجا جديدا للتعريب » كل المواد ما عدا العلوم الطبيعية ، التاريخ والجغرافيا الى اللغة العربية مرة أخرى • وتلقت اللغة الفرنسية ضربة موجعة على يد سعد الذى رأى أن معرفة الانجليزية قد أصبحت أساسية بصورة مطلقة لكل من يرغب فى العمل فى الحكومة أو التجارة ومشروعاتها (٣٩) •

ورغم هذه الاجراءات ووجود الاحتلال ، فان اللغة الفرنسية ظلت متماسكه حتى القرن العشرين • وكانت لا تزال متسيدة حتى أيام التعليم القانونى لمصطفى كامل (٤٠) • وكانت واحدة من اللغات الرسمية الثلاث مع العربية والايطالية فى المحاكم المختلطة حتى عام ١٩٠٥ عندما كسب كرومر موافقة القوى الأوروبية على ضم الانجليزية الى هذه اللغات على قدم المساواة • ومع هذا فان أول حكم بالانجليزية لم يصدر الا عام ١٩١٣ (٤١) • فى عام ١٨٩٢ أكد ويلفريد بلنت Wilfrid Blunt أن قدرة مصرى على التحدث بالانجليزية بالاضافة الى الفرنسية كانت تعد « انجازا فذا » (٤٢) • وحتى فى عام ١٩٢٦ كان الالتحاق بمدارس اللغات الفرنسية فى مصر يصل الى أكثر من ٤٢٫٠٠٠ وكان أعلى من أى معدل التحاق بأى من المؤسسات ذات اللغات الأجنبية (٤٣) • وقد استمرت الجهود للهروب من ضرورة تعليم اللغة الأجنبية لما بعد الحرب الأولى ، ولكن نظرا للنقص فى المعلمين المؤهلين وفى المواد التى تقرأ بالعربية ، فان هذه المبادرات لم تحظ بكثير من النجاح • وفى عام ١٩٢٨ شكا مدير الجامعة المصرية أحمد لطفى السيد من أنه قد أصبح مستحيلا جعل العربية لغة التعليم الرسمية فى الجامعة ، باستثناء كلية الحقوق وعلى نطاق محدود (٤٤) •

من عهد الخديو اسماعيل فصاعدا ، كان وجه مصر الكلى يتغير وفق معدل عالى السرعة • ومع تصميمه على جعل بلاده « جزءا من أوروبا » فان اسماعيل تبنى الفرنسية كلغته للادارة وأمر بادخال القوانين الغربية الحديثة لتحل محل الشريعة (٤٥) • فى عام ١٨٦٨ افتتح مدرسة ثانوية حديثة (Ecole gratuite, libre et universelle) فى الاسكندرية ، بهدف

ترقية صلات أعظم بين المصريين والأوروبيين · وفى عام ١٨٧٣ انشئت مدرسة مماثلة فى القاهرة (٤٦) · وشجع اسماعيل الهجرة على معدل واسع للسوريين المستغربين الى مصر وفتح الأبواب للاوربيين الراغبين فى اقامة مدارس أجنبية فى البلاد (٤٧) · وبنى دارا غربية « للاوبرا » وفتح مدرسة للبنات ، وشجع الجهود المسرحية ليعقوب صنوع ــ الذى كان منشغلا بترجمة الأعمال الأوروبية المسرحية الى العربية للجمهور المصرى ــ واقام وزارة على الأسلوب الغربى ومجلسا تشريعيا (٤٨) · وفى النهاية فانه حاول أن يعطى القاهرة والاسكندرية نظرة جديدة ببنايات على النمط الأوروبى ، وشوارع عريضة ذات الأشجار على الجانبين (بوليفارد) ، وميناءا حديثا ولمبات اضاءة فى الشوارع (٤٩) ·

كان المنظور الخارجي للبلاد يتغير بسرعة لا تزيد عن سرعة التغير فى الروح المصريه نفسها · خلال سنوات القرن التاسع عشر تطور التذوق الادبى لدرجة كبيرة ، وكان الكتاب الجدد رجالا ورثوا هامشيا التقليد الكلاسيكى « وشربوا فى أغلب الأحوال من ينابيع أخرى » و « نظروا الى العالم بعيون مختلفة » (٥٠) · عانى عمل شبه تقليدى « كليالى سطيح » لحافظ ابراهيم والذى ظهر عام ١٩٠٧ ، عانى نقدا ثقيلا من جانب «المحدثين» الذين عارضوا تقاليد السجع القديم ، وكان مولد الرواية الطويلة الحديثة المصرية قد مضى عليه سبع سنوات فقط (٥١) · كان على المنازل ، الحدائق ، الشوارع ، والمتاحف أن تبنى الآن على النسق الأوروبى تماما ، وكان المصريون يصرون ــ كالأوروبيين على ارتداء الحلل ، والأكل على الموائد ، والجلوس على مقاعد (٥٢) · خلال الحرب العظمى زادت واردات المشروبات الكحولية بنسبة ٢٠٠٪ ، وفى ديسمبر ١٩١٩ كان فى القاهرة وحدها ٦٨٧ محلا عاما لبيع الخمور (٥٣) · وسواء أكان هذا مناقضا للاسلام أم لا ، فقد كان الكحول يعتبر غربيا ، وكان الغربى « حديثا » ·

تسارع الايقاع بعد الحرب العظمى · هاجم على عبد الرازق مؤسسة الخلافة · وعدل القانون المدنى المصرى ، ولم يعد يحتوى الا على القليل ان لم يكن قد خلا من القواعد الدينية التقليدية (٥٤) · وسخر العقاد والمازنى من الشعراء التقليديين أمثال شوقى وحافظ ، الذين كانا يواجهان فى ذلك الوقت مدرسة على محمود طه وابراهيم ناجى الجديدة· وفى نفس هذه الفترة كان طه حسين يحاول أن يرفع الهالة المقدسة من الارث الأدبى العربى الكلاسيكى كله (٥٥) · ونشرت صفحات (البلاغ) و (السياسة) بانتظام ترجمات لأعمال تشيكوف Chekhov · دى موباسان de Maupassant ، تولستوى Tolstoi ، شو Shaw

هـ • ج • ويلز H.G. Wells ، ابسن Ibsen ، وهاردى Hardy الى جانب آخرين (٥٦) ، حتى الموسيقى ـ أكثر الوسائط الفنية الثقافية مقاومة للتغيير ـ كانت تتعرض للهجوم باعتبارها بالية للغاية وعتيقة (٥٧) •

اذا ما وضعنا فى الاعتبار ذلك السيل الجارف من الأفكار الغربية التى كانت تغمر مصر ، فانه لن يكون غريبا أن يكون التأريخ قد تعرض لتغيرات ضخمة ، وللحق فانه من الغريب أن يكون التأريخ قد حافظ على المنهجية الاسلامية التقليدية لزمن طويل • لكن التقليديون أيا كان لونهم أصبحوا مع نهاية الفترة موضوع الدراسة فى وضع يصعب الدفاع عنه ، وسواء أكان الأمر للافضل أم للاسوء » ، فان (المدرسة القومية) للتأريخ قد انتصرت • ولو كان علينا أن نستكمل دراستنا الى ما بعد عام ١٩٢٢، فاننا قد نجد أن المعيار الأصلى الموضوع لتقييم الكتابات التاريخية المصرية كان غير ملائم كلية • كانت مصر قد بلغت منظورا واضحا وجليا من اليقظة القومية ، وكان كل مؤرخ مصرى بعد عام ١٩٢٢ يعتبر قوميا •

وليس معنى هذا ان التأريخ المصرى بعد ١٩٢٢ قد تحلل الى مجرد جدل عنيف : فالاطلاع على الدراسات الجادة المستشهد بها فى حواشى هذا العمل سيبين أن العكس هو الصحيح • كما أنه ليس معنى هذا أيضا الحط من قدر الانجازات المبكرة لكتاب القرن التاسع عشر ، الذين عملوا فى بيئة مختلفة تماما وقدموا من خلال سيرهم الوظيفية وكتاباتهم رغبة فى خدمة بلادهم وحفظ ذكرى ماضيها • ولقد نجحوا فى المهمتين بصفة عامة ، وحملوا فن الكتابة التاريخية الى اعماق الأزمنة الحديثة • كان كل هذا مطلوبا لأول مؤرخ مصرى محترف لكى يظهر ، ولقد ظهر بالفعل فى عام ١٩١٩ • وهذا هو محمد صبرى خريج السوربون الذى درس على يد البرت اولارد Albert Aulard • وقد حدد عمله La revolution egyptienne بداية الاحتراف فى التأريخ المصرى •

حواشي الفصل الحادى عشر

(١) روبرت س · بنكلى Robert C. Binkley
"Realism and Nationalism, 1852-1871".
Harper Torchbooks. The Rise of Modern Europe (New York, Evanston and London : Harper and Row, Publishers, 1963), p. 50.

(٢) هارى المربارنز Harry Elmer Barnes
"A History of Historical Writing", 2nd ed. rev.
(New York : Dover Publications, Inc., 1962), p. 400.

(٣) الدسوقى « فى الأدب الحديث » ، الجزء الأول ، ص ٤٠ · وأكثر الدراسات تفصيلا عن مطبعة بولاق هى « تاريخ مطبعة بولاق » لأبو الفتح رضوان (القاهرة ، ١٩٥٣) ·

(٤) الشيال « تاريخ الترجمة » ، ص ١٩٧ ·

(٥) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ٦١ ·

(٦) يجب ان نتذكر أيضا ان العربية لم تحل محل التركية كلغة الحكومة الرسمية حتى عهد سعيد ·

صبرى "L'esprit national egyptien", p. 119.

(٧) الدسوقى « فى الأدب الحديث » ، الجزء الاول ، ص ٤٢ ·

(٨) خليل صابات « الطباعة فى مصر خلال الحملة الفرنسية ، ١٧٩٨ ــ ١٨٠١ » ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ٢١ (١٩٥٩٠) : ٦٥ ·

(٩) كما ذكر ، فان الطهطاوى كان لوقت ما محررا لهذه الصحيفة · انظر ص ٧٣ من الفصل الرابع ·

(١٠) الدسوقى « فى الأدب الحديث » ، الجزء الأول ، ص ٤٢ ــ ٤٣ ·

(١١) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ٦٣ ·

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٦٨ ·

(١٣) جاك تاجر Jacques Tagher
"La naissance et le developpement du Journal 'Al-Ahram," Chaiers d'histoire egyptienne 4 (1952), 27.

(١٤) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » المجلد الرابع ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٣ ·

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٦٨ ·

(١٦) بالاستثناء الممكن للفترة ١٩٢٢ ــ ٥٢ ، عندما مارست مصر حكومة برلمانية شبه حرة · هناك الكثير من الفضل لكرومر والحكومة البريطانية الانفالية فى هذا المقام ، رغم ان المصريين نافرين من الاعتراف بذلك · وهناك ما يمكن ان يقال بشأن النظام البريطانى

الاستعمارى عندما تنشأ صداقة وعلاقات حبية بين كرومر ومحمد عبده ، وعندما يستطيع قاسم أمين أن يعلن أن « مصر قد نعمت خلال الاحتلال بعدالة وحرية (أكثر) من أى فترة سابقة •

بدر « تطور الرواية فى مصر » ، ص ٣٦ • وبدر نفسه يدين الاحتلال دون ارادته •

انه من الصحيح بالطبع ان يريد المرء الاستقلال لبلده • فى نفس الوقت فان المؤرخ مضطر مع ذلك الى ان يسال عن أمة أخرى فى التاريخ الامبريالى قد منحت مثل هذه الحرية فى التعبير لشعب محتل •

(١٧) الدسوقى « فى الأدب الحديث » ، الجزء الثانى ، ص ٦٧ ـ ٦٩ •

(١٨) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ٧٠ • والكثير من هذه الصحف والدوريات كان قصير العمر ، لكن نشاط الصحافة المصرية لم يتاثر بذلك • وفى ١٩١١ كان هناك فى مصر ٨٤ صحيفة يومية ، ٢٩ مجلة نقدية أدبية ، ثلاثة دوريات قانونية • خمسة مجلات طبية ، أربعة عشر صحيفة دينية ، ثلاث مجلات نسائية ، أربعة مجلات تاريخية نقدية عربية ومجلتين فكاهيتين •

جورج سوان George Swan
"The Moslem Press in Egypt." The Moslem world 1 (1911) : 149-52.

(١٩) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ٧٠ ـ ٧١ •

(٢٠) ج • روب G. Robb
"Egyptian Miscellany."

كما استشهد بها فى
"The Pre s in Egypt', The Moslem world 16 (1926) : 403.

(٢١) جب Gibb
"Contemporary Arabic literature," pp. 755-56.

(٢٢) انظر ص ٧٣ من الفصل الرابع •

(٢٣) حداد "Modern Arab Historians", p. 38.

(٢٤) انظر ص ٢١ من الفصل الأول •

(٢٥) انظر ص ٧٣ ، ٨٠ ـ ٨١ من الفصل الرابع •

(٢٦) أحمد Egyptian Nationalism, pp. 39-40.

(٢٧) عن تقلا انظر تاجر Tagher
"Le Journal 'Al Ahram", p. 244.

وعن دراسة مختصرة للتطور الاسلوبى بصفة عامة انظر عبد اللطيف حمزة « أدب المقالة الصحفية فى مصر » (القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٥٨) الجزء الأول ، ص ٨٦ وما بعدها •

(٢٨) زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » المجلد الرابع ، ص ٩١ ـ ٩٢ •

(٢٩) عبد الرحمن الرافعى « مذكراتى » ١٨٨٩ ـ ١٩٥١ (القاهرة : دار الهلال ،

١٩٥٢) ، ص ٨ ، ١٠ ــ ١١ • وقد أخذت المعلومات عن الجمعيات الأخرى من زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، المجلد الرابع ، ص ٩٠ ــ ٩٧ •

(٣٠) زيادة "Modern Egyptian Historiography," pp. 268-69.

(٣١) مراد كامل « ايطاليا والدراسات العربية » ، المجلة ، رقم ٣٠ (١٩٥٩) ، ص ٢٤ ــ ٢٥ •

(٣٢) ايتورى روسى Ettore Rossi
"In Memoriam : Angelo Sammarco (1883-1948),"
Oriente Moderno 28 (1948) : 198.

(٣٣) مراد كامل « العلماء الألمان والدراسات العربية » ، المجلة ، رقم ٨٩ (١٩٦٤) ، ص ٥١ •

(٣٤) اعتبرت رحلة الطهطاوى الى باريس لا أخلاقية من وجهة نظر الكثيرين من معاصريه ، الذين رأوا انه سيعود ملوثا بتعرضه للحم الخنزير ، النبيذ والنساء الساقطات •

بدوى « الطهطاوى » ، ص ١٣٩ ــ ٤٠ • عن حياة وكتابات المنفلوطى انظر لنيفيل باربور
Nevill Barbour
"Al-Manfaluti — An Egyptian Essayist," Islamic Culture 7 (1933) : 491.

واستكمال باقى المقال فى Islamic Culture 9 (1935) 362.

(٣٥) عن دور الغرب فى عهد محمد على انظر عبد الكريم « تاريخ التعلم فى عصر محمد على » ، ص ١ ، ٥٢ ــ ٥٣ ، ٦٧ ــ ٧٣ ــ ٧٧ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٢١ ــ ٢٢ ، ٦٥٨،١٩١ •

(٣٤) ستكفى عدة أمثلة • فقد ضمت قائمة مديرى مدرسة الطب فى عهد اسماعيل أسماء كلوت Clot ، أرنو Arnoux ، فامبرى Vambery وبرجير ، Burguieres ، وأساتذة مثل فيجارى Figari ، كلوتشى Colоucci ، واسبيانسى Espinassi • وكان دوربك Dor-Bey مفتشا عاما للمدارس ، وكانت مدرسة الطب البيطرى تحت ادارة ليونار Lyonar ، ومدرسة الادارة تحت ادارة فيدال Vidal ومدرسة العمليات تحت ادارة جيجون Guigon.

هيوارث دن Heyworth-Dunne
'Education in Modern Egypt", pp. 321, 350, 354-55-55, 357.

وضم الجيش ما بين ٣٠ ــ ٤٠ ضابطا امريكيا •

صبرى L'esprit national egyptien, p. 114.

(٣٧) هيوارث دن Heyworth-Dunne
"Educa.ion in Modern Egypt", p. 343-44.

(٣٨) الدسوقى « فى الأدب الحديث » ، الجزء الأول ، ص ٣٥٧ •

(٣٩) اخذت هذه المعلومة من المصادر الثلاثة الآتية : ــ

١ ــ عبد الكريم « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » ، ص ٦٥٦ ــ ٥٧ .

٢ ــ عبد الملك L'Egypt Modern," p. 360.

٣ ــ الدسوقى « فى الأدب الحديث » الجزء الثانى ، ص ٣٧ ، ٤٧ .

وتتفق هذه المصادر معا الى حد كبير .

(٤٠) بدر « تطور الرواية فى مصر » ص ٣٨ .

(٤١) م . هـ . M. H.
"Mitteilungen : Agypten", Die Welt des Islams 1 (1913), 39.

(٤٢) ويلفريد سكاون بلنت Wilfrid Scawen Blunt
"My Diaries : Being a personal Narrative of Events, 1888-1914 (London : Marlin Secter, 1919), I, 78.

قارن الدسوقى الذى يذكر ان معرفة الفرنسية كانت منتشرة الى حد أن المصريين كانوا يستطيعون تاليف كتبا وشعروا بها ، بينما كانوا عاجزين عن تحقيق ذلك بالعربية . الدسوقى « فى الأدب الحديث » ، الجزء الأول ، ص ٣٨٦ ، الجزء الثانى ، ص ١١ .

(٤٣) الدسوقى « فى الأدب الحديث » ، الجزء الثانى ، ص ١١ .

(٤٤) توفيق حبيب « الجامعة المصرية فى عشرين سنة » ، الهلال ٣٦ (١٩٢٨) : ٥٧٤ .

(٤٥) سافران Safran
'Egypt in Search of Political Community," p. 34

(٤٦) هيوارث دن Heyworth Dunne
"Education in Modern Egypt", pp. 416-18.

(٤٧) قارن ص ٩٥ من الفصل الخامس و ٢٠٢ من الفصل الحادى عشر .

لمزيد من التفاصيل انظر شتيبات Steppat
"Education Projects in Egypt," p. 283.

وهيوارث دن Heyworth Dunne
"Education in Modern Egypt", pp. 406, 423

(٤٨) شوقى ضيف « الأدب العربى المعاصر فى مصر ، مكتبة الدراسات الأدبية ، رقم ٢٤ (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦١) ص ١٥ ، ٢٤ ــ ٢٥ .

(٤٩) انظر ص ٩٢ ــ ٩٣ من الفصل الخامس .

(٥٠) جب Gibb
"Contemporary Arabic Literature", p. 746.

(٥١) ظهرت رواية محمد حسين هيكل (زينب) فى عام ١٩١٤ .

هـ . أ . ر . جب H.A.R. Gibb
"Studies in Contemporary Arabic Literautre. IV. "The Egyptian Novel," BSOAS 7 (1933-35) : 6-8.

(٥٢) بدأت هذه التغيرات فى الظهور خلال عهد اسماعيل • انظر الشيال « الطهطاوى » ، ص ٢٠ •

(٥٣) س • م • زفيمر S. M. Zwemer
"The city of Cairo According to the Census of 1917",
The Moslem World 10 (1920) : 270.

(٥٤) أنور أحمد قدرى
"European Impact on law Reforms in the Middle East", The voice of Islam 16 (1968) : 591, 593.

(٥٥) بدر « تطور الرواية فى مصر » ، ص ٤٧ ــ ٤٨ •

(٥٦) ت • خميرى T. Khemiri
"The Egyptian Press Today," The Moslem World 18 (1928): 399.

(٥٧) كانت أغنية العنوان لأول فيلم ناطق مصرى ــ انشودة الفؤاد (١٩٣٢) نوع تقليدى من الغناء الذى لم يعد مقبولا •

جاك بيرك Jacques Berque
Etapes de la société egyptienne contemporaine", Studia Islamica 22 (1965) : 107.

قائمـــة المصـــادر

١ ـ مصادر استخدمها المؤلف

(أ) كتب بالعـربية

ـــ ابراهيم عبـــده :

(أعلام الصحافة العربية) • القاهرة : مكتبة الآداب بالجماميز ، ١٩٤٤ •

ـــ احمـــد احمـــد بدوى :

(رفاعة رافع الطهطاوى) • القاهرة • مطبعة لجنة البيان العربى ، بدون تاريخ •

ـــ احمد عزت عبد الكريم :

(تاريخ التعليم فى عصر محمد على) • القاهرة • مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٣٨ •

ـــ ـــــــــــ :

(تاريخ التعليم فى مصر) • المجلد الثانى • القاهرة • مطبعـــة النصر ، ١٩٤٥ •

ـــ اسماعيل سرهنك :

(حقائق الأخبار عن دول البحار) • ثلاثة مجلدات • القـاهرة • المطبعة الأميرية ببولاق • وطباعة خاصة، ١٨٩٦ ، ١٨٩٨ ، و ١٩٢٣

ـــ اسماعيل محمود القبانى :

(سياسة التعليم فى مصر) • القـــــاهرة • مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٤ •

— السيد عبد العزيز سالم :

(التاريخ والمؤرخون العــرب) • القاهرة • دار الكاتب العــربى للطبـــاعة والنشر ، ١٩٦٧ •

— اليـــاس زاخـــورا :

(مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال) • القاهرة ـ ١٨٩٧

— امين ســامى :

(تقويم النيــل) ستة مجلدات • القـــــاهرة • مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٩١٦ ـ ١٩٣٦ •

— ـــــــــــ :

(التعليم فى مصر فى سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ وبيان تفصيلى لنشر التعليم الأولى والابتدائى بأنحاء الديار المصرية) • القاهرة • مطبعـــة المعـــارف ، ١٩١٧ •

— ـــــــــــ :

(مصر والنيل من فجر التاريخ الى الآن) • القاهرة • مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٨ •

— توفـــيق الحـــكيم :

(عودة الروح) المجلد الثـــانى • القـــاهرة • مكتبة الآداب ، بـــدون تاريخ •

— جرجس حنين :

(الأطيان والضرائب فى القطـــر المصرى) • بولاق ، المطبعـــة الكبرى الأميرية ، ١٩٠٤ •

— جمال الدين الشـــيال :

(رفاعة رافع الطهطاوى) نوابغ الفكر العربى ، رقم ٢٤ ، القاهرة، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ •

— ـــــــــــ :

(تاريخ الترجمة والحـــركة الثقـــافية فى عصر محمد على) • القاهرة • دار الفــكر العربى ، ١٩٥١ •

— ـــــــــــ :

(التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القـــرن التاسع عشر) • المكتبة التاريخية ، رقم ٣ • مكتبـــة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ •

— جورجي زيدان :

(كتاب تاريخ مصر الحديث) مجلدين • القاهرة • مطبعة الهلال ، ١٩٥٢ •

— ـــــــــــ :

(تاريخ آداب اللغة العربية) المجلد الرابع • القاهرة • مطبعة الهلال ، ١٩١٤ •

— خليل شيبوب :

(عبد الرحمن الجبرتي) • اقرأ • رقم ٧٠ • القاهرة • دار المعارف للطباعة والنشر ، ١٩٤٨ •

— (دار الكتب في عهد الثورة ، ١٩٥٢ ــ ١٩٦٢) • القاهرة • مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٢ •

— رفاعة رافع الطهطاوى :

(كتاب مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية) • القاهرة ، مطبعة شركة الرغائب ، ١٩١٢ •

— ـــــــــــ :

(تخليص الابريز في تلخيص باريز) ، تحقيق مهدى علام ، احمد احمد بدوى ، أنور لوقا • القاهرة ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، ١٩٥٨ •

— ـــــــــــ :

(أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل) • المجلد الأول • القاهرة ، ١٢٨٥ هـ •

— سعيد زايد :

(على مبارك وأعماله) الألف كتاب ، رقم ١٩٩ • القاهرة • مكتبة الأنجلو المصرية • بدون تاريخ •

— سليم خليل النقاش :

(مصر للمصريين) ستة مجلدات الاسكندرية • مطبعة المحروسة، ١٨٨٤ •

ـ شفيق غربال :

(منهج مفصل لدروس فى العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية على ما هى عليه اليوم) ٠ القاهرة ٠ مركز الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، ١٩٦١ ٠

ـ شوقى ضيف :

(الأدب العربى المعاصر فى مصر) ٠ مكتبة الدراسات الأدبية ، رقم ٢٤ ٠ القاهرة ٠ دار المعارف ، ١٩٦١ ٠

ـ عبد الرحمن الرافعى :

(تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة) ٠ القاهرة ٠ مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣

ـ ـــــــــــ :

(تاريخ الحركة القومية) مجلدين ٠ القاهرة ٠ مطبعة النهضة المصرية ، ١٩٢٩ ٠

ـ ـــــــــــ :

(عصر محمد على) القاهرة ٠ مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ ٠

ـ ـــــــــــ :

(عصر اسماعيل) المجلد الأول ٠ القاهرة ٠ مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨ ٠

ـ ـــــــــــ :

(مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال) ٠ القاهرة ٠ مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٢ ٠

ـ ـــــــــــ :

(مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية) ٠ القاهرة ٠ مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ ٠

(محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية) ٠ القاهرة ٠ مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ ٠

ـ ـــــــــــ :

(فى أعقاب الثورة المصرية) ٠ المجلد الثالث ٠ القاهرة ٠ مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ ٠

— ــــــــــ :

مذكراتى ، ١٩٨٩ ـ ١٩٥١) • القاهرة • دار الهلال ، ١٩٥٢ •

— عبد اللطيف حمــزة :

(أدب المقالة الصحفية فى مصر) • المجلد الأول • القاهرة • دار الفــكر العــربى ، ١٩٥٨ •

— عبد المحسن طه بدر :

(تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر ، ١٨٧٠ ـ ١٩٣٨) مكتبة الدراسات الأدبية ، رقــم ٣٢ • القاهرة • دار المعــارف ، ١٩٦٣ •

— عز الدين ابن الأثير :

(الكامل فى التــاريخ) المجـلد الثــانى عشر • بيروت • دار صادر ودار بيــروت ، ١٩٦٦ •

— على مبــارك :

(الخطوط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والمشــهورة) عشرون مجلدا • بولاق • المطبعة الكبرى الأميرية ، ١٠٣٦ هـ •

— عمــر الدســوقى :

(فى الأدب الحديث) مجلدان • القاهرة • دار الفكر العربى ، ١٩٦٦

— عمــر طوســون :

(البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عبــاس الأول وسعيد) • الاسكندرية ، مطبعة صلاح الدين ، ١٩٣٤ •

— قسطنطين زريق :

(نحن والتــاريخ) • بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٣ •

— لويس عــوض :

(المؤثرات الأجنبيــة فى الأدب العــربى الحــديث) المجــلد الثانى • الفكر السياسى والاجتماعى • منشورات مركز الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية • القاهرة • دار المعارف ، ١٩٦٦ •

— محمد احمد خلف الله :

(على مبــارك وآثاره) • القاهرة • مكتبة الأنجلو المصرية ، بدون تاريخ •

— محمد انيس :

(مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى) · منشورات مركز الدراسات العربية التابع للجامعة العربية · القاهرة · دار الجيل للطباعة ، ١٩٦٢ ·

— محمد بديع شريف وآخرين :

(دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة) القاهرة · مطبعة الرسالة ، بدون تاريخ ·

— محمد بن عمر التونسى :

(تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) تحقيق محمد مصطفى زيادة · القاهرة · الدار المصرية للتاليف والترجمة ، ١٩٦٥

— محمد عبد الكريم :

(على مبارك، حياته ومآثره) القاهرة · مطبعة الرسالة · بدون تاريخ

— محمد عمارة :

(الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى) المجلد الأول ـ التمدن والحضارة والعمران · بيروت · المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣ ·

— محمد فريد :

(كتاب البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية) · بولاق ـ المطبعة الأميرية ، ١٣٠٨ هـ ·

— ———— :

(تاريخ الدولة العلية العثمانية) القاهرة · مطبعة التقدم بمصر ، ١٩١٢ ·

— محمد فؤاد شكرى :

(مصر فى مطلع القرن التاسع عشر) المجلد الثالث · القاهرة ـ مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ ·

— محمد قنديل البقلى :

(المختار من تاريخ الجبرتى) كتاب الشعب ، رقم ٢٧ ـ القاهرة ـ مطابع الشعب ، ١٩٥٨ ·

ـ محمود الشرقاوى :

(مصر فى القرن الثامن عشر) المجلد الأول : عبد الرحمن الجبرتى ـ القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٢ ·

ـ محمود الشرقاوى وعبد الله المشد :

(على مبارك : حياته ودعوته وآثاره) · القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٢ ·

ـ محمود الفلكى :

(رسالة عن الاسكندرية القديمة) محقق بمعرفة محمد عوض حسين · الاسكندرية · دار نشر الثقافة ، ١٩٦٦ ·

ـ محمود فهمي المهندس :

(البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر) · المجلد الأول · القاهرة · المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣١٢ هـ ·

ـ مصطفى كامل :

(المسألة الشرقية) مجلدان · القاهرة · مطبعة اللواء ، ١٩٠٩

ـ ــــــــــ :

(الشمس المشرقة) المجلد الأول · القاهرة · مطبعة اللواء ، ١٩٠٤

ـ ميخائيل شاروبيم :

(الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) أربعة أجزاء · بولاق · المطبعة الأميرية ، ١٨٩٨ ـ ١٩٠٠ ·

(ب) مقالات بالعربية

ـ احمد احمد الحته :

(مراجع تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على ، ١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) ـ المجلة التاريخية المصرية (١) (مايو وأكتوبر ١٩٤٨)

ـ احمد حسين الصاوى :

(تاريخ حركات صحفية مصرية : الأستاذ) · الهلال ، رقم ١٠ (أكتوبر ١٩٦٦) ·

— احمد شفيق :

(يقظة الشعور القومى منذ أوائل القرن التاسع عشر الى الآن) · الهلال ، ٤٨ (ابريل ١٩٤٠) ·

— البحث عن تراثنا) ، حديث مع الدكتور محمد صبرى · الكاتب ، رقم ٩ (ديسمبر ١٩٦١) ·

— أمين سامى :

(تطورنا فى أربعين عاما : التربية والتعليم) · الهلال ٤٠ (نوفمبر ١٩٣١) ·

— ———— :

(لما كنت معلما) · الهلال ٤٥ (ابريل ١٩٣٧) ·

— ———— :

(المدارس فى ربع قرن : من سنة ١٨٧٥ ــ ١٩٠٠) · المقتطف ٣٨ (مايو ١٩٣٦) ·

— توفيق حبيب :

(الجامعة المصرية في عشرين سنة) الهلال ٣٦ (مارس ١٩٢٨) ·

— جمال الدين الشيال :

(عبد الله النديم ، ١٨٤٥ ــ ١٨٩٦) الكاتب رقم ١ (يناير ١٩٤٩) ·

— ———— :

(المؤرخون السوريون فى مصر فى القرن التاسع عشر) المجلة ، رقم ٢٣ (نوفمبر ١٩٥٨ ·

— ———— :

(دكتور بيرون والشيخان محمد عياد الطنطاوى ومحمد عمر التونسى) · مجلة كلية الآداب جامعة فاروق الأول (١٩٤٤) ·

— خليل صابات :

(الطباعة فى مصر خلال الحملة الفرنسية ، ١٧٩٨ ــ ١٨٠١) · مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، ٢١ (ديسمبر ١٩٥٩)

— ———————— :

(مطبعة بولاق فى عهدها الثانى ، ١٨٤١ ـ ١٨٨٢) ٠٨ مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ٢٤ (مايو ١٩٦٢) ٠

— دار العلوم: حديث صادق جوهر بك) ٠ المقتطف ٩٠ (فبراير ١٩٣٧)

— رؤوف عباس ، سيد مصطفى سالم ، محمد انيس ، ومحمود اسماعيل :

(محمد فريد ومذكراته) الكاتب ، رقم ١٠٤ (نوفمبر ١٩٦٩) ٠

— سامى بدراوى (الشيخ حسن العطار) :

المجلة رقم ٩٩ (مارس ١٩٦٥) ٠

— سعد زهران :

(التعاليم الليبرالية فى الثورة العرابية) المجلة ، رقم ١٠٨ (ديسمبر ١٩٦٥)٠

— سلامة موسى :

(تاريخ الوطنية المصرية ، نشوئها وتطورها) ٠ الهلال ٣٦ (يناير ١٩٢٨) ٠

— شفيق غربال :

(مصادر الالهام عند بعض المؤرخين) ٠ الهلال ٦٢ (نوفمبر ١٩٥٤)

— ———————— :

(رسالة المؤرخ) ٠ الهلال ٦٥ (ابريل ١٩٥٧) ٠

— عباس محمود العقاد :

(مصطفى كامل كما عرفته) المجلة ، رقم ٦٩ (اكتوبر ١٩٦٢) ٠

— ———————— :

(كتاب مصطفى كامل) الرسالة ، رقم ٢٩٤ (فبراير ١٩٣٩) ٠

— عبد الفتاح عاشور :

(الدكتور محمد مصطفى زيادة) المجلة ، رقم ١٤٥ (يناير ١٩٦٩)

— فوزى العنتيل :

(المجتمع المصرى كما تصوره رواية بين القصرين) المجلة ، رقم ١٥ (مارس ١٩٥٨) ٠

— محمـــد انيس :

(شفيق غربال ومدرسة التاريخ المصرى الحديث) ، المجـلة ، رقم ٥٨ (نوفمبر ١٩٦١) .

— ــــــــــ :

(مؤرخ مجهول سبق الجبرتى) . الهلال ، رقم ٧ (يوليو ١٩٦٤) .

— ــــــــــ :

(الجبرتى أعظم المؤرخين) . الهلال ،رقم ١٢ (ديسمبر ١٩٦٧) .

— ــــــــــ :

(حقائق عن عبد الرحمن الجبرتى مســـتمدة من وثائق المحـــكمة الشرعية) . المجلة التاريخية المصرية ٩ ـ ١٠ (١٩٦٠ ـ ١٩٦٢)

— ــــــــــ :

(الجبرتى بين مظهر التقديس وعجائب الآثار) . مجلة كليـــة الآداب جامعة القاهرة ، ١٨ (مايو ١٩٥٦) .

— ــــــــــ :

(وثائق الثورة العرابية) . الكاتب ، رقم ١٠٣ (اكتوبر ١٩٦٩) .

— ــــــــــ :

(دعوة للوطنية لا دعوة للاحتكار) ، الجمهورية ، ٣٠ يوليو ١٩٦٤
(كفاح فى المنفى : محمد فريد) . الجمهورية ، ١٦ أكتوبر ، ١٩٦٩

— ــــــــــ :

(أمريكا والعزلة) . الجمهورية ، ١٩ فبراير ١٩٦٨ .

— محمد محمود زيتون :

(جامعة فؤاد الأول) . الرسالة ، رقم ٨٩٣ (أغسطس ١٩٥٠) .

— ــــــــــ :

(فلنهدم الجامعة) . الرسالة ، رقم ٨٩٤ (أغسطس ١٩٥٠) .

— محمود اسماعيل عبد الرازق :

(محمد فريد ومذكراته ، ٢٧ أغسطس ١٩٠٤ ـ ٢٧ أغسطس ١٩١٤) الكاتب رقم ١٠٧ (فبراير ١٩٧٠) .

— ــــــــــ :

(محمد فريد ومذكراته ـ ٥ : من ٢٤ يوليـــو ١٩١٣ الى بداية مارس ١٩١٤) . الكاتب ، رقم ١٠٨ (مارس ١٩٧٠) .

— محمود الشرقاوى :

(على مبارك والثورة العرابية) · المجلة ، رقم ٤١ (مايو ١٩٦٠) ·

— مراد كامل :

(العلماء الألمان والدراسات العربية) · المجلة ، رقم ٨٩ (مايو ١٩٦٤)

— ——————— :

(ايطاليا والدراسات العربية) · المجلة ، رقم ٣٠ (يونيو ١٩٥٩)

— موسى صبرى :

(هاتولى حبيبى) · الأخبار ، ٥ أغسطس ١٩٦٤ ·

— (نقد تقويم النيل لأمين سامى) · المقتطف ٧٣ (يوليو ١٩٢٨) ·

(ج) كتب بلغات غربيــة

— Abdel-Malek, Anouar. Ideologie et renaissance nationale: L'Egypte moderne. Paris : Editions Anthropos, 1969.

— Ahmed, Jamal Mohammad. The intellectual Origins of Egyptian Nationalism. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1960.

— Baer, Gobriel. A History of landownership in Egypt, 1800-1950. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1962.

— Barnes, Harry Elmer. ,A History of Historical Writing 2nd ed. rev. New York : Dover Publications, Inc, 1962.

— Binkley, Robert C. Realism and Nationalism, 1852-1871. Harper Torchbooks : The Rise of Modern Europe. Newyork, Evanston and London : Harper and Row, Publishers, 1963.

— Blunt, Wilfrid Scawen. My Diaries, Being a personal Narrative of Events, 1888-1914. Vol. I. London : Martin Secker, 1919.

— Brown, L. Carl. The Tunisia of Ahmad Bey, 1837-1855. Princeton University Press, 1974.

— Butterfield, Herbert. Man On His Post. Boston : Beacon Press, 1960.

— Carr, Edward Hallet. What Is History ? New York . Random House, Inc. ; Vintage Books, 1967.

— Collingwood, R. G. The Idea of History. London and New York : Oxford University Press, 1956.

— ————. Essays in the Publication of History. Edited with an introduction by William Debbins. New York, McGraw-Hill Book Co. 1966.

— Creasy, Edward. History of the Ottoman Turks. Beirut: Khayats ; Oriental Reprints, no. 1, 1961.

— Cromer, Earl of. Modern Egypt. Vol. II. New York : The McMillan Company, 1909.

— Djilas, Milovan. The Unperfect Society : Beyond the New Class. Translated by Dorian Cooke. New York : Harcourt, Brace & World, Inc., 1969.

— Fitzsimons, Matthew A. ; Pundt, Alfred G. ; and Nowell, Charles E., eds. The Development of Historiography. Port Washington, N.Y. : Kennikat Press, Inc., 1967.

— Gibb, H.A.R. Modern Trends in Islam. Chicago : University of Chicago Press, 1947.

— ————. Arabic Literature. 2nd ed. rev. Oxford : At the Clarendon Press, 1963.

— Gran, Peter. Islamic Roots of Capitalism : Egypt, 1760-1840. Austin & London. University of Texas Press, 1979.

— Grant, Michael. The Ancient Historians. New York : Charles Scribner's Sons, 1970.

— Hale, J. R., ed. The Evolution of British Historiography . From Bacon to Namier. Cleveland and New York : The World Publishing Co. Meridian Books, 1964.

-- Heyworth-Dunne, J. An Introduction to the History of Education in Modern Egypt. London : Luzac and Co., 1939.

Higham, John ; Krieger, Leonard ; and Gilbert, Felix History. Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, Inc., 1965.

-- Hourani, Albert. Arabic Thought in the liberal Age, 1798-1939. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1962.

--- Laroui. Abdallah. The Crisis of the Arab Intellectual. Trans. from the French by Diarmid Cammell. Berkeley(Los Angeles & Toronto : University of California Press, 1974.

-- Lewis, Bernard. The Middle East and the West. New York : Harper and Row, Publishers ; Harper Torchbooks, 1964.

-- Mahdi, Mohsin. Ibn Khaldun's Philosophy of History. Chicago, University of Chicago Press ; Phoenix Books, 1964.

— Margoliouth, D.S. Lectures on Arabic Historians. Calcutta : Calcutta University, Press, 1930.

— Moreh. S. Al-Jabartī's Chronicle of the first Seven Months of the French Occupation of Egypt. Leiden : E.J. Brill, 1975.

— Nuseibeh, Hazim Zaki. The Ideas of Arab Nationalism. Ithaca, N.Y. : Cornell University Press, 1956.

— Philipp, Thomas. Gurgi Zaidan : His life and Thought. Beirut : Orient-Institut der deutchen morgenländischen Gesellschaft, 1979.

— Rosenthal, Franz. A History of Muslim Historiography. 2nd ed. rev. Leiden : E.J. Brill, 1968.

— ———. The Technique and Approach of Muslim Scholarship. Analecta Orientalia, no. 24. Rome : Pontificum Institutum Biblicum, 1947.

Sabry, M. La genèse de l'esprit national egyptien (1863-1882) Thèse principale de Doctorat es lettres presentée à la Faculté des lettres de l'Université de Paris. Paris : Vu et permis d'imprimer ; le recteur de l'Academie de Paris, 1924.

— Safran, Nadav. Egypt in Search of Political Community. Cambridge, Mass.; Harvard University Press, 1961.

— Schölch, Alexander. Agypten den Agyptern : Die politische und gesellschaftliche krise der Jahre 1878-1882 in Agypten. Zurich and Freiburg : Atlantis Verlag, 1972.

— El-Shayal, Gamal el-Din. A History of Egyptian Historiography in the Nineteenth Century. Faculty of Arts. no. 15. Alexandria University Press, 1962.

— Smith, Page. The Historian and History. New York : Random House ; Vintage Books, 1966.

— Stavrianos, L. S. The Balkans Since 1453. New York : Holt, Rinehart and Winston, 1966.

— Stern, Fritz, ed. The Varieties of History. Cleveland and New York : The World Publishing Co. ; Meridian Books, 1956.

— Taylor, A.J.P. Englishmen and Others. London: Hamish Hamilton, 1956.

— Tignor, Robert. Modernization and British Colonial Rule in Egypt, 1882-1914. Princeton : Princeton University Press, 1966.

— Wales, A. P., ed. International Libary Directory. 3rd ed. London : The A. P. Wales Organization, 1963.

— Wendell, Charles. The Evolution of the Egyptian National Image : From Its Origins to Ahmad Lutfi al-Sayyid. Berkley, Los Angeles and London : University of California Press, 1972.

— The World of Learning. 24 ed. Vol. I. London : Europa Publications, Ltd., 1973.

د ـ مقالات بلغات غربية

— Abdul Mu'id Khan, Muh. "Modern Tendencies in Arabic Literature." Islamic Culture 15 (July, 1941).

— Adams, C. C. "Mohammed Abduh, The Reformer." The Moslem World 19 (1939).

— Aglietti, Bruno. "Mustafa Kamil (1874-1908) : Fondatore del Partito Nazionalista Egiziano. "Oriente Moderno 22 (August, 1942).

— Van Arendonk, C. "Ibn Hadjar al-Askalani." The Encyclopedia of Islam (1913).

— Ayalon, David. "The Historian al-Jabarti and His Background." Bulletin of the School of Oriental and African Studies 15 (1953).

— ————. "Studies on the Structure of the Mamluk Army — I. "BSOAS 15 (1953).

— Baer, Gabriel, "Ali Mubarak's Khitat as a source for the History of Modern Egypt." In Political and Social Change in Modern Egypt, Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic. Edited by P.M. Holt. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1963.

Barbour, Nevill "Al-Manfaluti — An Egyptian Essayist" Islamic Culture 7 (July, 1933.

— ————, "All-Manfaluti — An Egyptian Essayist." Islamic Culture 9 (April, 1935).

— Bellamy, James "Cairo University." Middle East Affairs 6 (June-July, 1955).

— Berques, Jacques. "Etapes de la Société egyptienne contemporaine". Studia Islamica 22 (1965).

— Björkmann, Walther. "Problem des ägyptischen Bildungs-Wesens" Die Welt des Islams 22 (1940).

— Bouvat, L. "la press égyptienne." Revue du Monde Musulman 1 (December, 1906).

— Boyle, John Andrew. "Rashid al-Din: The First World Historian" Islamic Culture 44 (January, 1970).

— Brockelmann, C. "Al-Makrizi". The Encyclopedia of Islam, (1913).

— ———. Al-Suyuti. "The Encyclopedia of Islam (1913).

— Brundage, Burr. C. "The Birth of Clio : A Resume and Interpretation of Ancient Near Eastern Historiography." In teachers of History : Essays in Honour of Laurence Bradford Packard. Edited by H. Stuart Hughes. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1954.

— Chejne, Anwar G. "The Use of History By Modern Arab Writers. "The Middle East Journal 14 (Autumn. 1960).

— ———. "The Concept of History in the Modern Arab World." Studies in Islam 4 (January, 1967).

— Chemoul, Maurice. "Rifaà Bey". The Encyclopedia of Islam, (1913).

— Coulton, G. G. "Some Problems in Medieval Historiography. Raleigh Lectures on History." Proceedings of the British Academy 18 (1932).

— Duri, A A. "The Iraq School of History to the Ninth Century. A Sketch". In Historians of the Middle East. Edited by Bernard Lewis and P.M. Holt. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1962.

— ———.. "Al-Zuhri : A Study on the Beginnings of History Writing in Islam." BSOAS 19 (1957).

— Farah, Caesar E. "The Impact of the West on the Conflict of Ideologies in the Arab World." Islamic Culture 35 (April, 1961).

— Gibb, H. A. R. "Tarikh" In Studies on the Civilization of Islam. Edited by Stanford shaw and William R. Polk. Boston : Beacon Press, 1962.

— ———. "Problems of Middle Eastern History." In Studies on the Civilization of Islam. Edited by Stanford Shaw and William R. Polk. Boston : Beacon Press, 1962.

— ———. "Studies in Contemporary Arabic Literature." BSOAS 4 (1926-28).

— ————. "Studies in Contemporary Arabic Literature. IV. The Egyptian Novel." BSOAS 7 (1933-35).

— Goldschmidt, Arthur, Jr. The Egyptian Nationalist Party: 1892-1919". In Political and Social Change in Modern Egypt : Historical Studies From the Ottoman Conquest to the United Arab Republic. Edited by P.M. Holt. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1968.

— H. L. "Mitteilungen : Agypten. "Die Welt des Islams 2 (1914).

— Haddad, George M. "Modern Arab Historians and World History. "The Muslim World 51. (January, 1961).

— ————. "The Historical Work of Niqula el-Turk, 1763-1828.' Jaurnal of the American Oriental Society 81 (1961).

— Heyworth-Dunne, J. "Rifaah Badawi Rafi al-Tahtawi : The Egyptian Revivalist." BSOAS 10 (1940-42).

— Holt, P.M. "Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt." BSOAS 25 (1962). ,
"The Beylicate in Ottoman Egypt During the Seventeenth Century." BSOAS 24 (1961).

— ————. "The Coming of the Funji" In Studies in the History of the Near East by P.M. Holt. London : Frank Cass & Co. Ltd., 1973.,

— Hourani, Albert. "Historians of Lebanon" In Historians of the Middle East. Edited by Bernard Lewis and P.M. Holt, London. New York and Toronto : Oxford University Press, 1962.

— Inalcik, Halil. "Some Remarks on the Study of History in Islamic Countries." The Middle East Journal 7 (autumn, 1953).

— Kazemzadeh. Firuz. "Iranian Historiography." In Historians of the Middle East. Edited by Bernard Lewis and P.M .Holt. London, New York and Toronto : Oxforh University Press, 1962.

— Khemiri, T. "The Egyptian Press Today." The Moslem World 18 (1928).

— Kuran Ercüment. "Ottoman Historiography of the Tanzimat Period." In Historians of the Middle East. Edited by Bernard Lewis and P. M. Holt. London, New York and Toronto : Oxford University Press, 1962.

— Laoust, Henri. "Introduction à une étude de l'enseignement arabe en Egypte." Revue des Etudes Islamiques 7 (1933).

— Lewis, Bernard. "History — Writing and National Revival in Turkey." Middle East Affairs 4 (June-July, 1963).

— ————. "The Muslim Discovery of Europe." BSOAS 20 (1957).

— Lichtenstander, Ilse. "Arabic and Islamic Historiography." The Moslem World 35 (April, 1945).

— M. H. "Mitteilungen : Agypten." Die Welt des Islams 1 (1931).

— Macdonald, D. B. "Al-Djabarti" The Encyclopedia of Islam (1913).

Marçias. "Al-'Aini." The Encyclopedia of Islam (1913).

— Mossa, Matti I. "The Development of Modern Arabic Fiction." The Islamic Quarterly 13 (July and September, 1969).

— Moreh, S. "Reputed Autographs of 'Abd al-Rahman al-Jabarti and Related Problems." BOSAS 28 (1965).

— Morrison, S. A. "El Azhar Today and Tomorrow." The Moslem World 16 (1926).

— Moussa, Salama. "Intellectual Currents in Egypt". "Middle Eastern Affairs 2 (August-September, 1951).

— N.A. "Le Siyak en Egypte et en Turquie." Revue du Monde Musulman 30 (1915).

— Obermann, Julian. "Early Islam." In The Idea of History in the Ancient Near-East. New Haven and London: Yale University Press, 1955.

— Pérès. Henri. "L'Institut d'Egypte et l'oeuvre de Bonoparte Jugé par deux historiens arabes Contemporains "Arabica 4 (May, 1957).

— Philipp, Thomas. "Language, History, and Arab National Consciousness in the Thought of Jurji Zaydan (1861-1914). "International Journal of Middle Eastern Studies 4 (1973).

— Poonawala, Ismail K. "The Evolution of al-Jabarti's Historical Thinking As Reflected in the Muzhir and the Ajaib." Arabica 15 (October, 1968).

— ———. "The Press in Egypt." The Moslem World 16 (1926).

— Qadri, Anwar Ahmad. "European Impact on Law Reform in the Middle East." The Voice of Islam 16 (May, 1968).

— Richter, G. "Medieval Arabic Historiography". Islamic Culture 34 (April, 1960).

— Rossi Ettore. "In Memoriam : Angelo Sammarco (1883-1948). "Oriente Moderno 28 (October - December, 1948).

— Sékaly, Achille. "L'université dél-Azhar et ses transformations." Revue des Etudes Islamiques (1927).

— El-Shayyal, Gamal el Din "Historiography in Egypt". In Historians of the Middle East. Edited by Bernard Lewis and P.M. Holt. London, New York and Toronto: Oxford University Uress, 1962.

— Steppat, Fritz. "National Education projects in Egypt Before the British Occupation." In Beginnings of Modernization in the Middle East. The Nineteenth Century. Edited by William R. Polk and Richard L. Chambers. Publications of the Center for Middle Eastern Studies, no. 1. Chicago and London : University of Chicago Press, 1968.

— ———. "Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil. Ein Beitrag zur IdeenGeschichte der Agyptischen National bewegung." "Die Welt des Islam 4 (1955).

— Swan, George. "The Moslem Press in Egypt." The Moslem World I (1911).

— Tagher, Jacques. "Mohammad Ali etudiat l'histoire et redigeait des memoris" (Chaires d'Histoire Egyptienne 2 (December, 1949).

— ————. "La naissance et le developpement du Journal 'Al Ahram." Chaiers d'Histoire Egyptienne 4 (October, 1952).

— J. T. (Jacques Tagher). "La creation d'ecoles populaires. selon un projet de Rifaa Rafee." Chaires d'Historie Egyptienne 1(1949).

— Vagliere, Laura Veccia. "Notizie sulle Universita Egiziane." Oriente Moderno 30 (January. March, 1950).

— "A Valuable Library in Cairo." The Moslem World 7 (1917).

— Ziada, M. Mostafa. "Modern Egyptian Historiography." Middle Eastern Affairs 4 (August-September, 1953).

— Zwemer, S. M. "The City of Cairo According to the Census of 1917." The Moslem World 10 (1920).

هـ — اعمال غير منشورة

— Khalidi, Tarif. "Masudi's Theory and Practice of History." Ph. D. dissertation, University of Chicago, 1970.

— Philipp, Thomas. "The Role of Jurji Zaydan in the Intellectual Development of the Arab Nahda From the Beginning of the British Occupation of Egypt to the Outbreak of World War I. "Ph.D. dissertation, University of California at Los Angeles, 1971.

— Verdery, Richard. "Abd al-Rahman al-Jabarti as a source for Muhammad Ali's Early Years in Egypt (1801-1821) "Ph.D. dissertation, Princeton University, 1967.

٢ ـ مصادر اضافية اعتمد عليها المترجم

(أ) كتب بالعـــربية :

ـــ أحمــد شلبي عبد الغني :

(أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات) تقديم وضبط وتصحيح عبد الرحيــم عبد الرحمن عبـــد الرحيم · مكتبـــة الخـــانجي ــ القـــاهرة ١٩٧٨ ·

ـــ أحمـــــد طـــربين :

(التاريخ والمؤرخون العرب فى العصر الحديث ، دراسة عن حركة التأليف التاريخى فى أقطار الوطن العربى) · مطبعة الانشاء ، دمشـــــق ١٩٧٠ ·

ـــ جمـــال الدين الشـــيال :

(التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر) ــ المكتبـــة التاريخية ــ القاهرة ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ·

ـــ جــــورجى زيـــدان :

(كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامى الى الآن مع فذلكة فى تاريخ مصر القديم) الجزء الأول ــ الطبعة الثانية ــ مطبعة الهلال بالفجـــالة بمصر ١٩١١ ·

ـــ دانيال كريسيليوس :

(جذور مصر الحديثة) · ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر ــ مكتبة نهضة الشرق ــ جامعة القاهرة ــ القاهرة ١٩٨٥ ·

ـــ دانيال كريسيليوس وعبد الوهاب بكر :

(صفحات من تاريخ مصر العثمانية فى القـــرن الثـــامن عشر ــ مخطوطة الدرة المصانة فى أخبار الكنانة للامير أحمد الدمرداش كتخــــدا عزبان ــ دار الزهراء للنشر ــ القاهرة ١٩٩٢ ·

ـــ رفاعة رافع الطهطاوى :

(مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) · الطبعة الثانية ــ مطبعة شركة الرغائب القـــاهرة ١٩١٢ ·

— رمزى تادرس :

(الأقباط فى القرن العشرين) الجزء الرابع ـ طبع فى جريدة مصر ـ القاهرة ١٩١٠ .

— سمير محمد طه :

(على مبارك وأثره فى الحياة الفكرية والسياسية فى مصر فى القرن التاسع عشر) . مكتبة سعيد رأفت ـ جامعة عين شمس ـ القاهرة ١٩٨٥ .

— عبد الرحمن الجبرتى :

دراسات وبحوث ـ المكتبة العربية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٦ .

— عبد الرحمن الرافعي :

(تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر) ـ الجزء الثالث ـ عصر محمد على ـ مطبعة النهضة ـ القاهرة ١٩٣٠ .

— ———— :

(عصر اسماعيل) الجزء الثانى ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٤٨ .

— (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للعلامة المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى) تحقيق وشرح الأساتذة حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقى ، السيد ابراهيم سالم . الجزء الخامس . الطبعة الأولى لجنة البيان العربى ـ القاهرة ١٩٦٦ .

— على محمد بركات :

(تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣ ـ ١٩١٤ وأثره على الحركة السياسية) . دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ١٩٧٧ .

— محمد قنديل البقلى :

(المختار من تاريخ الجبرتى) ـ كتاب الشعب ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ـ مطابع الشعب ـ القاهرة ١٩٥٨ .

(ب) مقالات بالعربية :

— محمود صالح منسى :

(اتباع سان سيمون ونشاطهم فى مصر ١٨٣٢ ـ ١٨٣٦) . المجلة المصرية للدراسات التاريخية ١٧ ـ ١٩٦٥ .

(ج) أعمال غير منشـــورة :

— مجـــدى بكـــر :

(ابراهيم شناسى افندى ، حياته وآثاره) رســـالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ـ ١٩٧٦ .

د ـ مؤلفات بلغات أجنبية

- Al-Damurdashi's Chronirle of Egypt 1688-1755. Al-Ddrra al-Musana Fi Akhbar al-Kinana — Translated and annotated by Daniel Crecelius and Abd al-Wahhab Bakr. E. J. Brill — Leiden, 1991.

— Larousse Universel-Tom Second — Paris, Librairie Larousse — 1923.

— Lexicon Universal Encyclopedia — published by Lexicon Publications, Inc., 1983. New N.Y. N.Y. — Vol. 1, 2, 3, 4, 5, 6, 9, 10,

— Redhouse Turkish & English Lexicon. New edition. printed for the American Mission by A. H. Boyajian. Constantinople, 1890.

— Seyid Kemal Kara Ali. "Turk edebiyat Tarihi." Inkilap Ve Aka Kitableri, Istanbul, 1978.

— Stanford Shaw & Ezel Kural Shaw. "History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, II. Reform, Revolution, and Republic : 1808-1975. Cambridge University Press, 1978.

— Stanford Shaw. "The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798." Princeton University press, 1962.



الفهـرس



● ● كتب صدرت عن مشروع الألف كتاب (الثانى)

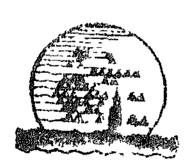
اسـم الكتاب	المؤلف
١ ـ أحلام الأعلام وقصص أخرى	برتراند رسل
٢ ـ الألكترونيات والحياة الحديثة	ي · رادونسكايا ·
٣ ـ نقطة مقابل نقطة	ألدس هكسلى ·
٤ ـ الجغرافيا فى مائة عام	ت · و · فريمان
٥ ـ الثقـافة والمجتمـع	رايموند ولیامز
٦ ـ تاريخ العـلم والتكنولوجيا · ج ٢ · القرن الثامن عشر والتاسع عشر	ر · ج · فوربس
٧ ـ الأرض الغامضـة	ليستر ديل راى
٨ ـ الرواية الانجليزية	والتر ألن
٩ ـ المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
١٠ ـ آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
١١ ـ الانسان المصرى على الشاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
١٢ ـ القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	أولج فولكف
١٣ ـ الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
١٤ ـ مجمـوعات النقـود صيانتها ·· تصنيفها ·· عرضها	ديفيد وليام ماكدونالد
١٥ .. الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشوان
١٦ ـ عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د · محسن جاسم الموسوى
١٧ ـ ديلان توماس	اشرف س · بى كوكس
١٨ ـ الانسان ذلك الانسان الفريد	جون لويس
١٩ ـ الرواية الحديثة · الانجليزية ـ والفرنسية ج ١	بول ويست
٢٠ ـ المسرح المصرى المعاصر · أصله وبدايته	د · عبد المعطى شعراوى
٢١ ـ على محمود طه · الشاعر والانسان	أنور المعداوى
٢٢ ـ القوة النفسية للأهرام	بيل شول وأدنبيت
٢٣ ـ فن الترجمـة	د · صفاء خلوصى

اسم الكتاب	المؤلف
٢٤ ـ تولستوى	رالف ئى ماتلو
٢٥ ـ ستندال	فيكتور برومبير
٢٦ ـ رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
٢٧ ـ الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
٢٨ ـ التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
٢٩ ـ فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع أدنيكوف
٣٠ ـ أدب الأطفال ٠ (فلسفته ـ فنونه ـ وسائطه)	هادى نعمان الهيتى
٣١ ـ أحمد حسن الزيات ٠ كاتبا وناقدا	د ٠ نعمة رحيم العزاوى
٣٢ ـ أعلام العرب فى الكيمياء	د ٠ فاضل أحمد الطائى
٣٣ ـ فكرة المسرح	ورنسيس فرجون
٣٤ ـ الجحيم	هنرى باربوس
٣٥ ـ صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة	السيد عليوة
٣٦ ـ التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)	جوكوب برونوفسكى
٣٧ ـ هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د ٠ روجر ستروجان
٣٨ ـ تربية الدواجن	كاتى ثير
٣٩ ـ الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
٤٠ ـ النحل والطب	د ٠ ناعوم بيتروفيتش
٤١ ـ سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
٤٢ ـ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
٤٣ ـ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د ٠ جون شندلر
٤٤ ـ الصحافة	بيير البير
٤٥ ـ أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
٤٦ ـ الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د ٠ رمسيس عوض
٤٧ ـ حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د ٠ محمد نعمان جلال
٤٨ ـ الفكر الأوروبى الحديث جـ١	فرانكلين ل ٠ باومر

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٤٩ ـ الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعي
٥٠ ـ التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د · محيي الدين أحمد حسين
٥١ ـ نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج· دادلي اندرو
٥٢ ـ مختارات من الأدب القصصي	جوزيف كونراد
٥٣ ـ الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد ؟	د · جوهان دورشنر
٥٤ ـ حرب الفضاء (دراسة تحليلية لأسلحة واستراتيجيات حرب الفضاء)	طائفة من العلماء الأمريكيين
٥٥ ـ ادارة الصراعات الدولية (دراسة في سياسات التعاون الدولي)	د · السيد عليوة
٥٦ ـ الميكروكمبيوتر	د · مصطفى عناني
٥٧ ـ مختارات من الأدب الياباني (الشعر ـ الدراما ـ الحكاية ـ القصة القصيرة)	صبري الفضل
٥٨ ـ الفكر الأوروبي الحديث · ج ٢ (الاتصال والتغير في الأفكار) من ١٦٠٠ ـ ١٩٥٠	فرانكلين ل · باومر
٥٩ ـ تاريخ ملكية الاراضي في مصر الحديثة	جابرييل باير
٦٠ ـ أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطوني دي كرسبني وكينيث مينوج
٦١ ـ الفكر الأوروبي الحديث · ج ٣	فرانكلين ل · باومر
٦٢ ـ كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
٦٣ ـ الزمن وقياسه	زاكيلسكي ف · س
٦٤ ـ أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوي
٦٥ ـ الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي	بيتر رداي
٦٦ ـ سبعة مؤرخين في العصور الوسطى ·	جوزيف داهموس
٦٧ ـ التجربة اليونانية	س· م بورا
٦٨ ـ مراكز الصناعة في مصر الاسلامية	د· عاصم محمد رزق
٦٩ ـ العلم والطلاب والمدارس	رونالد د· سمبسون و نورمان د· أندرسون
٧٠ ـ الشارع المصري والفكر ·	د· أنور عبد الملك

٩٩ ـ الارهـــــاب	اريك موريس ، وآلان هو
١٠٠ـ أخنـــاتون	ســـيريل الدريد
١٠١ـ القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
١٠٢ـ الفلسفة وقضايا العصر جـ ٣	جمعها : جون ر· بورر وميلتون جولدينجر
١٠٣ـ العــلم والتكنولوجيا	ر·ج· فوبس ،
١٠٤ ـ الأساطير الاغريقية	ا·ج· ديكسترهوز كوفلان
١٠٥ـ التوافق النفسى	توماس آ· هاريس
١٠٦ـ الدليل الببليوجرافى	
١٠٧ـ لغة الصورة	روى أرمز
١٠٨ـ الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجـــاى متشيو
١٠٩ـ العالم الثالث غدا	بول هاريسون
١١٠ ـ الانقراض الـكبير	ميكائيل ألبى جيمس لفلوك
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
تاريخ النقـود	فيكتور مورجان
صناع الخلود	موريس بيربراير
الشاهنامه جـ١	الفردوس الطوسى
الشاهنامه جـ٢	الفردوس الطوسى
قيام الدولة الثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
العثمانيون فى أوربا	بول كونر





مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٧٠٠/١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3298 — 5





هذا الكتاب دراسة مفصلة جيدة التوثيق لكيفية تغريب مصر منذ الحملة الفرنسية حتى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢
ومن القضايا التى تناولها التاريخ التقليدى فى مواجهة التاريخ الحديث ، التاريخ الغربى فى مواجهة التاريخ الاسلامى ، التاريخ المنحاز فى مواجهة التاريخ التفسيرى ، الحماس الوطنى فى مواجهة الموضوعية فى التاريخ
والمؤلف يناقش كل مؤرخ هنا باعتباره شخصية متعددة المظاهر ، فينسم الحيوية فى عمله ، وما احتواه من ثروة من التفاصيل الممتعة لكل مظاهر المجتمع المصرى ، وباعتباره متحدثا باسم جيل المثقفين المصريين كلهم
وبكلمات أخرى فان الكاتب يعامل ، التاريخ كأداة للوصول إلى التغيير الثقافى والفكرى فى مصر
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
٤٠٠ قرش